





## عناصر الموضوع


| | |
|---|---|
| مفهوم المجتمع | ٨ |
| ألفاظ ذات صلة | ٩ |
| سمات المجتمع المسلم | ١١ |
| التحديات التي تواجه المجتمع المسلم | ٤٦ |


المجلد الثلاثون

# مفهوم المجتمع

## أولًا: المعنى اللغوي:

لفظة المجتمع مشتقة من الفعل: جمع، قال ابن فارس: «الجيم والميم والعين أصلٌ واحد يدل على تضام الشيء»[1].

والجمع بمعنى: ضم الشيء بعضه لبعض بعد تفرقة، يقال: جمع الشيء يجمعه جمعًا، وجمعه وأجمعه فاجتمع وتجمع واستجمع، ومن ذلك: المجموع، وهو الذي جمع من هاهنا وهاهنا، وإن لم يجعل كالشيء الواحد، واستجمع السيل: اجتمع من كل موضع، وتجمع القوم: اجتمعوا من هاهنا وهاهنا، والجماع: أخلاطٌ من الناس، وقيل: هم الضروب المتفرقون من الناس[2].

وجماع الناس: أخلاطهم من قبائل شتى، ومن كل شيءٍ، وكل ما تجمع وانضم بعضه إلى بعضٍ يقال له: جماعٌ[3].

والمجتمع: «موضع الاجتماع، والجماعة من الناس»[4].

## ثانيًا: المجتمع في الاصطلاح:

وضع العلماء المختصون بعلم الاجتماع عدة تعريفات للمجتمع، وكلها تعريفات متشابهة ومتقاربة، من هذه التعريفات تعريف المجتمع بأنه: «كل مجموعة أفراد تربطهم رابطةٌ ما، معروفةٌ لديهم، ولها أثرٌ دائمٌ أو مؤقتٌ في حياتهم، وفي علاقاتهم مع بعض»[5].

ويعرف المجتمع المسلم بأنه: «خلائق مسلمون في أرضهم مستقرون، تجمعهم رابطة الإسلام، وتدار أمورهم في ضوء تشريعاتٍ إسلامية وأحكام، ويرعى شؤونهم ولاة أمر منهم وحكام»[6].

(١) مقاييس اللغة ١/ ٤٢٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٧٨.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٧، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٤٥٤.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٣٦.
(٥) علم الاجتماع، علي عبد الواحد وافي ص١٦.
(٦) الإسلام وبناء المجتمع، حسن أبو غدة وآخرون ص٣.

## ألفاظ ذات صلة

### ١ القرية:

**القرية لغة:**

هي البلد المسكون؛ مأخوذة، من القري، وهو التجمع، وسميت البلاد المسكونة قرية؛ لتجمع الناس بها[١].

**القرية اصطلاحًا:**

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للقرية عن المعنى اللغوي؛ إذ القرية في الاصطلاح «اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس»[٢]، وهي مكونة من المساكن والأبنية والضياع، وقد تطلق القرية على المدن [٣].

**الفرق بين القرية والمجتمع:**

من خلال التأمل في تعريف القرية وتعريف المجتمع نلاحظ أن الكلمتين قريبتان في المعنى والمدلول؛ حيث إن كلتيهما تدل على مجموعة الناس المجتمعين في مكان واحد، وتجمعهم روابط مشتركة ولكن لفظ المجتمع يستعمل للدلالة على الناس المقيمين في مكان معين، أما لفظ القرية فيغلب استعماله للدلالة على المكان الذي يجتمع فيه الناس.

### ٢ القبيلة:

**القبيلة لغة:**

يطلق لفظ القبيلة على الجماعة من الناس الذين يتسبون إلى أبٍ واحدٍ أو جدٍّ واحدٍ[٤].

**القبيلة اصطلاحًا:**

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ هي «الجماعة المجتمعة من الناس التي يقبل بعضها على بعض»[٥].

**الفرق بين القبيلة والمجتمع:**

من خلال التعريفات السابقة لكلٍ من القبيلة والمجتمع نلحظ أن اللفظين قريبان جدًا

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٠٢.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٥٦.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩٢.

في المعنى الذي يدل عليه كل منهما؛ فكلاهما يدل على مجموعة الناس الذين بينهم روابط مشتركة، إلا أن لفظ القبيلة يغلب استعماله على من كان بينهم رابطة النسب، وكانوا منسوبين لرجلٍ واحدٍ، أما لفظ المجتمع فإنه يدل على مجموعة الناس الذين بينهم روابط معينة؛ قد تكون روابط نسب، وقد تكون روابط الدين والملة، وقد تكون روابط أخرى، وبذلك فلفظ المجتمع أعم من لفظ القبيلة وأشمل منه.

## ٣ الشعب:

### الشعب لغة:

يطلق لفظ الشعب على القبيلة العظيمة، أو الحي العظيم الذي يتشعب من القبيلة، وقيل: هو القبيلة نفسها. والجمع: شعوبٌ[١]، وذكر بعض اللغويين أن الشعب هو الجماعة الكبيرة التي ترجع لأبٍ واحدٍ، وتخضع لنظام اجتماعي واحد، وتتكلم لسانًا واحدًا، وهو أوسع من القبيلة[٢].

### الشعب اصطلاحًا:

لا يختلف التعريف الاصطلاحي للشعب عن التعريف اللغوي له؛ إذ الشعب في الاصطلاح: «القبيلة المتشعبة من حيٍ واحدٍ»[٣].

### الفرق بين الشعب والمجتمع:

نلاحظ أن الفرق بين الشعب والمجتمع هو نفس الفرق بين القبيلة والمجتمع؛ وذلك لأن لفظ الشعب يدل على القبيلة الكبيرة، وهم جماعة الناس الذين يربطهم نسبهم لأبٍ واحدٍ، أو جدٍ واحدٍ؛ وعلى ذلك فلفظ المجتمع أعم من لفظ الشعب.

فالمجتمع والقبيلة والشعب ألفاظٌ مترادفةٌ، إلا أن لفظ المجتمع أعم من اللفظين الآخرين، وأوسع دلالةً منهما؛ إذ الناس في القبيلة الواحدة أو في الشعب الواحد يغلب أن يكون الرابط بينهم رابط نسب وقرابة، أما الناس في المجتمع الواحد فقد يكون الرابط بينهم رابط نسب وقرابة، وقد يكون رابط دين وملة، أو يكون رابطًا سياسيًا أو قوميًا أو غير ذلك.

أما القرية فيغلب استعماله للدلالة على المكان الذي يجتمع فيه الناس.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٨٣.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٦١.



## سمات المجتمع المسلم

١ . مجتمعٌ متميزٌ.

المجتمع المسلم مجتمعٌ متميزٌ؛ لأنه قام على شريعة ربانية نشأ وتدرج عليها، فكانت هي الحاكمة والراعية له منذ أن قام، بل مهدت لقيامه قبل أن يقوم، شريعةٌ أوجدت مجتمعًا، وليس مجتمعا شكل قوانين أو دساتير وفق الأحداث أو استجابة لطائفة أو تحت ضغوط من جهة أو تحقيقًا لمصالح طبقة معينة، أو لتلبية حاجات موقوتة، بل جاءت الشريعة بالخير للجميع والعدل للجميع والمصلحة للجميع، في ظل هذه الشريعة قام المجتمع المسلم وتطور، وعلى ضوئها يتجدد وفق أصول ثابتة وفروع متنوعة واجتهادات متجددة، تحافظ على طابع هذا المجتمع وهويته الإسلامية.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالخاصية الرئيسة التي تفرد بها المجتمع المسلم عن سائر المجتمعات أنه مجتمعٌ رباني برز إلى الوجود، والتعبير بقوله: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يدل دلالةً واضحةً على حقيقة نشأة هذه الأمة، وحقيقة النظام الذي يقوم عليه وجودها، «فهي أمة مخرجة إخراجًا، وفق نموذج معين، يحققه نظام معين، وهي لم تخرج نفسها وفق نموذج من تصوراتها العقلية، أو ضروروتها، إنما وضع لها نظامها من لدن خالقها، وأخرجت للناس على وفقه إخراجًا ربانيًّا»[(١)].

وتدبر قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تلحظ أن خير هذه الأمة ليس حكرًا عليها وحدها، بل يجب أن يعم هذا الخير؛ لينعم به سائر الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خير الناس للناس»[(٢)].

٢ . مجتمع بشريٌ.

المجتمع المسلم ليس مجتمعًا ملائكيًا معصومًا من الخطأ، بل هو مجتمعٌ بشريٌ واقعيٌ، فواقع المجتمع الإسلامي الذي أوجده الإسلام مع تميزه في المعالم والحضارة والشخصية إلا أنه قد لا يخلو من وجود عصاة أو بغاة أو منافقين أو أصحاب بدع وأهواء أو سراق ولصوص وقطاع طرق، ولكن العبرة بسيادة الشريعة وغلبة أهل الحق وكثرة الصالحين وتمكن الدين

(١) نحو مجتمع مسلم، سيد قطب ص ١٣٧.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٧٢٦، وعزاه لابن المنذر.

وهيمنته على النظم والأحكام والأعراف والتقاليد[1].

والله سبحانه وتعالى الذي شرع للمجتمع المسلم ما يصونه ويرقى به هو تعالى أعلم بطبيعة النفس والمجتمع، أعلم بما يصلح البشر ويناسب بشريتهم.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٦ -٢٨].

ولقد حذر الله البشرية من عدوها الذي يتربص بها ويكيد لها ويستدرجها بحبائله ومكائده إلى الرذيلة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١].

والتزكية لا يدركها الإنسان بنفسه فحسب، ولا يحصلها بسعيه المجرد، وإنما هي توفيقٌ من الله وعصمة وفضل منه ورحمة، ومن ثم فالمؤمن يستعين بربه دائمًا أن يحصنه وأن يزكيه.

٣. مجتمعٌ قائمٌ على أسس متينة.

ومن تلك الأسس:

**١. العقيدة الصحيحة.**

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة: ١٠٨-١٠٩].

فالبناء إن لم يعتمد على أسس متينة وقواعد ثابتة لا يمكث طويلًا بل سرعان ما ينهار، وتقوى الله سبحانه وتعالى هي لب العقيدة الإسلامية وجوهرها، والسعي لرضوان الله هي غاية الغايات وأسمى الأمنيات، فالعقيدة هي الأساس المتين، والسراج المبين، والسياج الحصين للمجتمع المسلم، لقد نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة يعلم الناس العقيدة وأصول الشرائع ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وينشئ الجماعة المسلمة التي ستكون نواةً لتشييد أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة بعد الهجرة المباركة، ثلاث عشرة سنة في إرساء قواعد بناء المجتمع المسلم، تعليم الصحابة

(١) انظر: المجتمع المتكافل في الإسلام، عبد العزيز الخياط ص ٦.

معنى لا إله إلا الله، لا رب غيره ولا معبود سواه، ولا حكم إلا له، ولا عون إلا منه، ولا حول ولا قوة إلا به، لا إله إلا الله: تحرير الإنسان من الخضوع والاستسلام لغير الله سبحانه وتعالى والاحتكام إلى غير شرعه، لا إله إلا الله: اجتماع القلب على محبة الله وتعظيمه وموالاته وطاعته، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة من يعلم المجتمع المدني الناشئ العقيدة ويقرئهم القرآن، ثم كانت الهجرة النبوية؛ لتشكيل هذا المجتمع الجديد وإخراجه وفق شرع الله.

وتوحيد الله سبحانه وتعالى ومعرفته هو النور الذي يمحو كل ظلمة، والحق الذي يفند كل شبهة، والحقيقة التي تبدد الأوهام والأساطير والخرافات، التي تستبد بكثير من الناس وتستهويهم وتطاردهم، فتنكد عيشهم وتكدر صفوهم، وتضيق معايشهم، وتثقل كاهلهم، وتسقم نفوسهم، وتحير عقولهم، وتبلبل أفكارهم، وتفرقهم شيعًا، مع انقباض الصدور ووحشة القلوب، أما عقيدة التوحيد: فإنها تجمع القلوب وتشرح الصدور، وتؤلف النفوس وتنير العقول وتشحذ الهمم، وتسمو بالأرواح وتنهض بالمجتمعات.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الجهل والأوهام إلى نور العلم، من ظلمات الشك والحيرة إلى نور اليقين.

كل مجتمع له رسالة تجمعه ورؤية توحده، وعقيدة التوحيد هي رسالة المجتمع المسلم ورؤيته وشعاره وكلمته الجامعة، رسالة المجتمع المسلم السامية، توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة التي هي غاية خلق الإنسان، والسعي إلى إرضائه جل جلاله، ورؤيته التي ينظر بها لهذا الكون وللحياة ويمشي بها في الناس، وشعاره الذي يتمثله ويستحضره ويهتف به ويحيا له ويتوحد عليه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والإيمان يغرس بذور المراقبة، ويروي شجرة التقوى في الأفئدة، ويزرع المحبة

والألفة في القلوب، ويوقد سراج المعرفة في العقول، ويقدح زناد الهمة ومشاعل التنافس إلى الخيرات في المجتمعات، وهو أقوى الروابط بين القلوب وأوثق العرى بين النفوس.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٣].

والإيمان بأن هناك يومًا يفصل الله فيه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، يقتص للمظلوم من الظالم، ويحاسب الحاكم، ويسأل الراعي والمؤتمن، ويجازي المبتلى، ويكافئ الصابر والمحتسب، ويثيب المطيع ويعاقب العاصي، وينتقم من الطغاة والمجرمين، الإيمان بهذا اليوم العظيم واستذكاره مما ينير الطريق ويقوم السلوك، ويثبت الخائف ويسلي المبتلى، ويجلي الأحزان، ويهدي الحيران، ويهذب النفوس، ويداوي القلوب، ويطهر المجتمعات من الآفات، ويضبط المعاملات، ويقيم ميزان العدل، ويرسخ القيم، ويوحد الغايات.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

فالإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله مما يحفز على الجد في العبادة والمسارعة إليها والنهوض لأدائها.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المطففين: ١ - ٦].

فالإيمان بيوم البعث يدفع لمراقبة الله، ومحاسبة النفس، ورعاية الحقوق والوفاء بها مع أداء الواجبات.

والإيمان بالكتب والرسل: فالكتب هي الميزان والمنهاج، والشرعة والسراج، لا تستقيم الحياة ولا تقوم للمجتمعات قائمة بدون منهج رباني يقيمها، ونجوم هدًى تقودها، وأسوةٍ حسنة تتأسى بها، وسننٍ قويم ترسمه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥].

والإيمان يقتلع جذور اليأس وأسباب القلق والهموم، ويبدد المخاوف، ويذهب الأحزان، ويغرس الأمل في القلوب

والمحبة والوئام بين الناس، مما يطهر المجتمع من الأحقاد والضغائن التي تفضي إلى الجرائم، ويطهر أفراده من الأمراض والعقد النفسية التي ابتليت بها المجتمعات المحرومة من الإيمان.

قال تعالى مخبرًا عن قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧].

وهذا يعني أن المؤمن متفائلٌ طموحٌ مستبشرٌ مؤملٌ في روح الله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم: ٩٦].

أي: مودة في قلوب العباد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وعدهم الله سبحانه وتعالى بالأمن والسعادة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾[محمد: ٢].

أصلح أحوالهم وشؤونهم وأمورهم، والأمن والطمأنينة وصلاح البال من ثمرات الإيمان وعمل الصالحات.

والإيمان من أسباب الهداية والتوفيق والسداد في أمور الدنيا والدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس: ٩].

والمجتمع المؤمن هو خير المجتمعات على الإطلاق إذا كان متمسكًا بإيمانه متوجًا له بالأعمال الصالحات، فهو الأفضل على الإطلاق، وهذا الأمر ملحوظٌ وملموسٌ؛ فالمجتمعات المؤمنة يغلب عليها الطهر والعفاف، والتكافل والتراحم والصدق والأمانة، والتنافس في الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٧-٨].

بإيمانهم وصلاحهم بلغوا أسمى المراتب في الدارين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتعجبون من منزلة الملائكة من الله؟ والذي نفسي بيده، لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملكٍ، واقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾»[1].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٢/ ٤٣٧.

وحياة الأنبياء والمرسلين حافلة بالمواعظ والدروس والعبر والفوائد التي يجب الوقوف عندها والاقتطاف منها في حياتنا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

٢. الشريعة.

وهي السياج الذي يحمي المجتمع المسلم ويقيمه وينظم شؤونه، ويعالج مشكلاته، ويقدم الحلول الحاسمة لأزماته، ويقوي روابطه، ويدعم وحدته، ويقوي دعائمه ويوثق وشائجه، والشريعة تشمل العبادات والمعاملات، العبادات: وهي محور حياة المجتمع المسلم وأساس تكوينه، ونبراس سبيله، وهي الزاد الذي يتزود به، والوقود الذي يتحرك به وينطلق به نحو المعالي ويحلق به في أجواء الفضيلة، والمنهج الذي يرقى به وينهض، به تزكو النفوس، وتتوقد القرائح، وتنبعث الهمم، هي المنظم لسلوك الإنسان، والعلاج لما قد يصيبه من خلل أو يعتريه من علل، فالصلاة مدرسةٌ وجامعةٌ ومستشفى ومنتدى ورابطة؛ فيها شفاء الأرواح، ورياضة الأبدان، وجمع القلب، وتزكية النفس.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والصوم شفاء للأبدان وصفاءٌ للأرواح، وهو عبادةٌ جماعية، فيها توحيدٌ للمشاعر، وبها يعطف الغني على الفقير والكبير على الصغير، وختامها عيدٌ سعيدٌ يجدد الروابط ويقوي الصلات بين أفراد المجتمع.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

والحج عبادةٌ جماعية فيها شفاء للأرواح والأبدان، واجتماعٌ على الذكر والعبادة، وتحقيق للمصالح وتحصيل للمنافع،

وتزكيةٌ للنفوس، وحفزٌ للهمم، وتواصلٌ بين الأمم والشعوب، وثقافة ومعرفة، وسياحةٌ وتنميةٌ لاقتصاد الفرد والمجتمع.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ١٩٧].

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[الحج: ٢٧-٢٨].

والزكاة طهرٌ للمال ولنفوس الأغنياء من الأنانية والشح والأثرة والجشع، ولنفوس الفقراء من الحسد والحقد والطمع.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٣].

وفيها بركةٌ ونماءٌ للمجتمع، وتنميةٌ للاقتصاد.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾

[الروم: ٣٩].

والجهاد سياجٌ للمجتمع، وحمايةٌ له من المخاطر الخارجية، وتحقيقٌ لأمنه، وحمايةٌ لممتلكاته، وسببٌ للحياة الكريمة الأبية للشعوب والمجتمعات.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦ ].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٢٤ ].

إذا دعاكم للجهاد ففيه حياةٌ للنفوس.

عن عروة بن الزبير: «إذا دعاكم لما يحييكم»، أي: «الحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم»[(١)].

٣. القيم والأخلاق والآداب.

من ركائز المجتمع المسلم ومن سماته تلك القيم والأخلاق والآداب، التي تكتنفه وتحيط به إحاطة السوار بالمعصم والأسوار للبستان، والفناء بالبيت، فتصونه وتزينه، وترقى به، قيم ثابتة راسخة وأخلاق طيبة، وآداب ساميةٌ كريمة، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ في مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، بل وحذر القرآن من مساوئ الأخلاق وسيئ العادات، وما من خلقٍ كريمٍ إلا وفي القرآن الكريم صورٌ عمليةٌ له، وما من خلقٍ ذمه القرآن إلا وذكر نماذج له، والأنبياء -عليهم السلام- هم الأسوة

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٥٣.

الحسنة والقدوة الطيبة لمكارم الأخلاق، وفي مقدمتهم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الذي بين القرآن جميل خلقه على وجه الإجمال والتفصيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

وقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

[آل عمران: ١٥٩].

وقال جل وعلا عن أنبيائه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ٩٠].

ولقد سجل القرآن صفحات مشرقة تحكي أخلاق الأنبياء ودعوتهم لمكارم الأخلاق، وكذلك أخلاق بعض الصالحين ووصاياهم؛ لتبقى للمجتمع نماذج يستضيء بها وأسوة يحتذى حذوها.

٤. مجتمع عادل.

من سمات المجتمع الذي يقيمه الإسلام أنه مجتمع عادل، يحقق العدالة بين جميع أفراده دون تفريق بين أحدٍ، فالعدالة سياجه وميزانه، وهي ضرورة لقيام المجتمع المسلم واستقراره، العدالة بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وغير المسلم، العدالة بين الغني والفقير، وبين الصغير والكبير، وبين القوي والضعيف، وبين الذكر والأنثى، وبين الحاكم والمحكوم.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩].

فالعدالة أمر من الله، يجب أن تحكم وتسود.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

والمؤمن إيجابيٌّ يسعى للحق، نفاعٌ لنفسه ولغيره، ليس كلًّا على أحد، الأمر بالعدل ديدنه وهجيراه، ولقد فرق القرآن بين المسلم المطيع لربه الفعال النافع لمجتمعه وبين العاجز المتواني الذي يشكل عبئًا على عشيرته ومجتمعه.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ٧٦].

وفي آية جامعة يأمر عز وجل بإقامة موازين العدل وبسط راحتي الإحسان، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

تلك العدالة التي لا ينبغي أن يصرف عنها صارفٌ أو يحول دونها حائل، ولا يؤثر عليها تحيزٌ أو ضغطٌ من قرابة أو بعد، أو محبة أو بغض، أو مصلحة أو هوى نفس، أو تعصب لطائفة أو جماعة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فعلى كل مؤمن أن يستشعر مسئوليته وواجبه نحو إقامة العدل ومراقبته والدعوة إليه والإذعان له والرضا به.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

«فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير قواعده المودة والشنآن، العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ولا بالتباغض بين الأقوام؛ فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعًا، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب ولا مال ولا جاه، كما تتمتع به الأقوام الأخرى، ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن، وتلك قمة في العدل لا يبلغها أي قانون دولي حتى هذه اللحظة»[(١)].

ومن أبرز أنواع العدل الذي أكده صلى الله عليه وسلم العدل في توزيع الثروات، وإتاحة الفرصة المتكافئة لأبناء الأمة الواحدة، وإعطاء العاملين ثمرة أعمالهم وجهودهم دون بخسٍ أو مماطلةٍ، فإن ذلك مما يقرب الفوارق البعيدة بين الأغنياء والفقراء، ويرفع من مستوى الفقراء، وهذا مقصدٌ من مقاصد الإسلام، سعى لتحقيقه كما في قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

والـ﴿دُولَةً﴾: ما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال، فيكون في يد هذا تارة، وفي يد ذاك تارة أخرى، ومعنى الآية: كي لا يكون الفيء دولة بين الرؤساء والأقوياء والأغنياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، فشرع الله ذلك؛ لينال الفقراء منه حظوظهم، فلا يكون دولة بين طائفة الأغنياء وحدهم،

(١) نحو مجتمع مسلم، سيد قطب ص ١٢٨.

فيحدث الخلل في المجتمع كما هو الحال في الأنظمة الرأسمالية التي يزداد الغني فيها غنًى فاحشًا، بينما يزداد الفقير فيها فقرًا وعوزًا، مما ينذر بأخطارٍ تحدق بالمجتمعات، وبما يزيد من معدلات الجريمة بسبب الأنانية والجشع والحسد والطمع.

٥. مجتمع متراحم.

المجتمع المسلم مجتمع الرحمة وأهلها، يتراحم أفراده فيما بينهم، فيرحم القوي الضعيف، ويعطف الغني على الفقير، ويشفق الراعي على رعيته، وتنتشر الرحمة حتى بالحيوان، هذه الرحمات التي تملأ أجواء المجتمع المسلم عبقًا وندى، مستمدة من رحمة الله سبحانه وتعالى التي وسعت كل شيء، فهو تعالى الرحمن الرحيم، يرحم عباده الرحماء.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦].

ونشر الرحمة وغرس أصولها وتحصيلها عنوان رسالة الإسلام ومقصودها.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

فقد بعث نبينا صلى الله عليه وسلم بأسباب الإصلاح والإسعاد، ومنارات الهدى وسبل الرشاد، ونسائم الرحمات، ومفاتح البركات.

والتراحم بين المؤمنين من أخص خصائصهم.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا على الكفار رحيمًا برًا بالأخيار، صلبًا في وجه الكافر ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن.

والصفة التي تغلب على هذا المجتمع ويعرف بها في الناس أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار الذين يحادون الله ورسوله، فلا يكون بينه وبين الكافرين ولاء أو مودة يجار فيها على دين الله أو ينتقص بها حقٌّ من حقوق المسلمين، هذا حالهم مع أعداء الله، أما هم فيما بينهم فهم رحماء، تفيض قلوبهم حنانًا ورحمة ومودة، تجمعهم أخوة بارة في الله، وفي دين الله[(١)].

«وفي الآية صورة رائعة لما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورع وتقوى وعبادة وأخلاق كريمة سمحاء فيما بينهم، مع الشدة والقوة و البسالة بالنسبة لأعدائهم، ومثل هذه الصورة تكررت في سور عديدة مكية ومدنية، مما فيه دلالة على ما كان من أثر دعوة الله وقرآنه ونبيه في هذه الفئة التي صارت بذلك مثالًا

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ٢٠.

نموذجًا خالدًا»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمن صفات هذا الجيل المنشود الذي تحقق على يديه الانتصارات والفتوحات محبة الله سبحانه وتعالى، واللين والتسامح مع المؤمنين، والشدة والصلابة مع الكفار، تلك المعادلة الصعبة التي تحتاج لتربيةٍ راشدة، وضبط نفسٍ وفهم مستنير.

قال ابن عاشور[2]: «وهو الذي يكون في كل حالٍ بما يلائم ذلك الحال، قال[3]:

حليمٌ إذا ما الحلم زين أهله
مع الحلم في عين العدو مهيب»

«وإنما تعدى (أذلة) بـ(على)؛ لأنه تضمن معنى العطف والحنو»[4].

«ووقع الوصف في جانب التواضع للمؤمنين والغلظة على الكافرين بالاسم الدال على المبالغة؛ دلالة على ثبوت ذلك واستقراره، وأنه عزيزٌ فيهم، والاسم يدل على الثبوت والاستقرار»[5].

وقال تعالى عن المجتمع المؤمن: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧-١٨].

والتواصي بالمرحمة منقبةٌ عظيمة وفضيلةٌ جليلةٌ، ولا يوصي بالمرحمة إلا من عرفها وألفها وقام بها، ومجتمعٌ هذا شأنه لن تجد فيه شقيًا ولا محرومًا.

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله: «وبهذه الوصايا الثلاث: بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل، قوامه الفضائل المثلى والقيم الفضلى؛ لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق والاستقامة على الطريق المستقيم، وبالتواصي بالصبر يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط ويتخطون كل عقباتٍ تواجههم، وبالتواصي بالمرحمة يكونون مرتبطين كالجسد الواحد، وتلك أعطياتٌ لم يعطها إلا القرآن»[6].

«والتواصي بالصبر والمرحمة هو إلحاح المرء على نفسه بالدعوة إليهما والتمسك بهما، فإذا جزع في مواجهة مالٍ يخرج من يده حمل نفسه على الصبر على ما تكره، واستدعى من مشاعره دواعي الحنان والرحمة، فذلك مما يعينه على مغالبة أهوائه وقهر شحه وبخله، ثم لا يقف المرء عند هذا، بل ينبغي أن يكون هو داعية إلى الصبر

(١) التفسير الحديث، محمد عزت ٨/ ٦١٧ باختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٣٨.
(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي كما في نهاية الأرب في فنون الأدب ٧/ ١٣١.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣١٩.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٣٩٣.
(٦) أضواء البيان ٩/ ٩٧.

وإلى الرحمة، يبشر بهما في الناس، ويدعو إليهما في كل مجتمع، فذلك من شأنه أن يترك آثاره فيه، إلى جانب ما يتركه من إشاعة هذا المعروف بين الناس»[1].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ «يعني بذلك: رحمة الناس كلهم»[2].

والمجتمع المسلم بإيمانه وتناصره وتناصحه أهلٌ للرحمات.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنه يبلغ به النبي: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء)[3].

وحينما كان الصحابة في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أحدهم وأخذ فرخي طائر، وبدت علامات الحزن على ذلك الطائر الذي أخذ يرفرف بجناحيه، فأشفق عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (من فجع هذا الطائر في فراخه؟ قالوا: فلان. قال: ردوا عليه فرخيه)[4].

وغفر الله لامرأة كانت تمارس البغاء؛ لأنها سقت كلبًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (غفر لامرأةٍ مومسةٍ، مرت بكلبٍ على رأس ركيٍّ يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك)[5].

«فلئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب»[6].

وشريعة الإسلام رحمةٌ بالفرد والمجتمع.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٥٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٢/ ٤١٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة، ٤/ ٤٤٠، رقم ٤٩٤٣، ولترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب رحمة المسلمين، ٣/ ٣٨٨، رقم ١٩٢٤.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الديك والبهائم، رقم ٥١٠١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٦٤، رقم ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، ٢/ ٣٥٨، رقم ٣٣٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، ٤/ ١٧٦١، رقم ٢٢٤٥.

(٦) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٩٦.

﴿وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥].
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النور: ٥٦].

وروى النسائي في السنن بسنده عن أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها أنها قالت: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نسوةٍ من الأنصار نبايعه فقلنا: يا رسول الله، نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروفٍ. قال: (فيما استطعتن وأطقتن)، قالت: قلنا: الله ورسوله أرحم بنا، هلم نبايعك يا رسول الله) الحديث[1].

وفي قولهن: (الله ورسوله أرحم بنا) ما يدل على إيمان المرأة وتسليمها بأن ما قضى الله ورسوله في أمرهن فيه الخير والبركة والرحمة، فالمسلمة واثقة بشرع الله مطمئنة لحكم الله.

ومن أروع صور التراحم في حضارتنا الرائدة ما رآه ابن بطوطة في رحلته إلى الشام، قال: مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها وأحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن.

وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضًا ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف؛ جبرًا للقلوب، جزى الله خيرًا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش، من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة أو مسجد، أو قراءة القرآن يجيء إليه فيه رزقه، تجري له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبًا على خير لم يزل مصونًا عن بذل وجهه، محفوظًا عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر، من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان، يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك. ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده ألبتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل أحد بما

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيعة، باب بيعة النساء، ٧/ ١٠٥، رقم ٤١٨١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٦٣.

عنده فيفطرون جميعًا[1].

٦. مجتمع المؤاخاة.

والمجتمع المسلم يتميز بعاطفة قوية ورابطة فتية تربط بين أفراده وتوثق الصلات، إنها الأخوة الإيمانية التي تجعل المسلمين على اختلاف ألستهم وألوانهم وبلدانهم إخوة متحابين، مهما تناءت أوطانهم، والأخوة من أعز نعم الله عليهم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فلا مكان في المجتمع المسلم لعصبية ولا حمية ولا لكبرٍ أو نفورٍ، بل الأخوة الإيمانية بما تحمله من محبة وإيثار وتضحية وبذل ونصح وفضلٍ، إنه الإسلام الذي جمع في أول عهده بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي، جمع بين قارات العالم القديم، آسيا وأفريقية وأوروبا، وأرسى قواعد المجتمع المسلم المدني على قاعدة الإخاء وما يقتضيه من محبة وإيثار وبذل وعطاء وتناصرٍ وتلاحمٍ وتواصلٍ بين الأجيال.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

عن عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: (لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالًا فأقسم لك نصف مالي! وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها! قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟)[2].

وقال تعالى في سورة الحجرات- تلك السورة الكريمة التي اشتملت على أحكام وآداب تصون المجتمع المسلم وتوثق روابطه وتنظم شؤونه-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، رقم ١٩٤٣.

وتأتي السنة النبوية لتقرر هذه المعاني وترسخها في النفوس؛ تأصيلًا لهذه الأخوة وتحصيلًا لثمراتها المرجوة.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبك أصابعه**)[1].

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)[2].

وعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)[3].

أما التفرق والتنافر فلا مكان له في المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[آل عمران: ١٠٥].

وعن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**)[4].

وحينما اتجهت بعض المجتمعات المسلمة نحو العصبية للقوميات أو للأجناس واستجابت للدعوات المناوئة للأخوة الإسلامية لم تجن من ورائها إلا الأشواك والحنظل؛ فقد طغت تلك الدعوات على رابط الأخوة الإيمانية وانشغلت كل بلد بمصالحها الشخصية، بل ووقع الصدام بين بعض أقطار المسلمين بسبب تغييب روح الأخوة، والاحتكام للعصبيات، وتغليب المصالح القومية على مصالح الأمة.

وقد سرت هذه الروح بين كثير ممن جهلوا أصول الإيمان وشرائعه، وقد غذى أعداء الإسلام هذه المشاعر وروجوا لها تحت ستار (العلمانية والليبرالية والقومية،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، رقم ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، رقم ٢٥٥٩.

بل والنعرات القديمة كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية وغيرها من الشعارات).

وحتى امتلأ هذا الفراغ بمحبة أعداء الدين وموالاتهم تحت ستار الصداقة وتبادل المصالح، أو مداراتهم واتقاء شرهم، مما عاد بالضرر البالغ على المسلمين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤- ٤٥ ].

فكما دعا الله المؤمنين للتآخي والتحاب حذرهم كذلك من عدوهم، وكشف عن مثالبه ودسائسه ومكائده، فالله سبحانه وتعالى أعلم بهم، وهو تعالى يتولى أولياءه، وينصرهم على أعدائهم، وفي هذا ما يبدد المخاوف من أعداء الله، ويقطع الآمال والرجاء فيهم.

٧. مجتمع متعاون.

من القيم الإنسانية الرائعة والأسس الحضارية الرصينة للمجتمع المسلم التعاون الإنساني، فالتعاون ضرورة من ضرورات الحياة، ولولاه لما استقامت، فالإنسان لا ينهض وحده بكل متطلبات الحياة، بل جعل الله الناس متفاوتين متفاضلين؛ ليكمل بعضهم بعضًا، ويخدم بعضهم بعضًا، هذا على مستوى الأفراد والشعوب، كذلك على مستوى الأمم.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

«﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي: أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرها إليهم، علمًا منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، ورفعنا بعضهم فوق بعض في الرزق وسائر مبادئ المعاش درجات متفاوتة بحسب القرب والبعد، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيفٍ وقويٍ، وفقير وغنيٍ، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا؛ ليصرف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم؛ حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم»[1].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦.

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «أي: ليستعمل بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قومٌ دون آخرين، فجعل البعض محتاجًا إلى البعض؛ لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا وبالعكس، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا لهذا؛ حتى يتعايشوا، ويترافدوا، ويصلوا إلى مرافقهم»[(١)].

«فالناس بحكم هذا الاختلاف القائم بينهم وبحسب استعدادهم الفطري وحكم ظروفهم وأحوالهم هم جميعا مسخرون، أي: يخدم بعضهم بعضًا، ليس فيهم خادم ومخدوم بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوي في هذا العالم والجاهل، والزارع والصانع، والقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة ذات قوة محركة إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها أيًّا كان وضعه فيها، وأيًّا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته ويوفر له أمنه وسعادته»[(٢)].

عن قتادة قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «فتلقاه ضعيف الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه، قال الله جل ثناؤه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم، تبارك ربنا وتعالى»[(٣)].

لقد عرف الناس هذه الحقيقة منذ كان لهم وجود اجتماعي، بل إن هذا الوجود الاجتماعي نفسه إنما دعتهم إليه حاجة بعضهم إلى بعض، وخدمة بعضهم لبعض، وهذا ما يشير إليه قول الشاعر العربي[(٤)]:

والناس بالناس من حضرٍ وباديةٍ
بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدم

والتعاون بين البشر من فطرة الله التي فطر الناس عليها، يقول ابن خلدون في مقدمته: «الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به، واتباع صلاح أخراه»[(٥)].

وقال: «قد عرف وثبت أن الواحد من

---

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ١/ ٤٩٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٧٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩٥.
(٤) ديوان أبي العلاء المعري ١/ ١٢٠٣.
(٥) مقدمة ابن خلدون ص٤٢٩.

البشر غير مستقل لتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعًا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافًا، فالقوت من الحنطة مثلًا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه، وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد، ونجار للآلات، وقائم على البقر، وإثارة الأرض، وحصاد السنبل، وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات، فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم»[(١)].

ولقد دعا القرآن في آخر توجيهاته إلى التعاون بين الأفراد والمجتمعات والأمم.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

«وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي: ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه»[(٢)].

فالإسلام ينظر للتعامل والعلاقات بين أناس على أنها قائمة على المشاركة والتعاون والتنافس، لا على الصراع كما يصور الماديون من الفلاسفة والحاقدون من المتعصبين، بل الحياة مشاركة وتعاون اجتماعي ودولي، فالتعاون من أجل الصالح للإنسانية، بينما يريدها أعداء الإسلام صراعًا بين البشر، وعراكًا بين الطوائف والأمم، من أجل الاستئثار والانفراد وتحقيق المكاسب المادية، وترويج السلع ونشر الثقافات على حساب الآخرين، وإلحاق الخسائر المادية والأدبية، وهذا لا يتفق مع مبدأ التعاون الإنساني الذي يقوم على أساس مد يد العون للآخرين وتبادل المنافع ومراعاة المصالح، أما فكرة الصراع فهي فكرة خبيثة أفرزتها المذاهب المادية النفعية والفلاسفة الماديون أصحاب الأفكار الهدامة والمتناقضة، كهيجل وماركس وغيرهم ممن نفقت مذاهبهم في الغرب.

ويؤمن كثير من الكتاب الغربيين ومن لف لفهم بصراع الحضارات، وهذا المصطلح في النفس منه شيء؛ فلماذا تبنى العلاقات بين الحضارات على أساس الصراعات أو الصدام بين الحضارات؟ لماذا لا نسمي ما بين الحضارات لقاء الحضارة، أو إن شئت فلتقل تنافس حضاري، أما الصراع فيعني الشقاق والنزاع من أجل البقاء على حساب الطرف الآخر، والإسلام لا يمنع التعايش السلمي بين الحضارات.

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٦.

فاللبنات المتناثرة هنا وهناك لا قيمة لها، لكن حين يبنى بها جدار متين فترى البنيان مرصوصًا تدرك أهمية التماسك ومتانة الترابط وقوة التعاون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وتلك صورة من صور التعاون في حالة الحرب.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبك بين أصابعه)[(١)].

بالتعاون والتضامن بنى ذو القرنين أعظم سدٍّ في التاريخ.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٣ - ٩٧].

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فقال: «هو أن تعمل به، وتدعو إليه، وتعين فيه، وتدل عليه»[(٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله في تلك الآية: «اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله»[(٣)].

ثم بين أهمية التعاون على البر والتقوى وأنه من مقاصد اجتماع الناس فقال: «والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علمًا وعملًا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم ٢٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

(٢) انظر: حلية الأولياء ٧ / ٢٨٤.

(٣) زاد المهاجر ص٦-٧.

جعل النوع الإنساني قائمًا بعضه ببعضه، معينًا بعضه لبعضه»[1].

وهذا الكلام يدل قطعًا على أن توزيع المهمات لإنجاز الأعمال من التعاون المطلوب، وأن هذا التعاون بين الأفراد يتقل بعمل كل منهم؛ ليصبح وظيفة عامة اجتماعية تكفل العيش لعدد كبير من المجمتع، فالتعاون بين الأفراد وتقسيم العمل ظاهرتان ملازمتان للإنسان، ولا غنى له عنهما، وأن تعاون المجموعة لا ينتج ما يكفيهم فقط، وإنما يزيد ويفيض.

وهذا كلام عام في الأمور الدينية والدنيوية، فأما بالنسبة للتعاون الشرعي فإن الأسباب الدافعة لدى المسلم للتعاون على البر والتقوى والمشاركة في الخير عديدة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فلقد كان يشارك أصحابه مشاركة فعالة في السلم والحرب، فعن سهل ابن سعدٍ الساعدي رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق وهو يحفر ونحن ننقل التراب، ويمر بنا فقال: اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره)[2].

فالتعاون من أصول البناء والتواصل الحضاري بين الأفراد وبين الأمم والشعوب.

ومن أبرز صور التعاون في المجتمع المسلم الأول: ما في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (تزوجني الزبير رضي الله عنه وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار وكن نسوة صدقٍ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي منى على ثلثي فرسخٍ، فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ثم قال: (إخ إخ)؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك. فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه قالت: حتى أرسل إليّ أبو بكرٍ بعد ذلك بخادمٍ يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني)[3].

(١) المصدر السابق ص ١٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٠٥١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح،

وفي هذا الحديث دليل على ما تحلى به هذا المجتمع النبوي من تراحم وتعاطف وتعاون وتكافل، فالمرأة تقف بجوار زوجها تساعده في حقله، والرجل يساعد المرأة في شئون البيت، والجارة تكفي جارتها بعض الأعمال، والمجتمع يقف مع المرأة، ويمد لها يد العون، ويراعي ما جبلت عليه من حياءٍ وخجلٍ، والمرأة تراعي مشاعر زوجها، والرجل يشفق على زوجته، والأب يتفقد أحوال ابنته المتزوجة، ويسعى إلى التخفيف عنها ما أمكنه ذلك، نماذج رائعة تتجلى لنا من خلال هذا الحديث: الزوجة الصالحة التي تبذل ما في وسعها؛ لرعاية زوجها وبيتها، وتتجشم الصعاب وتواجه الأعباء بصبرٍ ورضا، فتكافح مع زوجها، وتعمل في البيت والحقل أعمالًا ليست باليسيرة، لكنها تصبر وتحتسب، والجيران الصادقون المتعاونون، وللتعاون بين الجيران أثرٌ عظيم في تخفيف الأعباء وتذليل الصعوبات، والمجتمع الذي تسوده المروءة والشهامة، فيساند البيت المسلم ويدعمه، ويرعاه ويصونه، والزوج الغيور المشفق على أهل بيته، والأب الذي لم تنته مهمته مع ابنته بزواجها، بل يتفقد أحوالها ويسعى لتوفير سبل الراحة لها، وفي هذا الجو الإيماني وجدت المرأة الأمن والأمان، والسعادة والطمأنينة، والحب الصادق: بيت صالح، وزوج كريم، وأب حنون، وجيران صدق، ومجتمع متراحم متعاطف، يا لها من سعادةٍ غامرةٍ وحياةٍ طيبة وإن كانت صعبةً!

باب الغيرة، ٣/ ٤٠٣، رقم ٤٩٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، ٤/ ١٧١٦، رقم ٢١٨٢.

٨. مجتمع متناصح.

بذل النصيحة وتبادلها من سمات المجتمع المسلم، ومن مقومات الأمة المسلمة، ومن أسباب بقائها وخيريتها.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فمن أسمى أوصاف مجتمع الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو سر بقائهم وارتقائهم واستحقاقهم لرحمة الله تعالى التي تغمرهم في دنياهم وتغشاهم في أخراهم.

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وسر التعبير بـ ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ بالماضي الدلالة على ثباتهم ومضيهم في التواصي، والحق هو الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله[(١)].

ومدار السورة الكريمة حول إصلاح النفس ودعوة الغير، فإصلاح النفس بالإيمان والعمل الصالح، ودعوة الغير بالتواصي بالحق مع التواصي بالصبر.

والتواصي بالحق: التواصي بالسير على هذا المنهج، والمضي فيه، والثبات عليه، هذا المنهج القويم وذلك الطريق المستقيم الذي نهجه الإسلام ودعا إليه.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مـن مقـومات خيرية هذه الأمة ومعالم نهضتها وسبقها وتفوقها وتميزها، عن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإنا ننقبها في أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعًا، وإن تركوهم غرقوا جميعًا)**[(٢)].

وعلى هذه الأسس قام المجتمع المسلم الأول، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: **(بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)**[(٣)]، وفي رواية لأبي داود: قال: **(وكان إذا باع الشيء أو اشتراه قال: أما إن الذي أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناك فاختر)**[(٤)].

وعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(الدين النصيحة). قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)**[(٥)].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٥/ ٩٠١، مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٣٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة، ٨/ ٣٩٨، رقم ٢٣٦١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٥٧، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٤/ ٤٤٢ رقم ٤٩٤٧، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم

٩. مجتمع التكافل والتضامن.

يطالب الإسلام كل قادرٍ على العمل أن يعمل، وأن يعان على عمله؛ ليكفي نفسه وأسرته، والناس متفاوتون، فمنهم العاجز الذي لا يقدر على العمل، ومنهم العاطل الذي لا يجد عملًا ولم يبادر المجتمع لتيسير عملٍ مناسبٍ له، وفيهم العاملون الذين لا يكفيهم دخلهم لتحقيق معيشة إنسانية لائقة؛ لقلة الدخل، أو لكثرة العيال، أو لغلاء الأسعار، أو غير ذلك من الأسباب، والإسلام لم يترك هؤلاء للفقر ينهبهم والضياع يشتتهم، بل كفل لهم ما يعينهم على تكاليف الحياة.

قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

وجعل الإسلام موارد متعددة للفقراء والمساكين.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

واهتم الإسلام بالطبقات الضعيفة في المجتمع، فشرع لهم من الأحكام والوسائل ما يكفل لهم العمل الملائم لكل عاطل، والأجر العادل لكل عامل، والطعام الكافي لكل جائع، والعلاج الكافي لكل مريض، والكساء المناسب لكل عريان، والكفاية التامة لكل محتاج، وتشمل هذه الكفاية: المأكل والملبس والمسكن وكل ما لابد منه على ما يليق بحاله من غير إسراف ولا تبذير ولا تقتير للشخص ومن يعوله[١].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (بينما نحن في سفرٍ مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجلٌ على راحلةٍ له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان معه فضل ظهرٍ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ من زادٍ فليعد به على من لا زاد له) فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحدٍ منا في فضلٍ)[٢].

(١) انظر: ملامح المجتمع المسلم، القرضاوي ص١٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللقطة، ٥٥.

ومن صور التكافل المثمر ما كان بين المهاجرين والأنصار، حيث خرج المسلمون من مكة تاركين تجاراتهم وبيوتهم وهاجروا للمدينة فكان من الأنصار المواساة والتكافل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: (اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: (لا)، فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ فقالوا: سمعنا وأطعنا). وفي رواية: قالت الأنصار: (اقسم بيننا وبينهم النخل) وذكره، ولم يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم[1].

وبهذا وجد كثير من المهاجرين فرصًا للعمل في هذا المجتمع الجديد الذي هاجروا إليه؛ مواساة من إخوانهم من الأنصار.

وحين أسلم سلمان الفارسي -وكان رقيقًا عند يهوديٍ- أمره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يكاتب، أي: يسعى لإعتاق نفسه من اليهودي بمال ونحوه، قال سلمان: (فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلةٍ أحييها له بالفقير وبأربعين أوقيةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (أعينوا أخاكم). فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وديةً، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشرٍ، يعنى الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائةِ وديةٍ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني، أكون أنا أضعها بيدي). ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها، فجعلنا نقرب له الودى، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها وديةٌ واحدةٌ، فأديت النخل وبقى علي المال، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهبٍ من بعض المغازي، فقال: (ما فعل الفارسي المكاتب؟) قال: فدعيت له، فقال: (خذ هذه، فأد بها ما عليك يا سلمان). فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: (خذها فإن الله عز وجل سيؤدى بها عنك). قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها، والذى نفس سلمان بيده أربعين أوقيةً، فأوفيتهم حقهم، وعتقت. فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق، ثم لم يفتني معه مشهدٌ)[2].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل وغيره، ٣/ ١٠٤، ٢٣٢٥.

باب استحباب المواساة بفضول المال، ٣/ ١٣٥٤، رقم ١٧٢٨.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٤٣٩، رقم ٢٤١٢٣.

وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٥٦٠.

والإنفاق المثمر في سبيل الله هو ما كان خالصًا لوجه الله تعالى، ويشمل سائر وجوه الخير التي أمر الله بها، وهو أساس التضامن العائلي والاجتماعي البناء، ومن ثماره الطيبة تطوير الإمكانات العلمية والاقتصادية والدفاعية للأمة، فإذا بخل الأفراد في الإنفاق أصاب الأمة الهلاك وطمع بها الأعداء، فليس الإنفاق مقتصرًا على بذل المال، بل يشمل بذل كل ما ينفع المجتمع ويعود عليه بالخير، فهناك من هو بحاجة إلى المال، وهناك من هو بحاجة إلى الهداية والتوجيه الرشيد، وهناك من يفتقر إلى العلم والمعرفة والخبرة، وهناك من يفتقر إلى المساعدة بالجهد العضلي، وغير ذلك من مصالح الضعفاء والفقراء والعاجزين.

١٠ . مجتمع متشاور.

للشورى مكانتها في المجتمع المسلم، فهي ركنٌ هامٌ من أركانه، ومقصد كريمٌ من مقاصده، ولها مجالاتها المتعددة في الأمور التي لم يرد فيها نص من كتابٍ أو سنة، أما ما ورد فيه نص فلا مجال للتشاور والاجتهاد فيه؛ لأنه لا اجتهاد مع النص، حيث يقوم أهل الحل والعقد أو أولو الأمر وأهل المسئولية بالاجتماع؛ للنظر في أمر من الأمور التي تهم المسلمين أو طائفة منهم، وتطرح الأفكار على مائدة الحوار، وتتم المناقشة في جو يسوده الود والوئام، والحرص على الحق والصواب، بالوسيلة التي يراها المجتمع والتي لا تخالف شرع الله، ولا تجافي الفطرة، ولا تبدد الأوقات، ولا تعطل الطاقات، ولا تفوت المصالح العامة، ولا تخالف أصلًا شرعيًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فلا ينبغي تقديم قول أو رأي أو أمر على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والمؤمن الصادق هو الذي يمتثل أوامر الله ورسوله، ويجتنب ما نهى عنه الله ورسوله، يفعل ذلك عن إيمان وتسليم ورضا وقبول. والمجتمع المسلم مجتمع الأمن والأمان، والمودة والرحمة، والبر والتقوى، والتعاون والتضامن والتكافل، والتشاور والتناصح. والحاكم المسلم يستشير أهل العلم والخبرة والنصح والرشد، يقول صلى

الله عليه وسلم: (المستشار مؤتمن)[١].

فينبغي أن يتخير الحاكم المسلم من الأمة الإسلامية أفضلهم علمًا، وأحسنهم خلقًا، وأخلصهم نصحًا، حتى يحقق بفضل مشورتهم المخلصة ما فيه الخير والصلاح للعباد والبلاد. وصدق القائل[٢]:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلًا
فأرسل حكيمًا ولا توصه
وإن خطب أمر عليك التوى
فشاور لبيبًا ولا تعصه

والشورى ضرورة من الضرورات التي لابد منها، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية ما يبين لنا أهمية الشورى وضرورتها في إطار المجتمع الإسلامي.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد نزلت هذه الآية إثر غزوة أحد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نزل عن رأيه وأخذ برأي الأغلبية من الصحابة، ولم يتحقق النصر المأمول، فقد يكون هذا الحدث ذريعة لاستبداد القائد أو الحاكم برأيه دون أن يلتفت لآراء الجند أو البطانة، فنزلت الآية تؤكد للأمة أن الشورى أساس الحكم وأن الأمة إن خسرت معركة فذلك خير من أن تخسر الأمة شخصيتها ويتحكم فرد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصيرها وإرادتها[٣].

فكان نبينا صلى الله عليه وسلم يتشاور مع أهل الرأي السديد من الصحابة، وكان الصاحبان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من أهل مشورته، وكان يقول لهما: (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما)[٤].

وفي قصة الإفك استشار النبي صلى الله عليه وسلم اثنين من أقرب الناس إليه، هما علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المشورة، رقم ٥١٢٨، ٤/ ٣٣٣، والترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، رقم ٢٨٢٢، ٥/ ١١٥.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٦، رقم ٦٧٠٠.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس.
انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ٢/ ٤٥٦.

(٣) انظر: النظام السياسي في الإسلام، محمد أبو فارس ص ٨٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢٢٧.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٣: رجاله ثقات إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم.

أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم -والله- إلا خيرًا. وأما علي بن أبي طالبٍ فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرٌ، وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: (يا بريرة، هل رأيت فيها شيئًا يريبك)، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها قط أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله ولقد كان لهذه المشورة ثمرتها، حيث قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجلٍ بلغني أذاه في أهلي، فوالله، ما علمت على أهلي إلا خيرًا)[1].

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: ٣٨].

فالشورى نابعةٌ من الاستجابة لأوامر الله، من هذه الركيزة تنطلق، وعطف التشاور على إقامة الصلاة؛ لبيان كون التشاور فريضة شرعية يجب إقامتها كما أن الصلاة شعيرةٌ، وبالتشاور صلاح أمور الدنيا، كما أن الصلاة عماد الدين، والشورى ليست أمرًا شكليًا، أو طقوسًا سياسية، كذا الصلاة ليست عبادة ظاهرية فحسب، بل عبادة قلبية لها ثمراتها التي لا تتحقق إلا بإتقانها، وكذلك الشورى لن تؤتي ثمرتها ما لم تمارس بطريقة صحيحة.

يقول صاحب الظلال: «وهو كما قلنا نص مكي، كان قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد.

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية، والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرًا، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشئون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة»[2].

وفي السيرة النبوية الكثير من مواقف الشورى، ففي غزوة بدر طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المشورة من الصحابة الكرام حيث قال: (أشيروا علي أيها الناس)،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٣٩١٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٣.

وهو يقصد بذلك الأنصار رضي الله عنهم، وقد ثبتوا على الحق وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ونصروا دعوة الله.

وقال الحباب بن المنذر: (يا رسول الله، أمنزلٌ أنزلكه الله أم هي الحرب والرأي والمكيدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل هي الحرب والرأي والمكيدة)، فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال صلى الله عليه وسلم: (لقد أشرت بالرأي)[(١)].

ولقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة الكرام في شأن أسرى بدر[(٢)]، فأشار عمر بقتلهم، وأشار أبو بكر بقبول الفداء منهم، وكان هذا قبل نزول قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي غزوة الخندق أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي سلمان الفارسي بحفر الخندق[(٣)].

وفي صلح الحديبية عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح دون أن يدخل مكة، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت قلوبهم تهفو وتتشوق إلى زيارة بيت الله الحرام، وكان للصلح حكمه البالغة التي ظهرت فيما بعد، ومن ذلك أنه كان فرصة عظيمة لنشر الدعوة الإسلامية في ربوع الجزيرة العربية، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام أن يقوموا فينحروا ويتحللوا من الإحرام، فلم يبادر منهم أحد، فأعادها ثلاث مرات، فلم يبادر منهم أحدا!! فذكر ذلك لأم سلمة، وكانت معه، فأشارت عليه برأيٍ سديد، قالت: يا نبي الله، اخرج إليهم ولا تكلم أحدًا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكلم منهم أحدًا حتى فعل ذلك، نحر بدنه وحلق، فلما رأى الصحابة الكرام ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا[(٤)].

وهناك أمثلة كثيرة في السيرة النبوية وفي التاريخ الإسلامي تبين لنا كيف طبق المسلمون مبدأ الشورى تطبيقًا عمليًا، فاجتمعت كلمتهم، وطابت نفوسهم، وتحقق العدل بينهم، وفاضت بينهم روح المودة والمحبة والإخلاص والتضحية والولاء والانتماء، وكان الترابط التام والانسجام بين المحكومين والحكام.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٥٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٧١٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٢٥.
(٤) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٤/ ٣٧.

١١ . مجتمع متحرر.

المجتمع المسلم مجتمع متحرر من كل قيدٍ أو رقٍ يحول دون انطلاقه نحو المعالي، أو يكبل إرادته ويثبط عزيمته ويثقل كاهله، فالحرية في الإسلام تحررٌ من الأهواء وتحررٌ من الأباطيل والخرافات، وتحررٌ من التقليد والتبعية إلا للحق وأهله، والحرية في الإسلام تعني طهارة القلب وإخلاصه لله تعالى.

وقد وردت في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

أي: خالصًا لوجهك، مخلصًا لطاعتك وعبادتك، عن مجاهد قال: «إن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى»[١].

وفي هذا منقبةٌ لمريم حيث نذرتها أمها خالصة للعبادة، فكأنما حررت من أسر الدنيا وقيودها[٢].

وفي هذا بيان للمفهوم الصحيح للتحرر أنه التجرد لله تعالى من كل الأهواء، والتحرر من كل قيدٍ يحول بين العبد وبين ربه.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال: «هو المشرك تتنازعه الشياطين، لا يقربه بعضهم لبعض»، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ قال: «هذا المؤمن أخلص لله الدعوة والعبادة»[٣].

لا يمكن للعبد أن يوفي حق سيدين في وقتٍ واحد، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بأمرٍ آخر، فيجد نفسه ممزقةً بين سيدين، يستحيل أن يلبي لهما في حين واحدٍ، فيعجز ويتوانى، أما الذي له سيدٌ واحدٌ يلبي مطالبه ويستجيب لأوامره، فذلك مثل المؤمن الموحد، تحرر قلبه لمعبودٍ واحد فلا ينازعه أحدٌ، وتعلق قلبه ورجاؤه بإله واحد، فيحيا صافي الذهن صالح البال، بخلاف من فيه شركاء متشاكسون، هذا يأمر وذاك ينهى، فإنه يعيش مشتتًا بينهما، رضا أحدها يثير سخط الآخر، فلا يجتمع قلبه لمعبودين.

«إن أعظم ما دمر حرية الإنسان وأتى على بنيانها من القواعد اتخاذ بعض الناس بعضًا أربابًا من دون الله، ولكي يسترد الناس حريتهم وكرامتهم يجب تحطيم هؤلاء الأرباب الأدعياء والآلهة المزيفين،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٨٥، الدر المنثور، السيوطي ١٢/ ٦٥٤.

خصوصًا في أنفس الذين توهموهم أربابًا حقًا وهم مخلوقون مثلهم، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولقد وعى مشركو العرب هذه الحقيقة منذ دعا النبي صلى الله عليه وسلم من أول يوم إلى التوحيد، وعلموا أن وراء هذه الكلمة -لا إله إلا الله- انقلابًا في الحياة الاجتماعية والسياسية، وأنها تؤذن بميلاد جديد للبشرية، ولاسيما الفقراء والمساكين والمسحوقين، فلا غرو أن وقفوا في وجهها وجندوا كل قواهم لحرب كل من آمن بها واستجاب لندائها»[1].

كما تعني الحرية في مفهومها الأصيل العزة والإباء والكرامة والعفاف، عندما بايع النبي صلى الله عليه وسلم النساء في مكة وكان من بينهن هند بنت عتبة رضي الله عنها وتلا عليهن أركان البيعة فلما وصل إلى قوله: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢] قالت هند قولتها الشهيرة: وهل تزني الحرة؟![2].

وفي مقالة هند: وهل تزني الحرة؟! مغزى ومعنًى عظيم، ودرس لدعاة التحرير في عصرنا، فالحرية بمفهوم الجاهلية أنقى وأطهر من الحرية بالمفهوم الغربي المعاصر، الحرية قديمًا تعني الشرف والأصالة والنبل والطهارة والعفة والكرامة، أما الحرية بمفهومها الغربي والذي يجدون في تصديره إلينا فتعني التحرر من القيم الأصيلة والأخلاق النبيلة والتمرغ في مستنقعات الخنا وأوحال الرذيلة باسم التحرر، فكلمة أنا حرة عندهم تعني أنه لا سلطان لأحد عليها ولا ولاية ولا قوامة، فهي ولية نفسها تصنع ما يحلو لها، وتصبو وراء نزواتها ورغباتها الجامحة.

لكن هندًا رضي الله عنها وهي التي عاشت عفيفةً شريفةً في جاهليتها وإسلامها تجلي لنا المفهوم الحقيقي للحرية، الحرية التي تسمو بنا وتحلق إلى أجواء الطهر وآفاق الفضيلة، لا الحرية التي تهوي بمدعيها إلى الحضيض.

في مقابل ذلك يكفل الإسلام لغير المسلم حرية العقيدة والعبادة، فلا يكرهون على الدخول في دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فمن حق غير المسلم أن يمارس شعائر دينه دون تضييق عليه أو تقييد لحريته،

(١) ملامح المجتمع المسلم، القرضاوي ص ١٣٥.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٨/ ٩.

ومن ثم فإن حماية دور العبادة من مسئولية المجتمع المسلم، وشرع الجهاد في الإسلام لأهداف، أهمها حماية ذلك المجتمع بكل مكوناته وطوائفه.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فالقتال مشروع لحماية الحريات، وتمكين المسلم وغير المسلم من أداء شعائر دينه، وحماية المساجد والكنائس والبيع والصوامع؛ ليعيش الجميع داخل المجتمع المسلم في أمان، وينعم الجميع بالحرية.

«فالإسلام لا يريد حرية العبادة لأتباعه وحدهم، إنما يقرر هذا الحق لأصحاب الديانات المخالفة، ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين، وبذلك يحقق أنه نظام عالمي حر، يستطيع الجميع أن يعيشوا في ظله آمنين، متمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وبحماية المسلمين»[(١)].

والإسلام لا يرضى لأتباعه حياة الذل والخنوع، بل يدعوهم إلى التنعم بالعيش الكريم، والترفل برداء العز والإباء، وينهاهم عن الاستكانة والهوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِى

(١) نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب ص ١٠٦.

أنفسهم﴾[1].

«إن المجتمع الإسلامي مجتمع حر من خلال إقراره بالعبودية لله وحده دون شريك، حر وهو يشارك بالرأي في تسيير أموره، حر وهو يتعفف عن قول الزور أو القول على الله بغير علم، حر وهو يدافع عن حرية الآخرين، حر وهو يبدي رأيه بأدب حتى مع مخالفيه في الرأي أو العقيدة، حر وهو يستمتع بخيرات الله دون مساس بحقوق الآخرين، حر وهو يحرر النفس من الهوى، والإنسان في الإسلام حر بكل ما تعنيه الكلمة، لا يسيطر عليه طاغوت، ولا تستعبده شهوة، ولا تتحكم فيه لذة أو متاع أو عرض زائل»[2].

١٢ . مجتمع مسالم.

الأصل في الإسلام هو السلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

فالسلم هنا يشمل السلم داخل المجتمع المسلم وخارجه، السلم بين المسلمين ومع غيرهم، فلا يقاتل غير المسلم إلا إذا نكث العهد أو اعتدى أو صادر الحريات أو حال دون وصول رسالة الإسلام وبلوغ دعوته أو نبذ أو خان وغدر.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

«إذن فالجماعة المسلمة مسالمة مع نفسها، لا تعرف الصراع الذي يؤدي إلى التنازع، ولا تعرف التنافس الذي يقود إلى الأنانية والظلم، وإنما يعيش أعضاؤها في سلام وحب وتعاون على الخير والمعروف، ولعل التنافس الوحيد بين أعضائها وبين غيرها من الجماعات هو ذلك التنافس في طاعة الله وفي العمل الصالح، ومسالمة مع غيرها من الجماعات التي لا تدين بالإسلام، ولكنها ترد العدوان الواقع عليها بغير ظلم»[3].

ولقد نهى الإسلام عن كل ما يعكر صفو المجتمع ويهدد سلامه من التنازع والمشاحنة والقطيعة.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء، رقم ٤٣٢٠.

(٢) علم الاجتماع الإسلامي التصوير القرآني للمجتمع، صلاح فوال ١/ ١١٩.

(٣) المصدر السابق ١/ ٧٣.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

ولقد أحاط الإسلام هذا المجتمع بسياج من التشريعات والحدود والآداب، تكفل أمن المجتمع، وينعم أفراده بالأمن والسلام.

١٣ . مجتمع التنافس.

يصور البعض الحياة على أنها صراعٌ دائمٌ وعراكٌ مستمر، صراع بين الإنسان والبيئة، دور الإنسان في البيئة أن يقهر الطبيعة، ويسيطر عليها، وينهكها ويستفرغ خيراتها، ولو أدى الأمر إلى تلويثها وفقدانها توازنها، وصراع آخر بين الإنسان والإنسان بين الأمم والشعوب على السيادة والهيمنة والقهر والغلبة والتفوق، مع ما يجره هذا الصراع -غالبًا- من مواجهات دامية ومعارك حامية بين الدول المتصارعة، وما يصيب الشعوب جراء طموحات بعض الحكام والقادة من كدٍ وعناءٍ، وجراحٍ وآلامٍ، ولهثٍ وراء أطماع القادة والحكام وأحقادهم، على حساب الأفراد والأسر التي تشقى بالحروب التي تذكيها الأنانية والأثرة وحب التسلط وشهوة التملك، جاهلين حكمة الله تعالى ومشيئته في خلقه وأقداره وشرعته.

حتى العلاقة بين الرجل والمرأة صارت عندهم صراعًا دائمًا على الكراسي والمناصب والحقائب، حتى غدت الحياة صراعات لا يخمد أوارها، ولكن الإسلام دين المحبة والوئام، دين التعاون والتضامن، يغلق أبواب الصراع ويفتح أبواب التنافس إلى الخيرات، والتسابق إلى المغفرة والجنات، والتعاون على البر والتقوى، مضمار فسيح وميدان رحيب يتسع للجميع.

ونحن لا ننفي وجود الصراع في هذا الكون، لكنه ليس القاعدة التي نبني عليها علاقاتنا وتعاملاتنا في هذا الكون، بل التنافس المحمود هو الذي يذكي شعلة الجد والعمل، ويثير العقول، ويحفز الهمم نحو المعالي.

قال تعالى -في سياق بيان نعيم الجنة-:

﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

[المطففين: ٢٦].

وقال تعالى عن آل زكريا عليهم السلام:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

، ﴿أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١].

أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير،

هممهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة إليه انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوهم. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره وقد لا يسبق لتقصيره أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾[المؤمنون: ٦١ ]، أي: للخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾[المؤمنون: ٦١] قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقون»[1].

وذكر تعالى من مآثر مؤمني أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٤].

وأمرنا تعالى باستباق الخيرات فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٤٨].

وبين تعالى أن ميدان التنافس ومضمار التسابق مفتوحٌ للجميع، وأن الجائزة الكبرى جنات واسعة تتسع لكل المسارعين للخيرات.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [ الواقعة: ١٠-١١].

فالسابقون هم الذين يتسابقون في الدنيا إلى الخيرات حتى يسبقوا في الآخرة إلى الجنات.

وهذا المتسابق هو صاحب الهمة العالية الذي يسعى؛ ليكون أول المتسابقين للرقي لمعالي الأمور في الدنيا والآخرة، ولا يعني التنافس التحاسد والشقاق والعراك على دنيا زائلة، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: (كل مخموم القلب صدوق اللسان). قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟! قال: (هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد)[2].

وفي الحديث: (أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم! ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، ٢/ ١٤٠٩، رقم ٤٢١٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٦٣٢، رقم ٩٤٨.

وتهلككم كما أهلكتهم)[(١)].

## ١٤. مجتمع عامل.

المجتمع المسلم مجتمع عامل، لا يعرف الكسل أو الخمول، ولا يعرف البطالة والاتكال، بل مجتمع عامل، العمل الصالح فيه قرينٌ للإيمان لا ينفك عنه ولا يفارقه، وتوفير فرص العمل وإعداد الأيدي العاملة الماهرة مسئولية المجتمع والدولة.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فدعا الإسلام لكل عملٍ نافعٍ جادٍّ، ودعا لمراقبة الله تعالى فيه بإتقانه وإحسانه، وسماء المجتمع الإسلامي معطرة بعبق الإيمان الفواح، وعبيره الشذي، ونفحات الأعمال الصالحات، ونسائم الكلم الطيب الذي يملأ الأرجاء مسكًا وعنبرًا، ويشهد الأكوان على صلاح واستقامة أهل الإيمان، وأحقيتهم في قيادة موكب الإنسانية والإبحار بسفينتها إلى بر الأمان وضفاف السعادة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠ ].

ولقد عالج الإسلام مشكلة البطالة، ودعا للعمل الذي يجلب الرزق الحلال الطيب، ورفع من شأن كل مهنةٍ نافعة، فقد سخر الله الناس بعضهم لبعض، والمهن يكمل بعضها بعضًا، ولا يمكن الاستغناء عن أي حرفة أو صنعةٍ مفيدةٍ.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وهذا نبي الله موسى عليه السلام وقد تربى في قصر فرعون، وفر من حاضرة مصر ميممًا وجهه نحو البادية؛ ليعمل أجيرًا للشيخ الكبير، يرعى الغنم، ويأكل من كسب يده، وما من نبي من الأنبياء إلا وعمل وأكل من كسب يده، فالأنبياء هم قادة المجتمعات وروادها وقدوة الناس.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[القصص: ٢٦-٢٨].

وحين رأى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم ٦٠٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦١.

رجلًا يسأل الناس فيعيش على صدقاتهم دون أن يقدم للمجتمع عملًا صالحًا أعطاه درسًا مهمًّا حوله من عالة على المجتمع إلى صاحب مهنة يقتات منها وينفع به مجتمعه، فعن أنس بن مالكٍ (أن رجلًا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فقال: (أما في بيتك شيءٌ)؟ قال: بلى، حلسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعبٌ نشرب فيه من الماء. قال: (ائتني بهما). فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال: (من يشترى هذين)؟ قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهم. قال: (من يزيد على درهم)؟ مرتين أو ثلاثًا. قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: (اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به). فأتاه به، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودًا بيده ثم قال له: (اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا)، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا خيرٌ لك من أن تجيء المسألة نكتةً في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثةٍ: لذي فقرٍ مدقعٍ، أو لذي غرمٍ مفظعٍ، أو لذي دمٍ موجعٍ)[1].

## التحديات التي تواجه المجتمع المسلم

يواجه المجتمع المسلم مجموعة تحديات، منها:

### أولًا: الفقر:

تعيش الغالبية الكاثرة من المجتمعات المسلمة تحت خط الفقر، بما يؤثر سلبًا على حياتهم، ويحرم الكثير من حد الكفاف، ويجعل الأسر عاجزة عن تلبية ضرورات الحياة ومطالب الأبناء، فيقف الفقر حجر عثرة أمام التعليم والنهوض والارتقاء، من هنا تتجلى نعمة الاستغناء، ولقد امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أغناه. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨].

كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم يستعيذ كثيرًا من الفقر، فعن مسلم بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وعذاب القبر)[2].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، رقم ١٦٤٣، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب بيع المزايدة، ٢/ ٧٤٠، رقم ٢١٩٨.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٢٥٦، رقم ١٧٨٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ١٧، رقم ٢٠٣٨١، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٤/ ٤٨٤، رقم ٥٠٩٢.

وقد دعا القرآن الكريم إلى السعي في كسب العيش والأخذ بالأسباب المعينة على ذلك.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: ١٥].

وهيأ الله عز وجل الحياة لطلب العيش ويسر لذلك السبل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وما على العبد إلا أن يسير ويسلك السبل، ويطرق أبواب الرزق. وسعى الإسلام إلى تقليص الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فإن الغنى الفاحش يقابله فقر مدقع، كما هو الحال الآن في ظل النظام الرأسمالي المجحف المبني على الجشع والاستغلال، والقهر والإذلال، والتحرر من كل القيم الإنسانية والأخلاق والآداب الكريمة.

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر: ٧].

حتى لا يكون المال حكرًا على الأغنياء يتداولونه وحدهم فيما بينهم، ويستأثرون بالمغانم دون الفقراء والمساكين، كما كان في الجاهلية وكما هو الحال في ظل النظم الجاهلية الوضعية، فكم ينتج عنه من مفاسد وشرور وأحقاد وضغائن! بل يجب أن يدور المال دورته الطبيعية كما تدور الدماء في الجسم، حيث يضخه القلب فيصل إلى كل شريان وعرقٍ وخليةٍ وعضوٍ بقدر حاجته.

## ثانيًا: الجهل:

الجهل داء عضال وخطر داهم وآفةٌ مهلكةٌ؛ فالجاهل لا يميز بين الغث والسمين، ولا يفرق بين المنكر والمعروف، وشفاء الجهل طلب العلم والعمل به، علم الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧].

فمن مظاهر الجهل الغفلة عن السنن الربانية التي تضيء معرفتها للمسلم طريقه، وتزيده وعيًا وحكمةً وبصيرة، والجهل يورث الفقر، ويفضي إلى التأخر والتخلف عن ركب الحضارة، كما يؤدي إلى الوقوع في المنكرات، والخلط بين المفاهيم، واختلال موازين القيم، حتى يرى الجاهل

---

وصححه الألباني في الإرواء ٣/ ٣٥٦.

الحسن قبيحًا والقبيح حسنًا.

تدبر في حال قوم نوح عليه السلام ومقالتهم وجوابه على مزاعمهم بما يفند جهلهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٥-٢٩].

فالجهل يؤدي إلى اختلاط المفاهيم وانقلاب الموازين وانحراف المعايير حتى يقيس الأمور بغير مقياسها، فقد اعترضوا على بشرية الرسول مع عبادتهم لأحجارٍ من دون الواحد القهار، واعترضوا على اتباع نوح وطعنوا في دعوته بحجة أنه لم يستجب له إلا الضعفاء، وتلك سنة الدعوات أن أول من يلبي نداءها الفقراء والعبيد والضعفاء لما يعقدونه من آمال في التحرر، بينما ينصرف عنها كثير من الأغنياء والأقوياء، يصدهم غرورهم ويمنعهم كبرهم وتجبرهم وحرصهم على المال والجاه.

والجهل يفضي إلى الوقوع في المنكرات والضلالات كما وقع لقوم لوط.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥].

وصفهم بالجهل وهو الطيش والسفه الذي يدفع صاحبه إلى ارتكاب المنكر، دون إدراكٍ لأخطاره أو تحسبٍ لأضراره، كذلك الجهل المنافي للعلم؛ إذ لا يفعل هذه الموبقات إلا الجهال بخطرها وعاقبتها، أو نفى العلم عنهم وإن علموا بقبحها وسوء عاقبتها؛ لأن علمهم لم ينفعهم ولم يدفعهم عن هذا الجرم، فأضحى لا قيمة له، فهو بمثابة الجهل، والتعبير بالفعل المضارع مع مناسبته للفاصلة فيه دلالة على مضيهم في جهلهم وإصرارهم عليه، حتى إن الأيام لا تزيدهم إلا جهالة وضحالة، فهم في انحطاطٍ وتردٍّ.

وكما حدث لبني إسرائيل عندما نجاهم الله تعالى من فرعون وجنوده فقال: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

[الأعراف: ١٣٨].

أي «تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل»[1]؛ «إذ لا يقول هذا القول في الله إلا من جهل قدر الله، ولم يعرف ما لله من كمال وجلال»[2].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨].

ومع كثرة وسائل المعرفة وتقدمها بما يسهل سبل تحصيل العلم والمعرفة إلا أن هذه التقنيات لا تزيد كثيرًا من الناس إلا جهالة وسفهًا؛ نظرا لغواية وكيد القائمين عليها المهيمنين على وسائل الاتصال والمعرفة، مما ينعكس سوءًا على أفكار الناس وسلوكهم، فضلًا عن انتشار الجهل المركب بين حملة الشهادات العالية وبين من يدعي الثقافة، فترى جهلًا جهولًا في كلامهم وأحكامهم، ناهيك عن سلوكهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكم أحدٌ بعدي، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من **أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا**) الحديث[3].

## ثالثًا: الأمراض:

مما يترتب على الجهل والفقر كثرة الأمراض وانتشار الأوبئة، وفي عصرنا هذا مع التقدم في مجال الطب وكثرة كليات الطب والمستشفيات إلا أن ثمة أمراضاً منتشرة في المجتمعات الإسلامية بسبب سوء التغذية والتلوث البيئي والقصور في الجانب الوقائي، وغياب الوعي، والتقصير في جانب التربية مما يؤدي إلى الإهمال والفوضى والغش ويساهم في انتشار الأوبئة، وغير ذلك مما يرجع إلى تعطيل شرائع الإسلام التي جاءت بالخير والإحسان والعافية.

ولقد جاء القرآن بما فيه شفاء الأرواح والأبدان، وكذلك السنة النبوية استخلص منهما العلماء والحكماء معاجم للطب والدواء، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد أشار القرآن إلى ضرورة التوقي بالنظافة والتغذية المفيدة، وتحري الأدوية الناجعة، ونوه بكثير من الأطعمة النافعة، وأشار إلى جملة منها كعسل النحل.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٤٧٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، رقم ٨١.

﴿مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وكل شرائع الإسلام من وضوء وغسل وصلاة وصيام وحج وزكاة وذكر ودعاء فيها الشفاء والعافية للأبدان والأرواح، وللأفراد والمجتمعات، كذلك حرم الشرع كل ما فيه ضرر أو خطر على صحة الإنسان كالخمر ولحم الخنزير والدم المسفوح وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وأغلب ورود كلمة مرض في القرآن في مرض القلوب وسقم النفوس وتلبسها بالشبهات وتعلقها بالشهوات، ولقد شخص القرآن أمراض القلوب، وبين أعراضها ومخاطرها، وشرع الوقاية من تلك الآفات.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [الحج: ٥٣].

﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: ١٢].

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠].

والمتأمل في هذه الآيات يقف على جملة من أعراض أمراض القلوب وأخطارها:

- فمريض القلب لا يسلم بحقيقة مرضه غالبًا ولا يسعى للنجعة منه.
- ومرضى القلوب لا يزيدهم الدواء الناجع إلا مرضًا على مرض؛ لفساد ذوقهم وعمى بصيرتهم.
- ومريض القلب جبانٌ رعديدٌ عند الأهوال والمصاعب، يثير الهلع فيمن

حوله، فيزيد البلية.

- ومرض القلب بالشبهات، أي: بالشكوك والأوهام، وبالشهوات التي تتأجج في صدره.

ولاشك أن خراب الذمم وفساد الضمائر من أسباب الفساد الاجتماعي والبيئي والصحي، ويحضرنا في هذا السياق قوله تعالى في ذم النفاق وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦].

عن مجاهدٍ قيل له: «يا أبا الحجاج، وكيف هلاك الحرث والنسل؟ قال: يلي في الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم، فيحبس بذلك القطر من السماء، فيهلك بحبس القطر الحرث والنسل»[1].

## رابعًا: التعصب:

التعصب داء مقيت ينتشر بين الجهال وأصحاب البدع والأهواء، الذين يتعصبون لأهوائهم ويتشبثون بجهلهم، فيجعلون من التعصب غشاوة على أبصارهم تحجب عنهم نور الهدى، وتراهم يعشقون الباطل ويبغضون الحق وإن لاحت لهم أعلامه وظهرت حججه، فالتعصب مزلة الأقدام، ومظنة الجمود والأوهام، ومدعاة إلى الظنون وتتبع العثرات، وقائدٌ إلى سوء الظن والريبة في غير موضعها، والنفور من أهل العلم والجهالة والتسرع في الأحكام، وتمزق المجتمع.

وشفاء التعصب التجرد للحق، وتحري الصواب، والتثبت في الخبر.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ونبذ الأهواء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

فواجب المؤمن أن يذود عن حمى العدل، ولا يجنح إلى هوى، ولا يتعصب لقرابةٍ أو لغيرها من روابط على حساب العدالة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٠.

وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

فلا ينبغي للحكم أن يتسرع في إصدار الأحكام، بل يتروى ويتريث حتى يضع الأمور في نصابها.

يقول الإمام الغزالي: «إن التعصب من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والتهم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم»[1].

## خامسًا: التطرف:

هو الوقوع في حافة الإفراط أو التفريط، ويقابله التوسط وهو الاعتدال، وفي مجتمعاتنا تجد من يتحرر من أحكام الشرع ويتحلل منها، في مقابل من يغالي أو يتشدد، ولقد دعا الإسلام إلى التوسط والتوازن في أمور الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

كما دعا إلى الاعتدال في النفقة، فلا إسراف ولا تقتير ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقد ابتليت المجتمعات المسلمة ببعض المتشددين في أمور الدين المتنطعين، كما ابتليت بالمارقين عن دينهم المتساهلين في أحكامه المقصرين في شرائعه.

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها؛ فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر -أو غفر الله- له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا! وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا! فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٤٠.

**وكذا! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء! فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[1].

في مقابل ذلك فلابد من الجد والسبق إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، دون توانٍ أو تقاعسٍ، فقد قال تعالى ليحيى عليه السلام وهو في ريعان الصبا: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم:١٢].

أي: بجدٍ وحرص ومواظبة واجتهاد، وتمسكٍ بما فيه من أحكامٍ وإرشاد، فلا يضعف ولا يتراجع ولا يتقاعس عن رسالته ودعوته التي وكل بها، وامتدح الله أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠].

والتشديد في الفعل يدل على بلوغ الغاية في حسن التمسك وشدة الحرص وقوة العزيمة في الأخذ بالكتاب، فلا تهاون ولا تفريط.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

فكما تتوق النفوس إلى معالي الرتب الدنيوية وإلى تحقيق الأفضل وإحراز الأحسن في أمور الدنيا، فالمؤمن همته للآخرة همةٌ عاليةٌ ونفسه لنعيمها تواقة وروحه لها وثابة.

## سادسًا: كيد الأعداء:

الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله تعالى، والعداء للحق حقيقة لاشك فيها، فمنذ أن صدع النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ربه وأعداء الإسلام يسعون إلى إضعاف المسلمين وبث بذور الفرقة بينهم، كما يسعون إلى صرفهم عن دينهم وشغلهم عن كتاب ربهم وتعطيل شريعة الإسلام، ولقد كشف القرآن عن أعداء الإسلام وبين مكائدهم وحذر من حيلهم وأساليبهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[النساء:٤٤-٤٥].

وعن عداوة اليهود لنا قال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة:٨٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٤٧٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ١٤٠١.

فقد رأينا ولا زلنا نرى صورًا ومشاهد من عداوتهم للمسلمين وكيدهم بالمؤمنين.

وعن مخاطر المنافقين وعداوتهم ومكرهم أسهب القرآن في ذلك، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية من ذم النفاق والمنافقين، من ذلك سورة المنافقين التي يقول الله فيها: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون:٤].

كما بين القرآن سبل الوقاية من مكائد الأعداء كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

قال ابن كثير: «يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[1].

## سابعًا: فتن الشبهات:

يسعى أعداء الإسلام جاهدين إلى تشكيك المسلمين وصرفهم عن دينهم، بإثارة غبار الشبهات.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

فمنذ أن بزغ فجر الإسلام والمعركة بين الحق والباطل لم تتوقف، وجنود الباطل لم يكفوا عن زخرفتهم للأباطيل وإثارة غبار الشبه على صفحة الحق.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:١١٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[الفرقان:٣١].

ولهذه الشبه أخطار داهمة على المجتمعات المسلمة، ولاسيما مع انتشار الجهل وانحسار العلم وتمكن أعداء الدين وأدعيائه من وسائل الإعلام والتأثير وصناعة القرار، فكان لهذا أثرٌ سيئ على المجتمعات المسلمة، يحتاج إلى جهدٍ جهيدٍ لمجابهته والتخلص من تبعاته.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٠.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: (كنا عند عمر رضي الله عنه فقال: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنت لله أبوك. قال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه). قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يكسر. قال عمر: أكسرًا لا أبا لك؟! فلو أنه فتح لعله كان يعاد. قلت: لا بل يكسر. وحدثته أن ذلك الباب رجلٌ يقتل أو يموت. حديثًا ليس بالأغاليط). قال أبو خالدٍ: «فقلت لسعدٍ: يا أبا مالكٍ، ما أسود مربادا؟ قال: شدة البياض فى سوادٍ. قال: قلت: فما الكوز مجخيًا؟ قال: منكوسًا»[(١)].

## ثامنًا: فتن الشهوات:

الاستغراق في الشهوات سبيل من سبل الغواية والضلال، وسلاح الشهوات سلاح شيطاني يتصيد به من وقع في حبائله.

والشهوات خلقها الله تعالى لابتلاء العباد ولتستقيم الحياة.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤].

فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد والبلاء أعظم، وحذر من الافتتان بهن بما يصد المؤمن عن واجباته الشرعية، أو يحمله على الوقوع في المحظورات من أجل إرواء شهوة، والاعتدال في هذا هو المحمود، قال ابن كثير رحمه الله: «فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه»[(٢)].

والناس من جهة الشهوات قسمان: «قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، رقم ١٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٢.

أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانًا لعباده؛ ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون بها على وجه الاستعانة بها على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فجعلوها معبرًا إلى الدار الآخرة، ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم»[(١)].

ولقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من خطوات الشيطان التي يسعى من خلالها إلى الإفساد والإغواء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١].

«ووقوع هذه الآية بعد الآيات العشر التي في قضية الإفك مشيرة إلى أن ما تضمنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة كله من وساوس الشيطان»[(٢)].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ أي: «ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء، أمارة به، والنقص مستولٍ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلي وهذه الدواعي ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات»[(٣)].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ قال: «ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير»[(٤)].

كما نهى الإسلام عن كل ما يثير الغرائز ويضرم نار الشهوات، فتستعر في غير محلها وتتوقد في غير حلها.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٤٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٣.

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٠/ ٦٨٨، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

[الأحزاب: ٣٢-٣٤].

وشرع الإسلام الحدود زواجر وكفارات لمن وقع في الخنا.

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ١-٢].

ولقد استغل أعداء الإسلام هذا السلاح الإبليسي في إضعاف أمة الإسلام والسيطرة عليها، فجهدوا في إغراق المسلمين في بحار الشهوات المتلاطمة.

فتحت شعار الحرية دفعوا المرأة إلى التحرر من القيم والأخلاق وخلع الحجاب، وتحت شعار المساواة زجوا بها في شتى ميادين العمل؛ لتزاحم الرجال، وتختلط وتخلو وتسافر بدون محرم.

وباسم الفن صارت المرأة المسلمة من صانعات الإغراء، تلهب المشاعر، وتؤجج العواطف، وتثير الغرائز.

فمن أسباب الوهن والهزيمة لزوم الشهوات، قال الإمام الشافعي: «من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء الدنيا»[1].

ولقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتنة النساء، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء)[2].

**موضوعات ذات صلة**

**الاجتماع، الإحصان، الأمة، السماحة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة، اليتيم**

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٠/ ٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم ٢٧٤٠.







## عناصر الموضوع

| | |
|---|---|
| مفهوم المحبة | ٦٠ |
| المحبة في الاستعمال القرآني | ٦١ |
| الألفاظ ذات الصلة | ٦٢ |
| أنواع المحبة | ٦٣ |
| صفات تستوجب حب الله للعبد | ٨٣ |
| آثار المحبة ونتائجها | ٨٦ |



## مفهوم المحبة

### أولًا: المعنى اللغوي:

أصل المحبة مأخوذ من حبب التي هي بمعنى اللزوم والثبات، ومنه يقال: أحبه حبا ومحبة إذا لزمه[١].

والحب: نقيض البغض. والحب: الوداد والمحبة[٢].

والحب: المحبة، وكذلك الحب بالكسر[٣].

### ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: المحبة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا[٤].

وقال الكفوي: الحب: هو عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذ[٥].

فتكون العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي علاقة اللازم بالملزوم، فالمحبة انفعال نفسي يلزم منه ويعقبه الميل والانجذاب إلى المحبوب[٦]، والله أعلم.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٦، المفردات، الراغب ص ٢١٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨٩.
(٣) الصحاح، الجوهري ١/ ١٠٥.
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب ص ٢٥٦، المفردات، الراغب ص ٢١٤.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٣٩٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٢٥.



## المحبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حبب) في القرآن الكريم (٨٣) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

| الصيغة | عدد المرات | المثال |
|---|---|---|
| الفعل الماضي | ٦ | ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧] |
| الفعل المضارع | ٦٣ | ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ [القيامة:٢٠] |
| المصدر | ١٠ | ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٨] |
| أفعل التفضيل | ٣ | ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣] |
| اسم | ١ | ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] |

وجاءت المحبة في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[2]:

**الأول: الإيثار:** ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾[ص: ٣٢].

يعني: آثرت حب الخير.

**الثاني: المودة:** ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ﴾[آل عمران: ٣١].

**الثالث: القلة:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[الإنسان: ٨]. يعني: على قلته.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الحاء، ص٤١٨-٤١٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٧٧-١٧٨.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ الشغف:

**الشغف لغة:**

أن يبلغ الحب شغاف القلب، وهو جلدة دونه[(١)].

**الشغف اصطلاحًا:**

احتراق القلب بالحب مع لذة يجدها[(٢)].

**الصلة بين الشغف والمحبة:**

علاقة الأعم بالأخص إذ الشغف محبة خاصة.

### ٢ الخلة:

**الخلة لغة:**

(الخليل) الصديق، والجمع (أخلاءُ)[(٣)].

وهي أخص من الأخوة[(٤)].

**الخلة اصطلاحًا:**

أخوة خاصة لأخ معين من بين سائر الإخوان لشدة الموافقة بينه وبين أخيه. قال ابن القيم: وهي أعلى مراتب المحبة[(٥)].

**الصلة بين الخلة والمحبة:**

العلاقة بين المحبة والخلة علاقة الأعم بالأخص؛ إذ الخلة مودة خاصة خالصة، وهي أعلى مراتب المحبة.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٤٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣١٦، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٧٩.

(٢) الكليات، الكفوي ص ٣٩٨.

(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٩٦.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٥٤.

(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٣٢.



## أنواع المحبة

### أولًا: المحبة المباحة:

ورد لفظ الحب في القرآن والسنة بكل جوانبه الطبيعية والشرعية، فالجوانب الفطرية أو الطبيعية مثل حب الآباء والأبناء والأزواج وحب المال وسائر الشهوات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

والمحبة الفطرية هي التي يحب فيها الإنسان الشيء بمقتضى فطرته، كمحبته للنوم، والطعام والشراب، والمال والولد، والوطن. وفي الحديث الذي أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل)[1].

وأخرج عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال، وطول العمر)[2].

هذه هي المحبة الفطرية الجبلية كما وردت في النصوص الشرعية.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فمعنى هذا أن الإسلام يعترف بالواقع النفسي للإنسان، ويقره على هذا الواقع، أن لديه نزعات فطرية نحو هذه الشهوات من مال وبنين ونساء وما شابه ولم يأت الإسلام ليستأصل هذه النزعات من كيان الإنسان، وإنما جاء ليهذبها، وليحول دون انفلاتها، لكنها محترمة لدى الإسلام، هذه النزعات لا ينظر إليها الإسلام بازدراء أو احتقار، عاطفة الإنسان، مشاعر الإنسان؛ لأن الإسلام دين الفطرة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فكيف يكون دين الفطرة ثم يحتقر هذه النزعات الفطرية لديك؟! إنما هناك ضوابط لهذه النزعات، أن تحب المال فليس هذا منكرا في الإسلام، لكن كيف تجمع هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، ٨/ ٨٩، رقم ٦٤٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، ٨/ ٩٠، رقم ٦٤٢١.

المال؟ وكيف تكسبه؟ وكيف تنفقه؟ المهم، نريد أن نركز على جانب واحد.

إن الإسلام دين سمح يعترف بعواطف الناس ومشاعرهم، ولا يصدمها، فهو لا يصدم الفطرة، ولا يصدم العقل، ولا يصدم المشاعر، دين يتطابق مع الفطرة.

والمحبة الشرعية هي التي أمر الشارع بها أمر وجوب أو استحباب، كقوله صلى الله عليه وسلم: **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)**(١).

والمحبة العقلية وهي يميل إليها ويقرر حسنها كما تقول: (الكرم محبوب) أي أن العقول تقر أن الكرم والنظافة والقوة محبوبة لدى الإنسان، وكما تقول للكافر: أحب فيه الحلم والصبر، أي أنك تحب الأوصاف الموجودة فيه محبة عقلية، لا شرعية، ولا فطرية.

وإن كان يظهر بادئ الأمر أن بينهما تلازمًا، لكن في حقيقة الأمر أنه ليس بينهما تلازم، بل بينهما تداخل، والفرق بينهما أن المحبة الفطرية قد تكون موجودة، لكن تتخلف المحبة العقلية، كمن أحب المال ويبخل به محبة فطرية، ويعلم هو بعقله حسن الكرم والجود، ولكن غلبت محبته الفطرية محبته العقلية، وكذلك العكس يكون محبة النساء والبنين وغير ذلك، وهذا نوع لا يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله، ولا يخرج من الإسلام، وذلك مثل محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيحبها الإنسان محبة شهوة، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ونحو ذلك. وحتى نفرق بين الحب في الله وبين المحبة مع الله في هذا النوع الثاني فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول**: أن يحبها لله، أي: أن يحب المال والنساء ونحو ذلك لله، توصلًا بها إليه، واستعانة على مرضاته وطاعته، فهذه يثاب عليها، وهي من قسم الحب لله؛ ولذا يثاب عليها ويلتذ بالتمتع بها، وهذه حال أكمل الخلق الذي حبب الله إليه من الدنيا النساء والطيب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر ذلك في الحديث الصحيح(٢)، وكانت محبته لها عونًا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره، وهذا يدخل فيه ما يشبهه، مثل: محبة النكاح لمن أراد العفاف، ومثل أن يأكل الإنسان الأكلة يتقوى بها على طاعة الله، ومثل أن ينام النومة ليستعين بها على الصلاة وعلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، ١/ ١٢، رقم ١٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ٣٠٥، رقم ١٢٢٩٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩٩، رقم ٣١٢٤.

عبادة الله في الليل، وغير ذلك من الأمور، فتتحول هذه الأمور المحببة إلى النفس إلى نوع عبادة وطاعة؛ لأنها تؤدي إلى ما يحبه الله تبارك وتعالى ويرضاه.

القسم الثاني: أن يحب هذه الأمور لموافقة طبعه وهواه وإرادته، ولكنه لم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه، بل نالها بحكم النيل الطبيعي، فهذه تكون من قسم المباحات ولا يعاقب عليها، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه بمقدار ما يغلو في هذه الأمور، أي أنه إذا زاد فيها عن الأمر المعتاد فربما ينقص حبه لله أو محبته في الله بقدر غلوه وزيادته في تلك الأمور، وهذا أمر مشاهد، فإن من تعلق بالدنيا أو تعلق بالنساء فلابد أن ينقص من محبته لله والمحبة في الله بمقدار ما زاد من ذلك التعلق.

القسم الثالث: أن تكون هذه الأمور التي ذكرناها آنفًا هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها، وتقديمها على ما يحبه الله ويرضاه، ففي هذه الحالة تكون له حالتان:

الأولى: أن يقدمها على ما يحبه الله في أصول الدين وأصول العبادة، مثل أن يقدم المال على عبادة الله، أو يقدم محبته للنساء على عبادته لله تبارك وتعالى مثل الصلاة ونحوها، فهذه قد تذهب بأصل دينه.

الثانية: أن يقدمها بحيث تؤثر على عباداته لله، لكن لا يقدمها بالكلية، مثل أن تشغله دنياه عن المحافظة على الصلاة في أوقاتها أو نحو ذلك من العبادات، ففي هذه الحالة يتحول صاحبها إلى أن يكون ظالمًا لنفسه مقصرًا عاصيًا، ولكنها لا تخرجه عن دائرة الإيمان[1].

إذا علمنا هذا تبين لنا أن المحبة الفطرية مما تألفه النفس فطرة، فلو أبعد الإنسان مثلًا عن موطنه حن إلى عبق ريحه وسحر جباله ووهاده، وتذكر ماضيه، واعتصر القلب إلى أطلاله ورؤية ترابه، وهو نوع من المحبة الفطرية.

لذلك كان من عظيم فضل الله تعالى أن جعل جزاء من يموت في الهجرة الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

يقول المفسرون: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجنة[2].

بل جعل الله تعالى من أسباب قتال العدو الإخراج من الديار والوطن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ

(١) انظر: المحبة في الله، عبدالرحمن المحمود ص ١٢-١٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٧.

﴿عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فجاء التعبير عن حب الوطن (حبًا فطريًا) كعزة ماله وولده أحيانًا لديه.

ولذلك جعل الشرع من مصارف الزكاة المسافر المنقطع به، كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وإن كان غنيًّا في وطنه فيصرف له وقت انقطاعه حتى يعود؛ رعاية لجانب الغربة التي هي مظنة المشقة، كما قال صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه)[(١)].

وعلة السفر موجودة في فراق الوطن، وكما قال أهل العلم: مفارقة المألوفات أشد المكروهات.

## ثانيًا: المحبة المحمودة:

وللمحبة المحمودة صور كثيرة، منها:

١ . محبة الله تعالى.

وهذا من أعظم الواجبات، فقد جاء لفظ الحب في القرآن والسنة لبيان حب الله لعباده المؤمنين في مثل قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

فإن الله تعالى أوجب علينا ذلك وتوعد من خالف فيه بقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فنحن مأمورون بحب الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه)[(٢)].

يقول مصطفى السباعي: «من أنست نفسه بالله لم يجد لذة في الأنس بغيره، ومن أشرق قلبه بالنور لم يعد فيه متسع للظلام، ومن سمت روحه بالتقوى لم يرض إلا سكنى السماء، ومن أحب معالي الأمور لم يجد مستقرًا إلا الجنة، ومن أحب العظماء لم يقنعه إلا أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أدرك أسرار الحياة لم ير جديرًا بالحب حق الحب إلا الله تبارك وتعالى»[(٣)].

فمن عرف الله تعالى أحب الله، وعلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العمرة، بابٌ السفر قطعةٌ من العذاب، ٣/ ٨، رقم ١٨٠٤.

(٢) انظر: كنز العمال، رقم ٣٤١٥٠، ١٢/ ٩٥.

(٣) السيرة النبوية، مصطفى السباعي ص٢٣.

قدر معرفته بالله يكون حبه لله، ولهذا فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس حبًا لله؛ لأنه كان أعرفهم بالله، يقول عليه الصلاة والسلام: (أنا أعلمكم بالله)[1].

يقول الحسن البصري: «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟!»[2].

والله تعالى يحب، ومن أحبه الله كان مع الله، في معيته، وتحت حفظه وعنايته جل في علاه، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ومعية الله تعالى لمن يحب هي معية خاصة يخص بها أحباءه وأولياءه، معية نصر وتكريم، وعناية ورعاية، فضلا عن المعية العامة التي هي معية العلم المحيط الشامل، ففي الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني)[3].

والله تعالى يحب، ومن أسمائه «الودود»، وقد ذكر لفظ: «الودود» في القرآن الكريم مرتين: في سورة هود حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وفي سورة البروج حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

والود: الحب، ومعنى الودود: المحب للمؤمنين الذي يودهم ويودونه، ويحبهم ويحبونه.

ولا يجعل المؤمن محبة غير الله تعالى فوق محبة الله. فالله تعالى يتوعد من شغلته محبة غيره عن محبته جل في علاه، وأصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته العبودية[4]: «إن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة (لانصباب القلب إليه)، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال: تيم الله أي: عبد الله. فالمتيم هو المعبد لمحبوبه»[5].

وهكذا يكون طريق المحبة: أوله أمر إلهي وآخره طاعة لله تعالى واستجابة لأمره.

وفيما أخرجه البخاري بسنده عن أبي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا أعلمكم بالله)، رقم ٢٠، ١/ ١٣.

(٢) السيرة النبوية، مصطفى السباعي ص ٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، رقم ٧٤٠٥، ٩/ ١٢١.

(٤) العبودية، ابن تيمية ص ١٣.

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ص ١٩٨.

هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[1] الحديث.

وأخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟) فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أخبروه أن الله يحبه)[2].

كما ورد ما يثبت حب المؤمنين لربهم عز وجل وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وروي (أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : متى الساعة يا رسول الله؟ قال: (ما أعددت لها؟) قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: (أنت مع من أحببت)[3].

كيف نحب الله تعالى؟

إن المتدبر والمتأمل لهذه الآية الكريمة التي صدرنا بها ليشعر بالخوف والرهبة من هذا الوعيد الشديد، ولعل السؤال المطروح كيف نحب الله تعالى؟

إن القاعدة في عرف البشر أنهم لا يحبون ما لا يعرفون، ويحبون ما يعرفون لا من ينكرون.

وحب الله تعالى يتحقق بمعرفتنا لله تعالى، فكلما زادت معرفة العبد بربه زاد حبه له، وكلما فكر في نعم الله عليه قوي حبه لربه؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، فالإنسان بعقله يؤمن، وبقلبه يحب، وهل الإنسان إلا عقل يدرك، وقلب يحب!

وحتى يتحقق حب الله يلزم أن تحب الآخرة، فالدنيا لا يجتمع حبها مع حب الآخرة في قلب واحد؛ ولذا حذرنا منها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٣١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ٩/ ١٤٠، رقم ٧٣٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة (قل هو الله أحد)، ١/ ٥٥٧، رقم ٨١٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، ٨/ ٤٩، رقم ٩١٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، ٤/ ٢٠٣٣، رقم ٢٦٣٩.

الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيرا، من ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل). وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)[(٢)].

وحب الله تعالى هو حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: «المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله، لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من محبة محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة!!»[(٣)].

والمحبة لا توصف ولا تعرف، إنما يعرفها من وجدها وذاقها، وإنما البحث في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن، رقم ١٣٢٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ٦.

والمتتبع للأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، يجد أنها عشرة:

«أحدها: قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد، ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان، والقلب، والعمل، والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه، وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها، وتقلبها في رياض هذه المعرفة، وميادينها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة، والفرعونية، والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره، وإحسانه، وآلائه، ونعمه الظاهرة والباطنة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب لأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار، والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل»[1].

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة.

أما في علامات المحبة-: فيقول ابن القيم: «تالله، ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد من قال الله تعالى عنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

البينة على صحة الدعوة، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تقبل إلا ببينة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب صلى الله عليه وسلم في أفعاله، وأقواله، وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين، وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك»، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى» اهـ[1].

فالمحبة حقيقة العبودية، وإنما تمكن الأعمال الأخرى -من الحمد، والشكر، والخوف، والرجاء، والصبر، والزهد، والحياء، والفقر، والشوق، والإنابة- باستمرار المحبة في القلوب، وهي حقيقة الإخلاص، بل حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله.

**٢ـ محبة الله تعالى للعبد.**

حب الله لعباده صفة من صفاته، منزهة عن مشابهة صفات المخلوقين، ونصوص الكتاب والسنة تؤكد ذلك أتم تأكيد.

وجمهور السلف على إثبات حب الله لعباده كصفة من صفاته كما يليق بذاته سبحانه، بلا كيف ولا تأويل ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها، كما أنهم يثبتون محبة العباد لربهم محبة حقيقية قلبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث، وجميع مشايخ الدين المتبعون،

(١) مدارج السالكين ٣/ ٨.

وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية، بل هي أكمل محبة، فإنها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية»[١].

ومع وضوح هذا الأمر إلا أن أهل الأهواء والبدع من الجهمية ومن تابعهم من المتكلمين حادوا عن إثبات حب الله لعباده كصفة من صفاته سبحانه وتعالى، متأولين محبته سبحانه بإرادة الإحسان، أو بإحسانه وإنعامه على عباده، كما أنهم أولوا محبة العباد لربهم بأنها محبة طاعته، أو محبة إحسانه وثوابه[٢].

وهذا التأويل -مع بطلانه- يؤدي إلى إنكار المحبة، ومتى بطلت المحبة بطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، وخلت الأعمال من روحها؛ إذ هي أصل، كما أنها عمل ديني، فإنكارهم للمحبة إنكار لحقيقة الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة في قلبه لله ورسوله فلا إيمان له ألبتة[٣].

والله جل في علاه يحب من أحب دينه واتبع ملته وشريعته، يحب ربي من أخلص له وأناب إليه، ولاذ إلى رحابه، يحب من يتسامى في حبه، ويجاهد في سبيله لنصرة دينه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والله تعالى يحب التوابين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

«والمرء عندما يخطئ في حق الله تعالى، ويقع في المعصية، وبحر الشهوات، ويتلطخ بأدران الإثم، ثم يصحو الضمير ويستيقظ، ويطارد الخطيئة، ويحس بثقلها على نفسه كأنها الجبل، ويتجسم أمام عينيه فظاعة ما ارتكب في حق الله تعالى وتضيق الأرض بما رحبت، فلا يلجأ إلا إلى الله تعالى، ففراره من الله إلى الله تعالى، إليه الملجأ وإليه المآل»[٤]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والله تعالى يلقي محبته على من يحبه، وأي منزلة أعلى، بل وأي درجة أكمل من أن

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٠/ ٦٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٢١، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠٥.
(٣) انظر في الرد على هذا التأويل: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٦/ ١٤٧٧، مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١٨.
(٤) انظر: حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة، محمد بن خليفة التميمي ص ٣٨.

يقول الله تعالى لعبده: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]! فمحبة الله تعالى العزيز المتعال، وهو في عليائه وكبريائه، للعبد وهو في ذله وضعفه هو العطاء عينه، وهي النعمة والمنة من الله تعالى ذي الكرم والجود، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٣. محبة النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد حثت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على وجوب محبته صلى الله عليه وسلم أكثر من النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[التوبة: ٢٤].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «في الآية دليل على وجوب حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف في ذلك، وأن ذلك مقدم على كل محبوب»[(١)].

إن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم معناها: أن يميل قلب المسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ميلًا يتجلى فيه إيثاره على كل محبوب، من نفس ووالد وولد والناس أجمعين؛ وذلك لما خصه الله من كريم الخصال وعظيم الشمائل، وما أجراه على يديه من صنوف الخير والبركات لأمته، وما امتن الله على العباد ببعثته ورسالته، إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لمحبته عقلًا وشرعًا.

ويؤكد هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[(٢)]. أي: لا يكمل إيمان من كان أهله وماله أحب إليه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد يقال: إذا حصلت هذه المحبة فهل يلزم من هذا أن يكون المحب مؤمنًا كاملًا وإن لم يأت بسائر الأركان؟

يجيب الكرماني رحمه الله تعالى قائلًا: «هذه مبالغة، كأن الركن الأعظم فيه هذه المحبة، نحو لا صلاة إلا بطهور وهي مستلزمة لها. أو يلتزم ذلك لصدقه في الجملة، وهو عند حصول سائر الأركان؛ إذ لاعموم للمفهوم»[(٣)].

فالإيمان إذن يستلزمه إتيان سائر أركانه مع اقتران المحبة بذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم، من الإيمان، ١/ ٦٩.

(٣) الكواكب الدراري، الكرماني ١/ ٩٥.

قال ابن تيمية: «وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله»[1]. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعلى ذلك فلا تنفك إحدى المحبتين عن الأخرى، فمن أحب الله أحب رسوله، وكذلك سائر رسله، ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم تبع لمحبة من أرسله. ولأجل هذا جاء حب الرسول صلى الله عليه وسلم مقترنًا بحب الله عز وجل في أكثر النصوص الشرعية.

وفي الحديث: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[2].

وهذا الارتباط بين المحبتين ارتباط شرعي لا ينفك، فمن زعم أنه يحب الله ولم يحب رسوله أو العكس، فكلامه باطل واعتقاده فاسد.

يقول النووي ملخصًا كلام القاضي عياض[3]: «وبالجملة فأصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه، كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذه بعقله للمعاني الباطنة كحب الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه ودفع المضار والمكاره عنه، وهذه المعاني كلها موجودة في النبي صلى الله عليه وسلم لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم، ودوام النعم، والإبعاد من الجحيم»[4].

وحب المسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمل قلبي من أجل أعمال القلوب، كما ذهب إليه البيضاوي فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر: عند شرح قوله: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) قال: «المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس»[5].

وقد تعقبه صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد بقوله: « كلامه على قواعد الجهمية

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٦٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن ٨/ ٨٩، رقم ٦٤١٦.
(٣) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ٢٩ - ٣٠.
(٤) شرح صحيح مسلم ٢/ ١٤.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٠- ٦١.

ونحوهم من نفي محبة المؤمنين لربهم ومحبته لهم والحق بخلاف ذلك، بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حبًّا قلبيًّا، وأما مجرد إيثار ما يقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النذر، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحب ولازمًا له. لا أنه الحب»[1].

ثم إن إدراك العقل للكمال أو الخير أو أي معنى من المعاني الفاضلة لا يكفي حتى نسميه حبًّا، بل لابد مع ذلك من الميل القلبي والتعلق النفسي.

وتمثيله حال من آثر محبة الله ورسوله -وإن كان على خلاف هوى النفس- بحال المريض مع الدواء المر -الذي تعافه نفسه، ويميل عقله إلى تناوله- تمثيل غير مناسب وغير لائق أيضًا.

لأن من كانت محبته لله ورسوله كمحبة المريض للدواء المر جدير بأن يقال: أنه وجد مرارة الإيمان لا حلاوته.

وإنما يجد حلاوة الإيمان من كان هواه وقلبه في تلك المحبة مناصرًا لعقله ومسايرًا له جنبًا إلى جنب[2] وإذا كان هناك من فسر حب الله ورسوله بأنه حب عقلي، فهناك من يظن أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تعني طاعته، وهذا فهم خاطئ؛ إذ أن محبته هي أساس طاعته، والطاعة شرط للمحبة وثمرتها.

فالطاعة أمر زائد على المحبة ومترتب عليها، كما أن هذا الحب أمر زائد على الإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسمو أخلاقه وعظمة تعاليمه، إذ نرى كثيرًا ممن لا ينتسبون إلى الإسلام، ولا يؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم يبدون إعجابهم وتقديرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويفيضون في بيان جوانب عظمته، ومع ذلك لا يمكن أن نسمي هذا الإعجاب حبًّا شرعيًّا، حتى يكون هناك إيمان بدين الإسلام.

ولقد كان أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم يحبه ويحوطه ويصد عنه أذى قريش بما استطاع، ومع هذا فلم يثمر ذلك حبًّا وإيمانًا منه بدين الإسلام؛ لأن حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان حب قرابة وحمية جاهلية.

نخلص من هذا إلى أن المحبة الحقيقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي المحبة الشرعية الإرادية الاختيارية، وهي عمل قلبي من أَجَلِّ أعمال القلوب، ورابطة من أوثق روابط النفوس تربط المسلم

(١) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله ص٤٧٦.

(٢) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز ص٤٤٠.

برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجعل قلبه وهمه وفكره وإرادته متوجهة لتحصيل ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

والصلة بين المحبتين هي صلة الفرع بالأصل والتابع بالمتبوع، فمحبتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تابعة لمحبتنا لله عز وجل؛ إذ هي أساس المحبة الدينية الشرعية ومصدرها، وكل ما سواها من المحاب الشرعية تبع لها. وذلك كمحبة الأنبياء والصالحين، ومحبة كل ما يحبه الله ورسوله.

**٤ . حب المؤمنين.**

إذ أن الحب من أسمى وأرقى العواطف الإنسانية، فإذا توجهت هذه العاطفة النبيلة لله تعالى، وكانت هي محور العلاقات بين المسلمين، ذللت كثيرًا من الصعاب، وأثمرت كثيرًا من الثمار الطيبة في حياة الأمة، ولقد جاءت أدلة عديدة تؤكد هذا المعنى الرائع، وتبين المكانة الرفيعة لمن أنعم الله به عليه، منها: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم في الله) قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس)** وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس٦٢][(١)].

فحب المؤمنين من أعمال القلوب العظيمة الثواب والجليلة الجزاء، أن يحب المسلم إخوانه المسلمين محبة دينية، لا لأجل غرض دنيوي.

وهذه المحبة من علامات حب العبد لله ولرسوله؛ لأن حب المؤمنين ناشئ من إيمانهم بالله تعالى؛ فهو يحب كل ما يحبه الله تعالى ويحبه رسوله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله يحبان المؤمنين؛ ولذا فالمؤمن يحب المؤمن، فيحب إيمانه وطاعته وعبادته، وهو من علامات سعادة العبد في هذه الحياة، ومن أسباب تذوق حلاوة الإيمان التي لا يجدها إلا المؤمنون.

روى الإمام البخاري في صحيحه، عن أنسٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره**

(١) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في الرهن، ٣/ ٣١١، رقم ٣٥٢٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٣٦٨، رقم ٣٤٦٤.

أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

وإنما كانت هذه الخصلة تالية لما قبلها؛ لأن من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فقد صار حبه كله له، ويلزم من ذلك أن يكون بغضه لله، وموالاته له، ومعاداته له، وألا تبقى له بقية من نفسه وهواه، وذلك يستلزم محبة ما يحبه الله من الأقوال والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك، وكذلك من الأشخاص، ويلزم من ذلك معاملتهم بمقتضى الحب والبغض، فمن أحبه الله أكرمه وعامله بالعدل والفضل، ومن أبغضه لله أهانه بالعدل؛ ولهذا وصف الله المحبين له بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك)[2]، فلا تتم محبة الله ورسوله إلا بمحبة أوليائه وموالاتهم، وبغض أعدائه ومعاداتهم. وسئل بعض العارفين: بما تنال المحبة؟ قال: بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، وأصله الموافقة.

والمؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحس بحرارة الحب في قلبه. وقد أمرنا ديننا بالحب، ودعانا إليه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي)[3].

وعن أنس بن مالك أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة يا رسول الله؟ قال: (وماذا أعددت لها)؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: (أنت مع من أحببت)[4].

يقول أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (أنت مع من أحببت).

وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. قال: (المرء مع من أحب)[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، ٥/ ٢٦٨، رقم ٣٢٣٥.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص١٧٥، رقم ١٢٣٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب النبي، ٣/ ٦٤٤، رقم ٣٩٨٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٢٧، رقم ١٧٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، ٨/ ٣٩، رقم ٦١٦٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله، ٨/ ٣٩، رقم ٦١٦٨.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل. فقال: إني أحب فلانا فأحبه. قال: فيحبه جبريل، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل عليه السلام، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض)[1].

وتظهر أسس الإيمان: المحبة والمودة في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم)[2].

ويقول عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه -أو قال لجاره- ما يحب لنفسه)[3].

**٥. حب المهاجرين والمجاهدين.**

نلحظ أن المتتبع لآيات المهاجرين والمجاهدين التي وردت في القرآن الكريم يجد أنها تفيض حبًّا ونصرةً وتأييدًا ووعدًا بالجزاء الأوفى، فقد جاء في القرآن الكريم ذكر المهاجرين في (إحدى وعشرين) آية، منها ما يربط بين الإيمان والهجرة والجهاد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

ومنها ما يؤكد هذا الربط بين الإيمان والهجرة والجهاد، وأنهم لا يرجون إلا رحمة الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ٢١٨].

وذهب العلماء إلى أن محبة المهاجرين، وتوقيرهم، وبرهم، والولاء لهم، ومعرفة حقهم مطلوبة من المسلمين؛ لما لهم من الفضل السابق إلى الإيمان والهجرة. وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)[4].

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله ذكر منهم: (ورجلان تحابا في الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ١/ ٧٤، رقم ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٦.

اجتمعا عليه، وتفرقا عليه)[1].

والأخوة في الله لا تنقطع بنهاية هذه الدنيا، بل هي مستمرة في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومنها ما يؤكد أن أجر المجاهد على الله تعالى وحده في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

ويصف الله تعالى المهاجرين أنهم المؤمنون حقا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

كما وصفهم الله تعالى بأنهم أعظم درجة وأنهم هم الفائزون، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

كما أخبر الله تعالى أن المهاجرين ممن رضي الله تعالى عنهم، وما أعظمه من فضل! فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولم يقتصر هذا على الحب والرضا، ولكن تبوءهم في الدنيا مكانة إضافة إلى أجرهم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

كما وعدهم الله تعالى بالمغفرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

كما وعدهم بالرزق الحسن في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وفي ختام جملة الأوصاف للمهاجرين بأنهم هم الصادقون إضافة إلى حبهم للمهاجرين ولو كان لهم بهم حاجة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ٢/ ١١١، رقم ١٤٣٢.

﴿صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٨ - ٩].

٦. **محبة الجهاد.**

أولى القرآن الكريم أهمية عظمى للجهاد والمجاهدين، وجعل المجاهدين في أعلى الدرجات، ورغب في الشهادة أيما ترغيب، وحمل على الفرار والفارين؛ ذلك أن الجهاد سياج للأمة من طمع الطامعين، ومن تكالب المتكالبين، ووعد المجاهدين بالمغفرة والتي لا تكون إلا بعد المحبة[1].

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ومن هذا المنهج الرباني حرم الإسلام التثبيط عن الجهاد، بل جعل من أكبر الكبائر الفرار من ساحة القتال؛ لأن الإسلام ربى أبناءه على حب الجهاد في سبيل الله تعالى. وهؤلاء المنهزمون والمثبطون والقاعدون عن الجهاد فضحهم القرآن الكريم في قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: لو كانت هناك غنيمة سهلة ورحلة ميسرة لساروا معك، ثم يتابع القرآن الحديث عن هؤلاء فيقول: ﴿وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: أنهم يهلكونها بهذا الحلف الكاذب، يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في القعود عن الجهاد، فيقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مبينًا موقف المؤمنين وغير المؤمنين من الجهاد، فيقول: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ - ٤٥].

ولقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن الذين لم يخرجوا للجهاد مستأذنين في القعود، وأعلن أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأن قلوبهم مرتابة، وأنهم في ريبهم يترددون. أما الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يقول فيما رواه مسلم: **(من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق)**[2].

ومع توعد الله تعالى المثبطين والقاعدين عن الجهاد مع القدرة خزيًا في الدنيا، وفي الآخرة عذاب عظيم. وهو في نفس الوقت

(١) انظر: حب الجهاد في سبيل الله، عادل عامر ص ١٨-٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، ٣/ ١٥١٧، رقم ١٩١٠.

يخبرنا أن المؤمنين الذين لا يستجيبون لهؤلاء المثبطين يزداد إيمانهم.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إنهم المجاهدون المؤمنون، الصابرون المتوكلون، الذين توعدهم الناس بالجموع الكبيرة وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك وما جبنوا، بل زادهم ذلك إيمانًا وثباتًا وعزيمة؛ لحسن توكلهم على الله، ويقينهم بما وعدهم الله به، فاستعانوا به وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فهو حسبنا وكافينا، ونرضى به وحده وكيلًا وحافظًا. كما توعد الفارين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

## ثالثًا: المحبة المذمومة:

وهذا نوع يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك، وهذا كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم مع الله كما يحبون الله، فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد، وشدة بغضها وبغض أهلها، ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه، كما نعلم ذلك جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فكل رسول إنما بعث بالإيمان بالله، وبالكفر بالطواغيت وبغضها، ومعاداتها، ومحاربتها ومحاربة أهلها.

ومن الحب المذموم حب المصالح والذات: لقد أودع الله هذه الغريزة في الإنسان حيث إنه عن طريقها يحمي نفسه ويخاف على حياته. لكن حينما يطلق العنان لهذه الغريزة لتوجه شخصيته وعلاقته بالآخرين فإنه ينتقل بنفسه من هذا المفهوم الفطري إلى مفهوم الأنانية، هذا المرض العضال الذي يفوق خطر كل غريزة؛ لأنه يستخدم بقية الغرائز لإشباع متطلباته، وجاء الإسلام لاستئصال هذا المرض أو ترويضه في إطار شرعي حيث قال عليه الصلاة

والسلام عن أنس بن مالك: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1].

«قال العلماء: معناه: لا يؤمن الإيمان التام، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة»[2].

ويدل على أن المراد من النفي في هذا الحديث نفي كمال الإيمان، أنه قد جاءالحديث عند ابن حبان بلفظ: (لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير)[3].

إن أكبر مشكلةٍ تعانيها البشرية تبدأ في عالم الفرد، عندما يغلب الإنسان مصلحته على مصلحة الآخرين ومهما كان الثمن، وهذا هو تعريف الأنانية الذي ينطلق من الأنا.

وعرفوا الأثرة: فقالوا: «أن يختص الإنسان نفسه أو أتباعه بالمنافع من أموال ومصالح دنيوية ويستأثر بذلك، فيحجبه عمن له فيه نصيب، أو هو أولى به»[4].

والحب المذموم قسمان:

أحدهما: من يجب على العبد أن يبغضهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهذا نفي عام يدل على أن المؤمن الصادق لا يكون في قلبه مودة لهم أبدًا، وهذا الأمر مما وقع الخلط فيه في أزمتنا المتأخرة، واختلت فيه بعض الموازين.

القسم الثاني: مما يبغض في الله: من يبغضون بغضًا ليس كاملًا، وهؤلاء هم المؤمنون الذين يقعون في فسق أو في بدعة غير مكفرة، فهؤلاء لهم محبة عامة؛ لأنهم مسلمون، ولكن يجب بغض ما عندهم من فسق أو بدع، وهذا أيضًا مما وقع فيه الخلل عند بعض الناس، فإنهم قد يحبون الفساق أو أهل البدع؛ نظرًا لأنهم غير كفار، وميزان الحق في هذا أن تكون محبتهم محبة عامة؛ لأنهم مسلمون مؤمنون بالله، لكن لا تكون محبة كاملة، بحيث تجعلهم سواسية مع المؤمنين المتقين، فنبغض ما فيهم من فسق أو بدعة أو فجور، نبغض هذا في الله تبارك وتعالى. وبتحقيق هذا الأصل -البغض في الله- يكتمل الأصل الأول الذي تحدثنا عنه سابقًا، وهو الحب في الله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ١٦.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ١/ ٤٧١، رقم ٢٣٥.

وصححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم ١٧٨٠.

(٤) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٩/ ٣٧٧١.

## صفات تستوجب حب الله للعبد

حب الله لعباده جاء في القرآن الكريم في (١٣) آية، كان نصيب المحسنين ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٥) منها، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٤) منها، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢)، و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ مرة واحدة وكذلك ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ مرة واحدة، وحب الآخرين إيثار لهم على الذات وتقديم ما يسعدهم في حياتهم. فكانت الكلمة، وجاءت المضامين التعبيرية لتحددها بدقة لفظية فكل ما في حياتنا يحدده التعبير اللغوي، ويصفه ويعطيه حقه ومكانته وموضوعيته، اللغة ترسم وتغني معاني الطبيعة والعلوم والمشاعر، وتقدس الإله وتمجده، والوجود بكامله ينطبع بكلمات اللغة.

ووردت المحبة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تميزت فيها أنواع من الحب، وقد جمعت آية كريمة بين حب العبد وحب الله، وحددت صفات من يحبون الله ويحبهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

حيث إن حب الله يأتي فعلًا لله عز وجل مثبتًا تارة ومنفيًا تارة، متعلقًا بفئات من العباد، أو بأنواع من الفعال والصفات.

ففي صيغة الإثبات، نجد أن الله عز وجل ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

و﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ و﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

و﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

و﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وأشار الله سبحانه وتعالى إلى محبته لموسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

الحب في القرآن الكريم ضد الكره: لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والحب هو متعة نفسية في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

حب الاتباع والمتبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن حب العبد لله عز وجل ليس مجرد شعور قلبي يلهج به اللسان، ولا مجرد كلمات يتفنن في نظمها، وقديمًا ادعى اليهود والنصارى أنهم أحباء الله فرد الله عليهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]؛ ولذلك وقطعًا لكل ادعاء كاذب لحب الله جاءت القاعدة الربانية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي المقابل نجد في صيغة النفي أن الله عز وجل ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

و﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

و﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

و﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فقال تعالى ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

و﴿لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

و﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

و﴿لَا يُحِبُّ﴾ أيضًا ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ و﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وفي كل هذه الموارد وغيرها، وسواء في ذكر ما يحبه الله عز وجل أو مالا يحبه، لا يستعمل الصيغة المصدرية الدالة على الثبات، بل يستعمل صيغة اسم الفاعل التي يتلبس فيها الفعل بالإنسان، وتلتصق الصفة به محمودة كانت أم مذمومة، إلا في موضعين ذكر فيهما الاسم: أحدهما يتعلق بالفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ويتعلق الثاني بالجهر بالسوء ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

والمتأمل في هذه الفعال المحبوبة: (الإحسان، التقوى، التوبة، التطهر، الصبر، التوكل، القسط)، يجد أنها تجمع أهم ما يحمد في الإنسان الاتصاف به، وما يجعله محبوبًا مقبولًا عند الله وعند الناس، وفي المقابل تمثل الصفات غير المحبوبة: (الكفر، الظلم، العدوان، الخيانة، الإسراف، الاستكبار) أنموذجا لكل ما تنفر منه النفس وتأباه الفطر السليمة.

وقد وقف بعض العلماء عند معني حب الله تعالى للعبد، وحاولوا تفسير هذا الحب بما يليق بجلال ذاته عز وجل وما تقضيه من تنزيه، ففسروه بالإنعام، وهو معنى تأباه سياقات الآيات، كما أنه تأويل للمحبة بالإنعام وهذا يخالف المنهج الصحيح للتفسير.

أما حب العبد لله عز وجل، فهو من مقتضيات الإيمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

بل إنه من موجبات أعلى درجات الإيمان، جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في

**الكفر كما يكره أن يقذف في النار)**[1].

إن حب الله ليس بالأمر الهين الذي يسهل ادعاؤه إذن؛ لأنه حب يقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل شيء: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

## آثار المحبة ونتائجها

### أولًا: الاقتداء والمتابعة للمحبوب:

أثر محبة الله وأثر تحقيق المحبة أنها: تثمر لصاحبها علوًا ورفعةً في الدرجة، لم يكن ليصل إليها لولا هذه المحبة، إن قصر بك عمل الجوارح من أن تجاهد كجهادهم، أو أن تأمر بالمعروف كأمرهم، أو تتعبد كعبادتهم، فيجب أن تحبهم بقلبك، وأن تسأل الله تبارك وتعالى مرافقتهم، وأن تبغض من أبغضهم، وتعادي من عاداهم، وبذلك تصل بإذن الله تبارك وتعالى من الخير الكبير، وأن تصل إلى قربهم أو أن تدنو منهم، وهذا شرف عظيم، وفخر كبير، وغاية لو شمر لها العابدون والساعون الدهر كله لكانت مستحقة لذلك.

فحقيقة المحبة إذًا هي ما قدمنا من حيث علاقتها بالإيمان والعبادة، حيث إن المحب على الحقيقة لا يقدم أمرًا ولا نهيًا على أمر ونهي من يحبه وهو الله تبارك وتعالى، مما يثمر ذلك لديه الاستقامة في السر والعلانية، وفي كل شأن من شئون الحياة، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل اتباعه امتحانًا لحقيقة المحبة وامتثالها.

ومن علامات المحبة الصادقة لله ولرسوله التزام طاعة الله، والجهاد في سبيله، واتباع رسوله، قال الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

وصف سبحانه المحبين له بخمسة أوصاف.

أحدها: الذلة على المؤمنين: والمراد بها لين الجانب والرأفة والرحمة للمؤمنين وخفض الجناح لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ووصف أصحابه بمثل ذلك في قوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[الفتح: ٢٩].

وهذا يرجع إلى أن المحبين لله يحبون أحبابه ويعودون عليهم بالعطف والرحمة[(١)].

الثاني: العزة على الكافرين، والمراد بها الشدة والغلظة عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[التحريم: ٩].

وهذا يرجع إلى أن المحبين له يبغضون أعداءه، وذلك من لوازم المحبة الصادقة.

الثالث: الجهاد في سبيل الله وهو مجاهدة أعدائه بالنفس واليد والمال واللسان، وذلك أيضًا من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبة.

الرابع: أنهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ والمراد: أنهم يجتهدون فيما يرضى به من الأعمال، ولا يبالون في لومة من لامهم في شيء إذا كان فيه رضى ربهم، وهذا من علامات المحبة الصادقة أن المحب يشتغل بما يرضى به حبيبه ومولاه، ويستوي عنده من حمده في ذلك أو لامه.

الخامس: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وطاعته، واتباعه في أمره ونهيه، وقد قرن الله بين محبته ومحبة رسوله في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

والمراد: أن الله لا يوصل إليه إلا عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم باتباعه وطاعته.

قال ابن رجب: «ومحبة الرسول على درجتين: إحداهما: فرض وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله وتلقيه بالمحبة والرضا، والتعظيم، والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه من تصديقه

(١) انظر: الشفاء، القاضي عياض ص ٢٥.

في كل ما أخبر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لابد منه، ولا يتم الإيمان بدونه»[1].

والدرجة الثانية: «فضل، وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه، ونوافله وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة والراقية، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاة والسلام عليه لما سكن في القلب من محبته، وتعظيمه، وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين، ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا الفانية، والاجتزاء باليسير منها، والرغبة في الآخرة الباقية»[2]، اهـ.

ومن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، وأن يسعى في مرضاته ما استطاع، وأن يبعد عما حرمه الله، ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله صلى الله عليه وسلم ويمتثل أمره، ويترك نهيه كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ٨٠].

وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، هذا وقد نهى الله سبحانه عن موالاة أعدائه في مواضع كثيرة من القرآن، وأخبر أن موالاتهم تنافي الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنها سبب للفتنة والفساد في الأرض، وأن من والاهم ووادهم فليس من الله في شيء، وأنه من الظالمين الضالين عن سواء السبيل، وأنه مستوجب لسخط الله وأليم عقابه في الآخرة، والآيات في هذا كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة: ٥١].

فمن أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة ومحبة من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) انظر: تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجرات، حمود التويجري.ص٦٢.
(٢) استنشاق نسيم الأنس، ابن رجب ص ٧٣.

﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وفي النص على الأقارب دليل على أن مصارمة من سواهم من الكفار مطلوبة بطريق الأولى والأحرى.

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «أخبر الله أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكفار وإن من كان مؤمنا لا يوالي من كفر وإن كان من عشيرته»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرًا فمن واد الكفار فليس بمؤمن»، اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

والركون: هو المحبة والميل بالقلب، إذا علم تحريم موالاة أعداء الله تعالى وموادتهم فليعلم أيضًا أن الأسباب الجالبة لموالاتهم وموادتهم كثيرة جدًا، ومن أقربها وسيلة مساكنتهم في الديار، ولاسيما في ديارهم الخاصة بهم، ومخالطتهم في الأعمال، ومجالستهم، ومصاحبتهم، وزيارتهم، وتولي أعمالهم، والتزيي بزيهم، والتأدب بآدابهم، وتعظيمهم بالقول والفعل، وكثير من المسلمين واقعون في ذلك»[٢].

المحبة في الله سبب لنيل محبة الله: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: **( أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكًا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)**[٣].

والحب في الله من علامات صدق الإيمان: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله)**[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاث من**

(١) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٥٢.

(٢) السيرة النبوية، مصطفى السباعي ص١٧-١٩ بتصرف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٣٢٤، رقم ١٨٤٦٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٣، رقم ٢٠٠٩.

كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[(١)].

ومن يظلهم الله في ظله المتحابون فيه: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)[(٢)].

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (رجلان تحابا في الله)[(٣)].

والحب في الله سبيل الجنة: قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[(٤)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ٢/ ١١١، رقم ١٤٣٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ١/ ٧٤، رقم ٥٤.

## ثانيًا: الطاعة والانقياد للمحبوب:

إن من أصول محبة الله أن تترجم طاعة وانقيادًا له وتتبع لمرضاته ومحابه، فالمحبة أصل كل حركة، وأساس كل عمل[(٥)].

ولقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ضوابط هذه المحبة وطرق الطاعة في أكثر من (اثنتي عشرة) آية، منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤ - ٦٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

وقال أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٩٢.

[النساء: ٨٠].

وقال أيضًا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١ - ٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال العز بن عبد السلام: «محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبد معاملة المحب لحبيبه من المبادرة لطاعته، والمسارعة لما يرضيه، والتحرز من أسباب سخطه، والاحتياط لأسباب رضاه»[(١)] ولا تنبعث همة العبد للقيام بأنواع العبادة المختلفة كما تنبعث عندما تحركها محبة الله؛ إذ أن هذه المحبة هي أقوى محركات القلوب إلى الله[(٢)]، كما أنها تبعث في العبد قوة ونشاطا لخدمة المحبوب وطاعته. فإذا ما صحت المحبة وصدقت، أثمرت عبودية تامة لله تعالى يشترك في تحقيقها القلب واللسان والجوارح جميعها.

المحبة هي أصل عبودية القلب، ولها عظيم الأثر في تحققه بالعبودية، ومن ذلك:

المحبة في تحقيق الخوف والرجاء: فإذا تمكن حب الله تعالى من قلب عبده المؤمن أثمر له خوفًا ورجاءً، فإن كل من أحب محبوبًا فلابد أن يخاف فواته كما يرجو لقاءه.

كذلك فالمحب يكون في حبه خائفًا متضائلًا تحت الهيبة والتعظيم، كذا يكون رجاء المحب لجنته التي هي دليل رضاه،

(١) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ص٥٣.
(٢) محركات القلوب إلى الله تعالى ثلاثة هي المحبة والخوف والرجاء.
انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٩٥.

وأشد منه رجاؤه القرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم.

«فالخوف والرجاء متلازمان، ويستحيل انفكاك المحب عنهما، وإن كان قد يغلب أحدهما على الآخر، وهما مجتمعان، وذلك عندما يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه»[(١)].

وتتحقق أثر المحبة في تحقيق الرضا بأقدار الله تعالى إذ أن من آثار محبة الله تعالى الرضا بأقداره حلوها ومرها، «فإن المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يصاب بها دونه، فإذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاته، فلا يجزع على ما ناله؛ لأنه يرى محبوبه عوضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عوضًا منه، فكل مصيبة عنده هينة إذا أبقت عليه محبوبه»[(٢)].

كذلك فعندما يغلب الحب على قلب العبد وتنصرف همته للفوز بمحبوبه، فإنه ينسى ما يصيبه من ألم، ولا يلتفت له، منشغلًا عنه بترقب ما يحب، والتجربة والمشاهدة دالة على ذلك. كما أن المحب يقبل كل ما يأتيه من حبيبه ويرضى عنه، لاسيما إن كان يعرف ربه، ويحسن الظن به، يعرف رحمته، وعدله، وعظمته، وغناه، وفضله وكرمه، وعلمه ولطفه؛ ولهذا كانت قصص العارفين المحبين في رضاهم بأقدار ربهم أقرب ما تكون إلى الخيال عند من ضعفت بالله معرفتهم ومحبتهم. قال ابن القيم: «من صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنـزل به، فيها من ضروب المصالح التي لا يحصيها علمه ولا فكرته»[(٣)]، ولهذا فإنه دائمًا شاكرًا حامدًا راضيًا مهما تقلبت به الأيام، ومهما اختلفت به الأحوال، إذ لا يأتي من الحبيب إلا الخير وإن لم يدركه العبد، ورحمة الله تتمثل في الممنوع كما تتمثل في الممنوح[(٤)].

أثر المحبة في تحقيق الصبر على طاعة الله: فذاك أمر آخر للعبد المحب منه أعظم الحظ وأوفر النصيب، فكلما زادت معرفته وصدق حبه ارتقى عن مجرد الصبر عليها إلى حبها والاستلذاذ بها، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)[(٥)].

ومن هنا «يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ١٤١.
(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤١٧.
(٣) الفوائد، ابن القيم ص ٨٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٢٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

الله، ومتقربًا إليه بالنوافل»[1].

للمحبة أثر بالغ في الولاء والبراء: إذ المحب من حبه لحبيبه يحب كل من يحبه ويواليهم وينصرهم، كما يبغض أعداءه ويتبرأ منهم، فحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

فالإيمان بالله يستلزم مودته تعالى، ومحبته، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك يتنافى مع موادة من عاداه وحاده[2].

فالمؤمنون الصادقون يحبون جملة من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام عملًا واعتقادًا، ويحبون من وجه من معهم من الخير على قدر ما معهم منه، ويبغضونهم على قدر ما معهم من الشر، وكذا يبغضون جملة من كفر أو ألحد أو صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله[3]، لا اعتبار في حبهم وبغضهم لصلات قربى أو هوى نفس، وإنما الاعتبار هو الحب في الله والبغض فيه.

وقد ضرب أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكذا سلف الأمة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمثلة عليا في الولاء لله ورسوله والمؤمنين، والبراءة من أعدائه، مهما كانت صلات قرابتهم أو مبلغ مودتهم قبل اعتناق الدين الحق، وفي قصة إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه وقومه، وفي قصة أبي عبيدة بن الجراح ومصعب بن عمير وغيرهم رضي الله عنهم أصدق الشواهد على ذلك.

وتتحقق أثر المحبة في تحقيق عبودية الجوارح، ومن ذلك دوام الذكر، فالمحبة كلما قويت في القلب جعلت العبد دائم اللهج بذكر ربه تعالى، حامدًا شاكرًا، مهللًا مكبرًا، كما تتحقق أثر المحبة على قراءة القرآن للمحبين مع كلام الله، فصلتهم بالقرآن قوية، يأتمرون بأمره، ويقفون عند نهيه، ويتعظون بوعظه.

ولا شك أن العبادات الظاهرة على سائر الجوارح دليل على وجود محبة الله تعالى في قلب العبد؛ إذ أن محبته تعالى هي أصل أعمال الإيمان كلها، وهي الباعثة على الطاعات كلها، والطاعة والاتباع هما دليل صدقها[4] ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

(١) المحبة والشوق والأنس والرضا، الغزالي ص٧٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٧٥٢.

(٣) انظر: إرشاد الطالب، ابن سحمان ص١٣، والولاء والبراء، القحطاني ص١٣٤.

(٤) انظر: موعظة المؤمنين، القاسمي ص٤١٨.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن ذلك المحبة في تحقيق الصلاة، فالمحب يحب تكرار اللقاء، فيقبل على النوافل فرحًا بوقوفه بين يدي ربه جل وعلا.

ومن أثر المحبة تحقيق الجهاد والدعوة، فالمحب لا يألو جهدًا في الدعوة إلى سبيل مرضاته، وتعريف العباد به، وبذل كل غالٍ في سبيله؛ ولهذا وصف الله الذين يحبهم ويحبونه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمن امتلأت قلوبهم بمحبته باعوا نفوسهم لله تعالى يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وكذلك فللمحبة أعظم الأثر في تحقيق الصيام، والحج له، والزكاة اتباعا لأمره جل وعلا، وغيرها من العبادات التي إن قام بها العبد بدافع من محبته لربه تعالى كانت أكمل وأفضل.

فالمحبة دافع على منتهى الاجتهاد في الطاعة، «من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه»[(١)].

فالمحبة والمعرفة والإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع العبادات وآتت ثمارها، فإن انضم لدافع المحبة دافع الخوف والرجاء كانت العبودية أكمل والاستقامة آكد.

## ثالثًا: الحشر مع المحبوب:

إن المتأمل في الآيات التي جاء فيها لفظ الحشر ليدرك أنها جاءت لتؤكد الحشر والجمع مع من كان يحبون أو يعبدون، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ

(١) القول لعتبة بن غلام.
انظر: روضة العقلاء، ابن حبان ص٥٦٤.

﴿طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وفي هذه الآيات دلالة واضحة على أن الذين أجرموا حشروا مع أقرانهم، وأن الذين آمنوا حشروا مع أقرانهم، فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ هن حقٌ: لا يجعل الله من له سهمٌ في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى الله عبدٌ فيوليه غيره، ولا يحب رجلٌ قومًا إلا حشر معهم)[(١)].

ومن الأحاديث المشهورة في هذا المعنى حديث أنسٍ رضي الله عنه، (أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: (وماذا أعددت لها)؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أنت مع من أحببت). قال أنسٌ: (فما فرحنا بشيءٍ فرحنا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أحببت، قال أنسٌ: فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم)[(٢)].

والحب المقصود هنا نوعان:

**الأول**: المحبة الدينية، أي المحبة لأجل الدين والمعتقد، فمن أحب الصالحين لصلاحهم وأحب ما هم عليه من التقوى والدين، رجي أن يجمعه الله بهم في جنته، ومن أحب الكفار لكفرهم ومعتقدهم، ووالاهم على ما هم فيه، كان ذلك أيضًا سببا لدخول النار معهم.

قال ابن بطال رحمه الله: «بيان هذا المعنى أنه لما كان المحب للصالحين إنما أحبهم من أجل طاعتهم لله، وكانت المحبة عملًا من أعمال القلوب، واعتقادًا لها، أثاب الله معتقد ذلك ثواب الصالحين؛ إذ النية هي الأصل، والعمل تابع لها، والله يؤتي فضله من يشاء»[(٣)].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٦/ ٢٩٣، وفي المعجم الصغير ٢/ ١١٤.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، ٨/ ٣٩، رقم ٦١٦٧.

(٣) باختصار من شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٣٣٣.

في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حبًا دينيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩][1].

ويقول ابن حجر الهيتمي رحمه الله في حديثه عن كبيرة محبة الظلمة أو الفسقة وبغض الصالحين-: «عد هذين كبيرة هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة: (المرء مع من أحب) وله وجه؛ إذ الفرض أنه أحب الفاسقين لفسقهم، وأبغض الصالحين لصلاحهم، وظاهر أن محبة الفسق كبيرة كفعله، وكذا بغض الصالحين؛ لأن حب أولئك الفاسقين وبغض الصالحين يدل على انفكاك ربقة الإسلام وعلى بغضه، وبغض الإسلام كفر، فما يؤدي إليه ينبغي أن يكون كبيرة»[2].

الثاني: المحبة الموجبة لتشابه الأعمال والأخلاق، فمن أحب أحد العلماء الصالحين وتشبه بما هو عليه من الصلاح والتقوى دخل الجنة بذلك، ومن أحب الفاسقين أو الكافرين، وأدت به محبته إلى التشبه بأحوالهم ومعاصيهم كان معهم في العقاب أيضًا.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: «قال الحسن: يا ابن آدم! لا يغرنك قول من يقول: (المرء مع من أحب) فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم، وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك، من غير موافقة في بعض الأعمال، أو كلها: لا ينفع»[3].

أما الحب الدنيوي الذي يكون باعثه قرابة أو صداقة أو مصلحة مادية أو زواج أو غير ذلك من أسباب الدنيا الفانية، فلا يكون سببًا للجمع في المحشر أو المصير، فالمسلم الذي يحب والدته غير المسلمة حبًا فطريًا، ولا يحشر معها، وغير المسلم الذي يحب صديقه المسلم مثلًا من غير إسلام واتباع لا يحشر معه، وهكذا كل أنواع المحبة الدنيوية لا مدخل لها في معنى هذا الحديث.

ويقول الزرقاني رحمه الله: «(المرء مع من أحب) في الجنة بحسن نيته من غير زيادة عمل؛ لأن محبته لهم لطاعتهم، والمحبة من أفعال القلوب، فأثيب على ما اعتقده؛ لأن الأصل النية، والعمل تابع لها، ولا يلزم من المعية استواء الدرجات، بل ترفع الحجب حتى تحصل الرؤية والمشاهدة، وكلٌّ في درجته».

وقال السخاوي: «قال بعض العلماء: ومعنى الحديث أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم، قال الحسن البصري: من أحب قومًا اتبع آثارهم، واعلم أنك لن تلحق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٥.
(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٨٤.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين ٢/ ١٦٠.

بالأخيار حتى تتبع آثارهم، فتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي على مناهجهم؛ حرصًا أن تكون منهم»[1].

ومع ذلك ننبه الشباب إلى أن التعلق باللاعبين والممثلين -بأخبارهم وأحوالهم وأيامهم- إنما هو من الأوهام والخيالات التي لا تجر إليهم إلا كل فساد وشر، وهي الباب للتخلق بأخلاقهم، والعمل بمثل أعمالهم؛ فإن بين الظاهر والباطن ارتباطا لا يجهله أحد، والمشاكلة في الظاهر توجب المحبة في الباطن، وهكذا العكس بالعكس.

أما الحب النافع فهو حب الصالحين والناجحين والمبدعين فيما يعود بالنفع على الأمة والبشرية جميعًا، حبًا يدفع نحو التقدم والنجاح في الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وهذا الحديث حق؛ فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبًا من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك.

والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه إذا كان المحب قادرًا عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة، يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك وإن كانت موجودة، وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته مع العلم بالتضاد..»[2].

موضوعات ذات صلة:

الرضا، الغضب، الكره

(١) انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٥/ ٣٠٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٧٥٢.



# محمد صلى الله عليه وسلم

عناصر الموضوع


| | |
|---|---|
| التعريف بمحمد صلى الله عليه وسلم | ١٠٠ |
| ذكر محمد عليه السلام في القران الكريم | ١٠٢ |
| أوصاف نودي بها النبي في القرآن | ١٠٣ |
| صفته عليه السلام في الكتب السابقة | ١٠٨ |
| صفة محمد عليه السلام في القران | ١٢٤ |
| خلقه عليه السلام من خلال القرآن | ١٤١ |
| منزلته عند الله عز وجل | ١٥٣ |




# التعريف بمحمد صلى الله عليه وسلم

## أولًا: اسمه ونسبه:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب -واسم عبد المطلب: شيبة - بن هاشم - واسم هاشم: عمرو - بن عبد مناف - واسم عبد مناف: المغيرة - بن قصي -واسم قصي زيد- بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسم مدركة: عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [(١)].

واسم (محمد) «منقول من صفة، وهي في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة. كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة. وكذلك الممدح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه. فهذا علم من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقًا عليه، فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ»[(٢)].

«وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم. وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى أحمد أي: أحمد الحامدين لربه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدًا »[(٣)].

وقيل: إنه « مبالغة في المفعول، أي: الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثرهم مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها»[(٤)].

«ثم إنه لم يكن محمدًا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه؛ فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال: اسمه أحمد. وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. فلما وجد وبعث كان محمدًا بالفعل»[(٥)].

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٨٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٨ / ١٠٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٨٤.



وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي)**[١].

وعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: **(أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الملحمة)**[٢].

ويعود نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وهو من قبيلة قريش، أفضل العرب وأشرفها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله عز وجل اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)**[٣].

وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ولدته: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب.

وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته حتى شب: حليمة بنت الحارث بن سجنة السعدية. من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، بن مضر[٤].

ومات أبوه عبد اللَه بن عبد المطلب -ورسول اللَه صلى اللَه عليه وسلم حمل في بطن أمه- بالمدينة[٥].

## ثانيًا: زمانه ومكانه:

ولد صلى الله عليه وسلم في مكة، عام الفيل، يوم الاثنين، في شهر ربيع الأول، واختلف في تحديد تاريخه[٦]. وبعث صلى الله عليه وسلم وعمره أربعون سنة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٥، رقم ٣٥٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم.

(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ١/ ١٨٣.

(٥) انظر: إمتاع الأسماع، المقريزي ١/ ٩.

(٦) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ١/ ١٩٩.

## ذكر محمد عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم باسم (محمد) في القرآن الكريم (٤) مرات، في (٤) سور، وهي:

| السورة | الآيات |
|---|---|
| آل عمران | ١٤٤ |
| الأحزاب | ٤٠ |
| محمد | ٢ |
| الفتح | ٢٩ |

وهناك موضع خامس: عدل فيه إلى اسم أحمد بسبب وقوعه في سياق الإخبار عن بشرى عيسى عليه السلام ببعثته عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف:٦].

## أوصاف نودي بها النبي في القرآن

كل نداء نودي محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم كان بأوصاف، لا باسمه الشريف.

ومن تلك الأوصاف:

١. النبي والرسول.

إن أكثر ما يدعى به محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم النبي والرسول، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].

وقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وتعلن هاتان الصفتان عن منزلة التكريم التي يمتدح الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ويشهد له بها: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

وقد وقع العدول في هذه الآيات ونحوها عن مناداته صلى الله عليه وسلم باسمه إلى مناداته بوصفي «النبي» و«الرسول» بغرض التكريم وبيان رفعة المنزلة، وذلك أن «الأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفًا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤].

أو تلطف وتقرب نحو: يا بني ويا أبت، أو قصد تهكم نحو: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر:٦]»[١].

فأما لفظ (النبي) فهو مشتق من (نبأ) أو (أنبأ) بمعنى: أخبر[٢].

والنبوة: «سفارة بين الله وبين ذوي العقول؛ لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم»[٣].

«والنبي: من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة، أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشرائع كلها»[٤].

وأما الرسول فـ: «هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة، فالنبي أعم من الرسول»[٥]، وكلاهما صفة مدح وتشريف في حق محمد صلى الله عليه وسلم.

ولإن كانت صفتا (النبي) و(الرسول) أكثر صفتين يدعى بهما في القرآن الكريم، فإنهما الصفتان اللتان يوصف بهما عليه

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٣٨.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١ / ١٤٤٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٧ / ٢١٥.
(٥) المصدر السابق.

الصلاة والسلام للناس في سياق الحث على الإيمان به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء:١٧٠].

وعلى الإقرار بالحق الذي جاء به: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥].

وعلى طاعته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩].

وعلى اتباعه وترك التقدم بين يديه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات:١].

وعلى توقيره ومعرفة قدره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات:٢].

وعلى ترك ما يؤذيه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣] ونحو ذلك بمعنى: قد وجب ذلك له؛ لأنه نبي الله ورسوله.

كما نسبه الله عز وجل إلى ذاته العلية رفعًا لشأنه وتعظيما لمقامه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢].

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب:٤٠].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٦١].

وهذه نسبة تشريف، ورفع لقدره، ودلالة على مقامه، حتى اختصه الله بخلته، وقرن اسمه باسمه عليه الصلاة والسلام.

٢. المزمل والمدثر.

ومن الأسماء التي دعي بها محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم:

(المزمل) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل:١-٢].

وتعني: « الملتف في ثيابه، وأصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي، فثقلت. وكل من التف بثوبه فقد تزمل»[1].

(المدثر) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر:١-٢].

وأصله أيضًا: « المتدثر، فأدغمت التاء، كما في المتزمل، وهذا في قول الجمهور؛

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٨٥.

من التدثير بالثياب. وقيل: المعنى: يا أيها المدثر بالنبوة، وأثقالها، قال عكرمة: دثرت هذا الأمر فقم به »[1].

ولهذين الاسمين ارتباط بما روى البخاري في كتاب التفسير من حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:(جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماءً باردًا. قال: فدثروني وصبوا علي ماءً باردًا. قال: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر:١-٣].)[2].

ولأن الحديث نص على أن الواقعة نزلت بسببها سورة المدثر، فقد ذكرها الإمام البخاري سببا لنزولها وحدها دون آيات سورة المزمل، وإن كان الحديث قد تضمن لفظ «زملوني» وكذلك فعل مشاهير المفسرين[3]، ثم ذكروا في سبب تسميته صلى الله عليه وسلم بالمزمل أوجهًا.

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فرقًا منه حتى أنس به. وقال السدي: كان قد تزمل للنوم. وقال مقاتل: خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل: يا أيها المزمل. وقيل: أريد به متزمل النبوة. قال عكرمة: في معنى هذه الآية: زملت هذا الأمر، فقم به»[4].

والمتأمل لهذه الأقوال يجد أن بعضها حمل اللفظ على ظاهره، ويحتاج عند ذلك إلى الاستناد على واقعة تنقل من طريق الرواية، وهي أن يكون قد تزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل خوفًا منه حتى أنس به، أو أن يكون قد تزمل للنوم، أو أن يكون قد خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل: يا أيها المزمل. وأما باقي الأقوال فقد عدل عن الظاهر فقيل: أراد متزمل النبوة، أو زملت هذا الأمر، فقم به.

قال ابن العربي: « واختلف في تأويله، فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له: يا من تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم، قاله إبراهيم وقتادة.

ومنهم من حمله على المجاز كأنه قيل له: يا من تزمل بالنبوة. روي عن عكرمة أنه قال: معناه يا من تزمل، أي: زملت هذا الأمر

(١) المصدر السابق ٦ / ٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق)، ٦/ ١٦١، رقم ٤٩٢٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٧٨-٦٧٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٣٢-٣٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤٩.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٨٥.

فقم به »[1].

ثم قال: « فأما العدول عن الحقيقة إلى المجاز فلا يحتاج إليه لاسيما وفيه خلاف الظاهر؛ وإذا تعاضدت الحقيقة والظاهر لم يجز العدول عنه.

وأما قول عكرمة: إنك زملت هذا الأمر فقم به؛ وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل.

وأما قول من قال: إنه زمل بالقرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه كما قدمنا لا يحتاج إليه[2].

وهذا النداء كما عدل فيه عن مناداته صلى الله عليه وسلم باسمه، فقد عدل فيه عن مناداته بـ «النبي» و «الرسول».

فأما العدول فيه عن وصف النبي والرسول، فـقيل في سببه: « إنما لم يخاطب بالنبي والرسول هاهنا، لأنه لم يكن قد بلغ، وإنما كان في بدء الوحي »[3].

وفيه ملاطفة للنبي صلى الله عليه وسلم، كما فيه تنشيط لمن حاله النوم كي يقوم للعبادة، قال القرطبي: « وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له:(قم يا أبا تراب) إشعارًا له أنه غير عاتب عليه، وملاطفة له. وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة: (قم يا نومان) وكان نائمًا ملاطفة له، وإشعارًا لترك العتب والتأنيب. فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: « يا أيها المزمل قم » فيه تأنيس وملاطفة؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة»[4].

ولعل في الوصفين تنبيها إلى الحال التي صار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما أوحى الله إليه، بسبب أنه لم يكن قد توقع نزول الوحي عليه ولا رجاه أو طلبه، والله أعلم.

كما أن فيها تنبيها على رأفة الله به وحمله على القيام برسالته على جهة التأنيس والتلطف، وكل ذلك لا يخرج عن سياق الدلالة على رفعة الشأن والمقام.

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٧ / ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٨٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٣٣.

٣. عبد الله.

وهناك صفة أخرى دلت عليه فكانت في عرف السامع كاسمه الدال عليه، وهي إذا تعلقت بمحمد صلى الله عليه وسلم اكتسبت بعد المدح له والثناء عليه، بل اكتسبت أعلى درجات المدح والتشريف، وهي صفة العبودية، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء:١] ونحوها.

فالإضافة في (عبدنا) و(عبده) «إضافة تشريف لا إضافة تعريف؛ لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفا»[١].

قال في الجامع لأحكام القرآن: «قال العلماء: لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية»[٢] يعني: حين أسري به.

وقد «ذكروا أنه لم يعبر الله تعالى عن أحد بالعبد مضافًا إلى ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية إلا النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك من الإشارة ما فيه»[٣].

كما أن في التعبير بوصف «العبودية» في هذا المقام سد لباب الغلو في نبي الله صلى الله عليه وسلم، كما فعلت النصارى مع عيسى عليه السلام[٤].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤ / ١١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠ / ٢٠٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٨ / ٦.
(٤) المصدر السابق.

## صفته عليه السلام في الكتب السابقة

محمد صلى الله عليه وسلم هو استجابة الله لدعوة الخليل عليه السلام أن يبعث الله في ذريته رسولًا يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، كما قص القرآن الكريم خبر دعائه حين قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

روى الحاكم عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم قالوا: (يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ فقال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى، وبصرى من أرض الشام)[1].

قال الشنقيطي: « قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل، ولم يبين هنا أيضا هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[الجمعة:٢-٣] لأن الأميين العرب بالإجماع، والرسول المذكور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إجماعًا، ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده. وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم، ولا ينافي ذلك عموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الأسود والأحمر»[2].

وقد نص القرآن الكريم على أن وصف النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في الكتب السابقة، في قوله تعالى مخاطبا نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٦٥٦، رقم ٤١٧٤.
قال الحاكم: «خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة فإذا أسند حديثا إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وصححه الذهبي.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٤.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

وأن من أهل الكتاب قومًا عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه كما يعرفون أبناءهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وهم علماؤهم الذين يقرؤون الكتاب، قال في البحر المحيط: «فقال سبحانه: الذين آتيناهم الكتاب واخترناهم لتحمل العلم والوحي، يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآي السابقة وأمرناه ونهيناه، لا يشكون في معرفته، ولا في صدق أخباره، بما كلفناه من التكاليف التي منها نسخ بيت المقدس بالكعبة، لما في كتابهم من ذكره ونعته، والنص عليه يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

والذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم هو محمد صلى الله عليه وسلم «قال قتادة والسدي وابن جريج: الضمير عائد في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ على محمد عليه السلام ورسالته، وذلك على ما في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم﴾ [الأنعام:١٩].

فكأنه قال: وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إلي»[2].

قال ابن عطية: «وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطئ الأب فيها»[3].

ولكن فريقًا منهم كتموا الحق الذي عرفوه واستيقنوه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦] «أي: (فريقًا) من الذين آتيناهم الكتاب، وهم المصرون على الكفر والعناد من علماء اليهود والنصارى، على أحسن التفاسير في الذين آتيناهم الكتاب، وأبعد من ذهب إلى أنه أريد بهذا الفريق جهال اليهود والنصارى، الذين قيل فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]. للإخبار عن هذا الفريق أنهم يكتمون الحق وهم عالمون به، ولوصف الأميين هناك بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني.

والحق المكتوم هنا هو نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة ومجاهد، والتوجه إلى الكعبة، أو أن الكعبة هي القبلة،

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢ / ٣٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٣٩١.

(٣) المصدر السابق.

أو أعم من ذلك، فيندرج فيه كل حق»[1].

وقد كان هذا سببًا لخسرانهم عند الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠].

فقد «قيل: أريد بهم أهل الكتاب، أي: الذين كتموا الشهادة، فيكون ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ بدلًا من ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾»[2].

وأما مرد هذه المعرفة فإلى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد كتب وصفه في الكتب السابقة كما تقدم، ولا يضر كتمان فريق من علمائهم وصفه.

قال ابن تيمية: «ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب من ذكره.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها من كتب أهل الكتاب ممن أسلم ومن لم يسلم بما وجدوه من ذكره فيها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله؛ وأنه موجود عندهم، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام، حتى آمن الأنصار به وبايعوه من غير رهبة ولا رغبة. ولهذا قيل: إن المدينة فتحت بالقرآن لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها»[3].

ويضاف إلى هذا النوع الثاني الذي نص عليه ابن تيمية أمور:

أحدها: ما اشتهر عن خلق كثير من علماء أهل الكتاب ابتداء من عبد الله بن سلام رضي الله عنه وإلى عصرنا هذا، بل وإلى يوم القيامة، من وجدانهم أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم كانوا يقرؤونها في كتبهم.

والثاني: ما نقل العلماء والمفسرون من أخبار كثيرة عن أكابر أهل الكتاب وعلمائهم الذين شهدوا بالحق حتى وإن لم يتبعوه، من نحو خبر قيصر مع أبي سفيان، ومعرفته النبي صلى الله عليه وسلم، حتى هم أن يسلم ثم نكص لما عارضته حاشيته[4].

ومنها خبر الفتى اليهودي الذي حضر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وفاته وشهادته بالحق قبل أن يموت[5].

ومنها أثر هشام بن العاص حين أرسل

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢ / ٣٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور٦ / ٥٠.

(٣) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٥ / ١٦٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)، ٦/ ٣٥، رقم ٤٥٥٣.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٤٧٦، رقم ٢٣٤٩٢.
قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٨٣: هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس.

إلى هرقل فأراه صور الأنبياء وصورة النبي صلى الله عليه وسلم[١]، وأثر جبير بن مطعم حين خرج تاجرًا إلى الشام فأراه رجل صورته عليه الصلاة والسلام[٢]، وحديث الأقرع مؤذن عمر في سؤال عمر رضي الله عنه للأسقف عما في كتابهم وإخباره له بصفته[٣].

**والثالث**: كثير من الأخبار التي تتلى في كتب أهل الكتاب وفيها صفته صلى الله عليه وسلم، نحو ما نقل عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو -وكان يحدث من كتب السابقين وأصاب في إحدى الغزوات صحيفة فكان يحدث منها- من أن صفة النبي صلى الله عليه وسلم » في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: «لا إله إلا الله»، فنفتح به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، وأعينًا عميًا« قال عطاء -وكان سأل عبد الله بن عمرو: ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته: قلوبًا غلوفيا، وآذانًا صموميا، وأعينًا عموميا»[٤].

ومن ذلك ما أخرج الحافظ ابن عساكر الدمشقي عن سهل مولى غنيمة أنه كان نصرانيًا من أهل مريس، وأنه كان يتيمًا في حجر أمه وعمه، وأنه كان يقرأ التوراة والإنجيل، قال: فأخذت مصحفًا لعمي فقرأته حتى مرت بي ورقة أنكرت كتابتها حين مرت بي ومسستها بيدي، قال: فنظرت فإذا أصول الورقة ملصوقة بغراء، قال: ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد عليه الصلاة والسلام: «أنه لا قصير ولا طويل، أبيض ذو صفرة، من بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصًا مرقوعًا، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر، وهو يفعل ذلك وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد»[٥].

ومن ذلك، ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن وهب بن منبه قال: «إن الله تعالى أوحى في الزبور يا داود، إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد، لا أغضب عليه أبدًا، ولا يعصيني أبدًا، وقد غفرت له قبل أن

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٨٦. قال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٨٤: إسناده لا بأس به.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٢/ ١٢٥، رقم ١٥٣٧.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الخلفاء، ٤/ ٢١٣، رقم ٤٦٥٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣ / ١٦٤.
(٥) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٣/ ٣٨٩.

يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء.

وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا إلى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم.

يا داود إني فضلت محمدًا وأمته على الأمم كلهم، أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم:

١. لا أؤاخذهم بالخطأ والنسيان.

٢. وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته.

٣. وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم أضعافًا مضاعفة، ولهم عندي أضعاف مضاعفة، وأفضل من ذلك.

٤. وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا وقالوا: (إنا لله وإنا إليه راجعون) الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم.

٥. فإن دعوني استجبت لهم؛ فإما أن يروه عاجلًا، وإما أن أصرف عنهم سوءًا، وإما أن أدخره لهم في الآخرة.

٦. يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا الله، وحدي لا شريك لي، صادقا بها، فهو معي في جنتي وكرامتي، ومن لقيني وقد كذب محمدًا، وكذب بما جاء به، واستهزأ بكتابي، صببت عليه من قبره العذاب صبًا، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره في قبره، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار»[1].

وهذه الأخبار ونحوها وإن كانت قد رويت من طريق من أسلموا، أو من طريق مسلمين اطلعوا على كتب اليهود والنصارى، فليس ذلك قدحًا ولا طعنًا فيها؛ لأن أقل ما يقال لمن يعترض عليها: إن كان في كون رواتها مسلمين مطعن عليها، ففي كون المنكرين لها غير مسلمين مطعن في إنكارهم، وليس لهم أن يقولوا: إننا لا نجد في كتبنا ما نص عليه القرآن من تبشير الأنبياء به. قال ابن تيمية: «فإذا قال المعارض: عدم إخبار من قبله به يقدح في نبوته، وأنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله -والإخبار شرط في النبوة- كان ذلك قدحا. قيل: الجواب هنا من طريقين:

أحدهما: أن يقال: إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة فإما أن يكون

(١) دلائل النبوة ١/ ٣٨٠.

تبشير من قبله لازمًا لنبوته واجبًا أو واقعًا، وإما أن لا يكون لازمًا؛ فإن لم يكن لازمًا لم يجب وقوعه، وإن كان لازمًا عُلِمَ أنه قد وقع وإن كان ذلك لم ينقل إلينا؛ إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا، وليس كل ما أخبر به المسيح ومن قبله من الأنبياء وصل إلينا، وهذا مما يعلم بالاضطرار.

ولو قدر أن هذا ليس في الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومن قبله لم يذكروه، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل، ويمكن أنه كان في كتب غير هذه، ويمكن أنه كان في نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها ونسخت هذه مما أزيل منه، وتكون تلك النسخ التي هو موجود فيها غير هذه، فكل هذا ممكن في العادة لا يمكن الجزم بنفيه. فلو قدر أنه ليس في هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به، فإذا لم يمكن لليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمدًا لم يبشر به الأنبياء، لم يكن معهم علم بعدم ذلك، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن لكونه طلب ذلك فلم يجده »[1].

الرابع: أن كثيرا من هذه الأخبار ما زالت تتلى في كتب النصارى إلى اليوم، وإن كانوا يتأولونها على غير ما يقول المسلمون فيها، وقد أورد الرازي في تفسيره « بعض ما جاء به عيسى عليه السلام بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل

أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: «و أنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم، ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط هو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ: «و أما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي، ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم» ثم ذكر بعد ذلك بقليل: «وإني قد خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون».

وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: «و لكن أقول لكم الآن حقًا يقينا: انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين».

وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا: «فإن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ به، ولكن إذا جاء روح الحق إليكم يلهمكم ويؤيدكم

(١) الجواب الصحيح ٥ / ١٥٥.

بجميع الحق؛ لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه» هذا ما في الإنجيل، فإن قيل: المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة وهو عيسى يجيء بعد الصلب؟

نقول: ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئًا من الشريعة، وما علمهم شيئًا من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلًا، مثل أنه قال: «أنا المسيح فلا تظنوني ميتا، بل أنا ناج عند الله ناظر إليكم، وإني ما أوحي بعد ذلك إليكم»(١).

وقد نقل من تفسيرات علمائهم الذين أسلموا علمهم بدلالتها على النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب السموأل المغربي الذي كان من أكابر أحبارهم في كتابه «بذل المجهود في إفحام اليهود»(٢) مثلاً.

وقد قام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بمقارنة بعض هذه الأخبار بما يقرأ النصارى اليوم في أناجيلهم، قال: « روى البخاري في كتاب «التفسير» من صحيحه في الكلام على سورة الفتح عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: «إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥]. قال في التوراة: يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح (أو ويغفر) ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح (أو فيفتح) به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا» اهـ.

وقول عبد الله بن عمرو «في التوراة» -يعني بالتوراة: أسفار التوراة وما معها من أسفار الأنبياء إذ لا يوجد مثل ذلك فيما رأيت من الأسفار الخمسة الأصلية من التوراة- وهذا الذي حدث به عبد الله بن عمرو ورأيت مقاربه في سفر النبيء أشعياء من الكتب المعبر عنها بالتوراة تغليبا، وهي الكتب المسماة بالعهد القديم، وذلك في الإصحاح الثاني والأربعين منه بتغيير قليل (أحسب أنه من اختلاف الترجمة أو من تفسيرات بعض الأحبار وتأويلاتهم).

ففي الإصحاح الثاني والأربعين منه «هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا تقصف، وفتيلة خامدة لا تطفأ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩ / ٥٢٨.
(٢) بذل المجهود في إفحام اليهود ص١١٣-١١٨.

في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك، وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم؛ لتفتح عيون العمي؛ لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة، أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر».

وإليك نظائر صفته التي في التوراة من صفاته في القرآن:

- (يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا) نظيرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥].
- (هذه الآية وحرزا للأميين) نظيرها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة:٢].
- (أنت عبدي ورسولي) نظيرها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].
- (سميتك المتوكل) نظيرها: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الأحزاب:٣].
- (ليس بفظ ولا غليظ) نظيرها: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].
- (ولا صخاب في الأسواق) نظيرها: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾[لقمان:١٩].
- (ولا يدفع السيئة بالسيئة) نظيرها: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[فصلت:٣٤].
- (ولكن يعفو ويصفح) نظيرها: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾[المائدة:١٣].
- (ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله) نظيرها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].
- (ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا) نظيرها: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾[البقرة:٧].

في سورة البقرة في ذكر الذين كفروا مقابلًا لذكر المؤمنين في قوله قبله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

ولنذكر هنا ما في سفر أشعياء ونقحم فيه بيان مقابلة كلماته بالكلمات التي جاءت في حديث عبد الله بن عمرو.

جاء في «الإصحاح» الثاني والأربعين من سفر أشعياء: هو ذا عبدي (أنت عبدي) «الذي أعضده مختاري (ورسولي) الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم لا يصيح (ليس بفظ) ولا يرفع (ولا غليظ) ولا يسمع في الشارع صوته (ولا صخاب في الأسواق) قصبة مرضوضة لا يقصف (ولا يدفع السيئة بالسيئة) وفتيلة خامدة لا تُطفأ (يعفو ويصفح) إلى الأمان يخرج الحق (وحرزًا) لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض (ولن يقبضه الله

حتى يقيم به الملة العوجاء) وتنتظر الجزائر شريعته (للأميين) أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك (سميتك المتوكل) وأحفظك (ولن يقبضه الله) وأجعلك عهدًا للشعب (أرسلناك شاهدًا) ونورا للأمم (مبشرًا) لنفتح عيون العمي (ونفتح به أعينًا عميًا) لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن (وآذانًا صمًا) الجالسين في الظلمة (وقلوبًا غلفًا). أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر» (بأن يقولوا: لا إله إلا الله)»[1].

هذا عما روي من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة، أما القرآن الكريم فإنه مع إخباره بأن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم إلا أنه لم ينص على وصف خاص من أوصافه سوى أنه من الأميين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وإنما نص على أمور:

أحدها: الشريعة التي يجيء بها: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والثاني: صفة تأديبه للناس: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

والثالث: صفة أصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

وصفة من بعث فيهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

فأما (الأمي) فقيل: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب «قال ابن عباس: هو منكم كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وقال صلى الله عليه وسلم (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب).

وقيل: هو منسوب إلى أمته كأن أصله أمتي فسقطت التاء من النسبة كما سقطت من المكي والمدني.

وقيل: منسوب إلى أم القرى وهي مكة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٥.

أم القرى. ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: صفته ونبوته ونعته وأمره مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

وأما معنى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فـ«المراد بالمعروف: الإيمان، وقيل: ما عرف في الشريعة. والمراد بالمنكر ضد ذلك، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ فسر الأول بالأشياء التي يستطيبها الطبع كالشحوم، والثاني بالأشياء التي يستخبثها كالدم، فتكون الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل، وفي كل ما تستخبثه النفس ويكرهه الطبع الحرمة إلا لدليل منفصل، وفسر بعضهم الطيب بما طاب في حكم الشرع والخبيث بما خبث فيه كالربا والرشوة»[2].

وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس رسولا « فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، لم يحرم عليهم شيئًا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئًا من الخبائث كما استحلتها النصارى، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى؛ فلا يوجبون الطهارة من الجنابة، ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات حتى يقال في فضائل الراهب: له أربعون سنة ما مس الماء؛ ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض، وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة بل إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم أي نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه»[3].

وأما الإصر الذي يضعه النبي صلى الله عليه وسلم فهو التكاليف الثقيلة، سواء أنزل بها شرع من عند الله أم استحدثها الناس من تلقاء أنفسهم، وأصل الإصر: « الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحراك »[4].

ومعنى: « ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة كقطع

(1) الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٩٢.
(2) روح المعاني، الألوسي ٥ / ٧٧.
(3) الجواب الصحيح ١ / ٦٩-٧٠.
(4) روح المعاني، الألوسي ٥ / ٧٧.

موضع النجاسة من الثوب أو منه ومن البدن، وإحراق الغنائم، وتحريم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية فإنه وإن لم يكن مأمورًا به في الألواح إلا أنه شرع بعد تشديدًا عليهم على ما قيل.

وعن عطاء كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة، وأوثقها على السارية يحبس نفسه على العبادة، وعلى هذا فالأغلال يمكن أن يراد حقيقته»[1].

وأما وصف من بعث فيهم فهم الأميون: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

والأميون هم: « العرب، والأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكذلك كان كثير من العرب. وسمي أميًّا نسبة إلى أمه يوم ولدته، لم يعرف القراءة ولا الكتابة ويقي على ذلك.

ومما يدل على أن المراد بالأميين هم العرب بعثة النبي صلى الله عليه وسلم منهم لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ كما يدل عليه قوله تعالى عن نبي الله إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة:١٢٩].»[2].

«والمعنى: أن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم، وينشر رسالته إلى جميع الناس من بلاد العرب، فإن دلائل عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم معلومة من مواضع أخرى من القرآن كما في سورة الأعراف: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وفي سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].»[3].

وأما وصف أصحابه، فقد ابتدأت فيه الآية بإثبات الرسالة له أولًا « محمدٌ رسول الله ». فـ«محمدٌ» مبتدأ و«رسول» خبره[4].

أو هو «خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو محمد يعود هذا الضمير المحذوف على قوله: رسوله في الآية قبلها»[5].

ثم عطفتهم عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِى وُجُوهِهِم

(١) المصدر السابق ٥/ ٧٧.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨ / ١١٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨ / ١٨٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦ / ٢٩٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٢.

﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾[الفتح:٢٩].

وقد تضمنت الآية إخبارًا منه «تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة؛ فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون»[(١)].

والشدة في هذا المقام صفة مدح؛ لأنها غلظة على غليظ، وقمع لمتجبر ظالم عات، وانتصار للحق، وغيرة على الدين، قال في التحرير والتنوير: «والشدة على الكفار: هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبيء صلى الله عليه وسلم كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام، فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله، والحب في الله، والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم أقوى المؤمنين إيمانًا من أجل إشراق أنوار النبوءة على قلوبهم، فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار، فإن بين نفوس الفريقين تمام المضادة، وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية، وعفا عنهم النبيء صلى الله عليه وسلم إلا من آثار شدتهم على الكفار، ولم تكن لاحت لهم المصلحة الراجحة على القتال وعلى القتل التي آثرها النبيء صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدائهم على الكفار وهو عمر بن الخطاب، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبيء صلى الله عليه وسلم في إبرام الصلح أبا بكر»[(٢)].

قال: «ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال ولعلماء الإسلام فيها مقال»[(٣)].

والصفة الثانية لأصحابه صلى الله عليه وسلم أنهم: «﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه»[(٤)].

«وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة؛ إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق ٢٦/ ٢٠٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٥.

الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى؛ ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ في سورة العقود [المائدة: ٥٤].

وفي تعليق رحماء مع ظرف (بين) المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعًا»[1].

«هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يَبْتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه»[2].

وأما الصفة الأخرى التي ذكرت لأصحابه صلى الله عليه وسلم فهي علامة على وجوهم، ناتجة عن صفتهم السابقة التي هي كثرة السجود: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، «والسيما: العلامة وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود.

واختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها من أثر السجود على ثلاثة أنحاء:

الأول: أنها أثر محسوس للسجود.

الثاني: أنها من الأثر النفسي للسجود.

الثالث: أنها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة»[3]. تلك صفتهم في التوراة.

«فأما قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن هذا المثل المذكور أنه في التوراة هو مثلهم في الإنجيل. قال مجاهد: مثلهم في التوراة والإنجيل واحد.

والثاني: أن المتقدم مثلهم في التوراة. فأما مثلهم في الإنجيل فهو قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ وهذا قول الضحاك وابن زيد.

والثالث: أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع»[4].

وقد اختار ابن جرير أن هذا مثلهم في التوراة، وأن قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ مثلهم في الإنجيل، قال: «وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرخ فهو يشطي إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٥.
(٤) زاد المسير ٤/ ١٣٩.

عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي»[1].

ثم روى بسنده عن ابن عباس قال: « قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أصحابه مثلهم، يعني: نعتهم مكتوبًا في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق السموات والأرض»[2].

وإذا تأملنا هذه الأوصاف التي ذكر القرآن الكريم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عرف بها في الكتب السابقة، وجدناها أوصافًا لأمة كبيرة من الناس: الأميون الذين بعث فيهم، وأصحابه الذين معه، وهي أوصاف يستحيل انتحالها بخلاف صفة الفرد الواحد، ولو كانت أوصاف شخص واحد لجاز لأحد ممن يقرؤها أن يزعم أنه يرى تحققها في شخص يعرفه أو فيه هو.

وقد ورد في سورة الصف ما يوهم ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم في الإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

فنصت الآية على أن عيسى عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخبر باسمه «أحمد»، وروى ابن جرير بسنده عن عرباض بن سارية، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إني عند الله مكتوبٌ لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين، يرين أنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصور الشام)[3].

غير أن الآية لم تنص صراحة على أن اسمه « أحمد» مكتوب في الإنجيل، بل غاية ما نصت عليه أنه خبر على لسان المسيح وليس فيه نص على أنه مكتوب في الإنجيل ولا أنه غير مكتوب.

وقد أوهم ذلك أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل، كما قال القرطبي: «وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار، واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان، واسمي في الإنجيل أحمد، واسمي في القرآن محمد؛ لأني محمود في أهل السماء والأرض)[4]»[5].

ومن ذلك ما أخرج ابن عساكر عن سهل مولى غنيمة أن نعت محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة: «أنه لا قصير ولا طويل

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٥٩.
(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ٣/ ٣٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٨٤.

أبيض ذو صفرة، من بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصًا مرقوعًا، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر وهو يفعل ذلك وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد»[(١)].

ويرى السموأل المغربي أن اسمه صلى الله عليه وسلم مرموز إليه فيها، وقد عقد فصلا في «الإشارة إلى اسمه في التوراة» اعتمد فيه حساب الجمل -الذي هو من صناعة اليهود وعلومهم التي يبرعون فيها- في الدلالة على اسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: «وإنما جعل ذلك في هذا الموضوع ملغزا؛ لأنه لو صرح به لبدلته اليهود، أو أسقطته من التوراة كما عملوا في غير ذلك»[(٢)].

فكل هذه الأقوال وردت في سياق إثبات التصريح باسمه صلى الله عليه وسلم في الإنجيل خصوصًا وفي الكتب السابقة عمومًا، ومثل هذا إن لم تثبت رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم به فإن لفظ الآية لا يدل عليه، وغاية ما دلت عليه آية سورة الصف أن المسيح عليه السلام بشر به مُصرِّحًا باسمه «أحمد»، بل إن لفظ «قال» مشعر بأنه من كلام المسيح وليس من الإنجيل، مع عدم استحالة كونه مع ذلك مكتوبًا، وغاية ما في الأمر أن القرآن الكريم لم ينص على ذلك صراحة.

هذا وعدم النص على اسمه أو وصفه الخاص أبلغ، إذ لو علم لطلبه مدعو النبوة، ولبدله الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. وقد بقي أن له علامات غير منحصرة يعرفه بها علماء أهل الكتاب، وعدم انحصارها عاصم لها من التحريف.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة:٨٩].

فأما بشارة المسيح به صلى الله عليه وسلم فلا يطعن فيها زعم أهل الكتاب أنهم لا يجدونها في كتبهم، وما تقدم من كلام السموأل والرازي حجة عليهم. قال الألوسي: «هذا وبشارته عليه السلام بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مما نطق به القرآن المعجز، فإنكار النصارى ذلك ضرب من الهذيان، وقولهم: ولو وقعت لذكرت في الإنجيل، الملازمة فيه ممنوعة، وإذا سلمت قلنا بوقوعها في الإنجيل إلا أن جامعيه بعد رفع عيسى عليه السلام أهملوها؛ اكتفاء بما في التوراة ومزامير داود عليه السلام وكتب أشعياء وحبقوق وأرمياء وغيرهم من الأنبياء

(١) تاريخ دمشق ٣/ ٣٨٩.
(٢) بذل المجهود في إفحام اليهود، السموأل المغربي ص١١٦.

عليهم السلام.

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أن علماء النصارى بعد حبا لدينهم أو لأمر ما غير ذلك أسقطوها كذا قيل»[1].

أقول: وليست البشارة مقتصرة على الاسم فقط، ولا يلزم أنها من الوحي المكتوب، بل قد تكون قد وقعت على لسان المسيح عليه السلام كما تقدم.

قال الألوسي: « الأناجيل التي عند النصارى أربعة: إنجيل متى من الاثني عشر الحواريين، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثماني سنين، وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحًا، وإنجيل مرقص وهو من السبعين، جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع باثنتي عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحًا، وإنجيل لوقا وهو من السبعين أيضًا، جمعه بالإسكندرية باللغة اليونانية، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحًا، وإنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح، جمعه بمدينة إقسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة، وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحا وهي مختلفة، وفيها ما يشهد الإنصاف بأنه ليس كلام الله عز وجل، ولا كلام عيسى عليه السلام كقصة صلبه الذي يزعمونه ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء، فما هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شرح بعض أحوال عيسى عليه السلام ولادة ورفعًا ونحو ذلك، وبعض كلمات له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلفة في بعض الأكابر والصالحين فلا يضر إهمالها بعض الأحوال، والكلمات التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد وبشارته بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، على أن في إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوي وما تعسف»[2].

ومثل هذه الكتب واختلافها وكثرة التناقض فيها يجعلنا نجزم بأن كل ما جاء فيها ليس من كلام المسيح عليه السلام، ولا أن كل ما قال المسيح منقول فيها حتى تجعل حكمًا في مثل هذا.

(١) روح المعاني ١٤ / ٢٨٠.

(٢) روح المعاني ١٤ / ٢٨١.

## صفة محمد عليه السلام في القرآن

وصف محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم بجملة من الصفات منها:

### أولًا: النبي:

النبوة من النبأ، «والنبأ: الخبر، تقول نَبَأَ ونَبَّأَ، أي: أخبر، ومنه أخذ النبيء لأنه أنبأ عن الله تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعل»[(١)].

وإذا قيل للخبر: نبأ فهو ذو فائدة عظيمة ولا يتطرق إليه الكذب، وهو متضمن لمعنى العلم، قال الراغب: «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام. ولتضمن النبإ معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمنه معنى العلم قيل: أنبأته كذا، كقولك: أعلمته كذا. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾[ص:٦٧-٦٨]»[(٢)].

والنبي مشتق من فعل «أنبأ» أو من فعل «نبا» بمعنى: علا وارتفع، «فهو مهموز من النبأ، وغير مهموز من النبوة، وهو المرتفع من الأرض، فهو صلى الله عليه وسلم مخبر عن الله سبحانه وتعالى، رفيع القدر عنده، فاجتمع له الوصفان، وتم له الشرفان»[(٣)].

هذا عن مدلول النبوة في اللغة واشتقاقها، وأما مدلولها القرآني فهو الإخبار بما تلقاه النبي عن الله سبحانه وتعالى، قال الفيروزآبادي: « والنبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول؛ لإزاحة عللهم فى أمر معادهم ومعاشهم»[(٤)].

وقد تقدم أن وصف «النبي» تكرر في القرآن الكريم بصفة جعلته علمًا على محمد صلى الله عليه وسلم حتى صار اسمًا من أسمائه، غير أنه قد استعمل بمعنى الصفة في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران:٦٨].

فقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾ تضمن الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بصفة النبوة تأكيدًا له عند المخاطبين، ودفعا لأي شك قد يبدر منهم وترغيما للمعاندين من اليهود وغيرهم.

وكما استعمل لفظ «النبي» فقد استعمل لفظ «الرسول» في القرآن الكريم بمعنى الاسم، وبمعنى الصفة له صلى الله عليه وسلم أيضًا.

---

(١) الصحاح، الجوهري ١/ ٧٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٨٨.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٥.
(٤) المصدر السابق.

## ثانيًا: رسول الله:

الرسول مشتق من الرسل -بكسر الراء- و «أصل الرسل: الانبعاث على التؤدة ويقال: ناقة رسلةٌ: سهلة السير، وإبل مراسيل: منبعثة انبعاثًا سهلًا، ومنه: الرسول المنبعث، وتصور منه تارة الرفق، فقيل: على رسلك، إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول»[1].

والتوظيف اللغوي للإرسال ليس مقصورًا على الإنسان فقط، فقد يقال أيضا في الأشياء، ومن معانيه: «التسخير كإرسال الريح والمطر نحو: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ [الأنعام:٦].

وقد يكون ببعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل.

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء:٥٣].

وقد يكون ذلك بالتخلية، وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

والإرسال يقابل الإمساك. قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].»[2].

هذا عن مدلول الإرسال واشتقاقه اللغوي، أما في الاستعمال القرآني فالرسول: «هو الذي تتابع خبره عن الله، وهو المرسَل بفتح السين، ولا يقتضي التتابع. وهو المرسل: بكسر السين؛ لأنه لا يعم بالتبليغ مشافهة، فلم يك بد من الرسل ينوبون عنه، ويتلقون منه، كما بلغ عن ربه قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (تسمعون، ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم)»[3].

وقد استعمل لفظ «الرسول» في القرآن الكريم بدلالات أخرى أيضًا، فـ «رسل الله تارة يراد بها الملائكة، وتارة يراد بها الأنبياء، فمن الملائكة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير:١٩].

وقوله: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [هود:٧٧].

وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت:٣١].

وقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ [المرسلات:١].

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٣.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨١.

٨٠].

ومن الأنبياء قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨].

فمحمول على رسله من الملائكة والإنس. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١].

قيل: عني به الرسول وصفوة أصحابه، فسماهم رسلا لضمهم إليه، كتسميتهم المهلب وأولاده المهالبة»[1].

وكثيرًا ما دعي النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف في القرآن الكريم حتى صار علما عليه، لكنه قد استعمل أيضا بمعنى الصفة له عليه الصلاة والسلام في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [آل عمران:١٤٤].

فـ «محمد» اسمه صلى الله عليه وسلم، و «رسول» صفته في هذا السياق.

**الفرق بين النبي والرسول:**

جاء الوصفان النبي والرسول معطوف أحدهما على الآخر فأوحى ذلك بأن بينهما فرقا،كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج:٥٢].

و «هذه الآية دالة عليه -أي: الاختلاف بين مفهومي النبي والرسول- لأنه عطف النبي على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص»[2].

قال القاضي عياض: «واختلف العلماء هل النبي والرسول بمعنى أو بمعنيين فقيل: هما سواء وأصله من الإنباء وهو الإعلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فقد أثبت لهما معًا الإرسال قال: ولا يكون النبي إلا رسولًا ولا الرسول إلا نبيًا. وقيل: هما مفترقان من وجه إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول وهو الأمر بالإنذار والإعلام كما قلنا، وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ»[3].

ثم قال: «والصحيح والذي عليه الجماء

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣٦.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٤٨٨.

الغفير: أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم»[1].

فبين وصفي النبي والرسول عموم وخصوص، ويستلزم ذلك أنهما ليسا متطابقين تطابقًا كاملًا رغم أنهما يجتمعان في جزء من الدلالة، ولكن بينهما فرقًا في زيادة يحويها مفهوم «الرسول».

وقد «ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورًا:

أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

والثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحاق ويعقوب وأيوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلًا؛ لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ.

والثالث: أن من جاءه الملك ظاهرًا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك، بل رأى في النوم كونه رسولًا، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولًا»[2]. وهذا المعنى الثالث رجحه الرازي وقال: «وهو الأولى»[3].

ولابن تيمية في المسألة رأي يبدو أقرب إلى الصواب، وهو أن الرسول يزيد عن النبي بكونه مرسلًا إلى من خالف أمر الله يبلغه رسالة الله، قال: «والمقصود هنا: الكلام على النبوة فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرسَل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي، وليس برسول قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾؛ فذكر إرسالًا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح»[4].

وبناء على ذلك فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي ورسول، بل هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) النبوات، ابن تيمية ٢/ ٧١٤.

[الأحزاب: ٤٠].

«(وخاتم) بفتح التاء بمعنى أنهم به ختموا فهو كالخاتم والطابع لهم، وقرأ الباقون والجمهور (خاتم) بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم، أي: جاء آخرهم، وروت عائشة أنه عليه السلام قال: (أنا خاتم الأنبياء) -بفتح التاء- وروي عنه عليه السلام أنه قال: (أنا خاتم ألف نبي) وهذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفًا وسلفًا متلقاة على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم»[1].

ومع كونه صلى الله عليه وسلم النبي الرسول وخاتم الأنبياء، فقد كان أول من أمر بالتزام الإسلام والعمل بأحكامه وأن يكون أول المسلمين.

## ثالثًا: أول المسلمين:

نص القرآن الكريم على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أمر أن يكون أول من أسلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

كما أمر أن يخبر عن نفسه بذلك: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨.

و«المعنى أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة»[2].

وقد دلت الآية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فهو المبادر إلى فعل ما يأمر به من أحكام هذا الدين، وهو أول مخاطب به، وهو سابق المسلمين، و «خيرهم وأولهم، كما قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

وتقدم في ذلك بشرف انقياده بكل وجه، وبكل حال إلى الله وبسلامة عن الجهل والمعاصي»[3].

وفي قوله تعالى: « ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية، أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته، وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به؛ حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل»[4].

والآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أول من أسلم من هذه الأمة، ولكن هل تدل على أنه أول المسلمين من جميع الأمم؟

قال ابن عطية: «والمعنى أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨٢.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٩.

الكلام إلا ذلك»[1]. فجزم بأن المراد: أول من أسلم من هذه الأمة لا غيره.

ولكن بعض المفسرين لم يستبعد هذه الدلالة وإن لم يجزم بها، قال ابن عاشور: «ومعنى أول من أسلم أنه أول من يتصف بالإسلام الذي بعثه الله به، فهو الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أن بعض الرسل وصفوا بأنهم مسلمون، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

ويجوز أن يكون المراد أول من أسلم ممن دعوا إلى الإسلام. ويجوز أن يكون الأول كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام؛ لأن الأول في كل عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل، كما حكى الله تعالى عن موسى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فإن كونه أولهم معلوم وإنما أراد: أني الآن بعد الصعقة أقوى الناس إيمانًا. وفي الحديث: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة)»[2].

أما صاحب «ملاك التأويل» فنظر إلى الآية في سياق ما نصت عليه آيات أخرى من كون الأنبياء جميعًا كانوا مسلمين، فأثبت لهم جميعًا أولية في السبق إلى الإيمان والإسلام، قال في بيان الفرق بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقول موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «والجواب والله أعلم: أن هذه الآية لما تقدمها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[الأنعام:١٦١].

وقد قال في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾[آل عمران:٦٧].

وفي وصيته عليه السلام لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

وبهذا أوصى يعقوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[البقرة:١٣٢].

وهي جواب بني يعقوب حين قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ فأجابوا بقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقال سبحانه لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٥٩.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٣].

فإنما قال عليه السلام وعمل واقتدى ظاهرًا وباطنًا بما أمر به وما درج عليه هؤلاء الصفوة المذكورون ومن سلك مسلكهم. وعبارة الإسلام تعم الاستسلام بالظاهر والباطن، والإيمان الذي هو التصديق داخل تحت ذلك، وفي جملة ما يطلق عليه اسم الإسلام، فقد تحصلت عبارته عليه السلام منبئة عن الكمال في مسمى الإيمان والإسلام على الحال التى درج عليها المصطفون الأخيار، وحالهم فى ذلك لا يدركها غيرهم من حيث الكمال التام صلى الله عليهم أجمعين ولا قطعنا عن التمسك بهديهم »[1].

## رابعًا: رحمة للعالمين:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحمة، وكان رحيمًا بالمؤمنين، بل بمن ينافقه ويعاديه، ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان حريصًا على هداية الناس جميعًا.

ولقد نص القرآن الكريم -نصًا صريحًا- على أنه صلى الله عليه وسلم رحمة لا للمؤمنين وحدهم بل للعالمين جميعا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وهذه الآية لم تنص على أنه رحيم، ولكن على أنه هو صلى الله عليه وسلم الرحمة، فـ « انتصاب ﴿رَحْمَةً﴾ على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه، فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة.

ووقوع الوصف مصدرًا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد، بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه النبيء صلى الله عليه وسلم بقوله: (إنما أنا رحمة مهداة) »[2].

وهذه الآية على وجازة ألفاظها تضمنت مدحًا بليغًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد « صيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفًا

(١) ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي ١/ ١٧٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٦٦.

بدون حرف العطف الذي عطفت به، ذكر فيه الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير رحمة للتعظيم، إذ لا مقتضى لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعًا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيًا، فقد فاقت أجمع كلمة البلغاء العرب»[١].

وأما معنى كونه «رحمة للعالمين» من مؤمنين وكافرين فقد ذكر في معناه أن الله سبحانه وتعالى: «رحمهم به في الدنيا من العذاب، وفي الآخرة بتعجيل الحساب، وتضعيف الثواب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]»[٢].

والنص على كون وجوده صلى الله عليه وسلم بين الكافرين مانعًا من نزول العذاب بهم؛ رحمة لهم لا يعني اقتصارها على ذلك؛ لأن هذا الوجود محدود بالزمان والمكان.

(١) المصدر السابق ١٧/ ١٦٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨٣.

وإن أعظم الرحمة استنقاذهم به من الضلال والشرك والجهل، وفي صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: **(وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان)**[٣].

فنص الحديث على أنه قد بعث صلى الله عليه وسلم حين عم الضلال الأرض، ونظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم جميعًا؛ بسبب شركهم وضلالهم، فكان هو المبدل لوجه هذه الأرض بإذن ربه، وكان رحمة الله للناس جميعًا.

وكما كانت بعثته رحمة، كان خلقه الرحمة، وكانت رسالته التي بعث بها الرحمة، بل كان موقعها من رسالات الأنبياء وديمومتها واستمرارها، وما اختصت به من عفو وتيسير الرحمة التي رحم الله بها خلقه إنسهم وجنهم وحتى الحيوان.

وقد نظر ابن عاشور إلى دلالة موقع الآية في سياقها من سورة الأنبياء فقال: «أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم، ووشك حلول وعد الله فيهم، وإثبات رسالة

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٤/ ٢١٩٧.

محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن بدعًا من الرسل، وذكروا إجمالًا، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل، وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل. وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكمًا وعلمًا وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين»[(١)].

وبقدر ما كانت هذه الرحمة خلقًا تخلقت به نفسه الزكية عليه الصلاة والسلام، فقد كانت أيضا الصبغة العامة التي اصطبغت بها الشريعة التي جاء بها.

قال ابن عاشور: «وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين:

الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة،

والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي: «زين الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق» قلت: يعني أن محمدًا صلى الله عليه وسلم فطر على خُلُقِ الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لِتَتَكَوَّنَ مُنَاسَبَةٌ بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة؛ حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائمًا رغبته وخلقه. قالت عائشة: «كان خلقه القرآن». ولهذا خص الله محمدًا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله.

وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته، أي: ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿ للعالمين ﴾ متعلق بقوله: «رحمة»»[(٢)].

## خامسًا: الشاهد:

أوصاف « الشاهد، والمبشر، والنذير، والداعي، والسراج المنير » جاءت كلها مجموعة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

« والشهادة: قولٌ صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة »[(٣)]. «وشهدت يقال على ضربين: أحدهما: جارٍ مجرى العلم، وبلفظه تقام الشهادة، يقال: أشهد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٦٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٥٠.

بكذا. ولا يُرضَى من الشاهد أن يقول: أعلم، بل يحتاج أن يقول: أشهد. والثاني: يجري مجرى القسم، فيقول: أشهد بالله إن زيدًا منطلق. ومنهم من يقول: إن قال: أشهد. ولم يقل: بالله. يكون قسمًا. ويجرى علمت مجراه فى القسم فيجاب بجواب القسم كقوله: ولقد علمت لتأتين منيتى

ويقال: شاهد، وشهيد، وشهداء. ويقال: شهدت كذا، أي: حضرته، وشهدت على كذا.

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ [فصلت:٢٠]»[1].

«والشاهد: المخبر عن حجة المدعي المحق ودفع دعوى المبطل»[2].

وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن شهادته لله بالوحدانية، وشهادته للرسل بالتبليغ، كما تتضمن شهادته على من بلغ إليهم رسالة الله من مؤمنين وكافرين.

فأما شهادته للرسل بالبلاغ فقد وقع النص عليها في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٨].

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾)[3].

و«الوسط» في الآية: «الخيار والأجود، كما يقال: قريشٌ أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا»[4]. وقال ابن جرير: «وأنا أرى أن«الوسط» في هذا الموضع، هو«الوسط» الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل«وسط الدار» محرك الوسط مثقله، غير جائز في«سينه» التخفيف. وأرى أن

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٥١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، ٦/ ٢١، رقم ٤٤٨٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.

الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم «وسط» لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[1].

وهناك تلازم بين الخيرية ووسطية المنهج -بمعنى الوسط بين طرفين- وكمال الشريعة، ولأجل ذلك كانت هذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم شاهدين للرسل على من كذبهم من قومهم.

قال ابن كثير: «ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: «شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمدٌ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي»[2]»[3].

وعليه فالرسول صلى الله عليه وسلم «شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها ويشهد ببطلان ما ألصق بها وبنسخ ما لا ينبغي بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وفي حديث الحشر: (يسأل كل رسول هل بلغ؟ فيقول: نعم. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته) الحديث»[4].

وأما شهادته صلى الله عليه وسلم على من بلغته دعوته فقد نص عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل:١٥].

ومعنى الآية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾[الأحزاب:٤٥].

على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب، وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال، وتؤديها يوم القيامة أداءً مقبولًا»[5].

وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم شاهد على من كذب، فهو شاهد أيضا على من يزعم الإيمان، وذلك أنه «صلى الله عليه

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٢.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٧.

وسلم شاهد أيضا على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته وشاهد عليهم في عرصات القيامة.

قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل. وفي حديث الحوض: (ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي. فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: تبا وسحقا لمن أحدث بعدي) يعني: أحدثوا الكفر وهم أهل الردة كما في بعض روايات الحديث: (إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم). فلا جرم كان وصف الشاهد أشمل هذه الأوصاف للرسول صلى الله عليه وسلم بوصف كونه رسولا لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتما للشرائع ومتمما لمراد الله من بعثة الرسل»[1].

## سادسًا: المبشر:

المبشر: المخبر بالخبر الذي يسر، يقال: «أبشرت الرجل وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر»[2].

«ويقال للخبر السار: البشارة والبشرى. قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤]»[3].

وقد بعث عليه الصلاة والسلام يبشر من استجاب له بالخير والسعادة والنجاة من أسباب الخزي والهلاك في الدنيا والآخرة فهو «صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل»[4].

وقد وقع تفصيل هذه البشارة في الآية الموالية وهي قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾ [الأحزاب:٤٧].

أي: «وبشر أهل الإيمان بالله يا محمد ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾: يقول: بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه تضعيفا كثيرا، وذلك هو الفضل الكبير من الله لهم»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٢.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.

(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٨٢.

قال ابن عطية: «قال لنا أبي رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى لأن الله تعالى أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلًا كبيرًا، وقد بين تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢].

فالآية التي في هذه السورة خبر والتي في «حم عسق» تفسير لها»[1].

وعلى هذا فالفضل الكبير هو الجنة لهم فيها ما يشاؤون عند ربهم.

ويقترن وصف البشير غالبا بوصف النذير -كما في الآية السابقة-، «وقدمت البشارة على النذارة لأن النبيء صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته»[2].

والبشارة سابقة للإنذار وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنها القاعدة الأولى والصبغة الأساس التي يجب أن تصطبغ بها الدعوة إلى دين الله، ففي المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس، قال: لما أنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليا ومعاذا، وقد كان أمرهما أن يخرجا إلى اليمن، فقال: (انطلقا وبشرا، ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، فإنه قد أنزلت علي ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾: على أمتك، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾: من النار ﴿وَدَاعِيًا﴾ إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ بالقرآن)[3].

## سابعًا: النذير:

وأما النذير فهو المنذر؛ مأخوذ من الإنذار: وهو الإعلام على سبيل التحذير والتخويف، يقال: «نذر بالشيء وبالعدو -بكسر الذال-، نذرا: علمه فحذره. وأنذره بالأمر إنذارا ونذرا أعلمه، والصحيح أن النذر الاسم والإنذار المصدر. وأنذره أيضا: خوفه وحذره»[4].

وإذا كان البشير هو المخبر بالخبر السار فإن النذير هو المخبر بضده، وكذا فإن البشرى لما كانت لأهل الإيمان فإن الإنذار لمن هم بخلاف حالهم، وهو عليه الصلاة والسلام منذرهم والنذير لهم: «مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبيء عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١١/ ٣١٢، رقم ١١٨٤١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٠١.

عملهم»[1].

وقد اشتق وصف النذير من الإنذار على صيغة فعيل في الآية ليكون كالاسم للموصوف به أي: النبي صلى الله عليه وسلم، قال في التحرير: «جيء في جانب النذارة بصيغة فعيل دون اسم الفاعل لإرادة الاسم فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم. ومن الأمثال: أنا النذير العريان، أي: الآتي بخبر حلول العدو بديار قوم. والمراد بالعريان أنه ينزع عنه قميصه ليشير به من مكان مرتفع فيراه من لا يسمع نداءه، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بمنذر»[2].

وقد ضرب عليه الصلاة والسلام مثلا لهذا الإنذار بمن يخوف الناس عدوا يوشك أن يبطش بهم فمن صدق قوله وعمل بنصحه نجا ومن لم يفعل هلك، ففي صحيح البخاري عن أبي موسى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قوما فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم)[3].

«وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسمي التقوى فإن المنهيات متضمنة مفاسد فهي مقتضية تخويف المقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل»[4].

## ثامنًا: الداعي إلى الله:

«والداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله، ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله.

والدعاء: الحث على قصد الشيء، ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

وقول مؤمن آل فرعون: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾ [غافر:٤١][5].

«وأصل دعاه إلى فلان: أنه دعاه إلى

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ٨/١٠١، رقم ٦٤٨٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٥) انظر المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٥.

الحضور عنده، يقال: ادع فلانا إلي. ولما علم أن الله تعالى منزه عن جهة يحضرها الناس عنده تعين أن معنى الدعاء إليه الدعاء إلى ترك الاعتراف بغيره (كما يقولون: أبو مسلم الخراساني يدعو إلى الرضى من آل البيت) فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله لأن دعوة الله دعوة إلى معرفته وما يتعلق بصفات الدعاة إليه من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم.

وزيادة بإذنه ليفيد أن الله أرسله داعيًا إليه ويسر له الدعاء إليه مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره وهو ما كان استشعره النبيء صلى الله عليه وسلم في مبدأ الوحي من الخشية إلى أن أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[المدثر:١-٢].»[1].

## تاسعًا: السراج المنير:

وصف «السراج المنير» ورد أيضًا في آية الأحزاب السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

والسراج: « المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل»[2]، «والشمس سراج النهار، والهدى سراج المؤمنين»[3].

ومعنى كون النبي صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا أنه «مثل السراج الذي يستضاء به، أو مثل الشمس في النور والظهور»[4]. أو « هاديا كأنه سراج يهتدى به في الظلم»[5].

وقد التفت الطبري إلى أن السراج له مادة يستضيء بها فيضيء هو في نفسه، ثم يستضيء به الناس، قال: «﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يقول: وضياء لخلقه يستضيء بالنور الذي أتيتهم به من عند الله، ﴿مُّنِيرًا﴾ يقول: ضياء ينير لمن استضاء بضوئه، وعمل بما أمره، وإنما يعني بذلك: أنه يهدي به من اتبعه من أمته»[6].

فهو عليه الصلاة والسلام يستضيء بالنور الذي جاءه من عند الله: وهو الوحي، فيضيء ويهدي بنوره لأن أمره «ظاهرٌ فيما جاء به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاندٌ»[7].

وأما ابن عاشور فقد نظر إلى الجانب العقلي من الهداية وهو إقامة الحجة وإزالة الشبهات فقال: «وقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾: تشبيه بليغ بطريق الحالية وهو طريق جميل، أي: أرسلناك كالسراج المنير في الهداية

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٩٧.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٥٣.
(٤) لسان العرب ٢/ ٢٩٧.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٩٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٨٢.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٣٩.

الواضحة التي لا لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله في الأديان من مسالك للتبديل والتحريف فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يشبه بالنور فناسبه السراج المنير»[1].

وهذا الوصف للنبي صلى الله عليه وسلم ورد في هذا الموضع فقط، ولكننا بعد التأمل نجد أن له نظائر؛ فقد وصفه الله سبحانه وتعالى بـ «السراج المنير»، ووصف القرآن بـ «النور» في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢].

ولا ينير السراج إلا وله نور. كما أن الآية صريحة في أنه صلى الله عليه وسلم لما أوحي إليه بهذا النور صار يهدي إلى صراط مستقيم.

ومثل القرآن الكريم النور في قلب المؤمن بالمصباح الذي يوقد من زيت شجرة مباركة كأنه كوكب دري، فقال تعالى:

﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

قال السعدي: « ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه -الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه- نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا: كل محل، يفقد نوره فثم الظلمة والحصر. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.

﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت »[1].

فإذا كان العلم والمعرفة صورة نور الله في قلوب رسله وعباده المؤمنين، فإن أحق من أشع منه هذا النور السراج المنير صلى الله عليه وسلم. جاء في تفسير ابن كثير: « وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾، قال: يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء»[2].

ولقد صدق كعب، فقد كان وجهه صلى الله عليه وسلم يشع صدقا كما قال عبد الله بن سلام: « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس نحوه فأتيته، فلما نظرت إليه، عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب»[3]، وكان أذن خير ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ [التوبة:٦١].

زكى الله لسانه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ [النجم:٣].

وبصره: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم:١٧].

وشرح صدره: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح:١].

وختم على قلبه لئلا يدخله باطل وربط عليه بالصبر ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى:٢٤].

وامتدح خلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم:٤].

وأقسم بعمره: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر:٧٢].

ورفع ذكره: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح:٤].

وألقى في قلوب المؤمنين حبه: (فو الذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)[4]. فمن رآه أو سمع عنه أشع له من صدق الحق الذي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٦٠.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٥/ ٢١٧، رقم ٢٥٣٨٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، ١/ ١٢، رقم ١٤.

يدعو إليه أشد من نور الشمس في ضحاها.
فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحبه الصادقين المرضيين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

## خلقه عليه السلام من خلال القرآن

جمع محمد صلى الله عليه سلم مكارم الأخلاق كلها واتصف بكمالها الإنساني، ولقد امتدحه ربه عز وجل فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

«والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبيء صلى الله عليه وسلم فهو حسن معاملته الناس على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن. ولهذا قالت عائشة: «كان خلقه القرآن»، ألست تقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[المؤمنون: ١] - الآيات العشر-، وعن علي: الخلق العظيم: هو أدب القرآن ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق وما وصف به النبيء صلى الله عليه وسلم من نحو قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وغير ذلك من آيات القرآن. وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)»[(١)].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٦٤.

فهو صلى الله عليه وسلم متصف بالخلق العظيم المستوحى من القرآن الكريم والحاصل من تأديب الحق سبحانه وتعالى له حتى بلغ في حسن الخلق منتهاه، وكان خلقه القرآن.

هذا على الإجمال، أما على التفصيل، فإننا نجد أنه عليه الصلاة والسلام قد وصف في نصوص القرآن الكريم بجملة من الأخلاق، هي:

## أولًا: الصبر:

لا يختلف اثنان في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان آية في الصبر، ولقد أصابه من البلاء في الله ما أصابه: فمنذ أوحى الله إليه وصدع في الناس بالحق واجهه الناس بالصد والتكذيب والاستهزاء والإيذاء النفسي والبدني؛ ألقوا التراب على رأسه، واجتمعوا حول بيته يريدون قتله، وقاطعوه وقومه سنين عدة حتى أكلوا أوراق الشجر، وقتلوا من أصحابه من قتلوا وسلطوا على من قدروا عليه منهم العذاب الشديد، ولم يزالوا به حتى هاجر من مكة مستخفيا، وسيروا البعوث والجيوش لقتاله، وتحالفوا على ذلك وتراسلوا فيما بينهم.

وما جمع قبائل العرب المتعادية مع اليهود إلا الرغبة في استئصال الإسلام وأهله، حتى تعدى الأمر إلى الروم الذين كان لهم حظ من البلاء الذي أصاب المسلمين يوم مؤتة وفي مشاهد من بعدها ولكن الناس لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم يوما شاكيا أو ضاجرا أو ضعيفا أو يائسا، ولما أمكنه الله من رقاب أعدائه قال لهم: **(اذهبوا فأنتم الطلقاء)**

مع أنه صلى الله عليه وسلم كان آية في الصبر، إلا أن القرآن الكريم لم يصفه بهذه الصفة كما وصف أيوب عليه السلام مثلا من قبل بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤].

بل نجد في مقابل ذلك وصية له صلى الله عليه وسلم بالصبر، وأمرا له بالاقتداء في ذلك بالأنبياء من قبله.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٦-١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقد دلت الآيتان على أن الله عز وجل قد أدب نبيه صلى الله عليه وسلم فاختار له من

الأخلاق مكارمها، وأمره أن يتمثل الصفات الطيبة في خلق أولي العزم من الرسل.

أخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه -أو قال لقلبه منه- ونظر إليه وقد مثل به فقال:(رحمة الله عليك إن كنت ما علمت لوصولا للرحم فعولا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع -أو كلمة نحوها-، أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك)، فنزل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بهذه السورة وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ -إلى آخر الآية-، فكفر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عن ذلك)[1].

واستئناسًا بهذا السبب، فإن الآية قد أمرته صلى الله عليه وسلم بالصبر والعفو في هذه الواقعة الخاصة، ولكن لفظها جار مجرى العموم خاصة مع الضعف الذي يعتري سبب النزول، وفيها أنه سبحانه وتعالى «رخص في القصاص للمظلوم في غير عدوان وندب له العفو والإحسان، وعزم لنبيه على الصبر يقول تعالى -مبيحا للعدل ونادبًا للفضل والإحسان-: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله،

---

(١) أخرجه البزار في مسند، ١٧/ ٢١.
قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، إلا من هذا الوجه، ولا نعلم أخرجه عن سليمان التيمي إلا صالح.
قال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٦١٤: وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحا، هو ابن بشير المري، ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه»[(١)].

فعزم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم على الصبر، ورخص لغيره في القصاص وجعل الصبر له مندوبا، «ويروى أنه عليه السلام قال لأصحابه: (أما أنا فأصبر كما أمرت، فماذا تصنعون؟ فقالوا: نصبر يا رسول الله كما ندبنا)[(٢)].

وكما أمره الله عز وجل أن يصبر ويعفو، فقد أمره أن يتمثل ذلك في خلق أولي العزم من الرسل وأن يقتدي بهم في كونهم صابرين في قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى:٣٥].

وهم ذوو الحزم والجد والصبر»[(٣)].

وأما من هم أولوا العزم من الرسل فقد ذكر المفسرون فيه أقوالًا:

«أحدها: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن السائب.

والثاني: نوح، وهود، وإبراهيم، ومحمد صلى الله عليه وسلم، قاله أبو العالية الرياحي.

والثالث: أنهم الذين لم تصبهم فتنةٌ من الأنبياء، قاله الحسن.

والرابع: أنهم العرب من الأنبياء، قاله مجاهد، والشعبي.

والخامس: أنهم إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم، قاله السدي.

والسادس: أن منهم إسماعيل، ويعقوب وأيوب، وليس منهم آدم، ولا يونس، ولا سليمان، قاله ابن جريج.

والسابع: أنهم الذين أمروا بالجهاد والقتال، قاله ابن السائب، وحكي عن السدي.

والثامن: أنهم جميع الرسل، فإن الله لم يبعث رسولًا إلا كان من أولي العزم، قاله ابن زيد، واختاره ابن الأنباري، وقال: «من» دخلت للتجنيس لا للتبعيض، كما تقول: قد رأيت الثياب من الخز والجباب من القز.

والتاسع: أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة (الأنعام)، قاله الحسين بن الفضل.

العاشر: أنهم جميع الأنبياء إلا يونس، حكاه الثعلبي»[(٤)].

ورغم أن الآية لم تنص نصًا صريحًا على اتصافه صلى الله عليه وسلم بالصبر، فإنها دلت على ذلك دلالة ضمنية.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٢.
(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٤٤٨.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٣٧.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٤.



قال ابن عاشور: «وهذه الآية اقتضت أن محمدا صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممتثل أمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة»[(١)].

فقد نص على أن الآية تدل ضمنا على دخوله صلى الله عليه وسلم في عداد أولي العزم من الرسل واتصافه بالصبر، ويكون ذلك من الأساليب القرآنية البليغة التي تسري على قلبه صلى الله عليه وسلم وتثبته على الحق بما تضرب له من المثل في صفة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠].

على أن عدم وصفه بالصبر وصفا صريحا قد تضمن معنا بليغا يستشف من النصوص، فإنه صلى الله عليه وسلم جاوز مرحلة التأذي بصد المشركين عنه إلى الحزن عليهم لشدة الحرص والرغبة في استنقاذهم حتى قيل له ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦].

فإن الأذى الذي تهون منه الآية في نفسه صلى الله عليه وسلم لم يكن سببه ما لقيه من صد وجفوة، بل الحزن على إهلاك المعادين له أنفسهم بتكذيبهم بالحق، فكانت «هذه الآية تسلية للنبي عليه السلام، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تقرير وتوفيق بمعنى الإنكار عليه أي: لا تكن كذلك، و «الباخع نفسه» هو مهلكها وجدا وحزنا على أمر ما، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان وإعراض عن الشرع، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم، وقوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: بالقرآن الذي يحدثك به، و «الأسف»: المبالغة في حزن أو غضب»[(٢)].

وعليه فقد بلغ عليه الصلاة والسلام مرتبة عالية من الصبر جعلته يجاوز الأسف والحزن على ما يصيبه من أذى إلى الحزن على من يؤذيه لإهلاكه نفسه بالتكذيب.

## ثانيًا: الحياء:

كان النبي صلى الله عليه وسلم: (أشد حياءً من العذراء في خدرها)[(٣)]، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، ومن مظاهر حيائه عليه الصلاة والسلام: «أنه لم يكن يواجه أحدا بما يكرهه بل يتغير وجهه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٦٧.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٩٠، رقم ٣٥٦٢.

فيفهم أصحابه كراهيته لذلك»[1].

ولقد أصابه عليه الصلاة والسلام أذى من بعض الناس على غير قصد منهم فمنعه حياءه أن يواجههم به، ولكن القرآن الكريم نزل مربيًا ومؤدبًا وموجهًا للمؤمنين ومرشدًا لهم إلى التيقظ والتنبه في معاملتهم له إلى ما فيه إيذاء له، فإنه يستحيي أن يرده عليهم.

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (بني على النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحشٍ بخبزٍ ولحم، فأرسلت على الطعام داعيًا فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه، قال: (ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهطٍ يتحدثون في البيت، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله)، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثةٌ من رهطٍ في البيت يتحدثون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدري آخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة[2] الباب داخلةً، وأخرى خارجةً أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب)[3].

وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب:٥٣].

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ يعني: إلا أن تدعوا إلى ﴿طَعَامٍ﴾ فيؤذن لكم فتأكلون ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يعني: منتظرين نضجه ووقت إدراكه ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ أي: أكلتم الطعام ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: فاخرجوا من منزله وتفرقوا ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾

(١) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٥٧٧.

(٢) الأسكفة: خشبة الباب التي يوطأ عليها. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم)، ٦/ ١١٩، رقم ٤٧٩٣.

أي: لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي: فيستحيي من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء، ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال، قال:﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ بمعنى: لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء»[1].

وقد أبرزت الآية مظهر خلقه صلى الله عليه وسلم الكريم، فهذه السريرة الطيبة، وتلك النفس العظيمة، قد تدثرت بلباس العظمة التي تشفق على المخطئ أن يتطاير إليه منها شرارة تمسه ببعض الأذى أو تنبهه على أنه أتى شيئا لا يليق، وقد تظافر في تشكيل هذه النفسية العظيمة حياء العظماء وشفقة الرحماء.

## ثالثًا: الرأفة والرحمة بالمؤمنين:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيمًا رؤوفًا هينًا لينًا عفوًا قابلًا للعذر حريصًا على سوق الخير للناس؛ عامل بهذا الخلق أصحابه وأعداءه، إلا أن يقابل في ساحة الوغى قوما يعادون الحق ويحاربونه فيغلظ عليهم في الله انتصارا للحق والضعفاء لا لنفسه.

ولقد تفرق عنه أصحابه يوم أحد وهو يدعوهم في أخراهم، ثم أنزل الله العفو عنهم وأمره هو صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم أيضا فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

والمتأمل للآية يجد أنها قد مهدت لهذا الأمر بالعفو بالنص على أنه صلى الله عليه وسلم رحمة رحم الله بها المؤمنين فلان لهم، فاجتمعوا على محبته، ولو أنه كان فظا غليظ القلب لكانوا قد تفرقوا عنه. قال ابن جرير: «يعني جل ثناؤه بقوله:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، فبرحمة من الله، و«ما» صلة. وأما قوله:﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فإنه يعني بـ«الفظ» الجافي، وبـ«الغليظ القلب»: القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته صلى الله عليه وسلم، كما وصفه الله به: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾: لتباعك وأصحابك، فسهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٤.

احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتبعك ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم»[(١)].

ولئن كان هذا خلقه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فقد كان ذلك خلقه مع أعدائه، وحتى مع أشد الناس أذى له في نفسه وأهله كما فعل مع عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين والذي رمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة في قصة الإفك المشهورة، وما كان قصده إلا إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كاد للمؤمنين يوم أحد، وراسل بني النضير يعدهم بالنصرة، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين بالكلاب، وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وتربص وأصحابه بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الدوائر

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: **(لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما خيرني الله فقال:) استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة، وسأزيده على السبعين (قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾**[التوبة: ٨٤])[(٢)].

ولقد نسي النبي صلى الله عليه وسلم كل أذى أصابه من ابن سلول وهم أن يستغفر له أكثر من سبعين مرة، وهو أمر يجاوز مجرد مواساة ابنه المؤمن، ولقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما أصابه هو من أذى منه مختارا سبيل الصفح والعفو، ولكن الآية نزلت تأمر بالنظر إلى جرمه في حق الإسلام وأهله، وهي دالة على أن موجب الرحمة يزول في حق المحاد لله ورسوله من باب كونه عدوا للحق محاربا له صادا عنه، ولعل الآية قد قصرت رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم على المؤمنين لأجل أن الغلظة واجبة عند انتهاك حرمات الله كما يأتي -إن

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ٦/ ٦٧، رقم ٤٦٧٠.

شاء الله-.

وحين سخر المنافقون من إنصات النبي صلى الله عليه وسلم لهم وهم له كاذبون وقالوا: «هو أذن»، رد عليهم القرآن الكريم بأنه أذن خير ورحمة للمؤمنين، وأن الله قد أعد للمؤذين له والمستهزئين به عذابا عظيما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١].

«فلأجل كرم خلقه كان صلى الله عليه وسلم رحمة أي: هو رحمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، وإنما قال: ﴿مِنْكُمْ﴾ لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله: إنه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين، وقيل: في كونه صلى الله عليه وسلم رحمة: لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم»[1].

فكان صلى الله عليه وسلم رحمة، وكان رحيما بالمؤمنين وبمن أظهر الإيمان بل بمن ينافقه ويعاديه ويكذب عليه وإن علم كذبه رغبة في هدايته وإصلاحه ولئلا يغلق باب الإنابة دونه بفضح أمره.

## رابعًا: الحرص على المؤمنين و التألم لألمهم:

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان حريصا على هداية الناس جميعا يعز عليه ما يعنتهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

و معنى ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: «من جنسكم عربي مثلكم. وقرئ: «من أنفسكم» أي: من أشرفكم»[2].

والميم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ إما أن تعود على العرب، أو على الناس كافة، وينبني على ذلك أن قوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ عائد كذلك على العرب أو على الناس كافة غير مقتصر على المؤمنين وحدهم لأنه قال بعد ذلك: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فخصهم بها من دون سائر الناس.

قال ابن عطية: « ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام، وقال

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٧٧.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٣.

الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر، والأول أصوب»[(١)].

و«﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: قدم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة»[(٢)].

واختصاص الرأفة والرحمة بالمؤمنين يدل على أن قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يعم المؤمنين والكافرين، وحتى الرأفة والرحمة قد لا تكون قد قصرت في الآية على المؤمنين وحدهم إلا لأجل أن الغلظة واجبة عند انتهاك حرمات الله -والله أعلم-.

وقد نظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى أن الآية هي خاتمة سورة التوبة التي جاءت بتعذيب الكافرين وفضح المنافقين وأنها أعقبت ذلك ببيان أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة رحمهم الله بها، قال: «كانت هذه السورة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه. وتخلل ذلك تنويه بالمتصفين بضد ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة. فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة»[(٣)].

وقد بنى على ذلك أن المقصود جميع

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٠٠.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٧٠.

من بلغتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأولهم المشركون والمكذبون، قال: «فالخطاب بقوله: جاءكم وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام. والمقصود بالخطاب بادئ ذي بدء هم المعرضون من المشركين والمنافقين من العرب بقرينة قوله عقب الخطاب ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[1].

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان سماعا للخير قابلا للعذر.

## خامسًا: أذن الخير:

حين سخر المنافقون من إنصات النبي صلى الله عليه وسلم لهم وهم له كاذبون وقالوا: «هو أذن»، رد عليهم القرآن الكريم بأنه أذن خير ورحمة للمؤمنين، وأن الله قد أعد للمؤذين له والمستهزئين به عذابا عظيما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١].

قال السدي: « اجتمع ناس من المنافقين فيهم: جلاس بن سويد بن صامت ومخشي بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم فنهى بعضهم بعضا وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فحقروه فتكلموا وقالوا: «لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمير»، فسمعها الغلام فغضب وقال: والله إن محمدا لصادق، وإنكم لشر من الحمير ثم ذهب فبلغها النبي صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فحلفوا بالله إن عامرا لكاذب، وحلف عامر إنهم لكذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب، وقد كان مخشي بن حمير قال في ذلك المجلس: ويحكم يا معشر المنافقين، والله إني لأرى أنا شر خلق الله وخليقته، والله لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا فعند ذلك قالوا: والله إن كان محمد صادقا، وقالوا: هو أذن »[2].

وقد فضحت الآية المنافقين وحكت قولهم، والمعنى: «ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه (ويقولون هو أذن) سامعةٌ، يسمع من كل أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدقه. وهو من قولهم: «رجل أذنة»، مثل «فعلة»

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٢٦.

إذا كان يسرع الاستماع والقبول، كما يقال: «هو يقن، ويقن» إذا كان ذا يقين بكل ما حدث»[1]. وقد كان قولهم هذا استهزاء، وهو « منهم تنقيص للرسول صلى الله عليه وسلم، إذ وصفوه بقلة الحزامة والانخداع»[2]. «أي: من قال له شيئًا صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، وقتادة »[3].

ولم تكتف الآية بفضيحتهم وحكاية قولهم ولكنها ردت عليهم -مادحة له صلى الله عليه وسلم دالة على رفعة قدره- بأنه أذن خير في الحق ورحمة لمن أظهر الإيمان ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾.

و« ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾: من قبيل رجل، صدق فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة في الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن تكون الإضافة على معنى في؛ أي: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بأذن في غير ذلك، ويدل عليه قراءة حمزة: «ورحمةٍ» بالجر عطفا على خير، فإنه لا يحسن وصف الأذن بالرحمة ويحسن أن يقال: أذن في الخير والرحمة»[4]. «وقرئ: «أذنٌ خيرٌ» -مرفوعين منونين- ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم»[5]. فهو أذن في الخير لو كان قولهم من جنسه، وهو نعم الأذن لأجل ذلك، وليس سماعا للشر ولا منخدعا به.

«وقوله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ تفسير لكونه عليه الصلاة والسلام أذن خير لهم، أي: يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة والآيات الموجبة لذلك، وكون ذلك صفة خير للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص»[6].

وإذا كان كذلك فقد باءوا بأخسر الحظين لما رضوا بعدم مؤاخذته إياهم على أن يصيبهم حظ المؤمنين منه، فـ «المعنى هو أذن خير يسمع آيات الله تعالى ودلائله فيصدقها ويسمع قول المؤمنين فيسلمه لهم ويصدقهم به، وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر يسمعون آيات الله تعالى ولا ينتفعون بها ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه، وأنه صلى الله عليه وسلم لا يسمع قولهم إلا شفقة عليهم لا أنه يقبله لعدم تمييزه عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٢٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٤٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٠.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣١٦.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٧٧.
(٦) روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣١٦.

الصلاة والسلام كما زعموا»[1].

وكل هذه الأخلاق والطباع الطيبة تعكس نفسا عظيمة وقلبا رحيما حريصا على كل مؤمن رؤوفا به مشفقا عليه، ولذلك كانت منزلته صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين عالية رفيعة؛ فكان أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم والناس أجمعين، وكانت منزلته عند آله أعظم وأرفع.

## منزلته عند الله عز وجل

### أولًا: منزلته في الدنيا:

أعلى الله قدر نبيه صلى الله عليه وسلم فشرح صدره ورفع ذكره ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④﴾ [الشرح:١-٤].

فأما شرح صدره فهو تنويره وتوسيعه بمعنى: « نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحا واسعا سمحا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق»[2].

وفي رفع ذكره صلى الله عليه وسلم: « خمسة أقوال:

أحدها: ما روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عن هذه الآية، فقال:(قال الله عز وجل: إذا ذكرت ذكرت معي). قال قتادة: فليس خطيب، ولا متشهدٌ، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وهذا قول الجمهور.

والثاني: رفعنا لك ذكرك بالنبوة، قاله يحيى بن سلام.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢٩.

والثالث: رفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا، حكاه الماوردي.

والرابع: رفعنا لك ذكرك عند الملائكة في السماء.

والخامس: بأخذ الميثاق لك على الأنبياء، وإلزامهم الإيمان بك، والإقرار بفضلك»[1].

وهذه الأقوال، رغم كونها متعددة، فليس بينها تعارض، فرفع ذكره في الأذان والصلاة والتشهد ونحوها لا ينافي رفع ذكره بأخذ الميثاق على الأنبياء من قبل أو عند الملائكة أو غيرها.

وفي مقابل رفع ذكره صلى الله عليه وسلم، جعل الله مبغضه منقطع الذكر لا يذكر إلا بسوء ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾ [الكوثر:٣].

و«الشانئ: هو المبغض، وهو الشنآن بمعنى: العداوة، ونزلت هذه الآية في العاصي بن وائل، وقيل: في أبي جهل على وجه الرد عليه إذ قال: إن محمدا أبتر أي: لا ولد له ذكر، فإذا مات استرحنا منه وانقطع أمره بموته، فأخبر الله أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد لأنه مبتور من رحمة الله أي: مقطوع عنها، ولأنه لا يذكر إذا ذكر إلا باللعنة بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المنابر والصوامع مقرون بذكر الله، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كوالدهم»[2].

ولرفعة قدره صلى الله عليه وسلم ما كان يسمى في القرآن إلا بأوصاف المدح وعلى رأسها النبي والرسول، قال القاضي عياض: «ومما ذكر من خصائصه وبر الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلا: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر»[3].

ثم إن القرآن الكريم نهى المؤمنين عن أن ينادوه بالصفة التي ينادي بعضهم بها بعضا، وصورته أن ينادوه باسمه أو بالصفة التي يدعو بها الرجل مثله، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]: أي: «لا تسموه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله»[4]. وهو المعنى ذاته المنصوص عليه في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٦١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥١٧.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٣١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٨٩.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات:٢].

بمعنى: «ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا: يا محمد، يا محمد، يا نبي الله، يا نبي الله، يا رسول الله»[١]، وعلة النهي عن ذلك ما يتضمن من «عدم المبالاة وقلة الاحترام»[٢].

وقد تضمنت الآية شيئًا آخر، وهو نهيهم عن أن يرفعوا أصواتهم في حضرته فتعلو على صوته ولو بغير قصد تعظيما واحتراما؛ فالنهي الأول عن رفع الأصوات والجهر بها في حضرته صلى الله عليه وسلم حتى لا تعلو على صوته، «وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضى قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ومقتضى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. واللام في له لتعدية «تجهروا» لأن «تجهروا» في معنى: تقولوا، فدلت اللام على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاده وضوحا التشبيه في قوله: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾»[٣].

ثم أكدت الآية على عظم إتيان هذين المنهيين بالنص على أن عاقبة ذلك حبوط العمل: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، «والحبط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر، مأخوذ من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وتعتل وربما هلكت»[٤].

وقد وقع النهيان السابقان على جهة تعريف المؤمنين بقدره صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله التي توجب له التوقير والتقدير «ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء، لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفرا»[٥].

ولقد أعلن القرآن الكريم أن المتأدبين في حضرته صلى الله عليه وسلم هم المتقون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات:٣].

وهم الذين «يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالا له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالا له والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وسعها وشرحها للتقوى»[٦].

ونص على أن الموقرين له هم المفلحون.

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٧٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٠٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٢٠ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٠٨.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٠٨.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

ومعنى ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: «وقروه وعظموه، وأصل التعزير: المنع والنصرة وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه وهو قوله: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: يعني على أعدائه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: يعني: القرآن؛ سمي القرآن نورا لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: هم الناجون الفائزون بالهداية»[(١)].

ولقد أقسم الله سبحانه وتعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم إعلاء لقدره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:٧٢].

«و«العَمْر» و«العُمْر» بفتح العين وضمها واحد، وهما مدة الحياة، ولا يستعمل في القسم إلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد عليه السلام لأن الله تعالى أقسم بحياته ولم يفعل ذلك مع بشر سواه»[(٢)].

قال القاضي عياض: «اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل وعيشك، وقيل: وحياتك، وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره، وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده»[(٣)].

وحين استطاب بعض الغافلين المكوث في بيته صلى الله عليه وسلم نزل القرآن ينبههم على أنه قد استحيى منهم ويأمرهم بالفطنة في التعامل معه حتى لا يصيبه منهم أذى وهم لا يشعرون -كما تقدم-، ونزل في ذلك قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٥٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٦٩.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٣٢.

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾ [الأحزاب:٥٣-٥٤].

ومن العجيب أن القرآن الكريم قد منع عن المؤمنين كل ما من شأنه أن يصيبه صلى الله عليه وسلم بأذى مهما قل ولو كان مجرد التفكير في تزوج نسائه من بعده، وهو مدلول قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

ومن شواهد رفعة منزلته عند الله عز وجل أنه إذا اجتهد عليه الصلاة والسلام في شيء فجانب فيه الصواب، صحح القرآن الكريم ذلك بأرق أسلوب على نفسه؛ فلما اعتذر إليه المنافقون مرجعه من غزوة العسرة وقبل أعذارهم من غير تشديد عليهم أو تمحيص نزل عليه قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة:٤٣].

ولعل أحدًا يظن « أن النبي صلى الله عليه وسلم معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان مخيرا، فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن لهم»[١].

والآية ملأى بإشارات الإكرام والرفعة له عليه الصلاة والسلام، فـ «افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب العتاب لأنه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله، ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم؛ وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيء صلى الله عليه وسلم»[٢].

قال عياض: «وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب»[٣].

ومن هذا الباب عتابه بضمير الغائب في

(١) المصدر السابق ١/ ٢٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢١٠.
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٢٨.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ [عبس:١-٢].

فإن ذلك أخف وقعا في النفس من الخطاب المباشر، وصورته قول العبد الصالح لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢﴾ [الكهف:٧٢].

بصيغة ما لم يسم فاعله أولًا، ثم شدد عليه بعد ذلك لما تكرر منه السؤال فـ ﴿۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥﴾ [الكهف:٧٥].

بصيغة الخطاب المباشر.

ومن هذا الباب قوله تعالى كذلك: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء:٧٤].

جاء في الشفا: «قال بعض المتكلمين: عاتب الله الأنبياء صلوات اللهم عليهم بعد الزلات، وعاتب نبينا صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه. ففي أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته»[1].

ومن ذلك صلاته سبحانه عليه وأمره المؤمنين بذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

وصلاة الله تعالى إما رحمته، أو مغفرته، أو ثناؤه، أو كرامته، أو بركته. وأما صلاة الملائكة فهي إما دعاؤهم، أو استغفارهم[2].

ومن ذلك أيضا أخذه سبحانه العهد على الأنبياء أن يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٨٢ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران:٨١-٨٣].

فـ«معنى الآية أن الله أخذ العهد والميثاق، على كل نبي أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه واله وسلم، وينصره إن أدركه، وتضمن ذلك أخذ هذا الميثاق على أمم الأنبياء»[3].

ومع رفعة منزلته صلى الله عليه وسلم في الحياة الدنيا، فقد جعل الله له الوسيلة والمقام المحمود والكوثر يوم القيامة.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٣٠.

(٢) زاد المسير ٣/ ٤٧٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٥٧.

## ثانيًا: منزلته يوم القيامة:

نص القرآن الكريم على أنه سبحانه وتعالى قد أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم الكوثر وأنه عسى أن يبعثه مقامًا محمودًا.

فأما الكوثر فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١-٣].

والكوثر مشتق من الكثرة، قال القرطبي: «الكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شي كثير في العدد والقدر والخطر كوثرا. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت بكوثر، أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير»[١].

وقد ذكر في مدلوله معنيان أحدهما أعم من الآخر، فأما المعنى الأخص فهو أن الكوثر: حوض النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة؛ وهو حوض ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل من شرب منه شربة لم يظمأ حتى يدخل الجنة، حافتاه من الذهب وقباب الدر المجوف، وطينته المسك، ومجراه على اللؤلؤ والزبرجد، وعليه آنية بعدد نجوم السماء، ويطعم وارده

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢١٦.

من طير أعناقها كأعناق الإبل.

قال البخاري في كتاب الرقاق: «باب في الحوض وقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وقال عبد الله بن زيد: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(اصبروا حتى تلقوني على الحوض)**»[٢]. وترجمة الباب هذه تدل على أن البخاري رحمه الله يعتبر الحوض هو الكوثر أو من الكوثر.

ثم روى عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر، حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر، الذي أعطاك ربك، فإذا طينه - أو طيبه - مسك أذفر)**[٣].

ومن حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبدا)**[٤].

وأما مسلم فإنه أخرج من رواية أنس ما يدل على اقتران تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للحوض بالكوثر عند نزول السورة،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، ٨/ ١١٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١٢٠، رقم ٦٥٨١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١١٩، رقم ٦٥٧٩.

قال: «عن أنس، قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: (أنزلت علي آنفا سورة) فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: (أتدرون ما الكوثر؟) فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك)[1]. وفي هذه الرواية دلالة على سبب تسميته بالكوثر وهو قوله صلى الله عليه وسلم:(عليه خير كثير).

وأما أكثر الروايات تفصيلا في وصف الحوض فقد رواها الترمذي عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج)[2].

وعند أحمد زيادة وهي أن عليه طيورا أعناقها كأعناق الإبل، وهو ما روى بسنده عن أنس:(أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الكوثر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:) هو نهر أعطانيه الله في الجنة، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر)، فقال عمر بن الخطاب: إنها لناعمة يا رسول الله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آكلوها أنعم منها)[3].

فهذه الروايات كلها تنص على أن الحوض هو الكوثر، غير أن ابن عباس رضي الله عنهما قد جعله من الكوثر، غير قاصر لمعنى الكوثر على الحوض فقط. روى البخاري من طريق أبي بشر، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: « الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه ». قال أبو بشر: قلت لسعيد: إن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: «النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»[4]. فعلى هذا فحوض النبي صلى الله عليه وسلم من الكوثر، وليس هو كل الكوثر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، ١/ ٣٠٠، رقم ٤٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الكوثر، ٥/ ٤٤٩، رقم ٣٣٦١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٦، رقم ٤٦١٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ١٣٦، رقم ١٣٤٨٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتابر الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١١٩، رقم ٦٥٧٨.

وقد أوصل القرطبي مجموع الأقوال في معنى الكوثر إلى ستة عشر قولًا[1]:

**أولها**: أنه نهر في الجنة.

**والثاني**: الحوض.

**والثالث**: أن الكوثر النبوة والكتاب.

**والرابع**: القرآن.

**والخامس**: الإسلام.

**والسادس**: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع.

**والسابع**: كثرة الأصحاب والأمة والأشياع.

**والثامن**: الإيثار.

**والتاسع**: رفعة الذكر.

**والعاشر**: أنه نور في قلبه صلى الله عليه وسلم دله على ربه، وقطعه عما سواه.

**الحادي عشر**: الشفاعة.

**الثاني عشر**: معجزات الرب هدي بها أهل الإجابة لدعوتك.

**الثالث عشر**: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

**الرابع عشر**: الفقه في الدين.

**الخامس عشر**: الصلوات الخمس.

**السادس عشر**: هو العظيم من الأمر.

ثم قال القرطبي: « قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني، لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر. وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي صلى الله عليه وسلم»[2].

وأما المنزلة العالية الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي المقام المحمود.

قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

وقد وقع المقام المحمود في الآية مبهما، وجاء بيانه في السنة، فمن ذلك ما روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**)[3].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢١٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا)، ٦/ ٨٦، رقم ٤٧١٩.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود»[1].

فالحديثان يدلان على ارتباط هذا «المقام المحمود» بالشفاعة، وإن كانا لا ينصان نصا صريحا على أنه هو الشفاعة، وقد وقع النص على ذلك بصفة صريحة في ما روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وسئل عنها، قال: (هي: الشفاعة)[2].

وعن أبي سعيد، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر)، قال: (فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنبا أهبطت منه إلى الأرض ولكن ائتوا نوحا، فيأتون نوحا، فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات)، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله. ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى، فيقول: إني قد قتلت نفسا، ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى، فيقول: إني عبدت من دون الله، ولكن ائتوا محمدا)، قال: (فيأتونني فأنطلق معهم) - قال ابن جدعان: قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: (فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد فيفتحون لي، ويرحبون بي، فيقولون: مرحبا، فأخر ساجدا، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾)[3].

قال ابن جرير: « قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي هو يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا)، ٦/ ٨٦، رقم ٤٧١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، ٥/ ٣٠٣، رقم ٣١٣٧.
قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، ٥/ ٣٠٨، رقم ٣١٤٨.
قال الترمذي: حديث حسن.

ذلك اليوم»[1].

وقد ذكر القرطبي قولا آخر وهو: أن المقام المحمود: إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة، وشاهده حديث الترمذي السابق، ثم قال: « وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع»[2].

وللنبي صلى الله عليه وسلم تشريفات أخرى وقد تكون داخلة ضمن عموم الكوثر والمقام المحمود، قال ابن كثير: « لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث راكبا إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردا منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: «أنا لها، أنا لها» ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك»[3].

فصلى الله وسلم على نبيه ورسوله محمد الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وجعلنا من المشمولين بشفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، الإسلام، الصحابة، القرآن، النبوة

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣١١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٠٤.







عناصر الموضوع

| | |
|---|---|
| مفهوم المداهنة | ١٦٦ |
| المداهنة في الاستعمال القرآني | ١٦٧ |
| الالفاظ ذات الصلة | ١٦٨ |
| أنواع المداهنة | ١٧٠ |
| اسباب المداهنة المشروعة | ١٨٦ |
| اسباب المداهنة المحرمة | ١٩٤ |



## مفهوم المداهنة

### أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(دهن) الدال والهاء والنون أصلٌ واحدٌ يدل على لينٍ وسهولةٍ وقلةٍ، من ذلك الدهن. ويقال: دهنته دهنًا. والدهان: ما يدهن به. قال الله عز وجل: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧]. قالوا: هو دردي الزيت. ومن الباب الإدهان، من المداهنة، وهي: المصانعة. وتقول: داهنت الرجل، إذا داريته وأظهرت له خلاف ما تضمر له، وهو من الباب، كأنه إذا فعل ذلك فهو يدهنه ويسكن منه»[(١)].

ويمكن إلحاق المداهنة والإدهان بأصل الباب الذي يدل على اللين والسهولة والقلة؛ لأن المداهِن إنما هو في الحقيقة وفي موقفه هذا يواجه صعوبة وصلابة في التعامل مع المداهَن مما يضطره إلى سلوك اللين والسهولة في الكلام معه، حتى يتقي شر من يداهنه، أو تحقيقًا لمصلحة له عنده، والله أعلم.

### ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «المداهنة هي أن ترى منكرًا وتقدر على دفعه ولم تدفعه حفظًا لجانب مرتكبه أو جانب غيره أو لقلة مبالاةٍ في الدين»[(٢)].

ويقول القرطبي: «هي معايشة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكارٍ عليه، مع القدرة»[(٣)].

ويقول القاضي عياض: «المداهنة: إنما هي إعطاءٌ بالدين ومصانعةٌ بالكذب، والتزيين للقبيح، وتحويب الباطل للوصول إلى أسباب الدنيا وصلاحها»[(٤)].

(١) مقاييس اللغة، ١/ ٢٣١.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص٩٠.
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٦/ ٥٧٣.
(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٧٣

## المداهنة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دهن) في القرآن الكريم (٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

| الصيغة | عدد المرات | المثال |
|---|---|---|
| الفعل المضارع | ٢ | ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم:٩] |
| الاسم | ١ | ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ [الواقعة:٨١] |

وجاءت المداهنة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: المصانعة والمداراة والملاينة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٠٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٦١٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٩.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ التقية:

**التقية لغة:**

مصدر تقى. والتقية: الخشية والخوف. وتقية: مصدر اتقى، يتقي، اتقاءً وتقاةً وتقيةً، فهو متقٍ، والمفعول متقًى. واتقى الله: صار تقيًا وخاف منه فتجنب ما نهى عنه وامتثل لأوامره. واتقى الشيء بكذا: حذره وتجنبه. وكان يتقي شره: يتجنب شره، يحذره. واتقى بالشيء: جعله وقاية له وحماية من شيءٍ آخر. والجمع: تقيون و أتقياء. والتقي: من يتقي الله تعالى، و يخاف منه ويمتثل لأوامره والجمع: أتقياء[(١)].

**التقية اصطلاحًا:**

هي تجنب العدو بإظهار ما يوافقه مع إضمار ما يخالفه من عقيدة ونحوها، وهو واجب في موارد محددة[(٢)].

وعرفها السرخسي بقوله: «التقية أن يقي الإنسان نفسه بما يظهره وإن كان يضمر خلافه»[(٣)].

وعرفها ابن حجر بقوله: «التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقدٍ وغيره للغير»[(٤)].

والتعريف الأول أشمل؛ لأنه يدخل فيه التقية بالفعل إضافة إلى التقية بالقول والتقية في العمل كما هي في الاعتقاد.

**الصلة بين التقية والمداهنة:**

التقية لا تحل إلا لدفع الضرر، أما المداهنة فلا تحل أصلًا، لأنها اللين في الدين وهو ممنوع شرعًا[(٥)].

والتقية يصاحبها العجز وعدم القدرة على دفع المنكر، من ثم كانت حلالًا. بينما المداهنة تحصل مع القدرة على إنكاره ومن ثم كانت حرامًا.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٥٢.
(٢) معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، سامي الصلاحات ص ٧٠
(٣) المبسوط ٢٤/ ٤٥.
(٤) فتح الباري ١٢/ ٣١٤.
(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٦/ ١٨٦.

## ٢ المداراة:

### المداراة لغة:

يقول ابن فارس: «الدال والراء والحرف المعتل (الياء) أصلان: أحدهما: قصد الشيء واعتماده طلبًا، والآخر حدةٌ تكون في الشيء»[(١)].

قال ابن منظور: «والمداراة في حسن الخلق والمعاشرة مع الناس يكون مهموزًا وغير مهموز، فمن همزه كان معناه الاتقاء لشره، ومن لم يهمزه جعله من داريت الظبي أي: احتلت له، وختلته حتى أصيده»[(٢)].

### المدارة اصطلاحًا:

قال الحافظ ابن حجر: المداراة: هو بغير همزٍ بمعنى: المجاملة و الملاينة، وأما بالهمز فمعناه المدافعة[(٣)].

والمقصود من المداراة: ملاينة الناس ومعاشرتهم بالحسنى من غير ثلم في الدين من أي جهة من الجهات[(٤)].

### الصلة بين المداراة والمداهنة:

يوضح القرطبي محل الفرق بين المداهنة والمداراة بقوله: «والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصالح الدنيا»[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣١.
(٢) لسان العرب، ١٤/ ٢٥٥.
(٣) فتح الباري ٩/ ٢٥.
(٤) روضة العقلاء، ابن حبان ٥٦.
(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/ ٥٧٣.

## أنواع المداهنة

ظهر لنا فيما سبق أن مصطلح المداهنة يجوز التعبير عنه لغةً بألفاظٍ مرادفةٍ له كالمداراة والمجاملة والتقية.. ونحوها.

ومن هنا درج على ألسنة بعض علماء الإسلام المشهورين استعمال لفظة المداهنة موصوفةً بالحمد وبالذم.

ومنهم الإمام القرافي صاحب أنوار البروق في أنواع الفروق: حيث وضع فيه ترجمةً بعنوان: «الفرق الرابع والستون والمائتان بين قاعدة المداهنة المحرمة وبين قاعدة المداهنة التي لا تحرم، وقد تجب»[(١)].

ومن منظور آخر نجد القرآن الكريم قد حكى مصطلح المداهنة مذمومًا مطلقًا بينما حكايته عن مفهوم المداهنة جاءت على معانٍ أوسع ودلالاتٍ أبعد من حكايته له كمصطلح، ومن ثم جاء بعضها محمودًا كالتقية، والإكراه مثلًا، وبعضها الآخر مذمومًا كالركون إلى الكفار ونحوه.

ويمكن تقسيم المداهنة إلى نوعين:

### أولًا: المداهنة المشروعة:

ونقصد بالمداهنة المشروعة هنا المداراة التي هي محل اتفاق بين العلماء على جوازها. والأدلة على مشروعيتها في القران الكريم كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ جاءت في سياق ما أمر الله به في كل شريعة من الشرائع، من عبادته سبحانه وحده، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين. وختمت الآية بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. «وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾»[(٢)].

ويقول القرطبي في تفسيره: «ينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينًا، ووجهه منبسطًا طلقًا مع البر والفاجر، والسيء والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون،

(١) الفروق، القرافي ٤/ ٢٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧.

وقد أمرهما الله تعالى باللين معه»[1].

والقول الحسن؛ أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب. ولذلك فإن من أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله غير فاحشٍ ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحلم مجاملًا لكل أحد، صبورًا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالًا لأمر ربه ورجاء ثوابه ومغفرته[2].

وعن عطاء قال: قوله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: الناس كلهم؛ المشرك وغيره. وعن هشام بن عروة قال: عطس نصراني طبيب عند أبي، فقال له: رحمك الله. فقيل له: إنه نصراني، قال أبي: رحمة الله على العالمين[3].

ولقد اختلف العلماء في وجوب القول الحسن. هل هو مع المؤمنين، أو مع الكفار والفساق؟ وهل هو خاص في الدعوة إلى الله، أو أنه يشمل الناس جميعا، فيقي على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص؟ والصواب أنه باقٍ على ظاهره ولا حاجة إلى التخصيص. والدليل عليه، أن موسى وهارون - عليهما السلام - مع جلال منصبيهما أمرا بالرفق واللين مع فرعون. وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم مأمور بالرفق وترك الغلظة.

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].[4]

وقال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان، وهو مع الكفار، أوفي الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق. والدعوة إلى الإيمان لابد وأن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما لفرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [ طه: ٤٤ ].

مع نهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله سبحانه، وكذلك دعوة الفساق فالقول الحسن فيها معتبر كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ الآية.

وأما في الأمور الدنيوية؛ فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول الحسن لم يحسن سواه.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧، ٥٨.
(٣) مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٩٥.
(٤) مفاتيح الغيب ٣/ ١٥٣.
وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١١.

فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1].

وقال تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

وإبراهيم عليه السلام كان من أكثر المناوئين له أبوه وقومه عند دعوته لهم إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئًا، وقد لاقى في ذلك عنتًا شديدًا، وحرجًا بليغًا لوقوف أبيه مع المشركين ضد دعوته، حتى قال له أبوه يومًا: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦].

فاستوحش إبراهيم عليه السلام من موقف أبيه آزر، ولكنه أبقى على شيء من البر له عندما ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

غير أن هذا الموقف اللين لم يغير شيئًا من موقف أبيه واستمر في عدائه لدعوته. عندها خشي عليه السلام أن ينقلب موقفه من أبيه وقومه من مفهوم المداراة إلى مفهوم المداهنة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

تبين له من جهة الوحي أن أباه لن يؤمن، وأنه يموت كافرًا. فانقطع رجاؤه عنه، فقطع استغفاره له. وهكذا يجب أن يكون موقف الداعية المؤمن من المناوئين لدعوته، صبرًا على الأذى، ولينًا في الخطاب، ووضوحًا في البيان، والتذكير، والوعد، والوعيد. حتى إذا سدت المنافذ في وجهه، واستحكم الهوى على عقل عدوه، وأظهر مقاومة شرسة، تركه وما أراد، فقد أعذر إلى الله، وبرئت ذمته، وأقام الحجة على عدوه.[2]

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أمر الله سبحانه نبيه بمكارم الأخلاق. فأمر أمته بنحو ما أمره الله به. ومحصلها، الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم، والإغضاء عنهم. عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الآية ما نزلت إلا في أخلاق الناس، وعنه أيضًا «قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»[3].

(١) مفاتيح الغيب، ٣/ ٨٣.

(٢) المداراة وأثرها في العلاقات الاجتماعية بين الناس، محمد بن سعد ص ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،





فهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، هو ما سمحت به نفوسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق فلا يكلفوا بما لا تسمح به طبائعهم، أو الشاق من الأخلاق، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن ضعفهم، ونقصهم وأخطائهم، فلا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم[(١)].

وفيها دلالة واضحة أيضًا على المداراة وهو قوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك؛ إما تعليم علم، أو حثًا على خير من صلة رحم، أو بر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو زجر عن قبيح ومنكر، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية[(٢)].

وقال تعالى مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والذي يفهم من هذا الخطاب الكريم، أن الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم فيه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب. فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس من الواجب علينا الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله[(٣)].

وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف: ٧٧].

وموقف يوسف عليه السلام مع إخوته الذين اتهموه بالسرقة واتهموا شقيقه في قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ كان موقفًا حكيمًا، يتسم صاحبه ببعد النظر وقوة الإرادة من التحكم في النفس

---

باب (خذ العفو)، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٣.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٣، المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١١.

(٣) المصادر السابقة.

ورغباتها، عند أصعب ساعات الإثارة والطغيان. فهو أمام تهمة خطيرة، مخلة بالشرف، ومخالفة للمروءة، ومن أقرب الناس إليه، وكان يستطيع أن ينتقم لنفسه منهم، وأن يوقع بهم أشد العقوبة لمكانته الاجتماعية المتميزة عند ملك مصر، وقبل ذلك ما فعلوا به من إلقائه في الجب، وحرمانه من أبويه، وتصييره رقيقًا، فقد سنحت الفرصة، وقد أصبح وزيرًا للملك، وبيده خزائن الأرض، وجاءه إخوته مع من جاء من الفقراء المعوزين يطلبون رزقًا بعد أن مسهم وأهلهم الضر.

ولكنه كان نبيًا كريمًا، حكيمًا ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

فقد كان عليه السلام واثقًا من ربه، ومتحصنًا بإيمانه، فلو أخذته العزة بالإثم لأمر من يفتك بهم، أو أن يطردهم شر طردة، وكان محقًّا. ولكنه أدرك عليه السلام بأن فقدهم سيزيد من ألم أبيه وحزنه، وأساه. وأدرك أيضًا أن للشيطان دورًا فيما وقع بينه وبين إخوته، فلا ينبغي أن يكون عونًا له على ما أراد.

فكظم غيظه، وعفا عنهم، بعد أن عرفهم بخطئهم، وأبر بوالديه، وجمع شمل أسرته. وما كان ذلك ليتحقق لولا مشيئة الله، ثم الصبر والملاينة، وشيء من الحيلة، والحنكة، والختل. فقد كان عليه السلام لطيف الحيلة فتوصل إلى بغيته بالرفق، والسهولة[1].

ويقول تعالى في سورة التوبة مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم كيف يكون تعامله مع أصحابه ليطمئنوا إليه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: أدخل السرور على قلوب المؤمنين بالكلام الطيب اللين، والدعاء لهم ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينتهم وسكون قلوبهم[2].

ويقول تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام عند ذهابهما لدعوة فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وهاتان الآيتان فيهما دلالة واضحة على معنى المداراة وهي: القول اللين اللطيف الذي لا خشونة فيه ولا غلظة، «لأن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين قسوة الطغاة»[3].

«والقول اللين داعٍ لذلك، والقول الغليظ

---

(١) المداراة وأثرها في العلاقات الاجتماعية بين الناس، محمد بن سعد ص ١٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥١، المداراة في الاسلام، وليد السعد ص١٢.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ١٩٥.

منفرٌ عن صاحبه»[1].

والقول اللين: لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقف القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان[2].

فيكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥][3].

ويقول تعالى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

في هذه الآية أمر الله المؤمنين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن أي: بحسن خلق، ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد على الباطل، والتنفير منه وتقبيحه أو بأي طريق رجاء إجابتهم، واستمالة لقلوبهم، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة كالقدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، بل يقارعهم الحجة بالحجة والدليل بالدليل، ليلزمهم الإقرار بالقرآن وبالرسول، وبما يدعو إليه من الإيمان بهذا الدين[4].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: ٣٤].

ومن المداراة، عدم مقابلة المسيء بجنس عمله. فإذا أراد إزالة عداوته، لا بد من الإحسان إليه مع الصبر على ما يكره. ومما جاء في تفسيرها: أي لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها ولا في وضعها، ولا في جزائها. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير. وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فإذا أساء إليك مسيءٌ من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك كالأقارب، والأصحاب ونحوهم، إساءةً بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين.

وإن هجرك وترك خطابك فطيب له الكلام، وابذل له السلام. فإذا قابلت

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٧٦.

وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٤.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٢.

الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة وخير عميم، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الآية، الرجل يشتمه أخوه، فيقول، إن كنت صادقًا فغفر الله لي. وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك.

وكان بكر رضي الله عنه يقول: ما عليك أن تنزل الناس منزلة أهل البيت، فتنزل من كان أكبر منك منزلة أبيك، وتنزل من كان منهم قرينك منزلة أخيك، وتنزل من كان أصغر منك منزلة ولدك فأي هؤلاء تحب أن يهتك ستره؟[(٢)].

أما عن كونها سنةً عامةً مندوبًا إليها فسيظهر من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث المسلم على فعلها. ومنها ما يلي:

فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(على كل مسلم صدقة، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير. أو قال بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر. فإنه له صدقة)**[(٣)].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)**[(٤)].

قال ابن بطال في شرحه لهذا الحديث: «كل شيء يفعله المرء أو يقوله من الخير، يكتب له به صدقة. والمعروف: اسم كل فعلٍ يعرف حسنه بالشرعِ والعقل معًا. وفيه إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه. بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة»[(٥)].

ولحسن الخلق شأن عظيم في الإسلام، فقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق الحسن من أكمل المؤمنين إيمانًا.

وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ألا أخبركم بأكملكم إيمانا؟ أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون)**[(٦)] والموطئون: من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٩.
(٢) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عن اللقاء، رقم ٢٦٢٦.
(٥) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٨/ ٣٢٨.
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٦/ ٢٧٠، رقم ٨١١٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٦٦، رقم ١٢٣١.

التوطئة، وهي التمهيد والتذليل. والأكناف: الجوانب. يعني الذين جوانبهم وطيئة يتمكن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى، وهم الهينون اللينون، الذين يحسنون المعاملة[1].

أما عن أدلة حصول المداراة ومشروعيتها في الاسلام؛ فهو ما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بخصوص الرجل الشرير الأحمق، الذي استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم فنعته بقوله: (بئس أخو العشيرة) فلما دخل تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقة الوجه والانبساط ثم ألان له الكلام.

فعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته: **(أنه أستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذنوا له بئس أخو العشيرة. أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت يا رسول الله: قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام. قال:(أي عائشة. إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه)**[2].

يقول ابن حجر عند شرحه للحديث: «هذا الحديث أصل في المداراة» وعلى هذا الرأي الهيثمي والسخاوي وجمهرة كبيرة من علماء الحديث[3].

وقال أيضًا: « اختلف العلماء في الرجل الذي استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من جزم بأنه عيينة بن حصن الفزاري، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله، وكان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ما دل على ضعف إيمانه. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد مع من ارتد وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه. قال ابن بطال: وكان يقال له الأحمق المطاع ورجا النبي صلى الله عليه وسلم بإقباله عليه تألفه ليسلم قومه لأنه كان رئيسهم» ومنهم من جزم بأنه مخرمة وقصره عليه، ومنهم من حمل الحديث على التعدد[4].

وعلى كلٍ، فإن الحديث يدل على جواز إلانة القول لمن كان هذا حاله، تألفًا له للدخول في الإسلام، أو ليحسن إسلامه، أو ليسلم قومه، أو لأي أمرٍ يعود بالمصلحة على الأمة الإسلامية.

ومن يقرأ هذا الحديث الذي اعتبره ابن حجر وغيره أصلًا في المداراة، قد يتوهم

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب مداراة من يتقى فحشه، رقم ٢٥٩١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٣.

(٤) المصدر السابق.

وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ٢١.

أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاشاه - قد وقع في غيبة الرجل عندما ذمه بذكر ما يكره لو سمعه صراحة من الرسول صلى الله عليه وسلم أو أنه داهنه عندما هش له وبش، وانبسط له، وألان الكلام معه. فإذا ما وقفنا على الحكم استحضرنا مسوغ فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بيان كيفية التعامل مع مثل هؤلاء. ويضاف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان طيب الكلام، فلم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا سبابًا ولا لعانًا، وكان ينهى عن الغيبة والتملق والمداهنة والنفاق.

«وليس في قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بالأمور التي يسميهم بها، ويضيفها إليهم من المكروه غيبة. وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض. بل الواجب على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين ذلك ويفصح به، ويعرف الناس أمره فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة. فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم أمته اتقاء شر من هذا سبيله، ومداراته ليسلموا من شره وغائلته وذلك بأن يظهروا لهم البشاشة، وأن لا يجبهوهم بها»[(١)].

إذن ففعله صلى الله عليه وسلم كان استلطافًا وتطييبًا لخاطر ذلك المنافق الشرير ليتمكن من إيمانه، وينجذب بذلك إلى الإسلام وينجذب قومه معه بالإضافة إلى تعريف الناس بحاله ليتقوه.

ما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه عن إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم له كما أكرم أخته قبل إسلامه بعد عودته إلى المدينة المنورة. وكان قد فر منها إلى الشام بعد انتصار المسلمين. قال عدي رضي الله عنه: (**ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه. قال: قلت بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت. فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. قال: فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك**)[(٢)].

وتذكر السيرة النبوية أنه دخل في الإسلام، وكان له الأثر الواضح في الدعوة والجهاد.

ولاشك أن الاحترام الظاهري، والتعامل الحسن مع من لا يستحقه - كحال عدي قبل إسلامه - إذا كان لمصلحة شرعية تعود بالنفع على الإسلام وأهله من زيادة عدد المسلمين أو دفع الأذى والضرر عنهم وغير ذلك جائز استنادًا إلى فعله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا عندما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٤.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٦.





﴿بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

قال: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيًا»(١).

ومن المداهنة المشروعة: التقية.

وقد ذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن الأصل في التقية هو الحظر، وجوازها ضرورة، فتباح بقدر الضرورة.

قال القرطبي: والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم، ولم ينقل ما يخالف ذلك فيما نعلم إلا ما روي عن معاذ بن جبل من الصحابة، ومجاهد من التابعين، وإنما ذهب الجمهور إلى ذلك لأن الله تعالى نص عليها في كتابه بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن عباس في تفسيرها: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين(٢).

ومن الأدلة على مشروعية التقية للضرورة قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

وسبب نزول الآية: (أن المشركين أخذوا عمارًا فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فتركوه. فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما وراءك؟ قال: شر، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: إن عادوا فعد، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾)(٣).

ومن الأدلة على جواز التقية للضرورة ما أخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن: (أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. نعم. نعم. قال أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة وأن محمدًا رسول قريش، ثم دعا بالآخر، فقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم. قالها ثلاثًا، كل ذلك يجيبه بمثل الأول. فضرب عنقه. فبلغ ذلك رسول

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١١٩.
(٢) المفهم لما أشكل في شرح صحيح مسلم، القرطبي ٦/ ٣٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٧٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٨٦.

الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما ذلك فقد مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله، فهنيئًا له. وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه)[1].

وقال الحسن: التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة. وقد نسب القرطبي إنكار التقية إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله أهل الإسلام أن يتقوا عدوهم»[2].

ونقل السرخسي عن قوم لم يسمهم أنهم كانوا يأبون التقية، ويقولون: هي من النفاق[3].

قال السرخسي: إن هذا النوع - يعني النطق بكلمة الكفر تقية - يجوز لغير الرسل. فأما في حق المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فما كان يجوز ذلك فيما يرجع إلى أصل الدعوة إلى الدين الحق، وتجويز ذلك محال - أي ممنوع شرعا - لأنه يؤدي إلى أن لا يقطع القول بما هو شريعة، لاحتمال أن يكون فعل ذلك أو قاله تقية[4].

(١) انظر: الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف، ابن حجر ٢/ ٦٣٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي ٦/ ٣٢٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٢٣.
(٣) المبسوط، السرخسي ٢٤/ ٤٣.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ٤٤.
وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/ ١٨٤.

وهو يشير بذلك إلى ما يبينه أهل الأصول من أن حجية السنة النبوية متوقفة على كون كل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم حقًا، إذ لو تطرق إلى أقواله أو أفعاله احتمال أنه فعل أو قال أشياء من ذلك على سبيل التقية وهي حرام، لكان ذلك تلبيسًا في الدين، ولما حصلت الثقة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

وكذلك السكوت منه صلى الله عليه وسلم على ما يراه ويسمعه من أصحابه إقرار تستفاد منه الأحكام الشرعية، فلو كان بعض سكوته يكون تقية لالتبست الأحكام على المسلمين.

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

قال القرطبي: دلت الآية على رد قول من قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئًا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه وهم الرافضة[5].

وفي فواتح الرحموت: ما من نبي إلا بعث بين أعدائه، فلعله - أي: في حال

(٥) الجامع لأحكام القران ٦/ ٣٢٤.

افتراض عمله بالتقية - كتم شيئًا من الوحي خوفًا منهم، وكذا محمد صلى الله عليه وسلم بعث بين أعدائه، ولم يكن له ولأصحابه قدرةٌ لدفعهم فيلزم على تجويز التقية له احتمال كتمانه شيئًا من الوحي، وأن لا ثقة بالقرآن. فانظر إلى شناعة هذا القول وحماقته على أن امتناع التقية على الأنبياء لا يعني عدم عملهم بالملاطفة واللين والمداراة للناس كما تقدم، أي: من دون إخلال بفريضة أو ارتكاب لمحرم[1].

وتقدمت الأدلة على جواز العمل بالتقية. وقد اختلف في حكمها.

فقيل: إذا وجد سببها وتحقق شرطها فهي واجبة، لأن إنقاذ النفس من الهلكة أو الإيذاء العظيم ونحو ذلك لا يحصل إلا بها في تقدير المكلف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

والصحيح عند العلماء أن الأولى للإنسان أن يثبت على ما هو عليه من الحق بظاهره، كما هو عليه بباطنه. وقد يكون الثبات أفضل وأعظم أجرًا ومثوبةً ولو كان العذر قائمًا، وثبت هذا بالأدلة الصحيحة في الكتاب والسنة، فمن الكتاب ما في سورة البروج، فقد حكى الله تعالى قصة الذين صبروا على عذاب الحريق في الأخدود، واختاروا ذلك على أن يظهروا الرجوع عن دينهم. وثناء الله تعالى عليهم بذلك الثبات يدل على تفضيل موقفهم على موقف العمل بالتقية في قضية إظهار الكفر. ومنها قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢﴾ [العنكبوت: ٢].

ومما يستدل به على ذلك من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت وحرقت)**[2].

وكذلك ما تقدم في مسألة مسيلمة، فقد عذر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي الذي وافق مسيلمة وقال فيه: **(لا تبعة عليه)** وقال في حق الذي ثبت فقتل: **(مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله، فهنيئا له)** وهذا يدل على التفضيل. واحتج السرخسي أيضا بقصة «خبيب بن عدي لما امتنع من موافقة قريش على الكفر حتى قتلوه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو: **«أفضل الشهداء»** وقال: **(هو رفيقي في الجنة)**[3].

وقد بوب البخاري رحمه الله لهذه المسألة بابًا بعنوان «باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر» أورد فيه حديث خباب بن الأرت أنه قال: **(شكونا إلى رسول**

(١) فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت، اللكنوي ٣/ ٣٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم ٤٠٣٤.
وصححه في الإرواء، ٧/ ٨٩، رقم ٢٠٢٦.

(٣) المبسوط ٤/ ٤٥.

الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على مفرق رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه ثم قال صلى الله عليه وسلم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1]. وهو واضح الدلالة على المقصود. وهكذا كل أمر فيه إعزاز للدين وإعلاء لكلمة الله وإظهار لثبات المسلمين وبسالتهم، وتثبيت لعامة المسلمين على الحق، يكون الثبات على الحق وإظهاره أولى من التقية، وهذا بخلاف نحو الإكراه على شرب الخمر وأكل الميتة وحيث لا تظهر المصالح المذكورة[2].

## ثانيًا: المداهنة المحرمة:

سبق وأن ذكرنا أن المداهنة تقترب كثيرًا من النفاق، وربما كانت كفرًا إذا كانت المداهنة لصاحب الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم:٩]..

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم ٦٩٤٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ١٣٩. وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/ ١٩٠.

قال ابن عباس: «ودوا لو تكفر فيكفرون»[3].

فالمداهنة خلقٌ قذرٌ، لا ينحط فيه إلا من خف في العلم وزنه، أو من نشأ نشأة صغارٍ ومهانةٍ. وتكمن خطورة هذا الخلق في أنه يتعارض تماما مع أهم المبادئ الإسلامية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا فإن الدعوات السماوية والوضعية قد جعلت جوهر أهدافها الإصلاح، والإصلاح هو لب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالقرآن الكريم قد ركز في أغلب سوره على الإصلاح، وقد ظهر واضحًا من خلال تأكيد القرآن الذي أوصى الإنسان بأخيه الإنسان، فحرم الكذب والخيانة والغش والاعتداء بكل صوره المادية والمعنوية، وهذه المبادئ وغيرها تشترك في منع أيٍ منا من أن يساعد على الظلم والفساد، فيما تدفعه للتعاون في جميع أنواع البر ومنه الإصلاح. وأدلة تحريم المداهنة كثيرةٌ.

قال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ [الواقعة: ٨١].

وقال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾ [هود: ١١٣].

حكى القرطبي في تفسيرها أن معناها:

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٩/ ٥٦.

«لا تودوهم ولا تطيعوهم ولا تميلوا إليهم. والركون هنا: الإدهان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم ثم قال: وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، فإن كانت الصحبة عن ضرورةٍ وتقية فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة ». وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي في حال الاضطرار. والله أعلم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

قال الرازي في تفسيرها: «قال ابن عباس: يريد به يردوك إلى أهوائهم، فإن كل من صرف من الحق إلى الباطل فقد فتن، ومنه قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: ٧٣].

والفتنة ههنا في كلامهم التي تميل عن الحق وتلقي في الباطل وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أعوذ بك من فتنة المحيا». قال: هو أن يعدل عن الطريق، قال أهل العلم: هذه الآية تدل على أن الخطأ والنسيان جائزان على الرسول ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسول، فلم يبق إلا الخطأ والنسيان»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وإذا ثبتت حرمة المداهنة لما تقدم فلا ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأمته في كل عصرٍ ومصرٍ أن يطيعوا الكافرين ولا المنافقين إذا أشاروا عليهم بالمداهنة والترخص أو التنازل بدعوى المصلحة، ولا يأبهوا بأي أذىً متوقع ويعتمدوا على الله في ذلك كله، فهو وحده الوكيل وكفى بالله وكيلًا.

قال الشوكاني: ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة في الدين وفي الآية تعريض لغيره من أمته لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون به عليه [3].

قال صاحب الظلال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ

(١) الجامع لأحكام القران ١٢/ ٧٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ١٧٧.
(٣) فتح القدير ٤/ ٢٨٠.

﴿عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

« توجيه النبي صلى الله عليه وسلم ألا يحفل بأذى الكافرين والمنافقين، ولا يتقيه بطاعتهم في شيء أو الاعتماد عليهم في شيء، فالله وحده هو الوكيل، وكفى بالله وكيلًا»[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال القرطبي في تفسيرها: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فأعرض عنهم والخطاب مجرد للنبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه. وهو صحيح ، فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. فأدب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركين يعظهم ويدعوهم فيستهزئون بالقرآن ، فأمره الله أن يعرض عنهم إعراض منكر. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرًا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٩].

يقول ابن عاشور في تفسيرها: « فذلكة لما تقدم وحصر لحكم الآية المتقدمة. وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوله. والقصر المستفاد من جملة ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى آخرها قصر قلب لرد اعتقاد من ظن أو شك في جواز صلة المشركين على الإطلاق. والذين تحققت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكة، و ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل اشتمال من ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ شرط وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم. والمظاهرة: المعاونة. وذلك لأن أهل مكة فريقان منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه. والقصر المستفاد من قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصر ادعائي، أي: أن ظلمهم لشدته ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلم لا يغفر لأنه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين وعلى حق الظالم نفسه»[٣].

ولا شك أن الحق سبحانه نهى عن موالاة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٣.
(٢) الجامع لأحكام القران ٧/ ٢٣٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٥٦.

الكفار بنص صريح، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾ [آل عمران: ١١٨].

وأخبر أنه إذا لم يكن المؤمنون بعضهم أولياء بعض والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، ويتميز هؤلاء عن هؤلاء، فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

ولا ينبغي أبدًا أن يثق المؤمن بغير المؤمن مهما أظهر من المودة وأبدى من النصح؛ فإن الله تعالى يقول عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)﴾ [النساء: ٨٩].

ويقول سبحانه لنبيه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة: ١٢٠].

والواجب على المؤمن أن يعتمد على الله في تنفيذ شرعه، وأن لا تأخذه فيه لومة لائم، وأن لا يخاف من أعدائه، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقد جاء النص الصريح من كتاب الله عز وجل على أن من اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين أنه: منافق لا يؤمن بالله ولا بالنبي وما أنزل إليه وأنه من جملة الكفار الذين والاهم ونصرهم.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وخلاصة الأمر أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفًا منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين.

## اسباب المداهنة المشروعة

لا شك أن النفوس المطبوعة على المداراة نفوسٌ أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كجسد واحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمةً متماسكةً على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضوًا ركب معها في جسد إلا أن يصاب بعلةٍ يعجز الاطباء أن يصفوا لها دواء [(١)].

ومن هنا تبرز أهمية الاتحاد والتعاون الاجتماعي. وفي المقابل نجد النفوس الشريرة لا تسعى لتحقيق هذا الخلق النبيل. بل تعمل صباح مساء على إشعال نار الفتنة وتهييج النفوس وشحنها بالبغضاء وحثها على الخراب والقتل والدمار. ولا شك أنه لحصول ذلك كله أسبابٌ ودواعٍ تقتضيه. وهذا ما سنبينه بحول الله وقوته فيما يأتي:

### أولًا: أسباب المداهنة المشروعة:

**١. مداراة الناس صدقة.**

قال ابن حجر: ما ورد فيه صريحًا: أي في جواز المداراة حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(مداراة الناس صدقة)** [(٢)].

(١) رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين ص١٢٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ١/ ٣٤٧، وأبو نعيم في الحلية، ٨/ ٢٤٦.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٧٥٩، رقم ٥٢٥٥.

وقال أبو حامد الغزالي « الناس ثلاثة: أحدهم مثل الغذاء لا يستغنى عنه. والأخر مثل الدواء يحتاج اليه في وقت دون وقت. والثالث: مثل الداء لا يحتاج اليه لكن العبد اذا ابتلي به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته الى الخلاص منه [(٣)].

ومعنى الحديث: أن المداراة واللين والتعطف تكون صدقةً على صاحبها إذا ابتلي الرجل بمخالطة الناس معاملةً ومعاشرةً فألان جانبه معهم وتلطف ولم ينفر منهم [(٤)].

**٢. المداراة من الحكمة والذكاء لإرضاء الناس.**

لما كانت المداراة رأس العقل صارت بدهيًا من الحكمة والذكاء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « رأس العقل بعد الايمان بالله مداراة الناس» [(٥)].

والمداراة يبتغى بها رضى الناس وتأليفهم في حدود ما ينبغي أن يكون، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط أو إلقاء نصيحة في رفق. والمداراة ترجع الى ذكاء الشخص

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٣١٢.

(٤) انظر: التقية والمداهنة والمداراة في القران، عبد المنعم إبراهيم ص٤٥.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الاخلاق ص ١٣٩.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٤٥٢، رقم ٣٠٧١.

وهو الذي يراعي في مقدارها وطريقتها ما ينبغي أن يكون ولأسباب العداوة مدخل في تفاوت مقادير المداراة واختلاف طرقها[1].

والمداراة من أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٤ - ٨٨].

وقال نوح لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٢٨ - ٣١].

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمداراة وفعله إياها.

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنا لنكشر في وجوه القوم وقلوبنا تلعنهم)[2].

وفي رواية أخرى ما يؤيد ذلك، فعن جرير ابن عبد الله قال: (جاء ناسٌ من الأعراب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن ناسًا من المصدقين يأتونا فيظلمونا، قال فقال: «أرضوا مصدقيكم»، فقالوا: يا رسول الله وإن ظلمونا ؟ قال: «أرضوا مصدقيكم» وزاد عثمان و«إن ظلمتم»)[3].

٣. المداراة علاج للعداوة بين الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين ص ١٣٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إرضاء السعاة، رقم ٩٨٩.

« يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم »[1].

## ثانيًا: صور من المداهنة المشروعة:

**الصورة الأولى: المداراة بالكلمة** اللينة والقول الحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

«فينبغي على الإنسان عند تعامله مع الناس، ودعوتهم إلى الخير أن يخاطبهم بالطيب من الكلام مبتعدًا عن الألفاظ والكلمات النابية، من اللعن والسب والشتم، والإغلاظ في القول، متأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملاته مع الناس، وسأكتفي بذكر بعض الأحاديث الدالة على أهمية الكلمة اللينة، والكلام الحسن، وأنهما من أفضل الأعمال عند الله سبحانه، وبهما ترتفع درجة العبد عند ربه عز وجل وينال بهما إذا أضيفا إلى بقية أعماله الصالحة رضوان الله سبحانه والفوز بالجنة.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل، الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة)**[2].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه من حديث طويل رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله ربه عز وجل عن الدرجات. قال: **(أي: الله سبحانه) وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام)**[3].

وللكلمة الطيبة في النفوس مفعول أكثر من إعطائها المال، فعن عروة بن الزبير بن العوام قال: مكتوب في الحكمة: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء[4].

وفي المقابل فإن للكلمة السيئة أثرًا في نفوس السامعين، فقد تؤدي إلى الوقوع في أعراض الناس وغيبتهم، ونسبتهم إلى ما هو غير كائن، كما يفهم ذلك من مفهوم الآيات والأحاديث السابقة.

والأحاديث النبوية، وأقوال أهل العلم كثيرة في هذا الموضوع تبين أهمية الكلمة الطيبة وأثرها على الأفراد والجماعات.

**الصورة الثانية: المداراة بطلاقة الوجه والبشر:** التبسم والضحك والانبساط،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥ / ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، رقم ٢٢٢٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب وسورة ص، رقم ٣٢٣٥.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص٤٩.

ومن ذلك ما روي عن أبي الدرداء أنه قال: **(إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم)**[1].

ونكشر في وجوه القوم: أي: نبسم في وجوههم. وكاشره: إذا ضحك في وجهه وباسطه[2].

وكان عليه الصلاة والسلام كما ثبت في بعض الأحاديث، إذا لقي رجلًا هاشًا باشًا صافحه وأقبل عليه. روى عكرمة قال: **(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقي الرجل فرأى في وجهه البشر صافحه)**[3].

ولقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم التبسم من الصدقة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تبسمك في وجه أخيك صدقة)**[4].

ويلحق بطلاقة الوجه والبشر، الترحيب بالفاجر وإلانة الكلام له.

فعن عبدالرحمن بن جابر بن عتيك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(سيأتيكم ركيب مبغضون. فإذا جاءوكم فرحبوا بهم، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون، فإن عدلوا فلأنفسهم، وإن ظلموا فعليها، وأرضوهم فإن تمام زكاتكم رضاهم وليدعوا لكم)**[5].

هذه الأدلة وأمثالها تبين لنا أهمية طلاقة الوجه والبسمة والضحك في إقامة بعض الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الناس.

**الصورة الثالثة: المداراة بالعطايا والهبات**

الإحسان إلى الداخلين في الإسلام حديثا، إنما شرع لتحبيبهم في الإسلام وجذبهم إليه، واستبعادهم عن الشرك، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحسن إليهم بالقول والفعل، بالكلمة الطيبة، والملاطفة والانبساط في وجوههم، أو بإعطائهم مالًا، أو عقارًا تأليفًا لقلوبهم، ليحسن إسلامهم والحوادث التي تدل على ذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة أذكر طرفًا منها:

بعد غزوتي حنين والطائف حيث حسن إسلام أكثر المؤلفة قلوبهم وانخرطوا في الجهاد يدافعون عن الإسلام ويتمنون الشهادة في سبيل الله، بل وانقلب بغضهم الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم إلى حبٍ سيطر على قلوبهم وعقولهم فعن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس معلقًا، ٨/ ٣١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٦١.

(٣) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص٦٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب صنائع المعروف، رقم ١٩٥٦.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٦١، رقم ٢٩٠٨.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب رضا المصدق، ٢/ ١٠٥، رقم ١٥٨٨.
وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، الأم، ٢/ ١٠٩، رقم ٢٧٨.

صفوان قال: (والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، ما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي)[١].

وتظهر حكمة مداراة الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار عندما غضبوا من طريقة توزيع الغنائم بعد غزوة الطائف. قال لهم: (أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون أنتم برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا. فقال: لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار). وفي رواية أخرى: (ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم. الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرًا من الأنصار)[٢].

**الصورة الرابعة: المداراة بالنصيحة والدعاء للحكام.**

و المقصود هنا، كيف نتعامل مع الحكام سواء أكانوا من الكفار أم من المسلمين، وكيف نتعامل مع الفجار، والفسقة وأضرابهم من الناس، إما لجلبهم للدين، أو ردهم عن الظلم والتجبر وأكل أموال الناس بالباطل، أو اتقاء شرهم وفحشهم، أو إبعادهم عن غيهم وفسادهم.

لا شك أن هذا الأسلوب لا يكون إلا بالطرق الطيبة الحكيمة مثل الكلام اللطيف، والابتسامة الرقيقة، والتنبيه على الأخطاء برفق ولطف، وأسلوب حسن، والدعاء لهم بالهداية والتوفيق، وأن يعينهم الله على ترك الباطل، وإقامة الحق، والتعاون معهم على الخير. وإذا ما تم ذلك فقد يضمحل الشر في نفوسهم، أو يزول، ويكثر الخير، وأيضًا عدم التشهير بعيوبهم، والتشنيع عليهم على رؤوس الأشهاد لما فيه من الفساد والفتنة والاقتتال، وسفك الدماء. ولا يخفى ما فعله الخارجون على الخليفة عثمان رضي الله عنه حينما أنكروا عليه بعض أعماله علنًا، فأدى ذلك إلى الاقتتال، والفتنة بين المسلمين، وتفريق وحدتهم وجماعتهم.

ويفهم أيضًا من قوله تعالى لموسى وهارون - عليهما السلام - عندما أمرهما سبحانه: بالذهاب إلى فرعون، ودعوته للحق قال سبحانه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤].

ويفهم أيضًا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كيفية معاملة الأمراء لمصلحة حقن دماء المسلمين ومنع سفكها بغير حق فعن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال: لا، ٤/ ١٨٠٦، رقم ٢٣١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، رقم ١٠٦١.

(ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم. قال: لا ما صلوا).

وفي رواية: (قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة)[1].

قال النووي: «أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر عليهم، وإن ظلموا وأكلوا أموال الناس بالباطل، واللين معهم مع كراهة أفعالهم بقلوبنا للبراءة من الإثم إذا لم نستطع أن نغير المنكر باليد واللسان»[2].

الصورة الخامسة: المداراة بالصحبة الجميلة والمعاشرة الحسنة.

الأسرة قائمة على المودة والرحمة، والإحسان، والمعروف. حتى في أشد الحالات وأصعبها، كالطلاق مثلًا.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والعلاقات الأسرية، وبخاصة بين الزوجين ينبغي أن يسودها اللين، والمجاملة، والعطف، والإغضاء عن الهفوات، والصبر على الأذى، للمحافظة على تماسك الأسرة، وصفاء جوها.

يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

والعشرة بين الزوجين، كما هو معلوم تكون بالقول والفعل، والصحبة الجميلة وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، والرفق، وكف الأذى، وعدم إظهار الكراهة وغير ذلك. ويفعل ذلك كله بإقبال وبشر وطلاقة وجه.

ولعل الحكمة من مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، هو زوال الكراهة بين الزوجين لتخلفها المحبة بينهما[3].

والأدلة من السنة النبوية الكريمة، المؤكدة على حسن معاشرة الرجل لزوجته والوصاة بها كثيرة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المرأة كالضلع. إن أقمتها كسرتها، وان استمعت بها استمعت بها وفيها عوج)[4].

وفي لفظ آخر عنه: (إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، وإن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا، رقم ١٨٥٤.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ١٤٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء، رقم ٥١٨٤.

استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرا. فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرًا)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيرًا) كأن فيه رمزًا إلى التقويم برفق بحيث لا يبالغ فيه فيكسر، ولا يتركه فيستمر على عوجه والمراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة، وأن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص، إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب[3].

ففي هذه الأحاديث، الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب، وفيها: سياسة النساء بأخذ العفو منهن، والصبر على عوجهن. وأن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن. مع أنه لا غنىً للإنسان عن امرأة يسكن إليها، ويستعين بها على معاشه، فالاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها[4].

ومن هديه صلى الله عليه وسلم في المداراة أنه كان يرسل الجواري إلى عائشة - رضي الله عنها - يلاعبنها بالبنات (اللعب) فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وكانت تأتيني صواحبي فكن ينقمعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسربهن إلي)[5].

ومن هديه صلى الله عليه وسلم أيضا أنه كان يصلح بينهن حال خصومتهن من غيرة ونحوها. فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام. فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلتت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: غارت أمكم. ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء، رقم ٥١٨٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، رقم ٥١٨٥.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢٥٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب في فضل عائشة أم المؤمنين، رقم ٢٤٤٠.

**المكسورة في بيت التي كسرت فيه)**[1].

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم الكذب بين الزوجين، لمصلحة التآلف.

فعن ابن شهاب أن حميد بن عبدالرحمن أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول **(ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيرًا وينمي خيرًا)**.

قال ابن شهاب: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها»[2].

ولقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة كيفية التعامل مع الأبناء والصغار، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: **(قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: لكنا والله ما نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة)**[3].

وأرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك إلى الإحسان إلى البنات والصبر عليهم فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما من رجل تدرك له ابنتان فيحسن إليهما، ما صحبتاه، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة)**[4].

وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته. كن له حجابًا من النار يوم القيامة)**[5].

وفي الباب أحاديث كثيرة تبين كيفية مداراته صلى الله عليه وسلم للصغار من حيث التحبب إليهم وملاينتهم وملاعبتهم، والتجاوز عن هفواتهم وأخطائهم، والدعاء لهم. ومعلوم كيف كان صلى الله عليه وسلم يعامل الأطفال الصغار، وينهي عن زجرهم إذا ما ارتكبوا خطأ ما. ويلغ من مداراته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم ٥٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، ٤/ ٢٠١١، رقم ٢٦٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال، ٤/ ١٨٠٨، رقم ٢٣١٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ١٥، رقم ٢١٠٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ٢/ ١٢١٠، رقم ٣٦٧٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٦٤٤، رقم ٢٧٧٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٦٢٢، رقم ١٧٤٠٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ٢/ ١٢١٠، رقم ٣٦٦٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٠٦، رقم ٦٤٨٨.

صلى الله عليه وسلم لهم أنه حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة. فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يؤم الناس وأمامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها)[1].

## أسباب المداهنة المحرمة

سبق وأن ذكرنا أن المداهنة المحرمة نوع من أنواع الموالاة للكفار؛ لأن المداهن إنما خالف بصنيعه هذا نهج الرسل وأتباعهم وهو بالإضافة إلى تركه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ معينٌ على إشاعة المنكر في المجتمع لأن الظلمة والفجرة إذا رأوا ذلك زادوا في فجورهم ولعل لهذا وغيره استحق المداهن اللعن في كل ملة؛ لأنه كان - فوق كل ما تقدم - يزين القبيح ويقبح المليح. وهذا كله أدعى لأن نقف على الأسباب المؤدية لهذا التردي المهلك وصورٍ منها من خلال ما يلي:

### أولًا: أسباب المداهنة المحرمة:

**١. المداهنة للإضلال.**

وقد حكى القران الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣].

ولما كانت المداهنة كما تقدم محرمة، عصم الله بفضل منه ورحمة نبيه صلى الله عليه وسلم منها لأنها ضلال وإضلال، وكذلك عصمة غيره إنما هي فضل من الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم ٥١٦.

ورحمة من باب أولى.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ «والمعنى: ولولا أن الله خصك بالفضل وهو النبوة، وبالرحمة. وهي: العصمة لهمت طائفةٌ منهم أن يضلوك، وذلك لأن قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي عليه السلام أن يدفع ويجادل عنه ويبرئه عن السرقة، وينسب تلك السرقة إلى اليهودي، ومعنى يضلوك أي: يلقوك في الحكم الباطل الخطأ - وهو التواطؤ معهم - ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان، وشهادتهم بالزور والبهتان، فهم لما أقدموا على هذه الأعمال فهم الذين يعملون عمل الضالين. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ أي: وما يضرونك في المستقبل، فوعده الله تعالى في هذه الآية بإدامة العصمة له مما يريدون من إيقاعه في الباطل. أو المعنى أنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل فأنت ما وقعت في الباطل؛ لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال، وأنت ما أمرت إلا ببناء الأحكام على الظواهر»[1].

٢. **الجهل بالمداهنة وحدودها وأبوابها وعلاماتها وعلاجها.**

حقًا من لم يعرف الشر يقع فيه. لذا كان حذيفة رضي الله عنه يسأل عن الشر مخافة أن يدركه»[2]، وكيما يعرفه فيتقيه ومن ذلك رذائل الأخلاق وأرذلها المداهنة، فيلزم كل أحد أن يعرفها وحدودها وأسبابها وكيفية اجتنابها وطرق علاجها إن وقع في شيء منها قل أو كثر.

يقول صاحب رد المحتار على الدر المختار: «واعلم أن تعلم الإخلاص وتعلم الحذر من العجب والحسد والرياء فرض عين. ومثلها غيرها من آفات النفوس: كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من الإحياء قال فيه: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجًا إليه، وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه»[3].

٣. **الحرص على الإمارة.**

الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة؛ لأنه إذا فطم عنها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الامارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، رقم ١٨٤٧.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ١/ ٤٤.

وعزل منها وكان قد ذاق لذة الإمارة بما فيها من جاه ونفاذ الأمر وغير ذلك، ربما لا يصبر الضعيف على ألم الفطام، فيداهن ويترخص، ويبيع من دينه ما يظن أنه سيحفظ عليه ولايته وجاهه وسلطانه، فهذا من الضعيف بمكان، وهذا يمنع من الإمارة ويزجر عنها زجرًا، لأنه أفسد لدينه من الذئب الجائع إذا أرسل في زريبة الغنم.

والأحاديث في النهي عن الحرص على الإمارة كثيرة.

فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة، أكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)**[1].

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: **(قلت: يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)**[2].

قال الغزالي: «ومن جرب نفسه فرآها صابرةً على الحق، كافةً عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية، وأن تستحلي الجاه، وتستلذ نفاذ الأمر، فتكره العزل فيداهن خيفةً من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقليد الولاية أم لا؟ فقال القائلون: لا يجب؛ لأن هذا خوف أمرٍ في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق، وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز؛ لأن النفس خداعة، مدعيةٌ للحق، واعدةٌ للخير، فلو وعدت بالخير جزمًا لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، وإذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية؛ لكان أهون من العزل منها بعد الشروع فيها. فالعزل مؤلم، وهو كما قيل «العزل طلاق الرجال» فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل، وتميل نفسه إلى المداهنة، وإهمال الحق، وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرًا»[3].

٤. تولي الضعيف القضاء.

أما القضاء فحكمه حكم الإمارة، لا ينبغي أن يتقلده الضعفاء ممن لهم تعلق بالدنيا وله في قلوبهم قيمة ووزن، فإن رأى من نفسه ذلك أو أنه لا يحظى بهذا المنصب أو الاستمرار فيه إلا بمداهنة السلاطين الظلمة، وإهمال وترك بعض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الامارة والحرص عليها، رقم ١٦٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الامارة بغير ضرورة، رقم ١٨٢٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٦.

حقوق المسلمين لأجلهم، فليس له أن يتقلد القضاء.

قال الغزالي: وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة، فهو في معناها فإن كل ذي ولاية أمير، أي: له أمرٌ نافذ، والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضًا عظيم مع العدول عن الحق.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة)** [(١)].

وقال عليه السلام: **(من استقضى فقد ذبح بغير سكين)**[(٢)].

فحكمه حكم الإمارة، ينبغي أن يتركه الضعفاء، وكل من كانت الدنيا ولذاتها لها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومهما كان السلاطين ظلمة، ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم، وأجل المسلمين المتعلقين بهم، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه، أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق، ولا يكون خوف العزل عذرًا مرخصًا له في الإهمال أصلًا، بل إذا عزل سقطت العهدة، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك، فهو إذن يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثوابًا وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار [(٣)] ؟!

**٥ . الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث لغير المؤهل.**

الوعظ والفتوى والتدريس حكمه حكم الإمارة والقضاء، فمن لم يكن نيته في ذلك إلا طلب الجاه والشرف والمنزلة في قلوب الناس والأكل بالدين بأي صورة كانت، والتفاخر والتكاثر والتنافس، فينبغي أن يترك ذلك ويخالف هواه في ذلك كله إلى أن يأمن على نفسه من هذه الفتن، ويكون نيته وهمته هداية الخلق، ويقوى على ذلك.

قال الغزالي: وأما المواعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد، وكل ما يتسع بسببه الجاه، ويعظم به القدر، فآفته أيضًا مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلًا، فمن لا باعث له إلا طلب

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، رقم ٣٥٧٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨١٨، رقم ٤٤٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي، رقم ١٣٢٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٦٥، رقم ٦١٩٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ١٢٠.

الجاه والمنزلة، والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، فينبغي أن يتركه، ويخالف الهوى فيه، إلا أن ترتاض نفسه، وتقوى في الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه[(١)].

ومعلوم أن السلطة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعًا، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعايش، فلم نهي عن ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب لما رأى قومًا يتبعونه، وهو في ذلك يقول: أبيٌّ سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه، وقال ذلك فتنة على المتبوع، ومذلة على التابع. وعمر رضي الله عنه كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه[(٢)].

**٦. الفتن بوجه عام أو التعلل بها أو بالأولاد ونحوهم.**

قد يظن البعض أن ترك الواجبات والفرائض من أسباب النجاة من الفتن كما ترك المنافقون الغزو مع الرسول بهذه الدعوى قائلين: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ فرد الله دعواهم بقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩].

**لذلك؛ فإن الرسول هنا يرشد إلى المبادرة بالأعمال الصالحة ويعلل ذلك بقدوم فتن كقطع الليل تدعو الإنسان للمداهنة وبيع دينه بعرض من الدنيا قليل.**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(بادروا بالأعمال الصالحة؛ فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا)**[(٣)].

ومعنى **(ويمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض)** أي: متاع وحطام من الدنيا، استئناف بياني أي: أن سبب كفره بيعه، أي: أخذه العرض في مقابلة دينه، بأن يأخذ أو يستحل مال أخيه المسلم، أو يستحل الربا والغش أو نحوه مما أجمع على تحريمه، وعلم من الدين بالضرورة[(٤)].

ومن الفتن الحرص على الأولاد، والخوف عليهم من الضياع - كما يلقي الشيطان هذا في روع الإنسان أحيانًا ليحزنه ويضعفه ويجنبه عن قول الحق، والصدع به - لهو من أعظم أسباب المداهنة، لذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، فعن يعلى العامري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(الولد مجبنة مبخلة)**[(٥)].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٢١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم ١١٨.
(٤) دليل الفالحين ١/ ٢٩٢.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، رقم ٣٦٦٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع،

حين بين لنا أن الولد مجبنة، فاحذر أن تداهن من أجله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن: ١٤].

ولما كان في الأمر بالمعروف؛ والنهي عن المنكر؛ والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة، صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة. كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[التوبة: ٤٩].

وقد ذكر أهل التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إني رجل لا أصبر على النساء، وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر، فأذن لي، ولا تفتني[(١)].

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمل أحمر. وجاء فيه الحديث: (كلهم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر)[(٢)].

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

يقول: إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء فلا يفتتن بهن، فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ومجاهدة نفسه عنه. فيتعذب بذلك، أو يواقعه فيأثم. فإن من رأى الصورة الجميلة وأحبها، فإن لم يتمكن منها - إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها - يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قول: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾فقال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾يقول: إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب، ونكوله عنه، وضعف إيمانه، ومرض قلبه. الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة، فهو في الفتنة ساقط، لما وقع فيه من ريب قلبه، ومرض فؤاده، وترك ما أمره الله به من الجهاد.

وينقسم الناس أمام الأمر بالمعروف على قسمين كما يوضحهما شيخ الإسلام قائلًا: فتدبر هذا، فإنه مقام خطر، والناس فيه

---

١/ ٤٠٠، رقم ١٩٨٩.

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٤٤٣ إلى ابن المنذر والطبراني وغيرهما عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم ٢٧٨٠.

على قسمين:

قسم يأمرون وينهون ويقاتلون طلبًا لإزالة الفتنة كما زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة، كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمة مثل الخوارج.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة. وهذه الفتنة المذكورة في سورة «براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة، فإنها سبب نزول الآية. وهذه حال كثيرٍ من المتدينة، يتركون ما يجب عليهم من أمرٍ ونهيٍ، وجهادٍ، يكون به الدين كله لله. وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منها. وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب من الأمر وترك المحظور. والقيام بالواجب وترك المحظور متلازمان، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعًا أو تركهما جميعًا[1].

٧. الصداقة والصحبة في غير الله ومرضاته.

إن الصداقة والصحبة إذا كانت على غير الله وفي غير مرضاته يدخل على دين المرء من الفساد بسببها ما لا يعلمه إلا الله، ذلك لأنهم ما صاحبوه إلا ليعاونهم على أغراضهم وهم يقصدون بذلك إفساد دينه، وإن لم يفعل انقلبوا عليه أعداءً، عداوة تضاعف عداوة أعدائه؛ لأنهم شاهدوا منه ما لم يشاهده أعداؤه، وإن لم يحب مفارقتهم احتاج إلى مداهنتهم ومساعدتهم على ما يريدون وإن كان فيه فساد دينه.

وفيمن يحب صاحب «بدعة» لكونه داعية إلى تلك البدعة يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل: لأجل الأتباع والمحبين ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم، فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحدًا لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه: فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبين رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم وفيما يحبونه وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص٦٧ – ٧٠.

﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦][1].

قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا وكانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله. فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ولا حول ولا قوة إلا بالله[2].

**٨. الخوف من الناس وعدم الخوف من الله.**

اعلم أن من خاف الله تعالى في الناس كان محسنًا إلى الناس وإلى نفسه لأن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكفهم عن ظلمهم، ومن خاف الناس ولم يخف الله فهذا ظالم للناس ولنفسه لأنه إذا خافهم دون الله تعالى احتاج إلى أن يدفع شرهم عنه بكل وجه، إما بمداهنتهم ومراءاتهم، وإما بمقابلتهم بشيء من الشر أعظم من شرهم أو مثله.

قال شيخ الإسلام[3]: «فالتوحيد ضد الشرك فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله فعبده لا يشرك به شيئًا كان موحدًا، ومن توحيد الله وعبادته؛ التوكل عليه، والرجاء له والخوف منه، فهذا يخلص به العبد من الشرك وإعطاء الناس حقوقهم، وترك العدوان عليهم يخلص به العبد من ظلمهم ومن الشرك بهم، وبطاعة ربه واجتناب معصيته يخلص العبد من ظلم نفسه، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)[4].

فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد والله يحب النصفين، ويحب أن يعبدوه. وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب وهو إنما يحبه لكونه طريقًا إلى عبادته والعبد يطلب ما يحتاج أولًا وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم.

ثم إذا طلب العبادة: فإنما يطلبها من حيث هي نافعة له محصلة لسعادته محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له وإن كان الرب يحب ذلك فهو

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
وانظر: التقية والمداهنة والمداراة في القران الكريم ص ٣٣٢.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٥٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

يطلبه من حيث هو ملائم له فمن عبد الله لا يشرك به شيئًا: أحبه وأثابه فيحصل للعبد ما يحبه من النعم تبعًا لمحبوب الرب. أ.هـ

## ثانيًا: صور من المداهنة المحرمة:

### ١. الدخول على الظلمة توقيرًا أو إعانة ومحبة.

اعتبر السلف الصالح الدخول على الظلمة وتوقيرهم والثناء عليهم ومحبتهم، نوعًا من الركون والمداهنة لهم، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة:٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه، وأسرع السير، حتى اجتاز الوادي)[١].

قال ابن حجر: ووقع عند ابن أبي شيبة من طريق أبي الشعثاء قال: دخل قوم على ابن عمر فوقعوا في يزيد بن معاوية فقال: «أتقولون هذا في وجوههم؟ قالوا: بل نمدحهم ونثني عليهم» وفي رواية عروة بن الزبير عن الحارث بن أبي أسامة والبيهقي قال: «أتيت ابن عمر فقلت: إنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون في شيء نعلم أن الحق غيره فنصدقهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقًا، فلا أدري كيف هو عندكم؟! لفظ البيهقي في رواية الحارث «يا أبا عبدالرحمن، إنا ندخل على الإمام يقضي بالقضاء نراه جورًا فنقول: تقبل الله، فقال: إنا نحن معشر محمد» فذكر نحوه. اهـ[٢].

وقد قرر أهل العلم أن الرجل إن كان مستغنيًا عن الدخول على من يضطره الحال إلى الثناء عليه فدخل وأثنى عليه بغير ما يعلم، كان نفاقًا أما إن اضطر إلى الدخول على ذي قوة، لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئًا من الإطراء فهو سعة من يطريه بمقدار ما يخلص من بأسه، ولا تلحقه هذه الحالة الشاذة بزمرة المداهنين ومما يحكى في هذا الإطار ما حصل حين انهزم جيش السلطان فرج بن برقوق أمام جيش الطاغية تيمورلنك، ووقع طائفة من العلماء في أسر الطاغية، ومن هذه الطائفة ابن خلدون، فكان من هذا الفيلسوف أن تقدم إلى تيمورلنك، وقال فيما حادثه به: «إني ألفت كتابًا في تاريخ العالم، وحليته بذكرك، وما أسفي إلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإلى ثمود أخاهم صالحًا)، رقم ٣٣٨٠.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/ ١٨٢.

على هذا الكتاب الذي أنفقت عمري فيه، وقد تركته بمصر، وإن عمري الماضي ذهب ضياعًا، حيث لم يكن في خدمتك، وتحت ظل دولتك، والآن أذهب فآتي بهذا الكتاب، وأرجع سريعًا، حتى أموت في خدمتك، فأطلق سبيله، فقدم مصر، ولم يعد إليه»[(١)].

٢. كلام ذي الوجهين واللسانين.

ومن صور المداهنة بل من أسوئها أن يلقى المداهن الرجلين المتعاديين كلًا منهما على حدة فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن موقفه من عداوته للآخر، وأنه هو المحق والآخر هو المخطئ، والأمر لا شك على خلاف فأحدهما المخطئ والآخر المصيب، مع ذلك قد صوب مسلك هذا المخطئ وخطأ مسلك المصيب، وهذه مداهنة محرمة.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**)[(٢)].

قال ابن عبد البر: هذا حديث ظاهره كباطنه وباطنه كظاهره في البيان عن ذم من هذه حاله، وقد تأوله قوم على أنه الذي يرائي بعمله ويري للناس خشوعًا واستكانة ويوهمهم أنه يخشى الله حتى يكرموه وليس في الحقيقة كذلك كما يظهر.

وقال النووي في توجيه الحديث: سببه ظاهر؛ لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين، وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها ويظهر لها أنه منها في خير أو شر وهي مداهنة محرمة ثم ذكر الحديث بعد ذلك وبوب عليه «باب: ذم ذي الوجهين وتحريم فعله» قال: والمراد من يأتي كل طائفة ويظهر أنه منهم ومخالف للآخرين مبغض فإن أتى كل طائفة بالإصلاح ونحوه فمحمود.

قال الأستاذ محمد خضر حسين: « ومن أسوأ ما يفعل المداهن أن يلاقي الرجلين بينهما عداوة، فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه و يوافقه على دعوى أنه الحق، وصاحبه هو المبطل، وفي مثل هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم: (**تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**)[(٣)].

فيتخذ الرجل وجهين متى كان يطمع إلى ما في أيدي الناس من متاع، أو كان يطمع في إرضاء طوائف على تباعد ما بينهم من نزعات، وعلى شدة ما بينهم من الاختلاف، والعبور إلى النفع على جسر من المداهنة،

(١) انظر: رسائل الإصلاح، محمد الخضير حسين ص١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان، رقم ٧١٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ذم ذي الوجهين وتحريم فعله، رقم ٢٥٢٦.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

يحرم صاحبه من أعز متاع هو الصدق، بعد أن يحرمه من أطيب لذة هي ارتياح الضمير، ومن كان حريصًا على أن يكون صديق الطوائف المتباينة، فإن الطيب منهم يأبى أن يلوث صدره بصداقة من يتملق الخبيث[(١)].

**فائدة:**

الجمع بين هذه الصورة وقوله صلى الله عليه وسلم: (بئس أخو العشيرة):

قال العراقي: (فإن قلت): كيف الجمع بين هذا الحديث وبين الحديث الآخر الثابت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: **(أن رجلًا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ائذنوا له فبئس أخو العشيرة) فلما دخل ألان له القول فقلت: يا رسول الله، قلت له الذي قلت ثم ألنت له القول؟! قال: (يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه)**[(٢)].

قلت: لا منافاة بينهما فإنه عليه الصلاة والسلام لم يثن عليه في وجهه ولا قال كلامًا يضاد ما قال له في حقه في غيبته، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام له، وإنما فعل ذلك تألفًا له ولأمثاله على الإسلام ولم يكن أسلم في الباطن حينئذٍ، وإن كان قد أظهر الإسلام فبين عليه الصلاة والسلام ليعرف ولا يغتر به وتألفه رجاء صحة إيمانه وقد كان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ما دل على ضعف إيمانه وارتد مع المرتدين وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه[(٣)].

**٣. إيثار رضا الخلق على رضا الخالق سبحانه وتعالى.**

ومن صور المداهنة: إيثار رضا الخلق على رضا الله تعالى، وفي هذا سخط الله وسخط الناس.

وفي حديث عائشة مرفوعًا: **(من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)**[(٤)].

لهذا قيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه إلى من نجلس بعدك يا أبا عبدالله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم، وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله! أيشك في هذا؟ أبو يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمدًا كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي

(١) رسائل الإصلاح ص١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٦٠٣٢.

(٣) تيسير المجيد شرح تقريب الأسانيد، عبدالمنعم إبراهيم ٣/ ١٧٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، آخر باب، ٤/ ٦٠٩، رقم ٢٤١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٥٢، رقم ٦٠٩٧.

أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي لله وللمسلمين، وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى[1].

ومن إيثار رضا الخلق: التنازل عن واجب من واجبات الدين من أجل الوظائف.

ومثال ذلك أن يتقدم شخص ما إلى وظيفة معينة فيشترطون عليه التنازل عن بعض أمور الدين التي لا ينبغي التنازل عنها من أجل العمل، فإن أجاب فهذه مداهنة وترخص، وبذل للدين من أجل عرض دنيوي، وإن ثبته الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨ ].

وبقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فسوف يرزقه من حيث لا يحتسب، ويربح الدنيا والآخرة، وإلا فسيخسر مع المداهنة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ومن ذلك أيضًا مداهنة الحكام لأهل الباطل.

وتحدث هذه المداهنة في الواقع في كل نواحي الحياة، في الوظائف والمدارس، وغير ذلك من نواحي الحياة، وكذلك مداهنة الحكام لأهل الباطل والبغي والفساد.

فالحاكم المسلم يجب عليه موالاة أهل الإيمان ونصرتهم، وقمع أهل الباطل والبغي والفساد، وكسر شوكتهم، وقد أخذ بهذا المبدأ عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز في رسالته التي بعث بها إلى أمراء بعض الجهات التابعة له قال فيها: (بلغنا خبر أن بعض الأمراء متسلط على أهل الدين بأمورٍ ظاهرها حق وباطنها باطل، ولا يفعل هذا أمير مع أهل الدين، فأدعه يومًا واحدًا في الإمارة، فكل يأخذ حذره، ويبدل ما كان عليه، ومضى ما فيه الكفاية)[2].

**٤ . مداهنة الكفار واليهود والنصارى.**

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾

[آل عمران: ٢٨].

ومن صور المداهنة أيضًا موالاة الكفار ومباطنتهم سواء بمودة القلب أو بنصره أو بغير ذلك.

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، رفعًا عن نفسه، من غير أن يستحل دمًا حرامًا، أو مالًا حرامًا، أو

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٨٠.

(٢) الموالاة والمعاداة، محماس الجلعود ٢/ ١١٢.

يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل، وسلامة النية قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ﴾[النحل: ١٠٦].

ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[المائدة: ٥١].

وفي ظلال القرآن[2]: «إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون».

ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة، سواء كانت الموالاة بمودة القلب، أو بنصره، أو باستنصاره سواء.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

هكذا ليس من الله في شيء. لا في صلاة ولا نسبة، ولا دين ولا عقيدة، ولا رابطة ولا ولاية فهو بعيد عن الله، منقطع الصلة تمامًا في كل شيء تكون في الصلات.

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان»[3].

فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر -والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب الله في الحياة على الإطلاق، كما يدل السياق هنا ضمنًا وفي موضع آخر من السورة تصريحًا - كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية. فما يجوز هذا الخداع على الله ! ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكًا للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقًا:

﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

ابتغاء حكم الجاهلية مداهنة وباغيه مداهن.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٤٩.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠.

﴿لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾ [المائدة: ٤٩].

**٥. التحاكم لحكم الجاهلية وباغي هذا التحاكم مداهن.**

والمعنى: وأن احكم بينهم بما أنزل الله إليك يا محمد من الكتاب ولا تتبع أهواءهم.

أي: ولا تتبع أهواء اليهود الذين احتكموا إليك في قتيلهم وفاجريهم، وأمر منه له بلزوم العمل بكتابه الذي أنزله إليه. واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك أي: احذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه، فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم. فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم.

أي: فإن تولى هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليك عنك، فتركوا العمل بما حكمت به عليهم، وقضيت فيهم، فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، أي: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضا بحكمك وقد قضيت بالحق إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في عاجل الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[1].

**٦. التباطؤ عن دفع المنكر والنهي عنه.**

ويتمثل ذلك في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)**[2].

وهذا مثلٌ بليغٌ جدًا، فهو يبين أن المصلحة مشتركة بين الجميع، وأن سلامة المؤمنين كلٌ لا يتجزأ، فإذا أخطأ بعضهم انسحب هذا الخطأ على الباقين. والتشبيه التمثيلي في قوله: (مثل القائم على حدود الله) إلخ، تشبيه معقول بمحسوس؛ حيث شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء. ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٤٣ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٤٩٣.

الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد فإن مجتمع المداهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم[1].

كما يبين حال الناس في المجتمع وأنه لا يخلو من وجود بعض صور المنكر والفساد التي يقدم عليها ضعاف الإيمان، وقد يلتمس بعضهم لنفسه مبررًا في ما يفعل كأن يقول هذه حرية شخصية، وأنا حر أصنع في ملكي ما أشاء، فإن قام أهل الرشد بواجبهم في إنكار هذه المنكرات والأخذ على أيدي الظالمين صلح المجتمع ونجا الجميع من غضب الله عز وجل، وأما أن يتقاعسوا عن هذا الواجب وتغلبت كلمة المداهنين فإن العقوبة الإلهية تعم الجميع، وتلك سنة إلهية لا تتغير.

قال الحافظ: «وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها»[2].

(١) الإيضاح، القزويني ٢/ ٣٧١.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٢٤٥.

يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)[3].

**٧. متابعة بعض المتصدرين لأهواء ذوي السلطان، أو طلبًا لتحصيل مال، أو رضا صاحب أو قريب، أو نصرة لولاءات حزبية، أو رغبة في إرضاء مرهوب أو مرغوب.**

ومتى اتصف الداعية بهذا الوصف فسدت دعوته وسقطت من أعين الناس وجاهته، وظهرت آثار مداهنته من خلال فتاويه وأقواله وأعماله.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن حبنكه بعض أفعال هؤلاء وأمثالهم ممن يتبعون أهواءهم فذكر من أعمالهم:

- ومنها: لي أعناق النصوص، وتفسيرها تفسيرات باطلات لتزيين وتدعيم الفتاوى المخالفة لحكم الله عز وجل.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم ٢١٦٨.
قال الترمذي: صحيح.
وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٦٤.

ومنها: إباحة بعض الأعمال الربوية المحرمة بلا شك، وإيجاد تخريجات باطلات لها إرضاء للحكام، حتى يظفر منهم بمنصب أو يظفر بتثبيت فيه، أو بتيسير مصالح مادية له أو لذويه.

- ومنهم من يتحايل على نصوص حجاب المرأة للتهوين من أمره.
- ومنهم من يجعل الاشتراكية والديمقراطية من الإسلام متحايلا باستخدام النصوص الإسلامية التي تأمر بالشورى..
- ومنهم من ينقض بعض أصول الدين أو فروعه، ويطلق عبارات تخرج من الإسلام إرضاء للحكام واستجابة لأهوائهم، ولما يبذلونه له من مال أو منصب أو جاه أو كلام معسول، أو تمجيد وتبجيل وتعظيم. إلى غير ذلك من تهوك في الضلالة، وعبث في أحكام الإسلام وشرائعه[1].

وفي كتاب «الدعوة إلى الإصلاح» كتب شيخ الأزهر السابق الشيخ محمد الخضر حسين يذم أخلاق المداهنين وأفعالهم فيقول رحمه الله: «فمن أهل العلم من يرى ذا جاه أو رياسة يهتك ستر الأدب، أو يعيث في الأرض فسادا، فيتغابى عن سفهه أو بغيه، ويطوي دونه التذكرة والموعظة، ابتغاء مرضاته أو حرصا على مكانة أو غنيمة ينالها لديه. ومن البلية (والكلام ما يزال لشيخ الأزهر) أن المترفين ومن ينحو نحوهم في الزيغ والغرور، لا يكتفون ممن يسوقهم الزمن إلى نواديهم أن يسكت عن جهلهم، ويتركهم وشأنهم، وإنما يرضيهم منه أن يزين لهم سوء عملهم، أو يرمقهم بعين مكحولة بتبسم الاستحسان، وهو أقل شيء يستحق به في نظرهم لقب «كيس ظريف»[2].

موضوعات ذات صلة

السلم، السياسة، العلاقات الدولية، النفاق

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حبنكة الميداني ص ٦٣٤.

(٢) رسائل الإصلاح ص١٣٧.







## عناصر الموضوع


| | |
|---|---|
| مفهوم المدح | ٢١٢ |
| الألفاظ ذات الصلة | ٢١٣ |
| مدح الله تعالى | ٢١٧ |
| أسباب المدح | ٢٢٢ |
| مدح النفس | ٢٤١ |
| نماذج من المدح | ٢٥٠ |
| مقاصد المدح في القرآن الكريم | ٢٦٦ |




# مفهوم المدح

## أولًا: المعنى اللغوي:

لفظ المدح في اللغة العربية مأخوذ من مادة الفعل (م د ح) و«الميم والدال والحاء أصل صحيح يدل على وصف محاسن بكلام جميل، ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ مَدْحًا: أحسن عليه الثناء، والأمدوحة: المدح»[1]، قال الجوهري: «المدح: الثناء الحسن. وقد مَدَحَهُ وامْتَدَحَهُ بمعنًى، وتَمَدَّحَ الرجل: تكلف أن يمدح. ورجلٌ مُمَدحٌ، أي: ممدوح جدًّا»[2].

ومن المعاني الحسية للمدح الاتساع، يقال: «تمدحت خواصر الماشية، أي اتسعت شبعًا»[3]، ومن هذا يبدو أن المعنى المعنوي للمدح متطور من المعنى الحسي؛ لأن الاتساع بذكر الخصال الحميدة في الممدوح والثناء عليه ملحوظ فيه، وعليه، فالمدح: هو حسن الثناء.

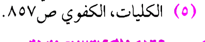
## ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«المدح هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا»[4]، فلا يكون إلا على صفة في الممدوح كالتقوى والإيثار، ويخرج منه ما كان خارجًا عن إرادته كحسن المنظر، «والمدح بمعنى عدِّ المآثر والمناقب يقابله الهجو بمعنى عدِّ المثالب، والمدح بالوصف الجميل يقابله الذم»[5]. وعليه، فللمدح معنيان: أحدهما: عدُّ المآثر والمناقب، والآخر: الثناء بالوصف الجميل، فإذا كان بمعنى عدِّ المآثر والمناقب فهو يقابله الهجو بمعنى عد المثالب، وإذا كان بمعنى الثناء بالوصف الجميل فهو يقابله الذم.

وبهذا يمكن أن نخرج بتعريف اصطلاحي للمدح بأنه: الإخبار عن محاسن الغير والثناء باللسان على الممدوح بما يبديه من المآثر والخصال الحميدة المؤثرة من قول أو فعل أو صفة.

ولم يرد لفظ (المدح) في القرآن، ولم يرد جذره (مدح).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٨.
(٢) الصحاح ١/ ٤٠٣.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٠٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١١٦.
(٥) الكليات، الكفوي ص٨٥٧.



## الألفاظ ذات الصلة

### ١ الثناء:

**الثناء لغة:**

ذكر ما يشعر بالتعظيم[(١)]، وهو الذكر بالخير والكلام الجميل، ويستعمل في الوصف بمدح أو ذم، فيقال أثنى عليه خيرًا أو أثنى عليه شرًّا، لكن غلب استعماله في الخير، وقد طار ثناء فلان، أي: ذهب وانتشر بين الناس[(٢)].

**الثناء اصطلاحًا:**

«هو الإتيان بما يشعر التعظيم مطلقًا، سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان؛ وسواء كان في مقابلة شيء أو لا»[(٣)].

**الصلة بين الثناء والمدح:**

«أن الثناء مدح مكرر، مأخوذ من الثني ورد الشيء بعضه على بعض، من قولك: ثنيت الخيط، إذا جعلته طاقين، وثنَّيته بالتشديد إذا أضفت إليه خيطًا آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ [الحجر:٨٧]؛ يعني: سورة الحمد؛ لأنها تكرر في كل ركعة»[(٤)] قال ابن منظور: «وأثنيت عليه في حياته إذا مدحته دفعة بعد دفعة»[(٥)].

### ٢ التمجيد:

**التمجيد لغة:**

نيل الشرف والمجد، من قولهم: رجل ماجد، وقد مجد الرجل بالضم، فهو مجيد وماجد.

**التمجيد اصطلاحًا:**

بلوغ النهاية في عظم الشأن الجامع بين شرف الذات وحسن الفعال[(٦)].

**الصلة بين التمجيد والمدح:**

أن التمجيد تعظيم وشرف، والمدح ثناء بهذا الشرف.

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص٧٢.
(٢) انظر: شمس العلوم، نشوان الحميري ٢/ ٨٩٥.
(٣) الكليات، الكفوي ص٣٢٤.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص١٥٠.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٠٨.
(٦) المفردات، الراغب ص٥١٢.

## ٣ التعظيم:

### التعظيم لغة:

التبجيل، يقال: عظم الأمر عظامة، وعَظَّمَهُ يُعَظِّمُهُ تعظيمًا، أي: كَبَّرَهُ، واستعظمت الشيء: أخذت أعظمه، واستعظمته: أنكرته، وعظم الشيء: أعظمه وأكبره، وعظم الرجل عظامة فهو عظيم في الرأي والمجد، وإن لفلان عظمة عند الناس، أي: حرمة يعظم لها[(١)].

### التعظيم اصطلاحًا:

هو التوقير والإجلال والتفخيم والمكانة في النفوس والعظمة في الرأي[(٢)].

### الصلة بين التعظيم والمدح:

أن التعظيم فيه معنى التبجيل والتوقير والاحترام والهيبة في النفوس، فهو أعلى من المدح.

## ٤ الحمد:

### الحمد لغة:

هو نقيض الذم[(٣)].

### الحمد اصطلاحًا:

الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه[(٤)].

### الصلة بين الحمد والمدح:

الحمد أخص من المدح، فالمدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، وما يكون فيه بالتسخير، فقد يُمْدَحُ الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمْدَحُ ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدًا[(٥)].

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح فإنه خبر مجرد»[(٦)].

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٩١، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب ص٣٧٢، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٠.
(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٣.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣١.
(٦) بدائع الفوائد ٢/ ٩٣.





## ٥ الشكر:

### الشكر لغة:

هو عرفان الإحسان ونشره[١]. وقال الرازي: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف[٢].

### الشكر اصطلاحًا:

هو عرفان الإحسان، والاعتراف بالنعمة، وأداء ما يترتب عليه، والقيام بحق مسديها[٣].

قال ابن قيم الجوزية: «الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا وعلى قلبه شهودًا ومحبة وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٤].

### الصلة بين الشكر والمدح:

المدح أعم من الشكر باعتبار المتعلق، فإن متعلقه النعمة وغيرها، ومتعلق الشكر النعمة فقط؛ والشكر أعم من المدح باعتبار المورد، فإن مورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومورد المدح هو اللسان فقط، فكان بينهما عموم وخصوص من وجه.

## ٦ الذم:

### الذم لغة:

الذم نقيض المدح،«يقال: ذَمَمْتُهُ أَذُمُّهُ ذَمًّا فهو مذموم وذميم»[٥]، «ورجل مُذَمَّمٌ: أي: مذموم جدًّا، وشيء مذم: أي: معيب»[٦].

### الذم اصطلاحًا:

هو الإخبار بمساوئ المذموم مع بغضه.

### الصلة بين الذم والمدح:

إن المدح إخبار بمحاسن المحمود، والذم إخبار بمساوئ المذموم، وجماع المساوئ

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٠.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٣٢، الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٢، المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٤.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٠.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٢٥.

فعل الشر، كما أن جماع المحاسن فعل الخير[1].

## ١ الهجاء:

### الهجاء لغة:

الشتم بالشعر، يقال: هَجا يَهْجُو هِجاءً: وهو الوقيعة في الأشعار، وهو الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح، والمرأة تهجو زوجها، أي: تذم صحبته[2]، وأصل الهجاء في العربية: الهدم؛ تقول: هجوت البيت إذا هدمته[3].

### الهجاء اصطلاحًا:

هو ما يوصف به في الشعر من الأخلاق الذميمة[4].

### الصلة بين الهجاء والمدح:

الهجو نقيض المدح، وهو يدل على الفعل والصفة فيتناول الفاعل والموصوف دون الفعل والصفة، فتقول هجوته بالبخل وقبح الوجه، ولا تقول هجوت قبحه وبخله[5].

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ٢/ ٤٠١.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٦٥، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٥٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٣.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٩٦٠.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٣.





## مدح الله تعالى

اشتمل القرآن الكريم على آيات عديدة تتضمن ثناءً على الله عز وجل، وإذا كان من الثناء ما يشعر بتعظيم من يثنى عليه، فإن حمد الله عز وجل وتسبيحه وتكبيره تدخل كلها في باب المدح والثناء.

### أولًا: مدح الله تعالى لنفسه:

مدح الله تعالى نفسه بأساليب من المدح؛ منها:

**١. المدح بصفة الحمد.**

المطالع لفواتح السور يجد أن الله تعالى استفتح خمس سور بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكذلك اختتم بها ثلاث سور هي سور: الإسراء، والنمل، والزمر، وهو سبحانه «يخبر أن المستحق للحمد هو الله تعالى، ومعناه: الأمر، أي: قولوا الحمد لله، وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه، والحمد والمدح أخوان»[1].

يقول الإمام البقاعي: «الحمد: المدح الكامل الذي يحيط بجميع الأفعال والأوصاف، على أن جميعها إنما هو من الله سبحانه تعالى، وأنه كله مدح لا يتطرق إليه ذم، فإذا اضمحل ازدواج المدح بالذم، وعلم سريان المدح في الكل استحق عند ذلك ظهور اسم الحمد مكملًا معرفًا بكلمة «ال» وهي كلمة دالة فيما اتصلت به على انتهائه وكماله»[2].

**٢. المدح بالتوحيد.**

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فهذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، حيث اشتملت على اسمان لله تعالى يدلان على سائر الأسماء الحسنى هما: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، وآية كهذه احتوت على أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٩.

(٢) نظم الدرر ١/ ٢٨.

قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان[1].

٣. المدح بالأسماء الحسنى.

وهي جامعة لمعاني المدح والثناء كله في القران الكريم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

جاءت هذه الآيات الثلاث في خاتمة سورة الحشر، والتي تضمنت ذكر عدد من أسماء الله وصفاته الحسنى بصورة متتابعة لم تذكر في مثلها من آيات القرآن الكريم. وقد بين الطاهر بن عاشور السبب في ذلك بقوله: «لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة، منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة، وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر أو صفاته العلية، وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته، وكان مما حوته السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله إذ أيد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذكر ما حل بالمنافقين أنصارهم، وقوبل ذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله الذين نصروا الدين، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليوم الجزاء والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم، وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرف بعظمة الله المقتضية شدة خشيته عقب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة؛ زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته»[2].

٤. المدح ببديع ما صنع الله تعالى وأوجد.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٧-٤٨].

ففي هذه الآية «ذكر الله تعالى ما يدل على تمام قدرته على البعث بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها ﴿وَإِنَّا﴾

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ١١٧.

على عظمتنا بعد ذلك ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء وقادرون ذوو سعة لا تتناهى، ولذلك أوسعنا بقدر جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها، فالأرض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا تصح معها الشركة أصلًا، فلسنا كمن تعرفون من الملوك؛ لأنهم إذا فعلوا شيئًا لم يقدروا على أعظم منه وإن قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة، وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى ما ترون في جنبه ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعوائد ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: بسطناها ومهدناها بما لنا من العظمة، فصارت ممهدة جديرة بأن تستقر عليها الأشياء، وهي آية على تمهيد أرض الجنة، وسقنا لأنهارها وغرسنا لأشجارها ﴿فَنِعْمَ﴾ أي: فتسبب عن ذلك أن يقال: في وصفنا نِعْمَ ﴿الْمَاهِدُونَ﴾ أي: نحن لكمال قدرتنا، فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الأرض شيء إلا بإرادتنا واختيارنا وتقديرنا من الأزل؛ لأنا إذا صنعنا شيئًا علمنا ما يكون منه من حين إنشائه إلى حين إفنائه، ولا يكون شيء منه إلا بتقديرنا، وذلك تذكير بالجنة والنار، فما فيها من خير فهو آية على الجنة، وما فيها من شر فهو آية على النار، والمخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى»[1].

والله تعالى يحب المدح من عباده، وهو سبحانه جدير بالمدح، فالكون كونه والملك ملكه، ولا إله غيره، وهو سبحانه أهل الثناء والمجد، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه)**[2].

فهذا الحديث يدل على حب الله للمدح والحمد والثناء من عباده.

ولذلك أرشد الله تعالى عباده إلى مدحه، وحثهم عليه، وجعل مدحه بالثناء والتعظيم عبادة من أجل العبادات وأعظمها عنده.

قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩].

وجعله سبب الفلاح فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وجعل مدحه بشكر نعمه غاية من الخلق، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

---

(١) انظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني ٤/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب قوله تعالى: (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)، رقم ٤٦٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم ٢٧٦٠.

﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وفي مدح الله تعالى والثناء الحسن عليه بما هو أهله مصلحة للعباد في معاشهم ومعادهم، قال الإمام بدر الدين العيني: «وحب الله المدح ليس من جنس ما يعقل من حب المدح، وإنما الرب أحب الطاعات ومن جملتها مدحه ليثيب على ذلك، فينتفع المكلف لا لينتفع هو بالمدح، ونحن نحب المدح لننتفع ويرتفع قدرنا في قومنا، فظهر من غلط العامة قولهم: إذا أحب الله المدح فكيف لا نحبه نحن؟»[1].

## ثانيًا: مدح الخلق لله تعالى:

مَدْحُ الله تعالى واجب على عباده، وهو حقٌّ من حقوقه تعالى عليهم، وحينما يثني العبد على ربه ويشكره على نعمه فهو بذلك يتعرض لمزيد فضل الله تعالى.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

قال ابن كثير: «﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما أتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل، الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا، فإنه الغني عمن سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه»[2].

إن الأنبياء والمرسلين كانوا أكرم العباد في الثناء والمدح لله تعالى بما يليق به عز وجل، فإبراهيم عليه السلام يتوجه إلى الله تعالى بالثناء والمدح على ما أعطاه من نعم قائلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وقال سليمان وداود عليهما السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وأهل الطاعة يحمدون الله تعالى على نعمة الهداية وتوفيقهم للطاعة فيقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

وأهل الجنة يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

(١) عمدة القاري، العيني ١٨/ ٢٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٣٥.

﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

وفي مدح الله تعالى والثناء عليه فوائد؛ منها:

- التعريف بحق قدره، وما يليق بعظمته وجلاله، وذلك من خلال التعرف على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فإن معرفة ذلك هو أساس مدحه والثناء عليه، وهو أساس معرفة العبد بربه، لذا قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١]. وقال صلى الله عليه وسلم في مدحه وثنائه على ربه: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[(١)].
- نفي صفات الكبر والتعالي والفخر عن العبد، فإن الذي لا ينسب الفضل لله فيحمده عليه وينسبه لنفسه يطغى ويتعالى على الخلق، كما فعل قارون. لذا أهل الطاعة يحمدون الله تعالى على نعمة الهداية وتوفيقهم للطاعة قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]. فإذا وفقوا لدخول الجنة يتوجهون إلى الله تعالى بالشكر والمدح والثناء قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].
- فتح الباب لقيام العبد بحق عبوديته، فالعبد لا يقدر على ذلك ولا يتعرف على ربه إلا بعد معرفة موجبات حمده، بمعرفة أسمائه وصفاته المقتضية مدحه وحمده والثناء عليه. وحاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بمعرفة الله ومحبته وعبادته، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإيمانًا، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبةٌ في كل وقت، وأعمال الجوارح لإصلاح القلب وتعظيم الله. قال ابن القيم: «فكل من كان بالله وصفاته أعلم كان توكله أصح وأقوى، وكان منه أخوف»[(٢)].
- فتح الباب لمعرفة الإنسان بقدره من الضعف والقلة والذلة والمسكنة، فينزل منازل العبودية. قال ابن القيم رحمه الله: «الفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا، والفقر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/٣٥٢، ٤٨٦.

(٢) مدارج السالكين ٢/١١٨.

الثاني فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا له فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته»[(١)].

## أسباب المدح

للمدح أسباب؛ منها:

### أولًا: الأعمال الصالحة:

إن الأعمال الصالحة تزكي النفس وتصلحها، وتطهر القلب من أرجاس المعاصي، وهي وسيلة التقرب إلى الله تعالى، وبها يمحى تأثير الأعمال السيئة؛ لذا يجب على المسلم أن يتحلى بها، ومن هذه الأعمال:

١ . الإيمان.

الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتضٍ لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح عاش حياة طيبة، وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ولأن الإيمان أساس لكل خير يوجد، ومركز لدائرته، ومسك خاتمته، مدح الله

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٩.

تعالى به من هم من كبار الرسل إظهارًا لفضل الإيمان ومزيته، فمدح الله تعالى نوحًا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:٨١].

وإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١١١].

وموسى وهارون عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٢٢].

وإلياس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٣٢].

والمقصود مدح صفة الإيمان نفسها، لا مدح موصوفها[1].

ولشرف الإيمان جعله الله عز وجل شرطًا لانتفاع العبد بعمله الصالح في الآخرة، فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

ومدح الله عباده المؤمنين أن ليس للشيطان عليهم سلطان، فقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩- ١٠٠].

وقد عدد الله تعالى صفات أهل الإيمان، ورتب على الالتزام بها مغفرة السيئات وبلوغ أعلى الدرجات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فالموصوفون بهذه الصفات الخمس هم المؤمنون حقًّا وصدقًا لهم درجات عند ربهم ومنازل عالية متفاوتة العلو والارتفاع في الجنة، ولهم قبل ذلك مغفرة كاملة لذنوبهم ورزق كريم طيب واسع لا تنقيص فيه ولا تكدير، وذلك في الجنة دار المتقين.

٢. العبادة.

عبادة الله تعالى من أهم الصفات التي مدح بها عباده المؤمنين، فهي توصلهم إلى مرضاته سبحانه، يقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:٥١].

ومفهوم العبادة في الإسلام أعم وأشمل مما يعتقده كثير من الناس، من مجرد الصلاة والزكاة والصيام والحج فقط، فالعبادة التي خلقنا الله من أجلها هي تعظيم الله عز وجل والخضوع والتذلل له وإفراده بالطاعة المطلقة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾

---

(١) انظر: محاسن التأويل ٨/ ٢١٤.

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد؛ لانتسابه إلى جناب الله تعالى، وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١].

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١].

فسماه عبدًا عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩][(١)].

وكما وصف الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية، وصف بها بعض أنبيائه ورسله.

قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

وقال عن إبراهيم ولوطًا وإسحاق ويعقوب ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].

وهو ثناء عليهم بأجمل الصفات وأحسن الأحوال وفي تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ما يفيد الاختصاص، أي: اختصاصه تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، والجملة تدل على استمرار العبادة أولًا؛ لوجود (كان) الدالة على الاستمرار، وثانيًا: الوصف بـ ﴿عَابِدِينَ﴾ أي: مستمرين حتى تصير العبادة وصفًا لهم، فهم في عبادة مستمرة آناء الليل وأطراف النهار. وقال تعالى في وصف الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

٣. القيام بالرسالة.

أرسل الله تعالى الرسل وأنزل عليهم الكتب وأمرهم بتبليغ الرسالة فقام كل منهم بتبليغ ما أرسل به، من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقد مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٦.

«أي: لا يخافون لائمة الناس وقولهم فيما أحل لهم»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك إياهم، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فإنهم إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليه. يقول لنبيه محمد: فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم فكن، ولا تخش أحدًا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه، ولا يمنعك أحد من خلقه منه، إن أراد بك سوءًا»[(٢)].

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف:٥٩، ٦٠].

«ولم يجبه من قومه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ - إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل؛ لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرئاسة والعلو فيهما»[(٣)]، «وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٦١].

أي: ما أنا بضال، ولكن أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٢].

أي: أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وأقصد صلاحكم، وخيركم، وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها»[(٤)].

وهذا هود عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٧].

«أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨].

وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة»[(٥)]، وقال لهم أيضًا: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

ومدح الله تعالى خاتم رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع في كتابه الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٦٩.
(٢) جامع البيان ٢٠/ ٢٧٧.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٨٢.
(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤١٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٤.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

«أي: شاهدًا للرسل بالتبليغ، ومبشرًا لمن آمن بالجنة، ونذيرًا لمن كذب بآياتنا بالنار. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سماه سراجًا؛ لأنه يهتدى به كالسراج يستضاء به في الظلمة»(١)، وكذلك فعل جميع الأنبياء والمرسلون في القيام بتبليغ الرسالة.

٤. الأوبة.

الأوبة هي الرجوع إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطاعات.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وقيل للتوبة: أوبة(٢).

قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧].

فالإنابة رجوع دائمٌ إلى الله، وإقبال على الخير.

وهي من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

أي: نعم العبد سليمان، والجملة تعليل للمدح، علل كونه ممدوحًا بكونه أوّابًا رجّاعًا إليه بالتوبة، فـ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله بالتوبة، «راجع عما يكره الله إلى ما يحب»(٣)، فهو «رجاع إلى الازدياد من الاجتهاد في المبالغة في الشكر والصبر على الضر»(٤).

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] أي: كثير التوبة، رجّاعٌ بكليته إلى الله سبحانه على خلاف ما يدعو إليه طبع البشر، فهو «المسلم المفوض بلا جزع وتزعزع فكيف يجزع؟! إنه رجاع إلينا متشمر نحونا في عموم أوقاته وحالاته»(٥).

ففي القصص الثلاث اتصفوا بما يوجب المدح، وأكد المدح بإن، وجيء بصيغة المبالغة: فعّال، إشارة إلى أنها عادتهم.

وهي أيضًا من صفات المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

(١) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٦١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب ص٣٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥١.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ٣٧٧.
(٥) الفواتح الإلهية، الجمل ٢/ ٢٨٥.

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

فالعابدون هم القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال: الحمد؛ فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾.

ومن أفضل الأعمال: الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾[1].

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمر الله تعالى عباده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وبين سبحانه أنها صفة من صفات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

ولا تتم خيرية الأمة إلا بها.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

ففي هذه الآية «مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم»[2].

فالخيرية ليست مرتبطة بجنس أو لون أو موقع أو أي اعتبار آخر، إلا اعتبار الإيمان بالله تعالى والاهتمام بمسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد مدح الله تعالى عباده الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فقال في معرض بيانه لصفات المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

فالمؤمنون ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علمًا وعملًا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٧٣.

والسعادة كل السعادة لمن اتصف به[1].

٦. **الجهاد في سبيل الله.**

«الجهاد هو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عُبَّاد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم»[2].

الجهاد في سبيل الله تعالى هو ذروة سنام الإسلام، لأنه بيع النفس لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وقد بين الله تعالى فضل الجهاد في كتابه، ومدح الصابرين عليه بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

فالمجاهدون لهم الدرجات العلى والنعيم المقيم قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٥].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

فهذه الآية العظيمة فيها بيع وشراء، وفيها صفقةٌ عظيمة، يقول ابن القيم: «قدر السلعة يعرف بقدر مشتريها والثمن المبذول فيه والمنادي عليها، فإذا كان المشتري عظيمًا والثمن خطيرًا والمنادي جليلًا كانت السلعة نفيسة»[3].

وقد مدح الله تعالى من جمع بين الإيمان والجهاد فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٤].

فقد ساق الله تعالى هذه الآية للثناء على المهاجرين والأنصار، والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، من ثلاثة أوجه:

«أولها: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فإن هذه الجملة تفيد المبالغة في مدحهم، حيث وصفهم بكونهم محقين في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٨.
(٣) الفوائد ص٧٥.

طريق الدين، وقد كانوا كذلك؛ لأن من لم يكن محقًّا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن، ولم يبذل النفس والمال.

وثانيها: قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ والتنكير يدل على الكمال، أي: مغفرة تامة كاملة.

وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع. والحاصل: أنه سبحانه وتعالى شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأما في الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب، وإما جلب الثواب. أما دفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾»[1].

## ثانيًا: الصفات الخُلُقية:

يحافظ الإسلام على تزكية النفس وإصلاحها، وتطهير القلب من أرجاس المعاصي، وجعل من الوسائل ما يعين على ذلك، فحثَّ على الاتصاف بالصفات الحميدة، وبين جزاء المتصفين بها، ومن هذه الصفات:

### ١. الشكر.

الشكر من أكثر الطاعات ثوابًا، وأعلاها منزلة، لذا جعل الله تعالى جزاء الشاكرين مطلقًا لا حد له ولا حصر.

قال الله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٥].

وقد أثنى الله تعالى على الشاكرين لآلائه، «وفي مقدمتهم أنبيائه ورسله، فأثنى الله تعالى على نبيه نوح عليه السلام فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء:٣]، فلحميد فعاله وكثير ثنائه على ربه وصف بذلك، كما روي عن سلمان رضي الله عنه قال: (كان نوح إذا طعم طعامًا أو لبس ثوبًا حمد الله، فسمي عبدًا شكورًا)»[2].

ووصف الله إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمةً شاكرًا لأنعمه، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠، ١٢١].

فالله جل وعلا يشكر من شكره، ويرفع من ذكره.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]، «فالشكر من الله تعالى هو الرضا بالقليل من عباده وإضعاف الثواب

---

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١٦٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٣٧١، ٢/ ٣٩٢. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب»[1].

إن منفعة الشكر لا تعود على الخالق سبحانه وتعالى فهو الغني؛ ولكنها تعود على الشاكر من عباده، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢]، فالله تعالى لا يعذب من شكره.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]، ولكن الناس مع عظيم نعم الله عليهم قليلٌ شكرهم، وقد بيَّنَ الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

لذا على العبد القيام بأوامر الله وامتثال طاعته، فإذا فعل ذلك أعانه، وأثنى عليه، ومدحه، وجازاه الخير الكثير والثواب الجزيل.

٢. الوفاء.

الوفاء بالعهد خلق نبيل، وقد مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في بيان خصال البر: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧].

أي: «والموفون بعهدهم فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين الناس، إذا عاهدوا، يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا ائتمنوا أدوا»[2] فدخل في ذلك حقوق الله كلها؛ لكون الله تعالى ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك. ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد:١٩- ٢٠].

فالله تعالى «وصفهم بهذه الأوصاف المادحة، فقال: الذين يوفون بعهد الله أي: بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم وبين العباد ولا ينقضون الميثاق الذي وثقوه على أنفسهم، وأكدوه بالأيمان ونحوها»[3].

٣. الصبر.

الصبر «خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها»[4].

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧١٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٩٤.

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم

وقد مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في مدح الخصال التي يتصف بها المؤمن: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧].

والنصب على المدح أو التخصيص: أي: وأخص الصابرين، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٥-١٧].

ومدح الله الصابرين ووعدهم بأحسن الجزاء الذي يهون عليهم ما يلقونه في ذلك السبيل؛ قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٢].

لذا كان جزاء الصبر عظيمًا غير مقدر، ويعطي الصابر أجرًا بغير حساب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ولأن الصبر وسيلة النجاح في الحياة والوصول إلى المقاصد؛ لأنه قوة يحقق بها الإنسان أعمالًا فوق طاقته الطبيعية، مدح الله من يتحمل صعوبات الحياة ببسالة وشجاعة.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥].

وقال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الصبر ضياء)**[(١)].

أما الجزع فلا يؤدي إلا إلى الفشل في الحياة وعدم إنجاح المقاصد، بل إلى انعدام الحياة وزوالها؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)**[(٢)].

## ٤. الحلم.

الحلم «من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد، وحد الحلم: ضبط النفس عند هيجان الغضب،

ص٣٤.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٢٢٣، ١/ ٢٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، رقم ٦٤٧٠، ٨/ ٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، ١٠٥٣، ٢/ ٧٢٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وليس من شرط الحلم ألا يغضب الحليم، وإنما إذا ثار به الغضب عند هجوم دواعيه كف سورته بحزمه، وأطفأ ثائرته بحلمه، فإذا اتصف المرء بالحلم كثر محبوه، وقل شانئوه، وعلت منزلته، ووفرت كرامته. قال عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩][(١)].

وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تدعو المسلمين إلى التحلي بهذا الخلق النبيل، وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة، والحث على الدفع بالتي هي أحسن، والترغيب في الصفح عن الأذى والعفو عن الإساءة.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فالكاظمين الغيظ لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل، وهم مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال[(٢)].

قال ابن بطال: «مدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم، وأخبر أن ما عنده خير وأبقى لهم من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأثنى على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك»[(٣)].

وقد مدح الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بهذه الصفة فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود:٧٥].

ووصف بها ابنه إسماعيل فقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١].

«وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليمًا، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

ثم استسلم لذلك، وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم، وذلك لعزة وجوده»[(٤)].

وكذلك مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته بها، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: **(إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)**[(٥)].

(١) الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة، محمد الحمد ص١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢٢.
(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٩٦.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان،





وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[1].

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث من الفقه: فضل الحلم، وفيه دليل على أن الحلم كتمان الغيظ، وأن العاقل من ملك نفسه عند الغضب؛ لأن العقل في اللغة ضبط الشيء وحبسه منه»[2].

٥. الكرم.

مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في مدح الخصال التي يتصف بها المؤمن: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقوله تعالى في صفات المهتدين المفلحين: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢- ٣].

ولما كان الكرم هو: «الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم خطره ونفعه»[3]، مدح الله تعالى عباده المنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

قال ابن كثير: «هذا مدحٌ منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليلٍ أو نهارٍ، والأحوال من سر وجهارٍ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا»[4].

وقال الإمام فخر الدين الرازي: «الآية عامةٌ في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحرضهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاجٍ عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقتٍ ولا حالٍ»[5].

٦. الأمانة.

مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في ذكر صفات المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

«أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل

---

باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم ١٧، ١/ ٤٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٦١١٤، ٨/ ٢٨.

(٢) التمهيد ٦/ ٣٢٢.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٢٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٧.

(٥) مفاتيح الغيب ٧/ ٧٠.

لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار» [(١)].

وقد مدح الله تعالى بعض أنبيائه بصفة الأمانة التي هي صفة لازمة في كل نبي من الأنبياء، وقد ذكرت خمس مرات متواليات في حق الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب في سورة الشعراء، كلهم يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وقد حكى لنا القرآن قصة موسى عليه السلام حين سقى لابنتي الرجل الصالح ورفق بهما وكان أمينًا معهما، فـ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

وهي صفة تزيد صاحبها بهاءً ووقارًا، ويشهد بذلك كل منصف، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: (أخبرني أبو سفيان رضي الله عنه أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي) [(٢)].

ولما كانت الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل، ضرب الله تعالى المثل لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها أو يفرط في حقها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] [(٣)].

٧. الرأفة والرحمة.

الرأفة والرحمة خلقان عظيمان لا بد أن يتخلق بهما المؤمن ويتصف بهما، فهما من مبادئ الإسلام الأساسية، وأخلاقه الكريمة، وهما أشرف صفات المؤمنين بعد الإيمان، وتتجلى أهمية الرحمة في أن الله عز وجل تسمى واتصف بها، فمرة باسم الرحمن ومرة باسم الرحيم فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وعلى الرغم من سعة رحمة الله تعالى إلا أنه لا يستحقها إلا الذين اتقوه واستجابوا لأمره.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقد مدح الله بهاتين الصفتين صفوة خلقه وخيرة عباده وهم الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم من المصلحين، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨٧.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٦٨١، ٣/ ١٨٠.
(٣) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي ص٤٧.

وقال تعالى ممتنًا على رسوله صلى الله عليه وسلم على ما ألقاه في قلبه من فيوض الرحمة جعلته يلين للمؤمنين ويرحمهم ويعفو عنهم، ويتجاوز عن أخطائهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

«أي: بسبب رحمة عظيمة فياضة أفاضها الله تعالى عليك كنت لينًا معهم في كل أحوالك، ولقد شكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ذلك اللين في قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ حيث أثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس فظًّا ولا غليظًا ولا قاسيًا؛ لأن (لو) تدل على نفي الجواب لنفي الشرط، والمعنى: إنك لست فظًّا ولا غليظ القلب، وهذا هو الذي يتفق مع صفات النبوة والقيادة الحكيمة الرشيدة الهادية الموجهة إلى أمثل الطرق الجامعة للقلوب»[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

«يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قَبِلَ هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة»[2].

ومدح الله تعالى بهذه الصفة أيضًا غيره صلى الله عليه وسلم من المتخلقين بها، فقد قال تعالى واصفًا رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين معه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم.

## ثالثًا: الصفات الخَلْقية:

كما أن الإسلام حث على الاتصاف بالصفات الخلقية الحميدة، وبين جزاء المتصفين بها، فقد مدح أيضًا الصفات الخَلْقيَّة، وحثَّ على الاهتمام بها ورغب فيها، ومن هذه الصفات:

١ـ القوة.

القوة من أَجَلِّ النعم التي امتن الله تعالى بها على خلقه، والمؤمن مطالب أن يكون قويًا، فهي من أهم الأشياء التي ينبغي أن يحرص عليها، وذلك لما يأتي:

أولًا: أن الله تعالى أمر بإعداد القوة فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

قال ابن كثير: «أمر تعالى بإعداد آلات

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٨٥.

الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: مهما أمكنكم»[1].

والقوة المطلوبة قوة شاملة، قوة في الإيمان والأبدان والعلوم والاقتصاد، وكل مناحي الحياة. وإعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان.

ثانيًا: أن القوة سبب أصيل للنصر والتأييد خاصة إذا اجتمع معها الأمانة، وقد مدح الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بهاتين الصفتين: القوة والأمانة، فقال تعالى على لسان إحدى المرأتين: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

«ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة؛ لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان: الأمانة والكفاية في القائم بأداء أمر من الأمور تكلل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجاح»[2].

«وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها. فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل»[3].

(١) المصدر السابق ٤/ ٨٠.

(٢) تفسير المراغي ٢٠/ ٥١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٤.

وقد مدح الله تعالى جبريل عليه السلام وهو الموكل بأمانة تبليغ الوحي إلى الأنبياء بأنه ذو قوة.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وهو جبريل عليه السلام؛ كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦].

أي: ذو قوة. قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه عليه السلام ذو منظر حسن، وقوة شديدة»[4].

لذا كانت القوة من أهم الأشياء التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم؛ لأنها سبب من الأسباب التي تجلب له المدح والثناء الحسن.

### ٢. الجمال.

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وشكل.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

فكل إنسان مخلوق خلقة حسنة، وهذا

(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٤٤.

لا يمنع تفاوت البشر في الحسن، فمنهم من أوتي من الجمال والحسن أكثر مما أوتي غيره، وقد حكى الله تعالى لنا قصة يوسف عليه السلام وأن النسوة لما رأينه ﴿أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

أي: قلن لها: ما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريبًا منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء[(١)].

فقد كان يتحلى بالجمال الظاهر والباطن، «فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته»[(٢)].

ومن ورد مدح جماله: الحور العين.

وصف الله تعالى الحور العين فقال عنهن: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠].

أي في الجنتين نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

ومن مدح جماله: غلمان أهل الجنة:

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤].

وقال أيضًا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

ويقول جل وعلا: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧-٢١].

فهذا «إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم»[(٣)].

## رابعًا: المكانة الكريمة:

يمدح المرء لمكانته الكريمة، وأعلى الناس مكانة ومنزلة الرسل الكرام، فهم الموكلون بتبليغ الوحي إلى الناس، وأخصهم منزلة أولوا العزم، ولذلك أوصى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٠٧.

(٣) المصدر السابق ٧/ ٤٣٥٧.

وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[الشورى:١٣].

فقد «أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم، فامتثل صلى الله عليه وسلم لأمر ربه فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله»[(١)].

وممن خص بمدح مكانته، نبي الله إدريس عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦- ٥٧].

فإدريس عليه السلام نبي من أنبياء الله جل وعلا، وصفه الله بالصديقية، ورفعه مكانًا عليًّا، وحدد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المكانة العالية بأنه في السماء الرابعة.

وممن خص بمدح مكانته، نبي الله يحيى عليه السلام، فحينما دعا زكريا عليه السلام ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

جاءته البشرى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

فقد وصف الله تعالى يحيى عليه السلام بأربع صفات كريمة:

الأولى: أنه كان مصدقًا بكلمةٍ من الله، وكلمة الله هو عيسى عليه السلام؛ لأنه كان يسمى بذلك، فيحيى عليه السلام كان مصدقًا بعيسى ومؤمنًا بأنه رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

والثانية: أنه سيكون سيدًا، والسيد هو الذي يسود قومه وينتهي إلى قوله، أي: يفوق غيره في الشرف والتقوى وعفة النفس، بأن يكون مالكًا لزمامها، ومسيطرًا على أهوائها.

والثالثة: أنه سيكون حصورًا، أي: حابسًا نفسه عن الشهوات، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج وهو قادر على ذلك زهدًا منه واستعفافًا، وليس صحيحًا ما قيل من أنه كان لا يأتي النساء لعدم قدرته على ذلك.

والرابعة: أنه سيكون نبيًّا من الصالحين، وفي هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا عليه السلام بأن ابنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس، وهذه البشارة أسمى وأعلى من الأولى التي أخبره الله فيها بولادة يحيى؛ لأن النبوة منزلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٣.

لا تعدلها منزلة في الشرف والفضل[1].

ومن مدح لمكانته ومنزلته، عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥].

«أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله عليهم»[2].

ومن مدح لمكانته ومنزلته، العلماء.

قال تعالى في بيان منزلتهم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

فرفع الله تعالى شأن حملة العلم وأعلى مقامهم، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته على وحدانيته جل جلاله وعز ثناؤه؛ ذلك أن العلماء هم الذين يبينون للناس أحكام شريعة الله عز وجل، وهم الداعون إليه سبحانه وتعالى، وهم وراث هدي النبوة، فبذلك استحقوا تلك المكانة العالية.

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣.

## خامسًا: العاقبة الحسنة:

العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة هي ما يريد أن يصل إليه المؤمن؛ لذا أرشد الله تعالى عباده إلى طريقها وحثهم على التحلي بما يتصف به أصحابها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:١٩-٢٤].

«يقول تعالى مخبرًا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم عقبى الدار؛ وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة»[3].

فأولئك الذين وصفوا بتلك المحاسن والكمالات التي بلغت الغاية في الشرف والكمال، هم الذين لهم العقبى الحسنة في الدار الآخرة، وهي جنات إقامة، يخلدون فيها لا يخرجون منها أبدًا، وفيها الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين، لتقر بهم أعينهم، ويزدادوا سرورًا برؤيتهم.

وقد وصف الله تعالى الجنة وهي العاقبة

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٠.

الحسنة التي أعدها لعباده المؤمنين في الآخرة بعدة أوصاف حثًا على المجاهدة للوصول إليها، فقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١].

وإنما وصف الأجر بكونه كريمًا؛ لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف، وبسببه حصلت تلك الزيادة، فكان كريمًا من هذا الوجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ «دلت هذه الآية على عظم هذا الأجر من وجوه:

أحدها: أنه ذكر نفسه بصيغة العظمة، وهو قوله: ﴿لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة عند الوعد بالعطية، دل على عظم تلك العطية.

وثانيها: قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ هذا التخصيص يدل على المبالغة، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

وثالثها: أنه وصف الأجر بكونه عظيمًا، والذي وصفه أعظم العظماء بالعظمة، لا بد وأن يكون في نهاية العظم، قال صلى الله عليه وسلم: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[(١)](٢)، وفي تنكير الأجر من المبالغة ما لا يخفى.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [يونس:٣٠].

فالله تعالى يبين جزائهم الكريم بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ «أي: لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا؛ لفنائها وبقاء الآخرة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولنعم دار المتقين دار الآخرة»[(٣)].

فعلى المسلم أن يحرص على عمل الخيرات حتى تكون عاقبته حسنة ويختم له بالخير، فينال المغفرة وأعلى الدرجات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ٤/١١٨، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٤.

(٢) اللباب، ابن عادل ٦/ ٤٧٥.

(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١٦.

## مدح النفس

يهدف المدح إلى شحذ الهمم للازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح أصحابه ليحفزهم على الاستمرار في الخير والتزود منه، وقد مُدِحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة، والمدح منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، وقد جعل القرآن الكريم المدح والذم تبعًا لمحبة الله تعالى للعبد أو ذمه، فمن أحبه الله تعالى وأثنى عليه فهو الممدوح، ومن ذمه الله تعالى فهو المذموم، وقد مدح الله أهل الإيمان والصلاة والعبادة، وذم أهل الكفر والفسوق والعصيان، وهل يجوز للإنسان أن يمتدح نفسه ؟ متى يحمد هذا المدح ومتى يذم ؟ سأبين هذا في النقاط الآتية:

### أولًا: المدح المحمود:

المدح المحمود هو المدح بالحق، ومن ذلك ما يمدح به الشخص من كريم الخصال، وجنس المدح لا حرج فيه إذا كان بِحَقِّهِ؛ كما قال الصديق يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥].

فلم يكن مدح يوسف عليه السلام لنفسه من باب العجب، وإنما أراد بذلك إقامة العدل وإبطال الجور وإيصال الحق لأهله، والآية «أصل في جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته»[(١)].

«قال القاضي أبو يعلى: في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]»[(٢)].

وعلى هذا يحمل ما نقل من ثناء بعض الصحابة على أنفسهم، وبيان قدرهم في العلم؛ ليحرص الناس على الأخذ منهم والانتفاع بعلمهم قبل وفاتهم، وهذا ليس فخرًا منهم وتباهيًا بالعلم، إنما كان مراد أحدهم الوصول إلى حق يقيمه وعدل يحييه وجور يبطله، لذا كان ذلك منهم جميلًا جائزًا، فعن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم: أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم: فيم أنزلت؟ ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[(٣)].

فهذه الأشياء، خرجت مخرج الشكر لله،

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٩٢.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٥١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٥٠٠٢، ٦/ ١٨٧.

وتعريف المستفيد ما عند المفيد، ولذا كان هذا منهم جميلًا جائزًا.

وقد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم في المدح كما جاء في الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: **(أثنى رجل على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك) مرارًا، ثم قال: (من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه)**[(١)].

فلم ينه الرسول عن المدح ولكن جعل لهذا المدح ضوابطًا.

وأهم الضوابط التي يجب مراعاتها في المدح: عدم المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، وأن يؤمن على الممدوح الإعجاب والفتنة؛ لما يعلم من قوة إيمانه، وأن يكون المدح صادقًا فيمدح الشخص بما فيه من غير مبالغة ولا رياء يؤديان إلى النفاق، وأن يكون الهدف من المدح شحذ الهمم للازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يكره ذلك، ولم يَحْثُ التراب في وجه أحد من مادحيه، فهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)]:

أغرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهدُ

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في خمس المؤذن أشهدُ

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المدح ولم ينكره، ولم يَحْثُ التراب في وجهه؛ لأنه لم يقل إلا حقًا.

وكذلك مدح عبد الله بن عباس رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل عليه وهو مطعون، فعن المسور بن مخرمة قال: لما طعن عمر رضي الله عنه جعل يألم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه وكأنه يجزعه: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر رضي الله عنه فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجل رجلًا كفاه، رقم ٢٦٦٢، ٣/ ١٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم ٣٠٠٠، ٤/ ٢٢٩٦.

(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص٢٦١.

عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون، قال: «أما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ من الله تعالى مَنَّ به عَلَيَّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ من الله جل ذكره مَنَّ به عَلَيَّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من عذاب الله عز وجل، قبل أن أراه»[(١)].

فهذا المدح بالحق قاله ابن عباس رضي الله عنه في وجه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما علم من قوة إيمانه، وأن هذا الكلام لن يغره، وهذا هو المدح الحسن المحمود الذي يندب إليه، ولو كان فيه إثم لكان ابن عباس رضي الله عنهما أبعد الناس عنه.

ومن المدح المحمود:

**١ . ما كان ثناءً من الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم.**

**ومن ذلك: قول الله تعالى في حق أبي بكر** رضي الله عنه في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧-٢١].

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق ضعفة العبيد الذين أسلموا، وكان ينفق في رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله، وكان مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، ولذا لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول أحد الناس من أبواب الجنة جميعها بقوله: **(بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها، قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم)**[(٢)].

قال ابن بطال: « أنه يجوز الثناء على الناس بما فيهم على وجه الإعلام بصفاتهم، لتعرف لهم سابقتهم وتقدمهم في الفضل، فينزلوا منازلهم، ويقدموا على من لا يساويهم، ويقتدى بهم في الخير، ولو لم يجز وصفهم بالخير والثناء عليهم بأحوالهم لم يُعْلَمْ أهلُ الفضل من غيرهم، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم خَصَّ أصحابه بخواصَّ من الفضائل بانوا بها عن سائر الناس وعرفوا بها إلى يوم القيامة»[(٣)].

وكذلك مدح النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم ٣٦٩٢، ٥/ ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم باب الريان للصائمين، رقم ١٨٩٧، ٥/ ١١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٥٥.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حضوره فقال: (والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قطُّ، إلا سلك فجًّا غير فجِّكَ)(١).

والفج: هو الطريق الواسع. قال ابن حجر: «وهذا من جملة المدح، لكنه لما كان صدقًا محضًا، وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر مدح به، ولا يدخل ذلك في المنع»(٢).

٢. ما يجده أهل الفضل من محبة الناس وثنائهم عليهم من غير تطلعهم لذلك الثناء.

وهذا ثناء حسن يعود نفعه على المادح والممدوح، وهي شهادة حقٍّ. لذا توجه الخليل إبراهيم عليه السلام بالدعاء إلى ربه قائلًا: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

«أي: ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا وقبولًا عامًّا في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه»(٣).

وأبقى له الذكر الجميل والثناء الحسن في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقرن ذكره بذكر حبيبه إبقاء للثناء الحسن عليه في أمته، وزيادة في الكرم جعل هذا الذكر لذريته، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم ٤٩-٥٠].

فإبراهيم الخليل وبنوه معظمون في جميع الأمم والملل صلى الله عليهم أجمعين. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أريت الرجل الذي يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)(٤).

فالله تعالى يقذف في قلوب الناس محبة المخلصين في الأعمال الصادقين في الأقوال، ويجعل لهم القبول في الأرض، فتلهج الألسن بالثناء عليهم، فهذه بشارة في الدنيا على قدرهم يوم القيامة.

٣. مدح الشخص بما فيه قبل توجيهه ونصحه.

فيقدم الناصح بين يدي نصيحته الثناء على المنصوح، وذكر بعض الخير الذي فيه، ثم يحفزه للكمال بفعل بعض المأمورات أو ترك بعض المنهيات، فهذا مظنة الاستجابة للنصيحة، فقبل أن يوجه الله تعالى عباده إلى التحلي بخلق الصبر، وحسن التوكل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم ٣٦٨٣، ٣/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم ٢٣٩٦، ٤/ ١٨٦٣، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٣٩.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم ٢٦٤٢، ٤/ ٢٠٣٤.

عليه في سائر الأمور بين ما أعده لهم من الثواب تحفيزًا لهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨- ٥٩].

وقبل أن يوجه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنه إلى قيام الليل قال: (نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلًا)[١].

## ثانيًا: المدح المذموم:

المدح المذموم، هو المدح بالباطل، ويأتي على صور، منها:

١. مدح العبد لنفسه.

وهو قبيح؛ لما فيه من التفاخر والكبر، وهو يورث الهلاك.

وقد نهى الله تعالى عن تزكية العبد لنفسه ووبخ من يفعل ذلك فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٤٩-٥٠].

«قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨].

وقال ابن زيد: فيها، وفي قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم، وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب. فأنزل الله ذلك فيهم، وقيل: نزلت في ذم التمادح والتزكية»[٢].

فهذه الأقوال جميعها تدل على ذم مدح الإنسان لنفسه سواء فعلته اليهود أو النصارى أو غيرهم.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

أي: لا تمدحوها وتشكروها وتَمُنُّوا بأعمالكم. وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم)[٣].

ومعنى يذهب بنفسه: «أي: يعلي نفسه ويرفعها ويبعدها عن الناس في المرتبة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل، رقم ١١٢١، ٢/ ٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر، رقم ٢٤٧٩، ٤/ ١٩٢٧، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة باب ما جاء في الكبر، رقم ٢٠٠٠، ٤/ ٣٦٢. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ويعتقدها عظيمة القدر»[1].

قال ابن القيم: «ومن كيده - أي: الشيطان- أنه يغرى الناس بتقبيل يده، والتمسح به، والثناء عليه، وسؤاله الدعاء، ونحو ذلك، حتى يرى نفسه، ويعجبه شأنها، فلو قيل له: إنك من أوتاد الأرض، وبك يدفع البلاء عن الخلق، ظن ذلك حقًا.

وربما قيل له: إنه يتوسل به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى به وبحرمته، فيقضى حاجتهم، فيقع ذلك فى قلبه، ويفرح به، ويظنه حقًا، وذلك كل الهلاك، فإذا رأى من أحد من الناس تجافيًا عنه، أو قلة خضوع له، تذمر لذلك ووجد فى باطنه.

وهذا شر من أرباب الكبائر المصرين عليها، وهم أقرب إلى السلامة منه»[2].

**٢. المدح في الوجه، والقطع بذلك دون استثناء.**

وهو يورث الهلاك للمادح والممدوح، وأكثر ما يكون ذلك في الشعراء والمداحين.

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧].

فأغلب الشعراء والمداحين إن أعطوا رفعوا الممدوح إلى السماء فيقع في العجب بنفسه، ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يثني على رجلٍ ويطريه في مدحه فقال: (**أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل**)[3].

فهذا الحديث يفهم منه تحريم المدح في الوجه؛ لأنه مظنة الاغترار والوقوع في العجب، وهذه صفات مهلكة لدين العبد. خاصة إذا كان يخشى عليه الفتنة، فيعتقد فضله؛ فربما تطرق لقلبه الكبر والرياء، وربما رأى أن له حقًّا على الناس وقدرًا، وربما ظن أنه فاق غيره من السابقين واللاحقين في الفضل، فاتكل على ذلك وترك العمل أو قصر فيه.

قال ابن بطال: «حاصل النهي هنا أنه إذا أفرط في مدح آخر بما ليس فيه لم يأمن على الممدوح العجب لظنه أنه بتلك المنزلة، فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالًا على ما وصف به»[4].

**٣. مدح الشخص والثناء عليه بأشياء لا يطلع عليها إلا الله.**

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦/ ١١٧.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم ٣٠٠٢، ٤/ ٢٢٩٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٥٣٩.

من صدق الإيمان والتقوى والخشية، ونحو ذلك مما يتعلق بالقلوب؛ لأنه مما لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، وإن كان لا بد مادحًا فلا يجزم بذلك، بل يقول: أحسبه أو أظنه، ونحو ذلك من الألفاظ التي ليس فيها جزم.

وقد ضرب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في عدم اكتراثهم بالمدح، بل وعدم الاهتمام بمادحيهم، فعن همام بن الحارث أن رجلًا جعل يمدح عثمان رضي الله عنه فعمد المقداد رضي الله عنه فجثا على ركبتيه، وكان رجلًا ضخمًا فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما شأنك؟

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب)[1].

فالمقداد بن الأسود رضي الله عنه استعمل «الحديث على ظاهره في تناول عين التراب، وحثيه في وجه المادح، وقد يتأول أيضًا على وجه آخر، وهو أن يكون معناه: الخيبة والحرمان، أي: من تعرض لكم بالثناء والمدح، فلا تعطوه واحرموه»[2].

٤. **المغالاة في المدح التي تؤدي إلى التعدي ومجاوزة الحقيقة.**

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنها، فقال: (**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا عبد الله ورسوله**)[3].

فـ«قوله: (**لا تطروني**)، بضم التاء، من الإطراء، وهو المديح بالباطل، تقول: أطريت فلانا: مدحته فأفرطت في مدحه. وقيل: الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه. قوله: (**كما أطرت النصارى**)، أي: في دعواهم في عيسى بالإلهية وغير ذلك»[4].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما يكره من الإطناب في المدح وليقل ما يعلم، رقم ٢٦٦٣، ٣/ ١٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم ٣٠٠١، ٤/ ٢٢٩٧.

(٢) شرح السنة، البغوي ١٣/ ١٥١.

(٣) عمدة القاري ١٦/ ٣٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا)، رقم ٣٤٤٥، ٤/ ١٦٧.

وعن خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوذ، قالت: دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم غداة بُنِيَ عَلَيَّ، فجلس على فراشي كمجلسك مني، وجويريات يضربن بالدف، يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر، حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين)[(١)].

ففي هذا الحديث أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر من الإطراء بادعاء أنه صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب، أو أنه يقدر على دفع الضر أو جلب النفع، فهو صفة تختص بالله تعالى.

٥. مدح من لا يستحق المدح من الفساق الظالمين.

فمن مدح ظالمًا وهو يعلم فقد شاركه في ظلمه؛ لأن الله حرم الركون إلى الظالمين وتوعد من يفعله بعذاب النار، وأنه لن يجد له ناصرًا في تلك الحالة.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

وعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقولوا للمنافق: سيدنا؛ فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم عز وجل)[(٢)].

فنهوا عن تعظيم المنافق، ولو كان هذا التعظيم لقدره الدنيوي، فبمدحهم له يعظمون من أهانه الله، ومن يهن الله فما له من مكرم، وإن كان ليس كما قالوا فقد أضافوا إلى ذلك الكذب المحرم، ففرعون لما أعانه قومه على ظلمه بكثرة مدحهم له بالباطل وقالوا له غرورًا وباطلًا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

دفعه ذلك لأن قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وما زالوا يمدحونه حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فما كان له إلا الهلاك ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥].

فلا ينبغي أن يمدح الظالمون مهما كانت مكانتهم.

٦. المدح بالباطل طمعًا فيما عند الممدوح من متاع الحياة الدنيا.

وهو مدخل من مداخل الشيطان إلى القلوب والعياذ بالله، فمن علم أن المتفرد بالعطاء أو المنع هو الله وحده وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب ومن حيث لا يحتسب لم يمدح مخلوقًا على رزق،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٤٠٠١، ٥/ ٨٢.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٧٦٠، ص٢٦٧، والنسائي في سننه، كتاب عمل اليوم والليلة، باب النهي عن أن يقال للمنافق: سيدنا، رقم ١٠٠٠٢، ٩/ ١٠١.

ولم يذمه على منع، بل يفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه.

قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

وقد وردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يفهم منها إباحة المدح، وأخرى يفهم منها النهي عن ذلك، ولا تعارض بين هذه الأحاديث؛ فلكل منهما أسبابه التي ترجع إلى شخص الممدوح وفعله، وإلى شخص المادح.

وقد جمع بينهما النووي، فقال: «قال العلماء: وطريق الجمع بينها: أن النهي محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح.

وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، أو الاقتداء به، كان مستحبًّا، والله أعلم»[1].

نخلص من هذا المبحث: أن هناك ضوابط متعلقة بالمدح، وأيضًا ضوابط متعلقة بالمادح، وأخرى متعلقة بالممدوح.

**أولًا: الضوابط المتعلقة بالمدح:**

١. أن يكون المدح صادقًا فيمدح الشخص بما فيه من غير مبالغة ولا رياء يؤديان إلى النفاق.

٢. أن يكون الهدف من المدح شحذ الهمم للازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

٣. ألا يكون المدح في كل وقت ولغير حاجة.

٤. ألا يكون في المدح تفضيل يؤدي إلى انتقاص الآخرين.

**ثانيًا: الضوابط المتعلقة بالمادح:**

١. أن يأمن المادح على الممدوح العجب والغرور.

٢. أن يكون المادح صادقًا ولا يبالغ في المدح فينتهي إلى الكذب، ولا يرائي مظهرًا الحب للممدوح.

٣. أن يقول المادح إذا أراد أن يمدح: أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا.

**ثالثًا: الضوابط المتعلقة بالممدوح:**

١. أن يكون عند الممدوح إيمان قوي يأمن به من الإعجاب والفتنة.

٢. أن يكون الممدوح ممن ظهر صلاحه وحسن عمله.

٣. ألا يكترث الممدوح بمدح المادحين ولا يتعرض للمدح؛ لأن

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٨/ ١٢٦.

التعرض للمدح مذموم.

٤. أن يقول الممدوح عند مدحه: اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

## نماذج من المدح

مدح النماذج الطيبة له أثر طيب في نفوس المخاطبين حيث يجعل منهم قدوة صالحة يحتذى بها في الصلاح والخير لما يمتازون به من صفات، وأبرز الخصال والصفات الحميدة تكون فيمن لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم الملائكة المقربون، وكذلك تكون فيمن اصطفاهم الله واختارهم لتبليغ وحيه إلى خلقه، وهم الأنبياء والمرسلون، ثم تكون فيمن تحمل الرسالة عنهم، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

### أولًا: مدح الملائكة عليهم السلام:

الملائكة جمع ملك، وهو «جسم لطيف نوراني يتشكل بأشكال مختلفة»[1].

ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال.

وقد مدح الله تعالى الملائكة فوصفهم بأنهم كرام.

قال تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦].

فهم كرام على الله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

وهم أبرار أطهار لا يقارفون ذنبًا، ولا يجترحون إثمًا، كما قال سبحانه: ﴿لَا

(١) المفردات، الراغب ص٤٧٣.

﴿يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فخلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. وقد أوجب الله تعالى الإيمان بهم، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وشنع على من جحد بهم وكفر فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

ولولا ما فيهم من التفضيل والتكريم والصفات الحميدة ما كانوا أهلًا للإيمان والتصديق وهذا غاية المدح والثناء لهم.

ومدحهم بوصفهم بالمقربين، كما في قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢١].

«يعني: الملائكة الذين هم في عليين، يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب أو ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين»[(١)].

وهذا في غاية المدح لهم.

وقد ورد لفظ الملائكة في (ثمانية وستين) موضعًا في القرآن الكريم[(٢)].

وأخص الملائكة بالتشريف والتكريم: جبريل وميكائيل عليهما السلام، فقد خصهما الله تعالى بالذكر بعد ذكر الملائكة إجمالًا في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

وخصا بالذكر؛ لأن الله تعالى خصهما بالحياة فجبريل بالوحي الذي هو حياة القلوب، وميكائيل بالرزق الذي هو حياة الأبدان ولأنهما كانا سبب النزول في تصريح اليهود بعداوتهما، وقُدِّمَ جبريل عليه؛ لأن حياة القلوب أعظم من حياة الأبدان[(٣)].

وجبريل عليه السلام هو أكثر الملائكة ذكرًا في القرآن الكريم باسمه ولقبه، حيث لقبه الله تعالى بالروح الأمين في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

وبالروح في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

وبروح القدس في قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٣٦٧.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٧١-٧٧٢.

(٣) انظر: البرهان في علوم القران، الزركشي ٢/ ٤٦٨.

﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وبشديد القوى في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥].

فعبر الله تعالى عنه بالروح؛ «لأنه يحيي به الخلق في باب الدين، أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح، ووصف عليه السلام بالأمين؛ لأنه أمين وحيه تعالى وموصوله إلى من شاء من عباده جل شأنه من غير تغيير وتحريف أصلا»[١].

ففي مدحه بقوله: ﴿الْأَمِينُ﴾ دلالة على منزلته ومكانته، قال ابن كثير: «أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى»[٢].

وسمي بروح القدس «لأنه سبب حياة الدين كما أن الروح سبب حياة البدن، ولأنه الغالب عليه الروحانية، ولأنه لم تضمه أصلاب الفحول ولا أرحام الأمهات»[٣].

قال الألوسي: « وأطلق عليه ذلك من حيث إنه ينزل بالقدس من الله تعالى، أي: مما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي»[٤].

ومدحه بشدة القوة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥].

أي: «هو كثير القوى عظيم القدرة»[٥].

وقد مدح الله تعالى الملائكة وأثنى عليهم في مواضع متعددة وأفعال شتى، منها:

١. العبادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف:٢٠٦].

ففي الآية تنبيه للمخاطبين «لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون»[٦].

فـ«الملائكة في الملكوت الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: طاعته بما كلفهم به ووظفهم فيه ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ فتأس بهم ولا تكن من الغافلين»[٧].

٢. الخوف من الله تعالى وفعل أوامره.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

ففي الآية تفصيل لصفاتهم بعدم التكبر والخوف فهم خاضعون طائعون مستمرون على ذلك، فكلما تجددت دواعي الخوف والأمر فهم يخافون ويفعلون، وفي هذا مدح لكمال طاعتهم وتمام انقيادهم لأمر

(١) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١١٩.
(٢) تفسير القران العظيم ٦/ ١٦٢.
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١/ ٣٣٠.
(٤) روح المعاني ٧/ ٤٦٧.
(٥) المفردات، الراغب ص٤١٩.
(٦) تفسير القران العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٨٤.
(٧) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٢٨١.



الله تعالى.

٣. سرعة الاستجابة لأمر الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧].

فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله عز وجل زورًا وبهتانًا، «فنزه تعالى نفسه عن هذا النقص فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وأبطل دعواهم وأضرب عنها فقال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: فمن نسبوهم لله بنات له هم عباد له مكرمون عنده، ووصفهم تعالى بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فهم لكمال عبوديتهم لا يقولون حتى يقول هو سبحانه وتعالى، وهم يعملون بأمره فلا يقولون ولا يعملون إلا بعد إذنه لهم»[1].

٤. عظيم منزلتهم ومكانتهم.

وذلك باقترانهم بالشهادة الإلهية في التوحيد في أشرف مقامات الثناء.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

أي: والملائكة يشهدون، وهذا غاية المدح. وكذلك مدحهم بشهادتهم على إنزال القرآن.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦].

وقال تعالى في بيان مكانتهم عنده: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

فدلت الآيتان على أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد، فهم مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا.

## ثانيًا: مدح الرسل عليهم السلام:

اصطفى الله عز وجل الرسل وزكَّاهم، فكانوا أمناء لتبليغ الوحي، وقد صرَّح القرآن الكريم باسم خمسة وعشرين نبيًّا، وذكر غيرهم تضمينًا، وقد سمى الله تعالى ست سور من القرآن بأسمائهم، وهي: سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وسورة محمد، وسورة نوح.

وقد اصطفى الله تعالى منهم خمسة هم أولو العزم، وقد صرح القرآن بأسمائهم جميعًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٠٧.

«فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهًا بشأنهم وتشريفًا لهم»[(١)].

وهذا يناسب دعوتهم وجهادهم مع أقوامهم وما تحملوه من الشدة والقسوة والإيذاء في سبيل دعوة الحق، إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم في خلق الصبر.

وقد مدح الله تعالى الأنبياء والمرسلين في كثير من الصفات التي تحلوا بها، ومنها:

١. العبودية والشكر.

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن الله عز وجل مدح رسله وأنبيائه على عبوديتهم وشكرهم له سبحانه وتعالى، فمدح نوحًا عليه السلام بصفتي العبودية والشكر فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء:٣].

فجاءت هذه الآية بأجل صفات الخضوع، وهي: العبودية وشكر المنعم عز جل على كل حال، التي كانت سببًا لنجاة نوح ومن معه من الهلاك، وفي هذا تحريض على التأسي بهم، وفي تخصيصه بالشكر تنبيه على أن توفية شكر الله صعب، ولذلك لم يثن الله بالشكر من أوليائه إلا على القليل. وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ﴾[النحل:١٢١].

وقال تعالى في حق آل لوط: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر:٣٥].

«أي: مثل هذا الجزاء بالنجاة من الهلاك نجزي من شكرنا بالإيمان والطاعة»[(٢)].

ويصف الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية في قوله تعالى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

قال ابن كثير: «هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء:١].

وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن:١٩].

وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾»[(٣)]، وهاتان الصفتان هما كذلك في كل الأنبياء.

٢. الدعوة.

من يتتبع آيات القرآن يجد أن الله عز وجل مدح رسله وأنبياءه على تبليغهم الرسالات وما لاقوا في سبيل نشرها.

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٤٧٥.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢١٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٢.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

ففي هذه الآية «يمدح تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا، وسيد الناس في هذا المقام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسرِّه وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم»[(١)].

وهذا نوح عليه السلام مدحه الله تعالى في صبره على تبليغ رسالته، وأنزل تكذيب قومه له بمنزلة تكذيب جميع الرسل.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذرًا من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل»[(٢)].

وهذا ثناء ومدح عظيم من الله عز وجل، كما أن فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في دعوته، وهذه الصفة هي كذلك في كل الأنبياء.

٣. الوفاء.

مدح الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم:٣٧].

مبالغة في الوفاء، قال ابن عباس رضي الله عنه: ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كله

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٢٧.
(٢) المصدر السابق ٦/ ١٥١.

غير إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمه، فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧][1].

فجاء المدح في الوفاء من الله عز وجل بيانًا لأمر جليل نال به هذا الثناء والتكريم في دعوته وتبليغ قومه، وهو إعلاء كلمة التوحيد ونبذ الأوثان والأصنام التي يعبدها قومه، والبراءة من الشرك والكفر مع أقرب الناس إليه؛ ليكون في موطن الاقتداء ونموذجًا في الوفاء الإيماني الذي ينبع منه كل خُلُقٍ نبيلٍ، وهذه الصفة هي كذلك في كل الأنبياء.

٤. الحلم ورقة القلب.

مدح الله تعالى الخليل إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥].

فالآية الأولى جاءت بعد بيان الله عز وجل لعلة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، فلما ثبت في علم الله عز وجل أنه كافر عدوٌّ لله في المعتقد أعلن إبراهيم عليه السلام البراءة منه، فجاء المدح الإلهي لهذا الموقف الحاسم في الجانب العاطفي والتوجه إلى الحق جل وعلا بصفتي أواه حليم «وهو الذي يكثر التأوه، ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله: لأرجمنك»[2].

«والحليم: الصفوح عمن سبه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه عند وعيده وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم:٤٦-٤٧]»[3]، فهي صفة ثابتة فيه.

أما الآية الثانية فقد وردت في قصته عليه السلام مع الملائكة ومحاورته معهم في قصة هلاك قوم لوط عليه السلام بعد البشرى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام، فجاءت الآية لتبين أن إبراهيم عليه السلام حليم «غير عجول على كل من أساء إليه أواه كثير التأوه من الذنوب، منيب تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى.

وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه»[4]، فقدم المدح بالحلم لأنها «صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى»[5].

ثم أعقبها في المدح بـ﴿أَوَّٰهٌ﴾ «وهو

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٥.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٠٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٢.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٣.

كناية عن شدة اهتمامه بهموم الناس»[1].

ثم ختم بذكر الإنابة مدحًا للخليل عليه السلام التي تعني الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص العمل، «وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام»[2].

وهذه الصفات هي كذلك في كل الأنبياء.

٥. الكرم والأمانة.

مدح الله تعالى يوسف عليه السلام على لسان عزيز مصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤].

فمدحه بقوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، وهي «كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لا بد في كونه مكينًا من القدرة والعلم. أما القدرة، فلأنه بها يحصل المكنة. وأما العلم، فلأن كونه متمكنًا من أفعال الخير لا يحصل إلا به، إذ لو لم يكن عالمًا بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك، فثبت أن كونه مكينًا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم. أما كونه أمينًا، فهو عبارة عن كونه حكيمًا لا يفعل الفعل لداعي الشهوة، بل إنما يفعله لداعي الحكمة، فثبت أن كونه مكينًا أمينًا يدل على كونه قادرًا، وعلى كونه عالمًا بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه»[3].

مدح الله تعالى موسى عليه السلام فجمع له بين الرسالة والكرم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:١٧].

فالله تعالى أكرمه بالاصطفاء والرسالة فهو «كريم على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم في نفسه؛ لأن الله لم يبعث نبيًّا إلا من سراة قومه وكرامهم»[4]، ومدح موسى نفسه بالجمع بين الرسالة والأمانة.

قال تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان:١٨].

أي: إني رسول إليكم مؤتمن على الوحي غير متهم، أدعوكم وأنصح لكم لما فيه خيركم وسعادتكم، فاسمعوا مني. وبهذا المدح يجمع له الكرم والأمانة في رسالته ودعوته، وهي من مقومات المدح في شخصية موسى عليه السلام، وهي كذلك في كل الأنبياء.

٦. الرأفة والرحمة.

مدح الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم غاية المدح، فقال تعالى:

---

(١) المصدر السابق ١٢/ ١٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٧٧.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٧٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٧٤.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

أي: «﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أي: كريم عظيم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ عدناني قرشي هاشمي مطلبي، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه ما يشق عليكم ويؤلمه ما يؤلمكم؛ لأنه منكم ينصح لكم نصح القومي لقومه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم وإكمالكم وإسعادكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم من سائر الناس ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شفوق عطوف يحب رحمتهم وإيصال الخير لهم»[1].

فالآية كلها في إثبات صفات المدح في كونه رسولًا من أشرف وأفضل الناس، و«لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[2].

وبهذا تكون الآية قد جمعت خمس صفات في المدح والثناء عليه صلى الله عليه وسلم.

ومدح أيضًا باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣- ٤٤].

٧. **الأسوة والخلق العظيم.**

مدح الله تعالى الرسول بأنه صاحب الخلق العظيم فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ففي الآية الأولى: المدح والثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم في جعله منار الأسوة والاقتداء، وفيها نكتتان بلاغيتان أشار إليهما الزمخشري بقوله: «فيه وجهان: أحدهما: أنه في نفسه أسوة حسنة، أي: قدوة.

والثاني: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع، وهي المواساة نفسها»[3].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله»[4].

وفي العدول عن الاسم الصريح (محمد) إلى الكناية (رسول الله) تشريفٌ وتكريمٌ وتعظيمٌ للممدوح صلى الله عليه وسلم، وفي حسن ختام الآية عبرة وموعظة في

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٤٤٢.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٢٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٥٣١.
(٤) تفسير القران العظيم ٦/ ٣٩١.

جعل الاقتداء به صلى الله عليه وسلم غاية في حياة المؤمنين؛ لذا علقها بذكر الآخرة.

أما الآية الثانية ففيها التأكيد والبيان على أهم ما يمدح به صلى الله عليه وسلم، فقد وصفه الله بأكرم ما يوصف به إنسان من خلقه، «وكلمة على للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستولٍ عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»[(١)].

فهو مدح عظيم وثناء جليل وشهادة عظيمة من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم «أي: وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات يا له من شرف عظيم، لم يدرك شأوه بشر، فرب العزة جل وعلا يصف محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف الجليل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]وقد كان من خلقه صلى الله عليه وسلم العلم والحلم وشدة الحياء وكثرة العبادة والسخاء والصبر والشكر والتواضع والزهد والرحمة والشفقة وحسن المعاشرة والأدب إلى غير ذلك من الخلال العلية والأخلاق المرضية»[(٢)].

ومن هنا يتبين مدح الله تعالى للأنبياء والمرسلين، فقد جمعوا كل المقومات الشخصية وكل كمال بشري.

## ثالثًا: مدح الكتب السماوية:

من رحمة الله أن أرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب السماوية المقدسة، ومما صرح القرآن الكريم بذكره: صحف إبراهيم عليه السلام، والزبور لداود عليه السلام، والتوراة لموسى عليه السلام، والإنجيل لعيسى عليه السلام، والقرآن الكريم لمحمد صلى الله عليه وسلم، واقترن المدح للتوراة والإنجيل في تسعة مواضع[(٣)]؛ وذلك لإقامة الحجة على أهل الكتاب، وتقريرًا للإيمان بنزول القرآن الكريم، ودعوة للإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

### ١. مدح التوراة.

جاء مدح التوراة في القرآن الكريم، وذلك تعظيمًا لما فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:٤٤].

فَمَدَحَها بـ(هدى ونور) تشريفًا وتكريمًا لمن آمن وصَدَّقَ بها، وكذلك مدحها بـ (الإمام والرحمة) في قوله تعالى:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٠١.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٤٠١.
(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص١٩٤.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢].

لما فيها من تفصيل الشريعة، ومدح ما فيها من الأحكام والآيات بكونها تامَّةً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٥٤].

٢. مدح الإنجيل.

ورد ذكر الإنجيل تصريحًا في القرآن الكريم في اثني عشر موضعًا [١]، فورد مقترنًا مع الكتب السماوية، إلا أن أكثر اقترانه مع التوراة. وقد خص الله تعالى الإنجيل بالمدح بكونه (هدى ونور) في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦].

ومدحه بالذكر مع التوراة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠].

ومدح بتضمنه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ومدح الله فيه الأمة المحمدية في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

واقترن ذكر المسيح عليه السلام مع الإنجيل تعظيمًا لما أرسل به وإكرامًا للمرسل بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧].

٣. مدح القرآن الكريم.

ورد المدح بلفظ (القرآن) في ثمانٍ وخمسين موضعًا [٢]، وأكثر ورود المدح له في مطلع السور القرآنية، وأكثر وقوعه بعد الحروف المقطعة، فالغالب أن «كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١ -٢]. ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١- ٣].

والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم، والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]» [٣].

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٧٨٣.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٦٤٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٤.

ووصفه الله تعالى بالبركة كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:١٥٥].

والليلة التي نزل فيها مباركة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

ومدحه بأنه أحسن القصص فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٤].

وقد اختار الله عز وجل لكتابه العزيز صفات تدل على شرفه وعلو قدره وفيها البرهان على أنه أعظم كتاب سماوي، أشملها صفة (المهيمن) في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

«فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]»[١].

وخَصَّهُ مدحًا في أم الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

فالله تعالى «بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض»[٢].

وهذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه، فهو كتاب قد نزل بالحق ولإحقاق الحق.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

فالآية مدح للقرآن بأنه نزل متضمنًا للحق، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق، ونهي عن الظلم والأفعال الذميمة، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال، انتظارًا ليوم الحساب والجزاء، وقد نزل هذا القرآن محفوظًا محروسًا لم يشب بغيره، فلم يزد فيه ولم ينقص.

وقد ورد التنويه بذكره في كتب السابقين قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦].

قال ابن كثير: «وإن ذكر هذا القران والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه»[٣].

ومدح على لسان الجن بقولهم: ﴿إِنَّا

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢١٨.

(٣) تفسير القران العظيم ٦/ ١٦٣.

﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢].

فهو مدح يدل على استمرار الهداية لكل زمان ومكان ودعوة إلى الحق والإيمان.

## رابعًا: مدح بعض أهل الكتاب:

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بـالكتاب التوراة والإنجيل، قال الله تعالى في مدح من آمن منهم: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

«قال مجاهد: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء:١٠٨]»[1].

ونجد آيات المدح لخيرة أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

ففي هذه الآية «يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى»[2]، فهو «مدح لهم وذم لسائر كفار أهل الكتاب»[3].

وقد ورد المدح في القرآن الكريم لبعض الصفات الحميدة التي تحلى بها بعض أهل الكتاب، ومن هذه الصفات:

١. **الوسطية والاعتدال.**

قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة:٦٦].

«أي: عادلة. والاقتصاد: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير. أصله من القصد؛ لأن من عرف مقصودًا طلبه من غير اعوجاج عنه. والمراد بالأمة المقتصدة: من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا»[4] رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

٢. **تأدية الأمانة.**

قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٣.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٩.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٢.

﴿بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ [آل عمران:٧٥].

«أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل، يقول: منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قلت»[١].

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة إلى الخيرات.

قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

ففي هذه الآية «أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب، هم من عداد الصالحين؛ لأن من كان منهم فاسقًا، قد باء بغضب من الله لكفره بالله وآياته، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانه ربه واعتدائه في حدوده»[٢].

ومن خُصَّ بالمدح من أهل الكتاب

٤. طائفة من قوم موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

«أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم بقضاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه السلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره»[٣].

٥. طائفة من النصارى.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

هذه الآية نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعةٍ من الحق مما جاء به عيسى، يؤمنون به وينتهون إليه. فلما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم صدقوا به وآمنوا به، وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم[٤].

قال القاضي أبو يعلى: «وربما ظنَّ جاهل أنَّ في هذه الآية مدح النصارى، وليس كذلك، لأنه إنما مدح من آمن منهم»[٥].

«ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين فهو قرب مودة بالنسبة

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٥٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠١.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٧٥.

إلى متباعدين»[1].

ثم بين سبب المدح مفصلًا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فالآية «تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به»[2].

٦. الحواريون.

ورد ذكر الحواريين في القرآن الكريم في خمسة مواضع[3].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

والحواريون أتباع عيسى عليه السلام وأصفياؤه، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلًا[4]، وفي خطابهم وتخصيصهم مدح لهم وثناء عظيم عليهم.

## خامسًا: مدح المؤمنين:

مدح الله تعالى المؤمنين من أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة، منها؛ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

«أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره»[5].

وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

«وما أخرج الله تعالى للناس أمة خيرًا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم مدحهم بما فيهم من الخصال فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآية»[6]، وكذلك مدحهم في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٦٨.
(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٢٧١-٢٧٢.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩.
(٦) الوجيز الواحدي ص٢٢٧.

﴿التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

وأولى المؤمنين بالمدح الصحابة رضي الله عنهم، فقد مدحهم القرآن الكريم بسبقهم إلى الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

وقال في مدحهم أيضًا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٨-٩].

وكما ورد المدح لمؤمني الإنس ورد كذلك لمؤمني الجن؛ فقد مدحهم الله تعالى بحسن استماعهم للقرآن الكريم حتى الفراغ من قراءته وقيامهم بالدعوة إلى الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٣٠].

فالإنصات من علامات التدبر والفهم، وهي من أخلاق حملة القرآن، ومدح قولهم في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

فقد «حصل لهؤلاء النفر من الجن شرف المعرفة بالله وصفاته وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن وما احتوى عليه ما سمعوه منه فصاروا من خيرة المخلوقات»[1].

لقد مدح الله تعالى المؤمنين بما يمتازون به من خصائص تميزهم، فهم أهل لمدح الله لهم والثناء عليهم، وقد سرد القرآن الكريم الصفات القويمة التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم، وهي في ذاتها تجلب المدح والثناء لمن امتثل بها.

وقد جاءت الآيات القرآنية تبين حب الله لعباده المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الحسنة؛ والتي منها:

- الصبر، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].
- والتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٢١.

﴿الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

- والعدل، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].
- وبذل النفس لله، قال جل جلاله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧].
- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

وغيرها من الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة.

## مقاصد المدح في القرآن الكريم

المقصد من مدح الله تعالى نفسه في القرآن الكريم هو تعليم عباده كيف يمدحوه؛ لأن الخلق حينما يمدحون الخالق سبحانه وتعالى يثيبهم، فينتفعون، لا لينتفع هو بالمدح، والهدف من مدح الصفات الحسنة هو شحذ الهمم في امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، والازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

النفس الإنسانية مفطورة على حب المدح الصادق؛ لما له من تأثير قوي فيها، وحثها على فعل الخير وعمل الصالحات، ولأن الإسلام جعل من أولى اهتماماته: الاهتمام بترسيخ قواعد المجتمع المسلم وبنائه من خلال منهج شامل يهدف إلى إصلاح الفرد والمجتمع، ولما كان للمدح أهميته في ترسيخ هذه القواعد، اهتم الإسلام به اهتمامًا كبيرًا، فكان لمدح القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أثر كبير في توجيههم وتحسين سلوكهم وإشاعة روح المودة بينهم.

والناظر في آيات القرآن الكريم يجد أنه في كثير من آياته يحث على التحلي بالأخلاق الحميدة والصفات النبيلة التي تجلب المدح والثناء لصاحبها.

قال تعالى في مطلع سورة المؤمنون:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١-١١].

ففي هذه الآيات «تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصًا، كثرة وقلة»[1].

ففلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر، العظيمة الأثر في حياته الروحية، وكمالاته النفسية.

وقال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٨].

إلى آخر الآيات. قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ أي: يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٢٣.

﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:١٩-٣٥].

٤- قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

[العصر:١-٣].

وغير ذلك.

وهكذا يذكر الله تعالى صفات المؤمنين لينبهنا إلى أن نرجع إلى أنفسنا ونمتحنها بهذه الأعمال والصفات، فإن رأيناها تحتمل فلنبشرها بالرضوان من الله تعالى، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التي لا ينجي عنده غيرها.

ونستطيع أن نخلص من ذلك: أن مدح القرآن هو المدح الحق الصادق، وأن الهدف منه شحذ الهمم في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، والازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

موضوعات ذات صلة:

الحمد، الذم، الشكر، المحبة







عناصر الموضوع

| | |
|---|---|
| التعريف بمدين | ٢٧٠ |
| ذكر مدين في القران الكريم | ٢٧٨ |
| رسول الله إلى مدين ورسالته | ٢٧٩ |
| موقف مدين من رسولهم عليه السلام | ٢٨٧ |
| نعم الله على مدين وموقفهم منها | ٢٩٣ |
| عاقبة قوم مدين | ٢٩٦ |
| اقتران مدين وثمود في القرآن | ٣٠١ |
| موسى عليه السلام فِي مدين | ٣٠٤ |
| الدروس المستفادة من قصة مدين | ٣١٤ |

## التعريف بمدين

### أولًا: المكان:

اتفق المفسرون على أن مدين التي ذكرت في القرآن الكريم هي: اسمٌ لقوم شعيب عليه السلام، وهم قبيلة من العرب، وكانوا يسكنون في شمال غرب الجزيرة العربية وجنوبي الشام، بالقرب من مدينة معان، وتبوك، وبحر القلزم (الأحمر حاليا)، وأن الله تعالى أرسل إليهم شعيبا عليه السلام، وهم من بني مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام على ما ذكره جمهور المفسرين والمؤرخين[(١)].

ولكن اختلف المفسرون وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين في تحديد الموقع الجغرافي لـ(مدين) على ثلاثة أقوال:

**القول الأول:** ذهب الإمام ابن كثير وابن عاشور وبعض المفسرين إلى أن مدين مدينة تقع بالقرب من مدينة معان في شرقي الأردن، من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، وقريبًا من بحيرة قوم لوط[(٢)].

ومدينة معان حاليًا هي: مدينة في المملكة الأردنية الهاشمية، تقع جنوب العاصمة عمان، وتبعد عنها بحوالي (٢١٦) كيلومترًا، وهي أكبر محافظات الأردن مساحة، وأول منطقة دخلها الإسلام في بلاد الشام[(٣)].

**القول الثاني:** إن مدين تقع شمال خليج العقبة في بلاد فلسطين في قرية تسمى: (كفر مندا)، وهي قرية عربية فلسطينية، تقع في الجليل الأسفل، وتبعد (١٦) كيلومترًا شمال غربي الناصرة المحتلة من قبل الصهاينة[(٤)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٥٢، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤٠، معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ٧٧، الإشارات إلى معرفة الزيارات، الهروي ص٨١، آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ص ٢٤٩، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، القطيعي ٣/ ١٢٤٦، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي ١/ ٣٤٥.

(٣) انظر: معجم البلدان، ياقوت ٥/ ١٥٣، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٣٠٠.

(٤) انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٧١، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٨٣.

وذلك وفقا لما ذكره المؤرخ الشهير ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان تحت اسم «كفر مندا»، والذي مر بالمكان سنة (١٢٣٠م)، حيث ذكر أنه يوجد في القرية بعض الدلائل التي تشير لذلك، وأهمها البئر الموجودة في ساحة القرية، وقبر بنات شعيب، ولكن يرجح الحموي أن تكون مدين: قرية على بحر القلزم بمحاذاة تبوك[١].

**القول الثالث:** ذهب الجغرافيون المسلمون في تحديد بلاد مدين بوضوح وبلا اختلاف بينهم، وكذلك جمهور المؤرخين إلى أن: مدين تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك وبحر القلزم (البحر الأحمر)، على بعد (١٣٢) كيلًا من تبوك، مما يلي جهة الشام قريبًا من مدينة معان وخليج العقبة، من أطراف الشام، وهي كذلك قريبة من بحيرة قوم لوط عليه السلام[٢].

وتعرف مدين اليوم باسم: (البدع)، وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر على بعد (١٣٢) كيلًا غرب تبوك، وشرق رأس الشيخ حميد - على البحر - بمسافة (٧٠) كيلًا، وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية[٣].

ومن خلال الاطلاع والبحث عن موقع مدينة مدين عند المفسرين والجغرافيين القدماء والمعاصرين يمكن القول بأن مدين على الصحيح: كانت تمثل إقليمًا كبيرًا وواسعًا، وكانت تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك والبحر الأحمر، على بعد (١٣٢) كيلًا غرب تبوك، وكانت عاصمتها ومركزها الرئيس في مدينة البدع السعودية حاليًا، وكان لها منفذ بحري على البحر الأحمر، وكانت ممتدة إلى معان في الأردن، وبئر السبع وكفر مندا في فلسطين، وكانت في فترات ازدهارها تصل إلى طور سيناء في حدود مصر.

ويؤيد هذا ما ترجح لدى الجغرافيين وعلماء الآثار المعاصرين: أن أرض مدين كان مركزها في بلدة «البدع» بين تبوك والساحل، وهي في واد بين الجبال، ويسمى واديها: «عفال»، وأنها كانت ممتدة في أصقاع واسعة، قد تصل إلى معان في شرقي الأردن مما يلي

---

(١) انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٧١، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبدالعزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص١٧١.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤/ ٤٧١، آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني ص ٢٤٩، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص٢٤٣، أطلس القرآن، شوقي أبو خليل ص٧١.

(٣) انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، عاتق البلادي ص ٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي المغلوث ص١٣٩.

ناحية الحجاز[1].

ومما يؤيد ذلك أيضا أن (مغاير شعيب) وآثارهم وبيوتهم وقبورهم تقع حاليا في محافظة البدع، وهي إحدى محافظات منطقة تبوك السعودية، وتبعد عن تبوك (١٣٢) كيلًا إلى الشمال الغربي منها[2].

## ثانيًا: التسمية:

سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام باسمين الأول منهما: وهو مدين، والآخر بأصحاب الأيكة كما يأتي على هذا التفصيل:

أولًا: سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام بمدين في مواضع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود:٨٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦].

بالإضافة إلى تسمية مدين في قصة موسى عليه السلام من دون ذكر النبي شعيب عليه السلام: قال سبحانه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٠].

وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣].

وقال جل شأنه لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:٤٥].

---

(١) انظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص ٢٤٣، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٢٨٤.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ٧٧، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي ١/ ٣٤٥.



وفي تسمية قوم شعيب بمدين قولان:

أحدهما: لأنهم بنو مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فقيل مدين، والمراد بنو مدين، كما يقال مضر والمراد بنو مضر.

الثاني: أن مدين اسم مدينتهم، فنسبوا إليها، ثم اقتصر على اسم المدينة تخفيفًا، وعلى اعتبار أنها اسم مدينة فهل هو اسم أعجمي أو عربي، فيه وجهان: أحدهما: أنه اسم أعجمي، والثاني: أنه اسم عربي، وهل هو اسم مشتق أو جامد، فقد ذكر المفسرون أنه اسم مشتق، واختلفوا في مادة اشتقاقه على وجهين: أحدهما: أنه من قولهم مدن بالمكان، إذا أقام فيه، والياء زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم مدينة، والثاني: أنه مشتق من قولهم دينت، أي ملكت والميم زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم رجل [(١)].

وأما شعيب فتصغير شعب، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه الطريق في الجبل، والثاني: أنه القبيلة العظيمة، والثالث: أنه مأخوذ من شعب الإناء المكسور [(٢)].

ثانيًا: سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام بأصحاب الأيكة في عدة مواضع من كتابه فقال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر:٧٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص:١٢-١٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٤].

والأيكة عند أهل اللغة هي: الشجر الكثير الملتف، وتسمى أيضا الغيضة، وجمعها أيك، وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة، وقيل: هي الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر [(٣)].

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٤٣، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٤٣، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦١.

(٣) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٣٢٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٦٥، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٩٤.

ولكن تسمية قوم شعيب عليه السلام بأصحاب الأيكة محل خلاف بين المفسرين على أقوال:

**القول الأول:** ذهب أكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام.

**القول الثاني:** ذكر بعض المفسرين عن قتادة: إن شعيبًا عليه السلام أرسل مرتين إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعًا[1].

**القول الثالث:** هناك من المفسرين من يجعل أصحاب الأيكة فريقًا من قوم شعيب غير أهل مدين: فأهل مدين عندهم هم سكان الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم باديتهم، وقيل: من ساحل البحر إلى مدين، وكان شعيب رسولًا إليهم جميعًا، وفيهم قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٨].

وفي آية أخرى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر:٧٨-٧٩][2].

قال الإمام ابن كثير: «وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين على الصحيح،.. والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة»[3].

وقد كان نبي الله شعيب عليه السلام من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجر كثير ملتف، كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه من عبادة الأيكة، وإن كان أخاهم نسبًا، وبعض المفسرين لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم[4].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٢٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣ / ٥٠، النكت والعيون، الماوردي ٣ / ١٦٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٨٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٧١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٤٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٩٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٦٨، مفاتيح الغيب، الرازي

وأما موقع الأيكة ومكانها الجغرافي هو ضمن موقع مدين، وعلى وجه التحديد يمكن الاستئناس بما ذكره علامة الجزيرة في التاريخ حمد الجاسر في كتابه: في شمال غربي الجزيرة: « أن الأيكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي قبل تبوك التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر غزواته، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه، ولم أجد هذا في كتب التفسير، بل يقولون الأيكة الغيضة الملتفة بالأشجار، والجمع أيك، والمراد بأصحاب الأيكة أهل مدين، قلت: ومدين وتبوك متجاورتان، وأقول: لا يزال يطلق اسم الأيكة على واد من روافد عفال في المنطقة المعروفة ببلاد مدين، والتي فيها مغاير شعيب عليه السلام »[(١)].

## ثالثًا: الزمان:

لقد بين القرآن الكريم الزمن الذي كانت فيه مدين وعاش فيه النبي شعيب عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾ [هود:٨٩].

والمراد بالبعد في الآية هو: بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط عليه السلام غير بعيد من زمن شعيب عليه السلام، وكان مدين بن إبراهيم عليه السلام وهو جد قبيلة شعيب المسماة باسمه، وقد ذكر بعض المفسرين أن مدين كان متزوجًا بابنة لوط عليه السلام[(٢)]، وقيل: إن المراد بالبعد هو أنهم غير بعيدين في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات، والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا، ولا مكانًا، ولا صفاتٍ[(٣)].

---

١٩/ ١٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٧١.

(١) انظر: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملغوث ص١٤١.

(٢) ذكر جمهور المؤرخين والمفسرين أن شعيبًا يتصل نسبه بمدين بن إبراهيم الخليل، ولا يعني ذلك أن لإبراهيم ولدان فقط وهو إسماعيل وإسحاق فقط، إذ لا يوجد دليل شرعي يحصر أبناء إبراهيم في اثنين.
انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي ١/ ٣٢٤، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٤٢٨، جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١ فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٦٢، التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٨٨.

ويعتقد بعض المفسرين أن شعيبًا عليه السلام قد عاش بعد إبراهيم الخليل، وبعد يوسف عليهما السلام[1]، قال ابن كثير: «كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد»[2].

## رابعًا: تاريخ مدين:

يعتقد بعض علماء الآثار المعاصرين أن آثار بلدة قرية البدع التي تقع في شمال تبوك ترجع إلى قوم مدين، وأن مدين كانت معاصرة لعهد موسى عليه السلام، ويرون في هذا دليلًا على قدم وجودها وإمكان نسبتها إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق. م على أقل تقدير عندهم.

ويعتقدون أن النبي شعيبًا عليه السلام الذي ذكر في القرآن الكريم رسولٌ لأهل مدين، بأنه يحتمل

توقيت عهده بأوائل فترات ازدهار تاريخها القديم[3].

ويرجح بعض الباحثين المعاصرين من علماء الآثار والتاريخ: أن عصر شعيب عليه السلام إنما كان قبل عصر موسى، معتمدين في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيبًا في القرآن الكريم - كما في سورة الأعراف وهود والحج والشعراء والعنكبوت- بعد نوح وهود وصالح ولوط، وقبل موسى[4].

ومن خلال تقديرهم لعصر الخليل عليه السلام، والذي كان بين: (١٩٤٠- ١٧٦٥ق. م)، وأن لوطا عليه السلام وقومه إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء عليه السلام، قال بعض الباحثين المعاصرين: «إن شعيبًا وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وخاصة أن المصادر التاريخية تذكر أن مدين هو من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، فقدر

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠٥.

(٣) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبدالعزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومى مهران ص ١٧١.

(٤) انظر: دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومى مهران ص ١٧٢.

هؤلاء - حدسًا عن غير يقين- أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، على صحة فرض ما ذهب إليه بعضهم من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى، إنما هو شعيب نبي مدين العربي، وذلك لأنهم يقدرون رحلة خروج موسى من مصر متوجهًا إلى مدين، إنما كانت في هذا القرن الثالث عشر ق. م»[1].

ويمكن القول: إن هذا التقدير ربما قد يكون صحيحا أو يقارب الصحة الى حد كبير؛ لأن بعض المفسرين يذكرون أن بين الخليل عليه السلام وموسى عليه السلام أربعمائة عام، وكذلك بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام[2]، بالإضافة الى ما يذكر من أن شعيبا عليه السلام كان من المعمرين، فقد ذكرت بعض المصادر أن شعيبًا عليه السلام عمر (٢٤٠) عامًا[3].

(١) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبد العزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٩١، التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٣٧.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٥.

## ذكر مدين في القرآن الكريم

**ورد ذكر مدين في القرآن الكريم (١٠) مرة في (٧) سورة، وقد ذكروا بلفظ (أصحاب الأيكة) (٤) مرات.**

وأما قصتهم فقد وردت في السور الآتية:

| السورة | الآيات |
|---|---|
| الأعراف | ٨٥-٩٣ |
| هود | ٨٤-٩٥ |
| العنكبوت | ٣٦-٣٧ |
| الفتح | ٢٩ |

## رسول الله إلى مدين ورسالته

### أولًا: رسول الله إلى مدين:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن الرسول الذي أرسله إلى مدين هو شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف:٨٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٨٤].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦].

و كذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧][1].

واختلف المفسرون في نسب نبي الله شعيب عليه السلام على أقوال:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٢٦.

**الأول**: أنه شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه عليه السلام، وإن أمه بنت نبي الله لوط، وقال ابن إسحاق هو: شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم وأم ميكائيل بنت لوط.

**الثاني**: ما قاله عطاء بأنه: شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

**الثالث**: شعيب بن يثرون بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام[2].

قال الإمام ابن عاشور معلقًا على الاختلاف في نسب النبي شعيب: «وشعيب عليه السلام هو رسول الله لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمه في العربية شعيب عليه السلام واسمه في التوراة: (يثرون)، ويسمى أيضا (رعوئيل)، وهو ابن (نويلى أو نويب) بن (رعويل) بن (عيفا) بن (مدين)، ثم قال: وقد خبط في نسب مدين، ونسب شعيب عليه السلام جمع عظيم من المفسرين والمؤرخين، فما وجدت مما يخالف هذا فانبذه»[3].

ويلاحظ من أقول المفسرين أنهم متفقون على أن شعيبًا عليه السلام من ذرية

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٦٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٥٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٤١.

إبراهيم الخليل عليه السلام [١].

وقد ذكر جمهور المفسرين أن شعيبًا عليه السلام من الأنبياء الأربعة العرب اعتمادًا منهم على حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له عند ذكر الأنبياء والرسل:(وأربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر)[٢].

وكان النبي شعيب مشهورًا بالفصاحة وعلو العبارة، وببلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان والإسلام، فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبًا قال: (ذاك خطيب الأنبياء)[٣]، يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته[٤].

[انظر شعيب: نبذة عن شعيب عليه السلام ومكانته]

ثانيًا: رسالة النبي شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

(١) ويلاحظ هذا الاتفاق من خلال ذكر نسب مدين في كتبهم.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٨، الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٧٤٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم ٣٦١، ٢/ ٧٦.
قال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤١٨: وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه الأنواع والتقاسيم، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث والله أعلم.
وقال السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٧٤٦: أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن الجوزي في الموضوعات، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيف لا صحيح ولا موضوع.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٤٠٧١، ٢/ ٦٢٠، والطبري في تفسيره ١٢/ ٥٦٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٨، الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٧٤٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٦.

وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود:٨٤-٨٦].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٦].

فهذه الآيات السابقة تبين المحاور الرئيسة لدعوة النبي شعيب عليه السلام وهي: الأمر بتوحيد الله في العبادة، والنهي عن أشد الرذائل فُشُوًّا فيهم، والأمر بالفضيلة التي تقابلها[1]، وهذه المحاور هي:

١ . الأمر بعبادة الله وتوحيده وتقواه.

إن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد، ويأمرون بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء، وعليه مدار دعوة الرسل عليهم السلام كلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

كما قال تعالى بخصوص أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب:؛ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٩].

لأن معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتجاهد من حاربها وقام بضدها.

وهذا هو منهج جميع الأنبياء عليهم السلام: فقد قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٣].

وقال الله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال الله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١][2].

---

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ١١٦.

(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٥، غريب

وكان أهل مدين على دين إبراهيم عليه السلام الذي هو الإسلام، هو دين جميع الأنبياء، ولكنه لم يطل بهم العهد حتى غيروا دينهم الحق، وكفروا بالله، وعبدوا غير الله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فغرتهم الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، فقد كانوا أصحاب تجارة وسلع.

وكانوا على الطريق التجارية الكبيرة بين اليمن والشام، وبين العراق ومصر على ساحل البحر الأحمر، ولكن حب المال سيطر على قلوبهم وأعماهم عن اتباع الحق، فقد كانوا يعبدون الأيكة، وزيادة على كفرهم وضلالهم فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ويطففون فيهما، أي: يأخذون مع الزيادة، ويدفعون مع النقصان، ويأكلون المال الحرام.

ولم يكتفوا بهذه المعاملة السيئة، بل كانوا يقطعون الطريق على المارة، ويتعرضون للقوافل، فيتوعدونها ويخيفونها ويعيثون في الأرض فسادًا[1].

القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠٨، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩١٧.

٢. الأمر بالفضائل والنهي عن أشد الرذائل فُشُوًّا فيهم.

١. دعوته إلى الفضيلة.

وذلك من خلال دعوته إلى الخير والمعروف، فقد أخذ نبي الله شعيب عليه السلام يبسط لقومه في الكلام وهو يدعوهم للمعروف وينهاهم عن المنكر والفساد، فأراد أن يخرجهم من التعلق بالدنيا وزخارفها ويبين لهم أن أخذ المال وجمعه بالحلال خير لهم من أخذه بالظلم والخيانة وبطرق الحرام، فقال لهم برفق وحكمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

وقال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٦].

و﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم إن كنتم مؤمنين من أخذ أموال الناس بالتطفيف والظلم والخيانة، ويقال ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أي: مراقبة

الله خير لكم[١].

وقال الراغب هو: «ما يبقى ثوابه للإنسان من الأعمال، والصحيح أنها كل عبادة يقصد بها وجه الله تعالى»[٢].

والقليل من الحلال الطيب خير من الكثير من الحرام الخبيث، وذلك لأن الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام ممحوقٌ لا بركة فيه وإن كثر، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قُلٍّ)[٣].

٢. النهي عن أشد الرذائل فُشُوًّا فيهم.

كانت هناك بعض المنكرات التي يمارسها قوم النبي شعيب عليه السلام والتي نهاهم عنها وهي:

الأول: النهي عن التلاعب بالمكاييل والموازيين في الأخذ والعطاء.

من خلال الآيات يلاحظ أن النبي شعيبًا عليه السلام أمر قومه بالوفاء بالمكاييل والموازيين أولًا، وذلك يكون بالاستقامة في الأخذ والإعطاء، ثم نهاهم عن نقصان المكاييل والموازيين زيادة في التأكيد على ذلك، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه.

الثاني: النهي عن بخس الناس أشياءهم.

والبخس في المعاملة هو: النقص والظلم والتقليل، ومعناه لا تظلموا الناس حقوقهم التي يجب عليكم أن توفوهم إياها، و﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن، وحقوقهم[٤].

والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، عام يتناول كل حق يدخله البخس والنقص سواء أكان ذلك من الأشياء المادية أو المعنوية[٥].

وقد فشا كلٌّ من هذا النوع في هذا العصر، مما أدى الى انهيار الاقتصاد، فكثير من التجار باخسون، مطففون فيما يبيعون وما يشترون، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة بخاسون لحقوق بنى جلدتهم، مُدَّعونَ للتفوق عليهم، منكرون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(٢) انظر: المفردات ص ١٣٩

(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٥٤، ٦/ ٢٩٧، عن ابن مسعود، والحاكم المستدرك على الصحيحين رقم ٢٢٦٢، ٢/ ٤٣.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٤٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٧.

لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسدًا عليهم وبغيًا، فيدخلون في عموم حكم الآية وهو تحريم بخس الناس أشياءهم بمختلف أنواعها[(١)].

الثالث: النهي عن الفساد في الأرض والعتو فيها.

ذكر الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام أنه نهى قومه عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٥-٨٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ لفظ عام يتناول جميع أنواع الفساد دقيقه وجليله، وهو نهي شامل لكل ما يمس نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق والآداب: بارتكاب الإثم والفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام[(٢)].

وكذلك الإصلاح لفظ عام: والمفسرون نَصُّوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح[(٣)].

والمعنى: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن (بعد إصلاحها)، يقول: بعد أن أصلح الله الأرض بالأمر بالعدل وإرسال الرسل وابتعاث النبي شعيب فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم[(٤)].

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فيه إشارة إلى كل ما تقدم من أمر ونهي، أي: هو خير لكم في دينكم ودنياكم، لا تكليف إعنات، فربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلا عما هو ضار بكم، وهو على كل حال غني عنكم، ولو شاء لأعنتكم، ولكنه رحيم لا يفعل ذلك، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقًا أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال، وإنما تتحقق لكم خيرية ما ذكر إن كنتم مؤمنين بوحدانيته وصفاته تعالى، وبرسوله وما جاءكم به عنه سبحانه من الدين والشرع، وسيأتي تعليل ذلك بعد بيان

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢١٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٨/ ٢٠٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٤ التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦.

ما قيل في هذا الإيمان[1].

الرابع: النهي عن قطع الطريق.

قال عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦].

نهى النبي شعيب عليه السلام قومه عن قطع الطريق الحِسِّيِّ والمعنوي؛ لأنهم كانوا يتوعدون الناس بالقتل، إن لم يعطوهم أموالهم؛ لأنهم كانوا عشارين، وذلك من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن، وهذا نهي للعشارين ونحوهم من أخذ أموال الناس بالباطل، والسلب وقطع الطريق.

كما أنه نهاهم عن القعود على الطرقات التي توصل إليه، مخوفين من يجيئه، ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته، وصدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين، وابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها، وهم بعلمهم هذا ارتكبوا ضلالتين: التقليد والعصبية للآباء والأجداد، وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي أباحت لهم الطعن في الأديان حتى بلغوا في ذلك حد الطغيان[2].

### ٣. دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي.

قام النبي شعيب بدعوة قومه إلى عبادة الله وتوحيده الذي هو الأساس للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي؛ ذلك أن إصلاح الحياة الاجتماعية والاقتصادية يكون بإقامة القسط والعدل في الموازين والمكاييل، والحفاظ على الحقوق، والقيام بحق الأمانة في التعامل، وترك الإفساد في الأرض، واستئصال سبب المنازعات والخلافات بين الناس، وإشاعة المحبة والمودة بينهم[3].

بينه النبي شعيب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الله تعالى قد أقام الحجج والبينات على صدق ما جاءهم به شعيب، مما يتبين به الحق من الباطل، ومن المفسرين من فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣ البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٥ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٧٠.

(٢) تفسير المراغي ٨/ ٢١٢.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٩٠.

ذهابًا إلى أن النبي لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله، فلا بد من دليل يعلم صدقه به، وما ذاك إلا المعجزة- قال: إن معجزة شعيب لم تذكر في القرآن، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن، يعني: دعوته وإرشاده.

لأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن الكريم، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيه[1].

يؤيد هذا ما روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**)[2].

أي: إن كل نبي مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله[3].

وقال بعض المفسرين: عني بالبينة مجيء شعيب، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة، ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البينة؛ لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات[4].

قال سيد قطب: «ولا يذكر السياق نوع هذه البينة-كما ذكرها في قصة صالح-ولا نعرف لها تحديدًا من مواضع القصة في السور الأخرى، ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله، ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان، والنهي عن الإفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على الناس»[5].

### [شعيب: معالم نصح شعيب عليه السلام لقومه]

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٤٦ التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم ٤٩٨١، ٦/ ١٨٢.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٩.

(٥) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٧.

## موقف مدين من رسولهم عليه السلام

### أولًا: جواب مدين وكيف واجهوا دعوته:

تبين الآيات الآتية جواب قوم شعيب شعيبًا عليه السلام، وكيف واجهوا دعوته.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٨٤-٩٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٨٨].

ومن خلال هذه الآيات يتبن أن رد أهل مدين على شعيب عليه السلام عما أمرهم به كان متنوعًا بين رد خطاب بخطاب والرد بالاستهزاء والإهانة والتكذيب، والرد بالتهديد بالطرد والتهجير، والرد بالتهديد

بالقتل على النحو الآتي:

١ . رد خطاب بخطاب.

يبين القرآن الكريم أن قوم شعيب ردُّوا خطاب النبوة والرحمة والهداية بخطاب فيه السخرية والاستهزاء والتكذيب بما لا يليق بنبي مرسل لقومه على النحو الآتي:

أما ردهم على أمرهم بعبادة الله وحده، فقالوا: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، أي: هل صلاتك التي تكثر منها تأمرك بترك عبادة آبائنا وأجدادنا، وهي عبادة الأوثان والأصنام، وهذا منهم على سبيل الاستهزاء والسخرية، فهم مصرون على تقليد أسلافهم في الوثنية.

وأما الرد على ترك البخس (النقصان) في الكيل والميزان فقالوا: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾، أي: وهل صلاتك تأمرك أن نترك فعل ما نريد فعله؟، ومقصودهم أن مطلبه بالعدل وأداء الزكاة منافٍ لسياسة تنمية المال وتكثيره، وهو حَجْرٌ وتقييد لحريتهم الاقتصادية.

واختلف في معنى «الصلاة» هنا، فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، وروي أنَّ شعيبًا عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة، وقيل: أرادوا قراءتك، وقيل أرادوا: أمساجدك؟ وقيل: أرادوا: أدعواتك، وقيل: دينك الذي تدين به وأمرت باتباعه؛ لأن أصل الصلاة الاتباع، ومنه أخذ المَصْلِي في الخيل.

قال القاضي أبو محمد: وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع، وجعلوا الأمر من فعل الصلوات على جهة التجوز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبته إلى التزيد من ذلك النوع، فمعنى هذا: ألما كنت مصليا تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جَسَّرَتْهُ على ذلك فقيل: أمرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥][(١)].

﴿تَأْمُرُكَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تدعوك إلى أمرنا، الثاني فيها: أن تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا يعني من الأوثان والأصنام.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾، فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: ما كانوا عليه من البخس والتطفيف.

الثاني: الزكاة، كان يأمرهم بها فيمتنعون منها، قاله زيد بن أسلم وسفيان الثوري.

الثالث: قطع الدراهم والدنانير؛ لأنه كان ينهاهم عنه، قاله زيد بن أسلم[(٢)].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

قال سيد قطب: «ولقد كانت الجاهليات- كما هي اليوم- تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كُلّها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل»[1].

أجابهم شعيب بما يحسم أطماعهم بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٨٨-٩٠].

أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي فيما أدعو إليه، ورزقني منه رزقا حسنا، وهو النبوة والحكمة، ولا أنهاكم عن الشيء وأقع في المنهي عنه، ولا أريد إلا إصلاحكم بمقدار استطاعتي، وليس توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله وهدايته وعونه، وعليه توكلت في جميع أموري، ومنها تبليغ رسالتي، وإليه أنيب وأرجع. وهذا دليل على ثبات شعيب على المبدأ وإخلاص الدعوة، دون أن يخشى من قومه سوءًا.

٢. الرد بالاستهزاء والتكذيب.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك استهزاء به، قاله قتادة.

الثاني: معناه أنك لست بحليم ولا رشيد على وجه النفي، قاله ابن عباس.

الثالث: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد على وجه الحقيقة وقالوا أنت حليم رشيد فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ والحلم والرشد لا يقتضي منع المالك من فعل ما يشاء في ماله[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٨٤٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣ معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧،

﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١]، أي: ما نفهم ما تقول، ومنه سمي علم الدين فقهًا؛ لأنه مفهوم، وفيه وجهان: أحدهما: ما نفقه صحة ما تقول من البعث والجزاء، الثاني: أنهم قالوا ذلك إعراضًا عن سماعه واحتقارًا لكلامه[1].

ولم ينفعهم هذا الأسلوب أيضا، فلجئوا إلى الإهانة والتهديد، قائلين: يا شعيب، ما نفهم كثيرًا من قولك، مع أنه خطيب الأنبياء، وأنت واحد ضعيف، ولولا رهطك أو عشيرتك وقرابتك لرجمناك بالحجارة، وليس لك معزة ولا تكريم.

ويشبه هذا الذي ردوا به على نبيهم ما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:٥].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فيه سبعة تأويلات:

أحدها: ضعيف البصر، قاله سفيان.

الثاني: ضعيف البدن، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أعمى، قاله سعيد بن جبير وقتادة.

الرابع: قليل المعرفة وحيدًا، قاله السدي.

الخامس: ذليلًا مهينًا، قاله الحسن.

السادس: قليل العقل.

السابع: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها.

ويلاحظ من خلال تعبيرهم بالضعف أنه يحتمل هذه المعاني كلها في نظرهم.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: عشيرتك، وهو قول الجمهور.

الثاني: لولا شيعتك، حكاه النقاش.

﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لقتلناك بالرجم.

الثاني: لشتمناك بالكلام.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بكريم.

الثاني: بممتنع لولا رهطك[2].

وتلك سنة متبعة درجت عليها الأمم مع أنبيائها عليهم السلام، فقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

واستهزأت عاد بهود: عليه السلام ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء:١٨٧].

واستهزأت ثمود بصالح، عليه السلام.

فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٩.

(٢) انظر: النكت والعيون الماوردي ٢/ ٤٩٩، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦].

واستهزؤوا بشعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢][1].

أما التكذيب فهو ما جاءت به الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٧][2].

٣. الرد بالتهديد بالطرد والتهجير.

فقد هدد الملأ وهم كبار القوم من قومه شعيبًا عليه السلام بالطرد والتهجير من بلده: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

وهذا النوع من التهديد يفعل مع جميع الأنبياء، ومن بعدهم الدعاة المخلصون، كما قال تعالى عن نبي الله لوط عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف:٨٢].

وقال تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠][3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣ معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦،

٤ . الرد بالتهديد بالقتل.

هدد قوم شعيب النبي شعيبًا بالقتل بالرجم، والرجم من شر القتلات، قال الله تبارك وتعالى إخبارًا عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

فلم يكتفوا باستكبارهم عن اتباع الحق الذي جاء به نبيهم، بل واجهوه بأنهم لولا عشيرته وقبيلته لرجموه بالحجارة حتى القتل وتخلصوا منه.

فقال لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود:٩٢].

أي: أتخافون من قبيلتي وعشيرتي وتراعونني بسببهم وخوفًا منهم ولا تخافون عذاب الله، وجعلتم أمر الله وراء ظهوركم لجهلكم وتكبركم، والله سبحانه عليم بما تعملون لا يخفى عليه شيء، محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم القيامة[(١)]..

والرهط: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: يقال إلى الأربعين، قال: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ﴾ [النمل:٤٨] والمراد لولا عشيرتك وقالوا لولا رهطك على سبيل التقليل والاحتقار[(٢)].

ثانيًا: إنذار شعيب قومه بالعذاب ووقوعه بالفعل:

لم تجد وسائل الإصلاح اللينة والكلمة الطيبة بقوم شعيب، فتحول أسلوبه من لين القول إلى الإنذار بالعذاب، وطلب المغفرة من الله والتوبة إليه، فازداد تعنتهم وإعراضهم، وأمهلهم ليصلحوا شأنهم أو يترقبوا إنزال العقاب بهم، فلم يبدلوا حالهم، فكانت النتيجة عقابهم بالصيحة التي دمرتهم، وإنجاء المؤمنين، وهذا ما سجله القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٨٧، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣.

﴿لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٣-٩٥][1].

ولما يئس شعيب عليه السلام من إجابتهم دعوته، حسم الموقف قائلا: يا قوم، اعملوا على طريقتكم، واعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم من إلحاق الشر بي، فإني عامل أيضا على طريقتي بما آتاني الله من القدرة، أي: فأنتم ثابتون على الكفر والضلال، وأنا ثابت على الدعوة إلى عبادة الله والثقة بقدرته، ولسوف تعلمون من ينزل به عذاب يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة، ومن هو كاذب في قوله مني ومنكم، وانتظروا ما أقول لكم من إيقاع العذاب، إني معكم رقيب منتظر، وهذا وعيد وتهديد لمن يفهم ويدرك المقال[2].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣ معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

## نعم الله على مدين وموقفهم منها

أنعم الله تعالى على قوم شعيب عليه السلام بمختلف النعم بصفة عامة، شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم السابقة واللاحقة بهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل:١٨][3].

وذلك لأن نعم الله تعالى على عبيده لا يمكن عدها وحصرها؛ لأن كل ما أودع الله في السماء والأرض والأجسام من المنافع واللذات التي ننتفع بها، وكذلك الجوارح والأعضاء التي نستعملها، وما خلق الله تعالى في العالم هو من نعم الله تعالى[4].

أما نعم الله الخاصة على قوم شعيب عليه السلام فهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٧٥.

﴿فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦][(١)].

فقد ذكرهم نبيهم شعيب عليه السلام بنعم الله عليهم الخاصة بهم حين كانوا قلة فكثروا، وفقراء فاغتنوا، وضعفاء فتقووا، ولفت نظرهم إلى ضرورة الاتعاظ بأحوال من سبقهم أو جاورهم من الأمم والشعوب الخالية، فإنهم حين كذبوا الرسل وكفروا بالله، دمرهم الله واستأصلهم وأبادهم وجعلهم عبرة لمن جاء بعدهم[(٢)].

وقد حكى الإمام الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ ثلاثة أوجه:

«أحدها: كثر عددكم بعد القلة، قال ابن عباس رضي الله عنه: وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين منها.

والثاني: كثركم بالغنى بعد الفقر.

والثالث: كثركم بالقوة بعد الضعف.

وذكر بعض المفسرين وجهًا رابعًا: أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من قبل»[(٣)].

قال أبو حيان أثير الدين الأندلسي: «المراد مجموع الأقوال الأربعة، فإنه تعالى كثر عددهم وأرزاقهم، وطول أعمارهم، وأعزهم بعد أن كانوا على مقابلاتها»[(٤)].

وصيغة الأمر في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ في الآية المذكورة تدل على وجوب ذكر النعمة على سبيل الشكر والاعتراف بنعم الله تعالى بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلا عددهم، وأن رفعهم من الذلة والخساسة، وأغناهم بعد أن كانوا فقراء، وقواهم بعد أن كانوا ضعفاء، وما يستوجب ذلك من الإيمان بالله تعالى وطاعته، وكأنه يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية[(٥)].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٢٧، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٤٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٢٢، التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٩٦.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩٢.

والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل.

قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦].

وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥].

وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦][(١)].

ويكون المراد من التذكير بالنعم ما يأتي:

١. أن في جملة النعم ما يشهد بصدق النبي شعيب وبرسالته التي جاء بها.

٢. أن كثرة النعم توجب عظم المعصية، فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بالله ورسوله.

٣. أن التذكير بالنعم الكثيرة يوجب الحياء من الله تعالى عن إظهار المخالفة.

٤. أن التذكير بالنعم الكثيرة يفيد أن المنعم خصهم من بين سائر الناس بها، ومن خصَّ أحدًا بنعم كثيرة فالظاهر أنه لا يزيلها عنهم لما قيل: إتمام المعروف خير من ابتدائه، فكأن تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الآتية، وذلك الطمع مانع من إظهار المخالفة والمخاصمة[(٢)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣٢، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٢٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

## عاقبة قوم مدين

لما وصل النبي شعيب عليه السلام مع قومه إلى طريق مسدود، ويئس من إجابتهم، فوض أمره إلى الله تعالى، الذي يعتمد عليه الإنسان في أموره كلها؛ لأنه الكافي لمن توكل عليه قائلًا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

ثم فزع عليه السلام إلى ربه بالدعاء على قومه بالهلكة وتعجيل النقمة، إذ أيس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إذعانهم لله بالطاعة والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه وعلى من اتبعه من مؤمني قومه من فسقهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم، وأنت خير الفاتحين، أي: خير الحاكمين، فإنك العدل الذي لا يجور أبدًا، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم بالرجفة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:٨٩].

وقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩].

والاستفتاح هو: الإنصاف في الدعاء، والاستنصار، وطلب الحكم بالحق[١].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢].

وهذا الدعاء كانت تقوله الأنبياء لما أخرجه ابن جرير وابن كثير عن قتادة أنه قال: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك، وأخرجوا كذلك عن مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله عليه السلام إذا شهد قتالا قال رب احكم بالحق[٢].

فأجابهم شعيب عليه السلام على سبيل التهديد والوعيد لهم بعذاب الله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٩٣-٩٤].

وفي الشعراء قال لهم: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء:١٨٨].

يعني: هو عالم بأعمالكم، فإن أراد أن يبقيكم، وإن أراد أن يهلككم أهلككم، وإن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره إلى

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣١٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٧، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٦٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان ١٨/ ٥٥٤، تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٤٠.

أجل معلوم، وما علي إلا البلاغ، وأنا مأمور به، فلم أنذركم من تلقاء نفسي، ولا أدعي القدرة على عذابكم[1].

وقد ذكر تعالى صفة عاقبة أهل مدين، وكيف كان هلاكهم في ثلاثة مواطن من كتاب الله تعالى، وذكر تعالى أنهم عذبوا بأنواع مختلفة من العذاب في كل موطن من المواطن الثلاثة بصفة تناسب ذلك السياق الذي وردت فيه، كما تناسب الموقف الصادر من قوم شعيب تجاه نبيهم عليه السلام، ويمكن تفصيل هذه الأنواع من العذاب فيما يأتي:

### أولًا: العذاب بالرجفة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٩٠-٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٧].

أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت -بمشيئة الله وقدرته- زلزالًا شديدًا، أزهقت أرواحهم فأصبحت جثثهم جاثيةً، لا أرواح فيها، ولا حركات ولا حواس، فأصبحوا في دارهم جاثمين، أي: ساقطين على ركبهم ووجوههم، وذلك لأنهم قالوا لنبيهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

فأرجفوا نبي الله عليه السلام ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، فكانت جزاء على إرجافهم[2].

والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة، قال الطبري: والرجفة مَيْدُ الأرض بهم وزلزلتها عليهم وتداعيها بهم، وذلكَ نحوٌ من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و «الجثوم» في هذا الموضع تشبيه، أي: كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان[3].

وقد وصف الله تعالى عذاب قوم شعيب بما وصف به يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات:٦-٨].

(١) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ٦٥، الوجيز الواحدي ص ٧٨٦، تفسير المراغي ١٩/ ١٠١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٦.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣١٦.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤][1].

ثانيًا: العذاب بالصيحة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

والصيحة: هي الصوت المدوي العالي، الذي يصم الآذان من شدته وعلوه، وهذه الصيحة ناتجة عن الرجفة والزلزلة، فلما انشقت الأرض، حدث انفجار بركاني كبير مدوٍّ، وسمعوا صوت ذلك الانفجار، فأصيبوا بالفزع والهلع[2].

وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله شعيب عليه السلام في قولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم عن آخرهم[3].

ثالثًا: عذاب يوم الظلة:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٩١].

وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة[4].

قوله تعالى: ﴿كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: جانبًا من السماء، قاله الضحاك، الثاني: قطعا، قاله قتادة، الثالث: عذابا، قاله السدي[5].

والظلة: سحابة أظلتهم، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم، ثم أطبقت عليهم، فكان أعظم يوم في الدنيا عذابا، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

(١) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٤٩، المفردات، الراغب ص ٣٤٤.
(٢) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ١/ ٤٩١.
انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٧٧، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٩٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٨٦.

﴿مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الشعراء:١٨٩-١٩٠] (١).

قال ابن عطية: «ويوم الظلة هو يوم عذابهم وصورته فيما روي أن الله امتحنهم بِحَرٍّ شديد، فلما كان في ذلك اليوم غشي بعض قُطْرِهِمْ سحابٌ فجاء بعضهم إلى ظله فأحس فيه بردًا وروحًا فتداعوا إليه، حتى تكاملوا فيه فاضْطَرَمَتْ عليهم تلك السحابة نارًا فأحرقتهم من عند آخرهم، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت، والحق أنه عذاب جعله الله ظلة عليهم، وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال: من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب، وباقي الآية بين.

ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أهلكت بالرجفة وفرقة بالظلة ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد، وروي أن الله تعالى بعث شعيبا إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقيل هما طائفتان وقيل واحدة وكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة، فلما عتوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم بابا من أبواب جهنم فأهلكهم الحر منه فلم ينفعهم ظل ولا ماء، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها فتنادوا، عليكم الظلة، فلما اجتمعوا تحت الظلة، وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأهلكتهم» (٢).

وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولهبا ووهجا عظيما، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

قال الحافظ ابن كثير: « ذكر تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي (الأعراف) ذكر أنهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف:٩١].

وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤].

ذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٩٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ [هود:٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وههنا قالوا: فأسقط علينا كسفا من السماء الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة[(١)].

ومن هنا يعلم أن هناك سببا مشتركا في عقاب الأمم المتقدمة وإهلاكهم، وهو الكفر بالله كفر تحد وعناد، مع الإفساد، في الأرض بالمعاصي الكبائر.

فقوم مدين: «رفضوا دعوة نبيهم شعيب عليه السلام الذي قال لهم: إن الله تعالى واحد فاعبدوه، والحشر كائن، فارجوه، والفساد بالكفر والظلم والمعصية محرم فلا تقربوه، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأخبرهم به»[(٢)]. فعاقبهم الله كما ذكر هنا، وفي الأعراف بالرجفة، وفي هود بالصيحة، والأمر واحد، فإن الصيحة كانت سببا للرجفة، أي زلزلة الأرض، إما بسبب صيحة جبريل، وإما بسبب رجفة الأفئدة التي ارتجفت منها، ولما كانت الصيحة عظيمة أحدثت الزلزلة في الأرض، فأصبحوا جاثمين ميتين في ديارهم.

وأما ثمود قوم صالح عليه السلام فكذبوا رسولهم، وأعلنوا كفرهم، وهددوا نبيهم بالطرد والإخراج من بلدهم، وعقروا الناقة التي أرسلها الله إليهم معجزة لنبيهم صالح، وكان عقابهم كعقاب أهل مدين بالصيحة أو الزلزلة أو الطاغية، وبقيت آثار ثمود وعاد بالحجر والأحقاف شاهدة على ظلمهم، وآية بينة مؤثرة للمعتبرين المتعظين[(٣)].

أما عاد قوم هود عليه السلام فقد أهلكهم الله تعالى بظلمهم حين فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؟ فأنكروا وجود الإله الخالق القادر، وعتوا وبغوا وتعالوا على الناس، فدمر الله ديارهم بمن فيها: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٦-٧].

وفي إسناد الأخذ إلى الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة تهويل لما أنزله الله بالكافرين المكذبين رسلهم وكيف كان عقابهم، ومبالغة في تصوير المعنى الذي لا يخفى أثره في النفوس[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٠٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤٧، التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٤٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤٧، التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٤٣٣، التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٢٤١.

(٤) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني ٢/ ٣٥٦.

## اقتران مدين وثمود في القرآن

إن من حكم اقتران مدين وثمود في السياق القرآني هو: في التشابه في الجنس حيث إنهم من العرب وفي أنهم متجاورون في البلدان وفي التشابه في الهلاك، واللعنة والمصير الواحد.

قال تعالى في قصة قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود:٨٩-٩٥].

وقال تعالى في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ [هود:٦٦-٦٨][1].

وأوجه التشابه بينهم فيما يأتي:

١. التشابه في الجنس والكفر، وقطع الطريق.

إن الله تعالى قرن بين ثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب لأنهم كانوا من جنس واحد وهو أنهم من العرب، وكانوا جيرانهم في البلدان، ويشبهونهم في الكفر وقطع الطريق.

قال الإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود:٩٥].

أي: كأن لم يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود، وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار، وشبيها بهم في الكفر، وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم»[2].

٢. التشابه في الهلاك والسحق والبعد.

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١١٩٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨. وانظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٧٦.

قال تعالى في قصة قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٤-٩٥].

وقال تعالى في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٦-٦٨].

وأما قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فهو تشبيه: البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود، ووجه الشبه: التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة، ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه: الاستطراد بذم ثمود لأنهم كانوا أشد جرأة في مناوأة رسل الله، فلما تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يعاد ذكر أشدها كفرا وعنادا فشبه هلاك مدين بهلاكهم لأن هذه تربية لقوم نبي في حضرته، وتلك صاعقة كانت عذاب خزى لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبي كل منهما ومؤمنيهما قبلها[1].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم[2].

والبعد أكثر ما يقال في الهلاك، نحو: ﴿بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥].

وكذلك يكون البعد بمعنى اللعنة، فيكون أبعده الله في معنى لعنه الله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤١].

وقوله تعالى ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٤٤].

وقوله سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨].

أي: الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى تشبيها بمن ضل عن محجة الطريق بعدا متناهيا، فلا يكاد يرجى له العود إليها، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٩٢، تفسير المراغي ١٢/ ٧٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨.

﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

أي: تقاربونهم في الضلال، فلا يبعد أن يأتيكم ما أتاهم من العذاب[1]، والظاهر من السياق الكريم أن المراد الزمن وبعد المسافة، وهكذا قال قتادة: (إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود).

وقال الطبري: «ويحتمل وما دار قوم لوط منكم ببعيد، ولا مانع من إرادة ذلك كله»[2].

٣. التشابه في المصير.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف:٩٢].

أي: أهلك الذين كذبوا شعيبا فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاء كأن لم يغنوا فيها، أي: الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، أي: لم يعيشوا ولم ينزلوا ولم يقيموا ولم ينعموا، وأصله من قولهم: غنية بالمكان إذا أقمت به والمغاني: المنازل[3].

قال الماوردي عند تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ «فيه أربعة تأويلات:

أحدها: كأنهم لم يقيموا فيها، قاله ابن قتيبة.

والثاني: كأن لم يعيشوا فيها، قاله الأخفش.

والثالث: كأن لم ينعموا فيها، قاله قتادة.

والرابع: كأن لم يعمروا فيها، قاله ابن عباس»[4].

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠٩، غريب القرآن، السجستاني ص ١٢٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٦٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٦٣.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤١.

## موسى عليه السلام في مدين

تناول القرآن الكريم قصة موسى في مدين من خلال المحاور الآتية:

### أولًا: خروج موسى عليه السلام إلى مدين وأسبابه:

ذكر القرآن الكريم قصة خروج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين هاربا من فرعون وملائه بسبب قتل القبطي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:١٥-٢١].

يقول تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي، إنه أصبح في المدينة خائفا من معرة ما فعل يترقب، أي: ينتظر ويتوقع ما يكون من ذلك الأمر، ثم إنهم طلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك، فخرج موسى من مدينة فرعون خائفا من قتله النفس أن يقتل به بعد ما أخبره ذلك الرجل بما تمالئ عليه فرعون ودولته في أمره، وخرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورئاسة، فخرج منها خائفا يترقب أي: يتلفت، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه[(١)].

واتجه موسى عليه السلام جهة مدين تاركا مدينة فرعون؛ لأنه كما وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل من ولد يعقوب بن إبراهيم[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/١٩٩، الكشاف، الزمخشري ٣/٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/٢٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٢٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٢٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٤٨، تفسير السمعاني ٤/١٣٠، معالم التنزيل، البغوي ٣/٥٢٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/١٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/٢٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٢٠٣، لباب التأويل، الخازن ٣/٣٦١، محاسن التأويل، القاسمي ٧/٥١٧.

خرج موسى عليه السلام فارا بنفسه منفردا حافيا لا شيء معه، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، ولما رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخلوه من الزاد وغيره، فأسند أمره إلى الله تعالى وقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

فقد كان عارفا بالله تعالى عالما بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى، وتوجه ناحية مدين، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان أيام وكان موسى لا يعرف إليها الطريق[١].

قال سيد قطب -واصفا حال موسى- في ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ «ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالي الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب، وخرج منزعجا بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبث، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه، مستسلمة له، متطلعة إلى هداه: «عسى ربي أن يهديني سواء السبيل»[٢].

وكانت هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦].

وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيئا يبصره بآداب النبوءة، ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته كما دل عليه قوله ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[٣].

## ثانيًا: موسى عليه السلام عند ماء مدين وقصته مع الفتاتين:

بين القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام عند ماء مدين، وقصته مع الفتاتين في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، تفسير السمعاني ٤/ ١٣٠، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٥.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٣٩، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠٠.

﴿عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصص:٢٣-٢٥].

وجد موسى جماعة كثيرة من الناس على ماء مدين وهم يصفون حال المجتمع الذي يعيشون فيه، يشرب الأقوياء أولًا من الماء الصافي ويسقون أنعامهم ومواشيهم، ثم يشرب الضعيف بقية الماء وهذا شأن الضعيف مع القوي دائما[(١)].

ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرعاة الآخرين، لئلا يؤذيا وتختلط أغنامهما مع غيرها، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، فسألهما: ما شأنكما وما خبركما لا تردان الماء مع هؤلاء؟ قالتا: لا نسقي غنمنا، أي: لا نتمكن من سقي الغنم إلا بعد فراغ هؤلاء القوم من السقي، وأبونا شيخ كبير هرم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه، مما ألجأنا إلى الحال التي ترى، وفي هذا اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهما.

فسقى لهما غنمهما لأجلهما من بئر مغطى بصخرة، لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، ثم انزوى إلى ظل شجرة للراحة، فناجى ربه قائلا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لمحتاج إلى الخير القليل أو الكثير وهو الطعام، لدفع غائلة الجوع، وفي الآية دلالة على أنه: سقى لهما في حر من الشمس، وعلى كمال قوة موسى عليه السلام، وعلى أنه رغم نعومة عيشه في بلاط فرعون كان مخشوشنًا جلدًا صابرًا.

ويؤيد هذا ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب: رضي الله عنه « أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم»[(٢)].

ثم فرج الله عن موسى عليه السلام بعد الشدة التي عاناها والرحلة الطويلة التي قطعها: فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا أي: لما رجعت المرأتان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٩٩، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: صنف ابن أبي شيبة، رقم ٣١٨٤٢، ٦/ ٣٣٤.
قال ابن كثير في تفسيره ٦/ ٢٠٤: إسناد صحيح.

سريعا بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر، مستحية، متخمرة بخمارها، ساترة وجهها بثوبها، ليست جريئة على الرجال، فقالت في أدب وحياء: إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا[1].

ولما وصل موسى عليه السلام إلى الشيخ الكبير، وأخبره عن قصته مع فرعون وقومه في كفرهم وطغيانهم، وظلمهم بني إسرائيل، وتآمرهم على قتله وسبب خروجه من بلده مصر، أمنه ودفع عنه الخوف، وقال له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تخف واطمئن وطب نفسا، فإنك نجوت من سطوة الظالمين، وخرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم في بلادنا، فاطمأن موسى وهدأت نفسه من القلق والخوف، وبدأ موسى عليه السلام حياة جديدة في مجتمع جديد[2].

## ثالثًا: مكث موسى عليه السلام في مدين سنين وأسبابه:

بين القرآن الكريم المدة التي مكث فيها موسى أنها ثمان أو عشر سنين وسبب ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص:٢٦-٢٨].

ولكن بينت السنة المدة التي مكث فيها موسى في مدين في ما رواه سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس، فقال: «قضى أكثرهما، وأطيبهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل»[3].

وقال وهب بن منبه: لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٤٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٢٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٦٨٤، ٣/ ١٨١.

والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر، واعلم أن قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بعد قوله: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ كالدلالة على أن لبثه في مدين من الفتون، وكذلك كان، فإنه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة، واحتاج إلى أن آجر نفسه[1].

أما سبب مكث موسى عليه السلام في مدين فهناك سبب رئيسي هو: هروبه من مصر بسبب قتله للقبطي، بالإضافة إلى أنه عمل أجيرا مع شعيب عليه السلام وارتبط بعقد عمل مع أبي الفتاتين عندما طلبت إحدى الفتاتين ذلك: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص:٢٦]؛ لأنه القوي على حفظ الماشية والقيام بشؤونها، المؤتمن الذي لا تخاف خيانته، ومصدر هاتين الصفتين ما شاهدت من حاله، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف علي الطريق، فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

مصاهرة موسى لشعيب: قال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: إن شعيب اقتنع بأن موسى رجل قوي أمين، فقال له: أريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين، فاختر ما تشاء، وهما صفوريا وليا، والمهر: أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين، فهو إليك، وإلا ففي الثماني كفاية.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال:

أحدها: أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين.

وقد ذهب إلى ذلك الجمهورمن المفسرين - وهو المشهور عند كثير من العلماء- على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهما ابنتاه، وليس في ذلك شيء يأباه الدين، كما قال الإمام الرازي[2].

وقال القرطبي: «وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام وهو ظاهر

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٦، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٩٨، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٥٠٦.

القرآن»[1].

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مالك بن أنس أنه بلغه أن: شعيبًا هو الذي قص عليه موسى القصص، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين[2].

وروى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي رضي الله عنه أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: (مرحبًا بقوم شعيب وأختان موسى)[3][4].

ورجح ابن عاشور بأنه شعيب النبي عليه السلام بقوله: « واسم المرأتين (ليا) و(صفورة)، وفي سفر الخروج: أن أباهما كاهن مدين، وسماه في ذلك السفر أول مرة رعويل ثم أعاد الكلام عليه فسماه يثرون ووصفه بحمي موسى، فالمسمى واحد.

وقال ابن العبري في «تاريخه»: يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقي منهما اثنتان، فيكون شعيب هو المسمى عند اليهود يثرون، والتعبير عن النبي بالكاهن اصطلاح؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب، ولأنه يطلق على القائم بأمور الدين عند اليهود، وللجزم بأنه شعيب الرسول عليه السلام جعل علماؤنا ما صدر منه في هذه القصة شرعا سابقا، ففرعوا عليه مسائل مبنية على أصل: أن شرع من قبلنا من الرسل الإلهيين شرع لنا ما لم يرد ناسخ»[5].

القول الثاني: إنه كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وعن ابن عباس هو يثري صاحب مدين، رواه ابن جرير وذكر أن رجاله ثقات إلا شيخه سفيان بن وكيع، وعن الحسن: هو سيد أهل مدين، وعن ابن إسحاق: أنه حبر أهل مدين وكاهنهم، وعن أبي عبيدة: أنه يترون ابن أخي شعيب[6].

القول الثالث: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وهذا ما رجحه الإمام ابن كثير بقوله: وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة، إنما هو- والله

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٧٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ٦٣٦٤، ٧/ ٥٥.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٦٢٢٩، ١٣/ ٤٩٧.
(٤) وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٠٧، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٩٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٠١.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/١٠١، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٦.

أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، كما سنذكره قريبا إن شاء الله، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون، والله أعلم»[1].

وممن رجح أن أبا المرأتين صاحب مدين المذكور في سورة القصص ليس شعيبًا الشيخ عبد الرحمن السعدي حيث قال: «وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل وغاية ما يكون أن شعيبا عليه السلام قد كانت بلده مدين وهذا قضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين، وأيضا فإنه غير معلوم أن موسى عليه السلام أدرك زمان شعيب عليه السلام فكيف بشخصه ولو كان ذلك الرجل شعيبًا لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضًا فإن شعيبًا عليه السلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده، ويكون خادما له وهو أفضل منه وأعلى درجة، إلا أن يقال هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم»[2].

وكذلك سيد قطب في الظلال حيث قال: «كنت أعتقد أن هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة: إنه قد يكون النبي شعيبا أو لا يكون وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين. والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه، المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب - النبي- بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل! يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئا عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيبا النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات»[3].

القول الرابع: التوقف عن الجزم بأنه شعيب أو غيره.

وهذا ما ذهب إليه ابن جرير الطبري

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٧.

حين ذكر الاختلاف المذكور في الرجل الذي قص عليه موسى القصص، بعد أن ذكر الخلاف في أسماء بنات شعيب عليه السلام بقوله: «وكان اسم إحداهما صفورا، واسم الأخرى ليا، وقيل: شرفا كذلك، قال: اسم الجاريتين ليا، وصفورا، وامرأة موسى صفورا ابنة يثرون كاهن مدين، والكاهن: حبر عن ابن إسحاق، قال: إحداهما صفورا ابنة يثرون وأختها شرفا، ويقال: ليا، وهما اللتان كانتا تذودان.

وأما أبوهما ففي اسمه اختلاف، فقال بعضهم: كان اسمه يثرون، وعن أبي عبيدة، قال: الذي استأجر موسى يثرون ابن أخي شعيب عليه السلام، وقال آخرون: بل اسمه: يثرى، قال ذلك ابن عباس قال: الذي استأجر موسى: يثرى صاحب مدين، وقال آخرون: بل اسمه شعيب، وقالوا: هو شعيب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبو جعفر: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب»[1].

ويستدل بعض الفقهاء والمفسرين بهذه القصة على جواز مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، ووجوب استحيائها، وولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهرا، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد، ومشروعية الإجارة[2].

قال ابن عاشور: «وفي أدلة الشريعة الإسلامية غنية عن الاستنباط مما في هذه الآية إلا أن بعض هذه الأحكام لا يوجد دليله في القرآن ففي هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس، إذا كانت تستر ما يجب ستره، فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه، وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف»[3].

رابعًا: قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

إن الآيات التي تبين أن قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٦، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٠١.

﴿كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

والثاوي هو: المقيم أي: ماكنت مقيما في أهل مدين [(١)].

وهذه الآيات تبين الأحوال الثلاثة العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام:

وأولها: إنزال التوراة عليه حتى تكامل دينه واستقر شرعه.

والثاني: مكثه وإقامته في مدين.

ثالثها: ليلة المناجاة.

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الأحوال حاضرًا لهذه الأحوال، وبين الله تعالى أنه بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم وعرفه هذه الأحوال فكان الإخبار بها وبتفاصيلها من الدلائل الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته الشاهدة بصدق رسالته من غير أن يكون حاضرًا أو مشاهدًا أو مقيمًا في مدين مع موسى صلى الله عليه وسلم [(٢)].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، وما كنت من الشاهدين لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، وأرسلك إلى الناس رسولا؛ ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين» [(٣)].

فالإخبار عن الغيب من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومن معجزاته الباهرة الدالة على صدق نبوته، لأنه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب، ولم يتتلمذ لأحد، ولم يكن حاضرا معهم، فإخباره بهذه القصة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٤٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢١٥.

الطويلة من غير تحريف ولا غلط، إعجاز، ومن أوضح الأدلة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر؛ ليبين بذلك صدق نبوته، لأنه أمي لا يكتب، ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما علمه، كما قال تعالى عن إخباره بغيب آخر يتعلق بمريم وما حصل لها في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أي: فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به، وقوله تعالى بعد ذكر الإخبار بالغيب عن الأنبياء والمرسلين: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩].

وقوله أيضا: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].

وقوله تعالى بعد تمام قصة يوسف بطولها وأحداثها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢].

وقوله سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:٣].

إلى غير ذلك من الآيات[(١)].

وفي الإخبار بالغيب من قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام إيناس لصاحب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه من المصطفين الأخيار، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة غيبًا لم يشاهدها محمد ولا يعلمها هو ولا قومه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم مقيما بين أصحابها حتى يخبر قومه بها ولم يتعلمها من غيره ولكن الله تعالى هو الذي أوحى بها لمحمد صلى الله عليه وسلم وأرسله إلى الناس رسولا، وجعل هذه الإخبار دليلا على صدق نبوته، فقد جاءت هذه الأحداث التي جاء القرآن الكريم بقصصها، صادقة وثابتة في الصادق من أخبار النبيين في كتبهم التي يتداولها أهل الكتاب، ولم يتناولها التحريف[(٢)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٩٤.
(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٤٠.

## الدروس المستفادة من قصة مدين

يمكن بيان الدروس المستفادة من قصة مدين في القرآن من خلال النقاط الآتية:

١. إن دعوة الرسل عليهم السلام واحدة في العقيدة؛ إذ كلها تقوم على أساس التوحيد لله تعالى والطاعة الخالصة له سبحانه، وأن ذلك أول ما يبدؤون به أولًا، ثم بعد ذلك الأهم فالأهم.

٢. إن وظيفة الرسل عليهم السلام، وسنتهم في إرادة الإصلاح العام والشامل بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها وبدفع المفاسد وتقليلها ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

٣. إن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه وبذلك يكون قد أدى الواجب الذي عليه[1].

٤. حرمة نقص الكيل والوزن، وأن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين، موجبة للوعيد، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة بقطع الطريق وأخذ العشور- من باب أولى وأحرى.

٥. حرمة بخس الناس في جميع حقوقهم المادية: كالكيل والوزن وأجور العمال، وأسعار البضائع ونحو ذلك، وحرمة بخس الناس في حقوقهم المعنوية: كحق التأليف والمبتكرات والشهادات العلمية ونحوها.

٦. حرمة السعي بالفساد في الأرض، بأي نوع من الفساد، وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى والصد عن سبيل الله بمنع الناس من التدين والالتزام بالشريعة ظاهرا وباطنا، والسعي في الأرض بالمعاصي، لاسيما البلاد التي طهرها الله بالإسلام وأصلحها بشرائعه.

٧. حرمة التلصص وقطع الطرق وتخويف المارة.

٨. أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففي ذلك، من البركة، وزيادة الرزق ما

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٩.

٩. ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة[١].

١٠. لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله ويكفر ببعض.

١١. مشروعية الدعاء وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لأن الله تعالى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين.

١٢. التحذير من الطغيان، وهو الإسراف في الشر والفساد، فإنه موجب للهلاك والدمار في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

١٣. تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه إذ كذبت قبل قريش ثمود وغيرها من الأمم كأصحاب مدين وقم لوط وفرعون.

١٤. بيان سنة بشرية وهي: أن الظلمة والمتكبرين يجادلون بالباطل حتى إذا أعياهم الجدال وأفحموا بالحجج بدل أن يسلموا بالحق ويعترفوا به ويقبلوه، فيستريحوا ويريحوا، يفزعون إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.

١٥. الجزاء من جنس العمل، فمن بخس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم.

١٦. المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار، ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله، أو خالفه.

١٧. الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

١٨. الحياء من الرجال الأجانب، وأن ذلك سنة المؤمنات من عهد قديم، وليس كما يقول المبطلون هو عادة جاهلية، فبنتا شعيب عليه السلام نشأتا في دار النبوة والطهر والعفاف وغطت إحداهما وجهها عن موسى حياء وتقوى.

١٩. تجلى كرم شعيب عليه السلام ومروءته

(١) انظر: المصدر السابق.

وشهامته في تطمين موسى وإكرامه وإيوائه.

٢٠. بيان أن الكفاءة شرط في العمل، ولا أفضل من القوة وهي القدرة البدنية والعلمية والأمانة.

٢١. مشروعية عرض الرجل ابنته على من يرى صدقه وأمانته ليزوجه بها.

٢٢. مشروعية إشهاد الله تعالى على العقود بمثل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٢٣. فضيلة موسى عليه السلام بإيجار نفسه على شبع بطنه وإحصان فرجه[١].

٢٤. قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد لأن الإخبار بالغيب من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، لأن الله نفى أن يكون النبي محمد في مدين حتى يخبر بهذه القصة بتفاصيلها مما يدل على أن القرآن كلام الله تعالى.

موضوعات ذات صلة

شعيب عليه السلام، موسى عليه السلام، عاد، ثمود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٨.







عناصر الموضوع


| | |
|---|---|
| مفهوم المرض | ٣١٨ |
| المرض في الاستعمال القرآني | ٣١٩ |
| الألفاظ ذات الصلة | ٣٢٠ |
| أنواع المرض | ٣٢٢ |
| مرض الشبهات | ٣٢٧ |
| مرض الشهوات | ٣٤٢ |
| مرض الأبدان | ٣٤٥ |
| الشفاء من الأمراض | ٣٤٩ |
| أثر انتشار الأمراض في المجتمع | ٣٥٢ |


المجلد الثلاثون

# مفهوم المرض

## أولًا: المعنى اللغوي:

المرض لغة: السقم، وهو نقيض الصحة، ويكون للإنسان والحيوان، وهو حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل، وهو النقصان، ومنه بدن مريض: ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، وهو الفتور، قال ابن عرفة: «المرض في البدن: فتور الأعضاء، وفي القلب: فتور عن الحق»، وهو الظلمة [(١)].

قال ابن فارس: «(مرض) الميم والراء والضاد أصل صحيح يدل على ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة في أي شيء كان» [(٢)].

وخلاصة التعريف اللغوي: أن المرض له معنيان:

أحدهما: أن المرض اسم يطلق على ما يصيب البدن من العلل والجروح والفتور.

والثاني: أن المرض اسم يطلق على ما يصيب الإنسان في الدين كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية.

## ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

والمرض اصطلاحًا: ما يعرض للبدن، فيخرجه عن حالة الاعتدال الخاص، وذلك نوعان:

الأول: مرض جسمي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

والثاني: عبارة عن الرذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية، ومنه قوله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠] [(٣)].

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٠٦، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٣٢، تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٥٣.

(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٣١١.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٩٣.





## المرض في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مرض) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

| الصيغة | عدد المرات | المثال |
|---|---|---|
| الفعل الماضي | ١ | ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾[الشعراء:٨٠] |
| المصدر | ١٣ | ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[المائدة:٥٢] |
| الصفة المشبهة | ١٠ | ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة:١٨٥] |

وجاء المرض في الاستعمال القرآني بمعنى: الفساد الذي يعرض للإنسان فيخرجه عن الاعتدال والصحة، ويكون جسمانيًا وبدنيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة:١٨٤].

ويكون نفسانيًا أو معنويًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة:١٠][2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٦٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الميم ص١٢٠٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٤٩٢-٤٩٣، نزهة الأعين النواظر، ص٥٤٥-٥٤٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٨٤-٨٥.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ العدوى:

**العدوى لغة:**

اسم من الإعداء، وهو ما يعدي من داء وجرب، أصله من عدا يعدو إذا جاوز الحد، وأعداه من علته وخلقه[١].

**العدوى اصطلاحًا:**

هو أن تجاوز العلة صاحبها إلى غيره[٢]، ولا يختلف عن المعنى اللغوي.

**الصلة بين المرض والعدوى:**

أن المرض قد يكون سببًا من أسباب العدوى وبالعكس[٣].

### ٢ الوباء:

**الوباء لغة:**

الطاعون، وقيل: كل مرض عام[٤].

**الوباء اصطلاحًا:**

فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية وأرضية[٥].

**الصلة بين المرض والوباء:**

أن الوباء مرض من الأمراض.

### ٣ الصحة:

**الصحة لغة:**

السلامة، وخلو الأجسام من المرض[٦].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٠.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٣٨.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٧.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٣٣٢، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢/ ٦٤٦.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٣٤، تاج العروس، الزبيدي ١/ ٤٧٨.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٢٨، معجم لغة الفقهاء، رواس ص ٢٧١.



### الصحة اصطلاحًا:

حالة أو ملكة، بها تصدر الأفعال عن موضعها سليمة[1].

### الصلة بين المرض والصحة:

الضدية، وكل منهما يقال في البدن والدين جميعا[2].

## ٤ العافية:

### العافية لغة:

البراء من الأسقام والبلايا[3].

### العافية اصطلاحًا:

البراء من العلل والبلايا والأسقام[4]، ولا يختلف عن المعنى اللغوي.

### الصلة بين المرض والعافية:

مقابلة المرض بما يضاده من الصحة[5].

## ٥ الشفاء:

### الشفاء لغة:

البراء من المرض[6].

### الشفاء اصطلاحًا:

رجوع الأخلاط إلى الاعتدال، وقيل: البراء من المرض، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩][7].

### الصلة بين المرض والشفاء:

مقابلة المرض بما يضاده.

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٣٢، مقاليد العلوم، السيوطي ص ١٧٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٥٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٧٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٧٣.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦١٢.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ١٠٩.
(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٦٧، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٤٣٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٣٨٢.
(٧) انظر: المفردات، الراغب ص ٤٥٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٠٥.

## أنواع المرض

تظهر أنواع الأمراض التي تصيب القلوب والأبدان من خلال ما يلي:

### أولًا: مرض الشبهات:

من أمراض القلوب التي ذكرها القرآن الكريم مرض الشبهات، ويمكن التعرف على هذا النوع من المرض من خلال السياق القرآني، فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين كان مرض الشكوك والشبهات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١].

أخبر الله تعالى أن في قلوب المنافقين مرض، ومرض القلب: هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار، وصحته أن يكون عارفًا بالحق محبًا له مؤثرًا له على غيره، وسمي الشك في الدين مرضًا؛ لأنه فساد في الروح يحتاج إلى علاج كالفساد في البدن، ومرض القلب أعضل، وعلاجه أعسر، ودواؤه أعز، وأطباؤه أقل، والمرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين، وذلك إما أن يكون شكًا ونفاقًا، وإما جحودًا بسبب حسدهم وعدوانهم مع علمهم بصحة ما يجحدون، وتقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها، مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة(٨).

فالمؤمنون يخبرون عن زيادة إيمانهم والمنافقون يخبرون عن عدمه في وجدانهم، فهذا موجب شكهم وتماديهم في غيهم وإفكهم، ولو أنهم رجعوا إلى حاكم العقل لأزال شكهم وعرفهم صدق المؤمنين بالفرق بين حالتيهم، فإن ظهور الثمرات مزيل للشبهات(٩).

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:٢٦].

فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به، وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها، قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة

(٨) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٩٧، إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري ١/ ٣٩٥.

(٩) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٥٢.

وعمى، فلا يدري ما يراد به[1].

وفي الآيتين الكريمتين السابقتين عبر سبحانه وتعالى عن النفاق بالمرض، وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق، فهو يفسد القلوب، والعقول والمدارك، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها، ومعه الوهن دائمًا[2].

## ثانيًا: مرض الشهوات:

من أمراض القلوب التي ذكرها القرآن الكريم مرض الشهوات، ويمكن التعرف على هذا النوع من المرض من خلال السياق القرآني، فإن كان هذا السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرض الشهوات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب:٣٢].

إن المنافقين قوم برزوا في إظهار مرض القلب الذي ينشأ عنه كل إثم وفسوق وعصيان، وخاصة تتبع النساء والتعرض لهن بالسوء، وإغرائهن على الفاحشة، وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل، والتعرض بالسوء لنسائه وبيته، وعدم امتثال أمر الله مطلقًا، وخاصة في ستر عورات النساء، كل هذا من لوازم النفاق العملي الذي يأباه الله ويتنافى مع حقيقة الإسلام، ونرجو أن يمتثل المسلمون اليوم للأمر بستر عورات نسائهم حتى لا ينطبق علينا وصف النفاق[3].

وأخبر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم أنهن لسن كأحد من النساء في الفضل والشرف وعلو المنزلة، وأمرهن أن لا يلن في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: مرض شهوة الزنا والفجور، والمعنى: لا تقلن قولًا يجد به منافق أو فاجر سبيلًا إلى الطمع في موافقتكن به، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه؛ لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه، وسلامته من المرض، بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، وكان أكثر من تصيبه الحدود في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقون[4].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/ ١٤، القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص ٩٤.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٩٠.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ١١٨.

(٤) انظر: تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٥٧٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.

وفي الآية دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم منع منه؛ ولهذا ينبغي للمرأة أن لا تلين بالقول في مخاطبة الرجال الأجانب ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ملؤه الأدب والوقار حسنًا في معناه، خشنًا في مبناه، مقتصرًا على الجواب الكافي؛ لأن الزيادة ممنوعة كما أن اللين ممنوع، وإنما أمرهن الله بهذا؛ لئلا ينسبن لقلة الأدب وهن منبعه وعنهن يؤخذ، وتعهد نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالإرشاد والتأديب؛ لأنهن الأسوة والقدوة، وهذه الآداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك[1].

## ثالثًا: مرض الأبدان:

من الأمراض التي ذكرها القرآن الكريم مرض الأبدان، وحيثما جاء المرض في آيات الأحكام فهو من علة في البدن، وكذلك (مريض، المريض، مرضى)، وكلها في آيات أحكام.

جاء ذكر مرض البدن في الطهارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣].

والمريض الذي يباح له التيمم، هو الذي يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء، من فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء، أو كان ضعيفًا في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء، كما روي في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه أصابته جنابة وهو أمير الجيش فترك الغسل من أجل آية، قال: (**إن اغتسلت مت فصلى بمن معه جنبًا، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه بما فعل وأنبأه بعذره فأقر وسكت**)[2] [3].

وقد اتفقوا على جوازه، وذلك أن المريض الذي لا يضره الماء لا معنى للترخيص له في التيمم، فذكر ليدل على أن مرضه حينئذ يقوم مقام عدم وجود الماء حقيقة، فالمريض الذي يمنعه مرضه من استعمال

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٧٤.

(٢) أخرجه البخاري معلقا، كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت، أو خاف العطش، تيمم، ١/ ٧٧، ووصله عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، رقم ٨٧٨، ١/ ٢٢٦، وأحمد في مسنده، رقم ١٧٨١٢، ٢٩/ ٣٤٦.
قال الزيلعي في نصب الراية ١/ ١٥٧: والحاصل أن الحديث حسن أو صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٨٨، تفسير المراغي ٦/ ٦٤.

الماء له التيمم مع وجود الماء، وكذلك شأن المسافر إذا كان معه من الماء ما لا يفيض عن حاجته في طعامه وشرابه، فلم يبق حينئذ إلا الجنب وما في معناه، والجائي من الغائط وما في معناه من غير المسافرين والمرضى، فهو إنما يباح لهم التيمم إذا فقدوا الماء، وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ وما لا غبار له لا يمسح به[1].

كما جاء ذكر المرض في أحكام الصيام في قوله جل وعلا: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] والمرض المذكور في الآية هو المرض الذي يشق معه الصوم، فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، والمسافر طلبا لحفظ صحته وقوته؛ لئلا يذهبه الصوم في السفر؛ لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر؛ حفظا لصحته وقوته عما يضعفها[2].

وجاء أيضًا في أحكام الحج في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾ [البقرة:١٩٦]، أي: مرضًا يحوجه إلى الحلق ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى﴾ فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه، من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، وإذا حلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه استفراغ يؤذي انحباسه، والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا سبغ، والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش[3].

بينت الآيات مرض البدن في الحج والصوم والوضوء لسر بديع يبين عظمة القرآن، والاستغناء به لمن فهمه وعقله عن سواه، وذلك أن قواعد طب الأبدان

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣١٣، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، صديق خان ص ١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٠، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٨٠٠، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٩٣.

(٢) انظر: تفسير ابن عرفة ٢/ ٥٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٣.

(٣) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٤/ ٦، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٣.

ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة.

وجاء ذكر المرض في أحكام الأكل والآداب في قوله جل وعلا: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

كان المسلمون في صدر الإسلام حين أمروا بالنصيحة ونهوا عن الخيانة وأنزل عليهم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨].

أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق أدقوا النظر وأفرطوا في التوقي، وترك بعضهم مؤاكلة بعض.

فكان الأعمى لا يؤاكل الناس؛ لأنه لا يبصر الطعام فيخاف أن يستأثر، ولا يؤاكله الناس يخافون لضرره أن يقصر.

وكان الأعرج يتوقى ذلك؛ لأنه يحتاج لزمانته إلى أن يتفسح في مجلسه، ويأخذ أكثر من موضعه، ويخاف الناس أن يسبقوه لضعفه.

وكان المريض يخاف أن يفسد على الناس طعامهم بأمور قد تعتري مع المرض: من رائحة تتغير، أو جرح يبض، أو أنف يذن، أو بول يسلس، وأشباه ذلك.

فأنزل الله تبارك وتعالى: ليس على هؤلاء جناح في مؤاكلة الناس.

وقيل: كان الصحابة رضي الله عنهم يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغازي، ويدفعون مفاتيحهم إلى الضمنى، وهم الزمنى، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في منازلنا، فكانوا يتوقون أن يأكلوا من منازلهم حتى نزلت هذه الآية.

ثم أباحت الآية الأكل من بيوت الأقارب مثل: الآباء، والأمهات، والإخوة، والأخوات، والأعمام، والعمات، والأخوال، والخالات.

وأباحت أيضًا الأكل مما كان تحت يد الشخص وتصرفه من مال غيره، والأكل من بيوت الأصدقاء، ولم يذكر فيها قيد ما لإباحة الأكل من هذه البيوت.

ولم يذكر بيوت الأبناء واكتفى بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ لأن مال الرجل منسوب إلى

أبيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت ومالك لأبيك) وقال: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه فكلوا من كسب أولادكم) فاكتفى بذكر بيوت أنفسكم عن ذكر بيوت الأولاد، إذ كانت منسوبة إلى الآباء[1].

قال أبو زهرة: «ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الحكيم أنه لا إثم على من يأكل في بيوت هؤلاء عند الاحتياج، ونفي الإثم يشير إلى أنه الحق؛ إذ إن تناول الحقوق لا إثم فيه، وقد يقال: إن ذلك لم يكن مقتصرًا على القرابة، بل ذكر الصديق، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة.

ونقول: إن ذلك الحق سببه العجز ابتداء؛ ولذلك ذكر في أول الآية ذوي العجز عن الكسب، فكان الكلام كله في أهل العجز، ولكن الأخذ كان للقرابة ابتداء، فإن لم تكن له قرابة يلزمها الشرع، كانت المودة التي توجبها الصداقة مبررًا للأكل، وإن كان لا يلزم الصديق بذلك قضاء، فإنه يجب عليه دينًا ويأثم فيما بينه وبين الله إن كان قادرًا، ومع ذلك يترك صديقه يتضور جوعًا، ولذلك كانت المؤاخاة، وفي ذلك إرشاد خلقي اجتماعي حكيم لواجبات الأصدقاء نحو أصدقائهم»[2].

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ١٩٩، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٤٣٢، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦١٦.
(٢) المعجزة الكبرى القرآن ص ٣٢٨.

## مرض الشبهات

ستتناول في هذا المبحث أعراضه، والوقاية منه، وعاقبته، وذلك في النقاط الآتية:

### أولًا: أعراضه:

تظهر أعراض مرض الشبهات من خلال النقاط الآتية:

**١ . موالاة الكفار.**

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين موالاة الكفار.

قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢].

لما نهى الله تعالى في الآية السابقة المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة، بينت هذه الآية أن من يوالي اليهود والنصارى هم الذين في قلوبهم مرض أي: نفاق وشك وريب في وعد الله لإظهار دينه، وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في مودتهم في الباطن والظاهر، من غير نظر فيما يلحقهم من الضرر في دين الله، والفضيحة بالنفاق ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في عذرهم.

﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ أي: نخشى أن تقع بنا مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان، أو من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، فنحتاج إلى نصرتهم لنا، فنحن نتخذ لنا يدًا عندهم في السراء؛ ننتفع بها إذا مست الضراء، والمراد أنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين.

وكان اليهود عونًا للمشركين على المؤمنين، كما ظهر في وقعة بدر والأحزاب، فيحل بهم ما يحل بالمؤمنين من النقمة، ذلك بأنهم غير موقنين بوعد الله بنصر رسوله، وإظهار دينه على الدين كله؛ لأنهم في شك من أمر نبوته، لم يوقنوا بصدقها ولا بكذبها، فهم يريدون أن ينتفعوا منها بإظهارهم الإيمان بها، وأن يتخذوا لهم يدًا عليها لأعدائها؛ ليكونوا معهم إذا دالت الدولة لهم، وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، ثم رد تعالى عللهم الباطلة، وقطع أطماعهم الفارغة، وبشر المؤمنين بالظفر[1].

وقوله سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ وعسى من الله نافذة، لأنه الكريم العظيم الذي لا يُطْمِعُ إلا فيما يُعْطِي؛ ولأن الكريم إذا أوعد في خير فعله، فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له، والمعنى: فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين على أعدائهم، أو أمر من عنده يقطع أصل اليهود أو يخرجهم عن بلادهم؛ فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم.

وذلك لأنهم كانوا يشكون في أمر الرسول ويقولون: لا نظن أنه يتم له أمره، والأظهر أن تصير الدولة والغلبة لأعدائه، وقيل: أو أمر من عنده، يعني: أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على فعالهم ﴿فَيُصۡبِحُواْ﴾ أي: المنافقون ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من الشك في ظهور الإسلام، أو من النفاق ﴿نَٰدِمِينَ﴾ لافتضاحهم بالنفاق مع الفريقين، وتعليق الندامة بما كانوا يكتمونه - لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة - لأنه الذي كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها، فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها[2].

وفي الآية: نداء للمؤمنين أن يجعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة، ونهتهم عن موالاة الذين يخالفونهم في الدين، ووصفت الذين يتولون من غضب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٦٣، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٥٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٦٣، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٥٦.

الله عليهم بالنفاق ومرض القلب، وبشرت المطيعين لله بالنصر والظفر[1].

٢. الاستهزاء بالمؤمنين.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين الاستهزاء بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩].

بينت الآية سخرية المنافقين من أهل المدينة واستهزاءهم واحتقارهم للمؤمنين، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وارتياب، وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن، فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم إلى بدر، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا، وقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ والغرور: الإيقاع في المضرة بإيهام المنفعة، والدين هو الإسلام، وإسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر، من نحو قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥].

أي: غرهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير، والمعنى: إذ يقولون ذلك عند اللقاء وقبل حصول النصر، فإطلاق الغرور هنا مجاز، وإسناده إلى الدين حقيقة عقلية، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسان الله، فإن الله حافظه وناصره؛لأنه عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه، والرحمة والثواب إلى أوليائه[2].

قال سيد قطب: «والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة، فهم يرون ظواهر الأمور دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله، والتوكل عليه، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية، فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم، مغرورين بدينهم، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة، وعند القلوب الخاوية من الإيمان»[3].

٣. الاستجابة لوساوس الشيطان.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٩٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣١٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٨.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣٢.

الشبهات التي تصيب المنافقين الاستجابة لوساوس الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن من حكمته وسنته: أنه ما أرسل قبله من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ، ألقى الشيطان في أمنيته، ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول إلقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، والله تعالى يعيد الإرشاد ويكرر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح، كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر:٦]، فالله تعالى بهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي: يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك هو إحكام آياته، أي: تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه، ثم بين سبحانه أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانى فتنة للشاكين المنافقين، والقاسية قلوبهم عن قبول الحق، فلا تلين لقبول الحق، ولا ترعوي عما هي فيه من الغي؛ ابتلاء لهم ليزدادوا إثمًا، ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتًا واستقامة[1].

٤. الإعراض عن التحاكم للكتاب والسنة.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين الإعراض عن التحاكم للكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٩٨.

[النور:٤٧-٥٠].

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، وأنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة توليًا عظيمًا.

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثم إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة، وفريقًا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنًا، وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد، كما قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وعبر بالمضارع لإفادة تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه؛ لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق، والإشارة في قوله: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ﴾ إلى ضمير ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم، وإنما يظهر كفرهم عند ما تحل بهم النوازل، وإسناد فعل ﴿دُعُوا﴾ إلى جميعهم وإن كان المعرضون فريقًا منهم لا جميعهم؛ للإشارة إلى أنهم سواء في التهيؤ إلى الإعراض، ولكنهم لا يظهرونه إلا عندما تحل بهم النوازل فالمعرضون هم الذين حلت بهم الخصومات، ثم أخبر الله أن المنافقين يعرضون عن حكم الرسول لعلمهم بأنه يحكم بالحق، فإذا كان لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه؛ لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضا[1].

ثم أخبر بما في قلوبهم من الشك والريبة، فقال سبحانه: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ القلوب: العقول، والمرض مستعار للفساد أو للكفر. قال جل وعلا: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] أو للنفاق.

وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصله فيها، بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم، والارتياب: الشك.

والمراد: ارتابوا في حقيقة الإسلام، أي: حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيمانًا غير راسخ، وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدد، أي: حدث لهم ارتياب بعد أن اعتقدوا الإيمان اعتقادًا مزلزلًا.

وهذا يشير إلى أنهم فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنهم أظهروا الإيمان وكتموا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٨، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٣٨٧.

كفرهم، وفريق آمنوا إيمانا ضعيفًا، ثم ظهر كفرهم بالإعراض، والحيف: الظلم والجور في الحكومة.

وأسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفًا لا يظهر الحقوق، وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنه غير منزل من الله، وأن يكون حكم الرسول بغير ما أمر الله، فهم يطعنون في الحكم وفي الحاكم وما ذلك إلا لأنهم لا يؤمنون بأن شريعة الإسلام منزلة من الله، ولا يؤمنون بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله.

فالكلام كناية عن إنكارهم أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقًا فيما أتى به ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس العدول إلا لما في قلوبهم من المرض والنفاق، وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أحبوا وكرهوا، والتسليم لقضائه[1].

قال سيد قطب: «إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، والإسلام عقيدة متحركة، لا تطيق السلبية، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك؛ لتحقق مدلولها في الخارج؛ ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع.

ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون، مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل، وهؤلاء كانوا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٤٧].

يقولونها بأفواههم، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم، فيتولون ناكصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧].

فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم، والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ثم يدعها ويمضي، إنما هو تكيف في النفس، وانطباع في القلب، وعمل في الواقع، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير»[2].

**٥. التشكيك في وعد الله ورسوله.**

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين التشكيك في وعد الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٢٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٨، ٢٧٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٣٨٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٥.

﴿١٢﴾ [الأحزاب:١٢].

يقول تعالى مخبرًا عن حال المؤمنين حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، والذين في قلوبهم ضعف في الإيمان لقرب عهدهم بالإسلام: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الظفر والنصر على العدو إلا وعدًا باطلًا يغرنا به ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، ويسلخنا عن دين آبائنا.

ويقول: إن هذا الدين سيظهر على الدين كله، وإنه سيفتح لنا فارس والروم، وها نحن أولاء قد حصرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، فإن ذلك كله مما ألحق بالمسلمين ابتلاء فبعضه من حال الحرب وبعضه من أذى المنافقين؛ ليحذروا المنافقين فيما يحدث من بعد؛ ولئلا يخشوا كيدهم فإن الله يصرفه كما صرف أشده يوم الأحزاب، وقول المنافقين هذا يحتمل أن يكونوا قالوه علنًا بين المسلمين قصدوا به إدخال الشك في قلوب المؤمنين لعلهم يردونهم عن دينهم.

فأوهموا بقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أنهم ممن يؤمن بالله ورسوله، فنسبة الغرور إلى الله ورسوله إما على معنى التشبيه البليغ، وإما لأنهم بجهلهم يجوزون على الله أن يغر عباده، ويحتمل أنهم قالوا ذلك بين أهل ملتهم فيكون نسبة الوعد إلى الله ورسوله تهكما، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٧].

والغرور: ظهور الشيء المكروه في صورة المحبوب، والمعنى: أن الله وعدهم النصر فكان الأمر هزيمة، وهم يعنون الوعد العام وإلا فإن وقعة الخندق جاءت بغتة ولم يرو أنهم وعدوا فيها بنصر ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم الذين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق وصمموا عليه[1].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢]: «فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٨، تفسير المراغي ٢١/ ١٤١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٨٣.

التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين، ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء»[1].

٦. نشر الإشاعات.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين نشر الشائعات والأراجيف.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦١].

يخبر تعالى أن من صفات المنافقين ومرضى القلوب نشر الاشاعات والأراجيف، ووصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

فالعطف هنا لا يقتضي المغايرة، إنما عطف صفات مختلفة لشيء واحد، وجاءت هذه الصفات مستقلةً؛ لأنها أصبحت من الوضوح فيهم، بحيث تكاد تكون نوعًا منفردًا بذاته.

والإرجاف: إشاعة الأخبار، وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس؛ ليطمئن السامعون لها مرة بعد مرة بأنها صادقة؛ لأن الإشاعة إنما تقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يصدق به؛ لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل.

فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجالس ونواد ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل.

والمعنى هنا: الذين يخبرون بالأراجيف، وكانوا يخبرون المؤمنين بما يكرهون من عدوهم، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين، والأراجيف: هي أول الاختيار، وأصل الرجف هو الحركة.

فإذا وقع خبر الكذب فإنه يقع الحركة بالناس فسمي إرجافًا، ويقال: الأراجيف تلقح الفتنة، ويقال: أرجف بكذا، إذا أخبر به على غير حقيقة؛ لكونه خبرًا متزلزلًا غير ثابت من الرجفة، وهي الزلزلة، وهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وأتباعهم.

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٨.

فهذه الأوصاف لأصناف من الناس، وكان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين؛ لأن قوله عقبه: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لا يساعد أن فيهم مؤمنين، والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زمنا قليلًا ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم، فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز[1].

وفي الآية: إنذار لفئات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة، بأنهم إذا لم ينتهوا عما يبثونه من وساوس ودسائس ويوقعونه من أذى وقلاقل، فإن الله يغري نبيه بهم ويسلطه عليهم ويقدره على طردهم من المدينة، مدموغين بدمغة اللعنة، مهدوري الدم ليقتلوا قتلا ذريعًا بدون هوادة واستثناء وتساهل أينما وجدوا، وهذه هي سنة الله فيمن مضى من أمثالهم من الأمم وهي السنة التي لا تتبدل في حال[2].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٧٣، تفسير السمعاني ٤/ ٣٠٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٠٨، تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢١٧٣.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٤٢٠.

### ٧. الخوف من الجهاد.

من أعراض مرض الشبهات التي ذكرها القرآن الكريم الخوف من الجهاد.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢٠- ٢١].

يخبر تعالى في هذه الآيات عن صفات المؤمنين المخلصين الصادقين في إيمانهم أنهم يشتاقون للوحي، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة في الأمر به فرحوا بها وسارعوا إلى العمل بما فيها.

ثم أعقب ذلك بوصف حال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد دين الله وأهله، وذلك حين يدعى المسلمون إلى الجهاد فقد يضيق الأمر بالمنافقين، إذ كان تظاهرهم بالإسلام سيلجئهم إلى الخروج للقتال مع المسلمين، وذلك أمر ليس بالهين؛ لأنه تعرض لإتلافهم النفوس دون أن يرجو منه نفعًا في الحياة الأبدية؛ إذ هم لا يصدقون بها فيصبحوا في حيرة.

وقوله سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

﴿الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: تشخص أبصارهم من شدة فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت، ثم هددهم وتوعدهم فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين؛ إذ حياتهم ليست في طاعة الله فالموت خير منها، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك، فكأنه قيل: أهلكهم الله هلاكًا أقرب لهم من كل شر وهلاك، فهو نحو قولهم في الدعاء بعدًا له وسحقًا.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة لله وقول معروف أمثل لهم، وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل، وظل زائل، والآخرة خير لمن اتقى.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه خوفًا وفرقًا، ولو صدقوا في إيمانهم واتِّباعهم للرسول، وأخلصوا النية في القتال لكان خيرًا لهم عند ربهم؛ إذ ينالون به الثواب والزلفى عنده ويعطيهم ما تقر به أعينهم، ويدخلهم جنات النعيم[1].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠]: «وهو تعبير لا تمكن محاكاته، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع، والضعف إلى حد الرعشة، والتخاذل إلى حد الغشية، ويبقى بعد ذلك متفردًا حافلًا بالظلال والحركة التي تشغف الخيال

وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان، ولا بفطرة صادقة، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر، وهي طبيعة المرض والنفاق، وبينما هم في هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذي يقوي العزائم، ويشد القوائم، لو تناولوه في إخلاص: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢٠-٢١].

نعم، أولى لهم من هذه الفضيحة، ومن هذا الخور، ومن هذا الهلع، ومن هذا النفاق، أولى لهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة، وتنهض بأمره عن ثقة، وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب، وطهارة الضمير، وأولى لهم إذا عزم الأمر، وجد الجد، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله، يصدقوه عزيمة، ويصدقوه شعورًا، فيربط على قلوبهم، ويشد من عزائمهم، ويثبت أقدامهم، وييسر

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١١٧، تفسير المراغي ٢٦/ ٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٠٦.

المشقة عليهم، ويهون الخطر الذي يتمثلونه غولا تفغر فاها لتلتهمهم

ويكتب لهم إحدى الحسنيين: النجاة والنصر، أو الاستشهاد والجنة، هذا هو الأولى، وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان فيقوي العزائم ويشد القوائم، ويذهب بالفزع، ويحل محله الثبات والاطمئنان»[1].

### ٨. التشكيك في الغيبيات.

من أعراض مرض الشبهات التي ذكرها القرآن الكريم التشكيك في الغيبيات.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر:٣١].

أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم: فتنة الكافرين، فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم، وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يريد الله أن يهديه منهم، وزيادة الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به، وحيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:٢٦].

والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب، وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين، وغرضهم إنكاره أصلًا وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص، وهذه الآية من الإخبار بالغيب قبل الوقوع فهي من معجزاته صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أعلم بإعلام الله إياه بأنه سيكون منافقون يرتابون في هذا القرآن ويشككون فيه، لأن هذه السورة مكية بالاتفاق ولا يوجد زمن نزولها منافقون، والنفاق ظهر بالمدينة.

ولهذا جاء الفعل بلفظ المستقبل، ﴿كَذَلِكَ﴾ مثلما أضل الله منكري عدد الخزنة ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من غيرهم ممن اقتفى آثار الكفر وأعرض عن الإيمان ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن آمن به وصدق رسله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ الذين من جملتهم خزنة جهنم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحده؛ لأن ملائكته لا يحصون، وهذا كالجواب للخبيث أبي جهل؛ لقوله: «ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر» أي: له

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٦.

أعوان كثيرون لا يعلمهم إلا الله، فكما أن مقدراته غير متناهية فكذلك جنوده، وإن الواحد منهم كاف لخراب الدنيا بما فيها[1].

### ثانيًا: الوقاية منه:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما السبيل الوحيد للوقاية من مرض الشبهات وغيرها من الأمراض، وذلك أنهما يوضحان جميع الشبهات وينبهان عليها ويفضحان أصحابها، ويحذران المؤمنين من خطر الوقوع فيها، ويعملان على الوقاية منها قبل وقوعها.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].

أي: وننزل عليك أيها الرسول من القرآن ما به يستشفى من الجهل والضلالة، وتزول أمراض الشدة والنفاق، والزيغ والإلحاد، وهو أيضا رحمة للمؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، فيدخلون الجنة، وينجون من العذاب، والشفاء: أن تعالج داءً موجودًا لتبرأ منه، والرحمة: أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى.

فالرحمة وقاية، والشفاء علاج، إذن ففي القرآن شفاء ورحمة، أي: وقاية وعلاج، والذي يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبدًا، والذي تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعي والنفسي، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يشفى من أي داء.

وما دام القرآن كذلك فمن عمل بمنهجه فإنه يقيه كل أمراض النفاق والشبهات والأهواء التي تصيب القلوب، وفيه الثواب العظيم من الله تعالى، الثواب الخالد في نعيم دائم ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدًا عن الإيمان وازدادوا كفرًا بالله؛ لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقال جل في علاه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤- ١٢٥][2].

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٥٢، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٦٦، بيان المعاني، العاني ١/ ١١٠، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/ ١٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٥/ ٨٦، تفسير

## ثالثًا: عاقبته:

إن مرض الشبهات من أخطر الأمراض التي تصيب القلوب ويعسر علاجها، إلا من يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه، وقد نبه الله تعالى على عاقبة هذا المرض بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠].

ومرض القلب: هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار، وصحته أن يكون عارفًا بالحق محبًا له مؤثرًا له على غيره.

فهو في ازدياد مستمر حتى يدمر صاحبه، إذ لولا تدنس فطرتهم لازدادوا بما من الله تعالى به على المؤمنين شفاء، وإنما عدى سبحانه الزيادة إليهم لا إلى القلوب فلم يقل فزادها إما ارتكابا لحذف المضاف- أي: فزاد الله قلوبهم مرضا- أو إشارة إلى أن مرض القلب مرض لسائر الجسد، أو رمزًا إلى أن القلب هو النفس الناطقة ولولاها ما كان الإنسان إنسانًا، وإعادة مرض منكرا لكونه مغايرا للأول ضرورة أن المزيد يغاير المزيد عليه[1].

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: إن تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له كانت تتزايد فيهم بتزايد الأيام؛ لأن من شأن الأخلاق إذا تمكنت أن تتزايد بتزايد الأيام حتى تصير ملكات، وإنما كان النفاق موجبًا لازدياد ما يقارنه من سيئ الأخلاق؛ لأن النفاق يستر الأخلاق الذميمة فتكون محجوبة عن الناصحين والمربين والمرشدين، وبذلك تتأصل وتتوالد إلى غير حد، فالنفاق في كتمه مساوئ الأخلاق بمنزلة كتم المريض داءه عن الطبيب[2].

والمراد بقوله جل جلاله: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية، وإنما أسندت زيادة مرض قلوبهم إلى الله تعالى مع أن زيادة هاته الأمراض القلبية من ذاتها؛ لأن الله تعالى لما خلق هذا التولد وأسبابه، وكان أمرًا خفيًا نبه الناس على خطر الاسترسال في النوايا الخبيثة والأعمال المنكرة، وأنه من شأنه أن يزيد تلك النوايا تمكنًا من القلب فيعسر أو يتعذر الإقلاع عنها بعد تمكنها، وأسندت تلك الزيادة

---

الشعراوي ٦/ ٣٦٥٥.

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ١٥١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٧٩.

إلى اسمه تعالى؛ لأن الله تعالى غضب عليهم فأهملهم وشأنهم، ولم يتداركهم بلطفه الذي يوقظهم من غفلاتهم؛ لينبه المسلمين إلى خطر أمرها وأنها مما يعسر إقلاع أصحابها عنها؛ ليكون حذرهم من معاملتهم أشد ما يمكن، والأليم: المؤلم، أي: الموجع، و «ما» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مصدرية أي: بتكذيبهم للرسل[1].

كما أخبر الله تعالى المنافقين والمرضى والمرجفين أنهم إذا لم ينتهوا عن أعمالهم الخبيثة والقبيحة بعد أن فضحهم وأنذرهم، فإن عاقبة ذلك عليهم سيكون طردهم من المدينة، وإهدار دمائهم، وقتلهم بلا هوادة ولا رحمة ولا تسامح.

قال جل في علاه: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

أمر بتطهير البيئة المسلمة من الأخلاق التي تلوث المجتمع المسلم، فمعنى ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: نسلطك عليهم، ونغريك بمواجهتهم والتصدي لهم، فكأن هذه المواجهة صارت أمرًا محبوبًا يغرى به؛ لأنها ستكون جزاء ما فزعوك وأقلقوك، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في المدينة، وكلمة: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يمكن أن يكون المعنى: قليل منهم، أو قليل من الزمن ريثما يجدوا لهم مكانًا آخر، يرحلون إليه مشيعين بلعنة الله.

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ والملعون: المطرود من رحمة الله، أو مطرودون من المدينة بعد أن كشف الله دخائل نفوسهم الخبيثة، وهو مستعمل هنا كناية عن الإهانة والتجنب في المدينة، أي: يعاملهم المسلمون بتجنبهم عن مخالطتهم، ويبتعدون هم من المؤمنين اتقاء ووجلا فتضمن أن يكونوا متوارين مختفين؛ خوفا من بطش المؤمنين بهم حيث أغراهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ إيجاز بديع؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد؛ لأنهم كانوا من خبثهم ولؤمهم يدخلون المسجد، بل ويصلون في الصف الأول، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطردهم بالاسم: يا فلان، يا فلان، فكان صلى الله عليه وسلم يعرفهم، ولم لا وقد قال الله تعالى له: ﴿وَلَوْ

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٧٩.

نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ [محمد: ٣٠][١].

ومعنى ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وجدوا ﴿أُخِذُوا۟﴾ أي: أسروا ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ ولاحظ المبالغة في قوله: ﴿وَقُتِّلُوا۟﴾ والتوكيد في قوله: ﴿تَقْتِيلًا﴾ يعني: اقتلوهم بعنف، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاء ما ارتكبوه في حق الإسلام والمسلمين؛ ولأن المنافق الذي طبع على النفاق صارت طبيعته مسمومة ملوثة لا تصفو أبدًا، فالنفاق في دمه يلازمه أينما ذهب، ولا بد أن ينتهي أمره إلى الطرد من أي مكان يحل فيه.

وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم، إذ لم يحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدًا، ولا أنهم خرج منهم أحد، وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها؛ لأن إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردًا صالحًا، أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها.

وفيها الأمر بتأديب هذه الفئات إذا لم تنته عن أذاها وإرجافها بعد الإنذار، وهو الطرد وإهدار الدم والقتل دون هوادة وتسامح، وحكمها عام شامل ومستمر، وموكول لأولي الأمر في المسلمين، حيث توجب عليهم سلوك سبيل الشدة في القمع والتنكيل مع من لم يرتدع عن موقف الأذى والدس والإرجاف؛ لسلامة المجتمع وطمأنينته[٢].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١١٠، تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢١٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١١٠، تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢١٧٧، التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٤٢١.

## مرض الشهوات

سنتناول في هذا العنوان أعراضه، والوقاية منه، وعاقبته، وذلك فيما يلي:

### أولًا: أعراضه:

تظهر أعراض مرض الشهوات من خلال النقاط الآتية:

**١. الاستجابة لأدنى مثير.**

من أعراض مرض الشهوات التي ذكرها القرآن الكريم الاستجابة لأدنى مثير.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

يخبر القرآن الكريم أن مريض الشهوة وإرادة الفجور، يؤثر فيه أقل شيء من أسباب الافتتان ويوقعه في الفتنة طمعًا أو فعلًا، فكل من أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة، ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٧-٨][1].

وقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا والفجور، والمعنى: لا تقلن قولًا يجد به منافق أو فاجر سبيلًا إلى الطمع في موافقتكن به، فإنه مستعد ينظر أدنى محرك يحركه؛ لأن قلبه غير صحيح، فإن القلب الصحيح، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب؛ لصحة قلبه، وسلامته من المرض، بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد يدعوه إلى الحرام يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ملؤه الأدب والوقار حسنا في معناه، خشنا في مبناه، مقتصرًا على الجواب الكافي؛ لأن الزيادة ممنوعة كما أن اللين ممنوع، وإنما أمرهن الله بهذا؛ لئلا ينسبن لقلة الأدب وهن منبعه وعنهن يؤخذ[2].

**٢. إشاعة الفاحشة.**

من أعراض مرض الشهوات التي ذكرها القرآن الكريم إشاعة الفاحشة.

قال تعالى: ﴿۞ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦٠- ٦١].

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص٩٥.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٩، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.

يخبر تعالى المنافقين ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم أصحاب الشهوة الزناة الذين يتبعون النساء ويتعرضون لهن، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين، وقال الكلبي: كانوا يحبون أن يفشوا الأخبار، وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنأمرنك بإخراجهم من المدينة أو بقتالهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: لا يساكنون معك في المدينة وتخلو المدينة منهم بالإخراج أو بالموت ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا زمانًا يسيرًا[1].

## ثانيًا: الوقاية منه:

وللوقاية من مرض الشهوات أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم: بأن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين بفعل ما يدفع الإيذاء عنهن في الجملة، من التستر والتميز بالزي واللباس؛ حتى يبتعدن عن الأذى بقدر المستطاع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب:٥٩].

روي أنه لما كانت الحرائر والإماء في المدينة يخرجن ليلًا لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر، فإذا كلموا في ذلك قالوا: حسبناهن إماء، فطلب من رسوله أن يأمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر، لِيَتَمايَزْنَ ويُهَبْنَ، فلا يطمع فيهن طامع، كما نهاهن عن الخضوع بالقول عند مخاطبة الرجال الأجانب، وأمرهن بملازمة البيوت، ونهاهن عن التبرج عند الخروج من البيوت لحاجة تستدعي ذلك.

وهي تعليمات تؤدي إلى الوقاية من وقوع الفتنة، وما خالفتها النساء في مجتمع إلا فشت فيه الفاحشة.

وأرشدهن بعد ذلك إلى ملازمة القول المعروف عند مخاطبة الرجال الأجانب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبين سبحانه أن ذلك الترك لما نهى عنه، والفعل لما أمر به سبب لذهاب الرجس عنهن.

قال سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٦٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٤.

[الأحزاب:٣٢- ٣٣][1].

إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها، بحيث تغطي الجسم والرأس، ولا تبدى شيئًا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩] أي: ذلك التستر أقرب لمعرفتهن بالعفة فلا يتعرض لهن، ولا يلقين مكروها من أهل الريبة؛ احترامًا لهن منهم، فإن المتبرجة مطموع فيها، منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء، كما هو مشاهد في كل عصر ومصر، ولا سيما في هذا العصر الذي انتشرت فيه الخلاعة، وكثر الفسق والفجور[2].

## ثالثًا: عاقبته:

لقد حذر الله تعالى مرضى الشهوات بخطورة هذا المرض عليهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه، وأنذر فئات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة بأنهم إذا لم ينتهوا عما يبثونه من وساوس ودسائس ويوقعونه من أذى وقلاقل، فإن الله يغري نبيه بهم ويسلطه عليهم ويقدره على طردهم من المدينة مدموغين بدمغة اللعنة مهدوري الدم؛ ليقتلوا قتلا ذريعا بدون هوادة واستثناء وتساهل أينما وجدوا، وهذه هي سنة الله فيمن مضى من أمثالهم من الأمم وهي السنة التي لا تتبدل في حال.

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

فهؤلاء المنكوسين مطرودين من باب الله ومن باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومطرودين من أبواب المسلمين، تلاحقهم المذلة في كل مكان جزاء على حرصهم القبيح وحقدهم الدفين ونواياهم الخبيثة في زعزعة المجتمع المسلم وبث روح الانهزام فيه، وهذه هي السنة الجارية على مثل هؤلاء بلا رحمة ولا هوادة ولا تغيير ولا تبديل؛ لابتنائها على الحكمة والمصلحة، ولا يقدر غيره على تغييرها[3].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب:٦٠].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٦٣، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦٦٧.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٣٧.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٣٨، التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٤٢٠.

فكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي، سواء إبطان الكفر، أو الفسوق والعصيان، وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة، مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم[1].

## مرض الأبدان

تحدث القرآن الكريم عن الأمراض البدنية في النقاط الآتية:

### أولًا: ابتلاء:

أخبر الله تعالى عباده المؤمنين أنه مبتليهم ومختبرهم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس؛ ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

بينت الآية أن الدنيا دار بلاء؛ ليعلم المسلمين أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان، ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه، فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينًا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، وينْجَرُّ لهم من ذلك ثواب؛ ولذلك جاء بعده ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ فمن صبر فله الثواب ومن جزع فله العقاب، ومن أنواع الابتلاء والاختبار ﴿الْخَوْفِ﴾ وهو الخوف الذي أصابهم يوم الخندق، حتى بلغت القلوب الحناجر ﴿وَالْجُوعِ﴾

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١١٢.

وهو القحط الذي أصابهم، فكان يمضي على أحدهم أيامًا لا يجد طعامًا ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ يعني: ذهاب أموالهم، ويقال: موت الماشية ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ يعني: الموت والقتل والأمراض في البدن، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، يعني الجوائح، وأن لا تخرج الثمرة كما كانت تخرج، ثم ختم الآية بتبشير الصابرين؛ ليدل على أن من صبر على هذه المصائب كان على وعد الثواب من الله تعالى[1].

قال الخازن: «فإن قلت: ما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؟ قلت: فيه حكم:

منها: أن العبد إذا علم أنه مبتلى بشيء وطن نفسه على الصبر، فإذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع.

ومنها: أن الكفار إذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم، ثابتين عند نزول البلاء، صابرين له، علموا بذلك صحة الدين، فيدعوهم ذلك إلى متابعته والدخول فيه.

ومنها: أن الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء قبل وقوعه، فإذا وقع كان ذلك إخبارًا عن غيب فيكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها: أن المنافقين إنما أظهروا الإيمان طمعًا في المال وسعة الرزق من الغنائم، فلما أخبر الله أنه مبتلى عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ومنها: أن الإنسان في حال الابتلاء أشد إخلاصا لله منه في حال الرخاء، فإذا علم أنه مبتلى دام على التضرع والابتهال إلى الله تعالى؛ لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء»[2].

وقال سيد قطب: «ولا بد من تربية النفوس بالبلاء؛ ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة؛ كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى.

فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرًا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢١٩، تفسير السمرقندي ١/ ١٠٥، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٥١٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٥٤.

(٢) لباب التأويل ١/ ٩٤.

هذا البلاء، ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجًا.

ولا بد من البلاء كذلك؛ ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى، ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله، الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأَسْنَادُ كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سندًا إلا سنده، وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح»[(١)].

## ثانيًا: التخفيف والتيسير في الأحكام الشرعية:

ذكر القرآن الكريم أن الأمراض البدنية سبب من أسباب التخفيف والتيسير في الأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣].

بينت الآيات أن الفطر مباح للمريض؛ لعذر المرض، والمسافر؛ طلبا لحفظ صحته وقوته؛ لئلا يذهبه الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفظا لصحته وقوته عما يضعفها، وللمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة، وبهذا قال الجمهور، وأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرهما، أن يحلق رأسه في الإحرام[(٢)].

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٤٥.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧،

والسفر المبيح للإفطار عند الجمهور: هو مسافة قصر الصلاة الرباعية، وقدره ستة عشر فرسخًا أو ثمانية وأربعون ميلًا هاشمية، أو مسيرة يومين معتدلين أو مرحلتين بسير الأثقال ودبيب الأقدام، والبحر كالبر، وقدروها بحوالي (٨٩) كم، وعند الحنفية: هو قدر ثلاث مراحل أو أربع وعشرين فرسخًا، أو مسيرة ثلاثة أيام سيرًا وسطًا، وهو سير الإبل، والأقدام في البر، وسير السفن الشراعية في البحر، ويكتفون بسير معظم اليوم، وقدروه ب (٩٦) كم.

والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذي يباح عنده الإفطار، وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة واختلفوا في الأسفار المباحة- والحق أن الرخصة ثابتة فيها- وكذا اختلفوا في سفر المعصية وليس في الآية أعني قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ما يدل على وجوب التتابع في القضاء[١].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ المراد مرض يقتضي الحلق سواء كان المرض بالجسد أم بالرأس، وقوله جل وعلا: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كناية عن الوسخ الشديد والقمل؛ لكراهية التصريح بالقمل، وكلمة (من) للابتداء، أي: أذى ناشئ عن رأسه، وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك.

فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: **(كان بي أذى من رأسي، فحملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي، فقال: (ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ منك ما أرى، أتجد شاة) ؟ قلت: لا. فنزلت الآية:** ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ **قال: (هو صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين نصف صاع طعامًا لكل مسكين)**[٢][٣].

---

محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٢٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٩، الإعجاز البياني للقرآن، بنت الشاطئ ص ٥٧٨.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧، نيل المرام، محمد صديق ص ٣٣، التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم ١٨١٦، ٣/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، رقم ١٢٠١، ٢/ ٨٦١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٢٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٩، الإعجاز البياني للقرآن، بنت الشاطئ ص ٥٧٨.

## الشفاء من الأمراض

سيشتمل هذا العنوان على حكمة إسناد الشفاء إلى الله تعالى، وأدوية قرآنية، وذلك خلال ما يلي:

### أولًا: حكمة إسناد الشفاء إلى الله تعالى:

أسند الشفاء إلى الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء:٨٠] لسببين هما:

**الأول:** لو جاء والذي يطعمني ويسقين، وإذا مرضت يشفين؛ لكان معلومًا أن مراده الله تعالى، وذكر «هو» توكيدًا لمعنى الكلام، وتخصيص الفعل به دون غيره، واحتاج ذكر الإطعام والشفاء إلى هذا التوكيد؛ لأنهما مما يدعي الخلق فعله، فيقال: فلان يطعم فلانًا، والطبيب يداوي، ويسبب الشفاء، فكانت إضافة هذين الفعلين إلى الله تعالى محتاجة إلى لفظ التوكيد؛ لما يتوهم من إضافته إلى المخلوق إلى ما لا يحتاج إليه[١].

**الثاني:** لأنه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظًا للأدب وإن كان الكل مضافٌ إليه، ونظيره قول الخضر عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢][٢].

### ثانيًا: أدوية قرآنية:

١ ـ القرآن.

إن القرآن الكريم شفاء ورحمة.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].

أي: يستشفى به من الجهل والضلالة، ويذهب ما في القلوب من الأمراض من الشك والنفاق والشرك والزيغ والميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان، والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن، والشفاء: أن تعالج داءً موجودًا لتبرأ منه، والرحمة: أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى، فالرحمة وقاية، والشفاء علاج، وما دام القرآن كذلك فمن

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي ١/ ٩٦٧، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٣٧٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٣٤٧، بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢١٥، الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر ١/ ١٧٨.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

عمل بمنهجه فإنه يقيه كل أمراض النفاق والشبهات والأهواء التي تصيب القلوب، وفيه الثواب العظيم من الله تعالى، الثواب الخالد في نعيم دائم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدًا عن الإيمان وازدادوا كفرا بالله؛ لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

أي: دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان، كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك، بتعليم الحقائق والحكم الموجبة لليقين، والتصفية والتهيء لتجليات الصفات الحقة ﴿وَهُدًى﴾ لأرواحكم إلى الشهود الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بإفاضة الكمالات اللائقة بكل مقام من المقامات الثلاثة بعد حصول الاستعداد في مقام النفس بالموعظة، ومقام القلب بالتصفية، ومقام الروح بالهداية للمؤمنين بالتصديق أولًا، ثم باليقين ثانيًا، ثم بالعيان ثالثًا.

وذكر بعضهم الموعظة للمريدين، والشفاء للمحبين، والهدى للعارفين، والرحمة للمستأنسين، والكل مؤمنون إلا أن مراتب الإيمان متفاوتة، والخطاب في الآية لهم، وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر، ويقال: إنه سبحانه بدأ بالموعظة لمريض حبه؛ لأنها معجون لإسهال شهواته، فإذا تطهر عن ذلك يسقيه شراب ألطافه، فيكون ذلك شفاء له مما به، فإذا شفي يغذيه بهدايته إلى نفسه، فإذا كمل بصحبته يطهره بمياه رحمته من وسخ المرض ودرن الامتحان.

ووصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد، وأي تأكيد لثمرة التداوي به[(٢)].

وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها: **(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده**

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٢، تفسير المراغي ١٥/ ٨٦، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧١٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٢، تفسير المراغي ١٥/ ٨٦، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧١٢، روح المعاني، الألوسي ٦/ ١٦٥، دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي ص ٥٩.

رجاء بركتها)[1].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

«وفي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح وطمأنينة وأمان، في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ويرضى، فيستروح الرضا من الله والرضا عن الحياة، والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان، وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير، فهو يعصم العقل من الشطط، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، يجعل نشاطه منتجًا ومأمونًا، ويعصمه من الشطط والزلل.

وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط، فيحفظه سليمًا معافى، ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين، وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها، فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين»[2].

٢. العسل.

ذكر القرآن الكريم الدواء في العسل، قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨- ٦٩].

بينت الآية أن العسل فيه شفاء للناس؛ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠١٦، ٦/ ١٩٠ كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، رقم ٢١٩٢، ٤/ ١٧٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٨.

فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: (أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتى الثانية، فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتاه الثالثة فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتاه فقال: قد فعلت؟ فقال: (صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا) فسقاه فبرأ)[1][2].

## أثر انتشار الأمراض في المجتمع

لم يقتصر سوء خلق المنافقين على أنفسهم وتكوينهم القبيح، وإنما تعدى ضررهم وقبح أخلاقهم إلى المجتمع، بقصد هدم بنيته وتقويض وجوده من طريق ترويج الرذيلة والمنكر، ومحاربة الفضيلة والمعروف.

قال الله تعالى مبينًا تحركات المنافقين في هدم القيم الإنسانية: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة:٦٧- ٦٩].

ومطلع الآيات إخبار وحكم من الله تعالى بأن المنافقين والمنافقات بعضهم يشبه بعضًا في الحكم والمنزلة من الكفر، وفي صفة النفاق والبعد عن الإيمان، وفي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، رقم ٥٦٨٤، ٧/ ١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب التداوي بسقي العسل، رقم ٢٢١٧، ٤/ ١٧٣٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٩، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٢٢.

الأخلاق والأعمال، فهم سلالة خبيثة يأمرون بهدم قيم المجتمع، يأمرون الناس بالمنكر: وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه، واستقبحه العقل السليم والعرف الصحيح، كالكذب والخيانة ونقض العهد وخلف الوعد.

وينهون الناس عن المعروف: وهو كل ما أمر به الشرع وأقره العقل والطبع السليمان كالجهاد وبذل المال في سبيل الله، وأهل النفاق أيضا قوم بخلاء، يقبضون أيديهم عن الإنفاق لمصلحة عامة أو عن الجهاد، وعن كل ما يرضي الله، ونسوا ذكر الله، وأغفلوا تكاليف الشرع، مما أمر الله به ونهى عنه، فنسيهم الله، أي: جازاهم بمثل فعلهم، وعاملهم معاملة المنسيين، بحرمانهم من لطفه ورحمته، والنفاق أقتل داء يصيب المجتمع الإنساني، فإذا تفشى هذا الداء الخبيث في جماعة من الجماعات فسد وجودها، وضل سعيها، وغشيتها أمواج الفتن، واشتملت عليها عواصف العداوة والبغضاء!

وماذا يرجى من جماعة تتعامل فيما بينها بالرياء والنفاق، فيضيع في محيطها المفهوم الحقيقي للغة، وتصبح الكلمات لديها عملة زائفة، يتداولها الناس كما يتداولون الأشياء المسروقة؟

وواجب الفرد المسلم تجاه كل هذا أن يتحمل مسؤوليته بالعمل على إصلاح المجتمع، وإزالة الفساد منه على قدر طاقته ووسعه مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

المؤمنون نقيض المنافقين يأمرون بالمعروف الذي أقره الشرع، وهو عبادة الله وتوحيده وتوابع ذلك، لا بالمنكر الذي نهى عنه الشرع، وينهون عن المنكر الذي يفسد ويضر، ويمزق ويفرق بين الأخ وأخيه، وهو عبادة الأوثان وتوابعها، ويقيمون الصلوات الخمس المفروضة على الوجه الأكمل بقلوب خاشعة، وعقول واعية، وأفئدة ذاكرة، ويؤتون الزكاة الواجبة مع التطوع بالصدقات والنوافل لتحسين أوضاع المجتمع وترقية أحواله، ويطيعون الله ورسوله في جميع المأمورات والمندوبات.

أولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، ستغمرهم رحمة الله وفضله في الدنيا والآخرة، والتعبير بالسين في قوله

تعالى: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾، إعداد النفوس للتهيؤ والتنعم برجاء الله والثقة بوعده وفضله، ووعد الله ناجز، والله متكفل بإنجازه، والله قوي لا يغلب، ولا يمتنع عليه شيء من وعد ولا وعيد، حكيم يضع الأمور في موضعها المناسب على وفق العدل والحكمة والصواب(١).

إن المنافقين قوم برزوا في إظهار مرض القلب الذي ينشأ عنه كل إثم وفسوق وعصيان، وخاصة تتبع النساء والتعرض لهن بالسوء، وإغرائهن على الفاحشة، وفيهم قوم برزوا في الإرجاف وإذاعة السوء، وإذاعة الأكاذيب التي تفت في عضد الجماعة، وتقتل فيهم روح الإقدام، وكانوا ينتهزون فرص الحرب والقتال، فيذيعون كل ضار ومفسد(٢).

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠].

فكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي، سواء إبطان الكفر، أو الفسوق والعصيان وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن، والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة، مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم(٣).

ويلاحظ أيضًا أن الأوصاف الثلاثة: وهي النفاق، ومرض القلب، والإرجاف موجودة كلها في المنافقين، وهم خطر على الأمة في عقيدتها، وفي سلمها وحربها، فهم كالسوس ينخر في جسم الأمة، وهم في السلم جرثومة فتك وأداة تخريب وتفريق، وفي الحرب أداة إضعاف وإشاعة السوء، وزعزعة المقاتلين، وهم في الواقع عون للأعداء على المسلمين، مما يجب التخلص منهم، وعقابهم أشد العقاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء ١٤٥](٤).

## موضوعات ذات صلة:

الضعف، النفاق، الوهن

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٩٣٢، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٨٨٤، ٨٨٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ١١٨.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١١٢.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٨.











عناصر الموضوع


| | |
|---|---|
| التعريف بمريم عليها السلام | ٣٥٦ |
| مواضع القصة في القران | ٣٥٧ |
| أم مريم | ٣٦٠ |
| كفالة زكريا عليه السلام | ٣٦٣ |
| اصطفاء الله تعالى لمريم | ٣٦٥ |
| بشارة مريم | ٣٦٨ |
| حمل مريم بعيسى عليهما السلام | ٣٧٤ |
| اتهام اليهود لمريم | ٣٧٧ |
| نبوة مريم عليها السلام | ٣٨١ |
| ضلال بعض طوائف النصارى في مريم | ٣٨٣ |
| الدروس المستفادة من قصة مريم | ٣٨٥ |

## التعريف بمريم عليها السلام

هي مريم بن عمران، وهو من نسل داود عليه السلام، ويرجع أصله إلى إبراهيم عليه السلام، وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه[(١)].

وكان رجلًا صالحًا، وكانت له زوجة صالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفية مطيعة لزوجها، ومطيعة لربها، « واختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض »[(٢)].

وذكر ابن كثير نقلًا عن ابن عساكر نسب مريم إلى داود عليه السلام، قال: « ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقوذ بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع، فالله أعلم»[(٣)].

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ آل عمران:٣٣-٣٤].

هاتان الآيتان الكريمتان تمهيد للحديث عن مريم رحمها الله، وابنها نبى الله عيسى عليه السلام، وبيان أنه بشر رسول خلقه الله -عز وجل- من أم دون أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ومن غير أم. وفى ذلك رد على النصارى الذين زعموا كذبا وزورا أن عيسى إله وابن إله، وهاتان الآيتان الكريمتان جزء من الآيات التى نزلت لترد على كثير من مزاعم النصارى، وذلك أن وفدًا من نصارى نجران جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى المدينة فأحسن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استقبالهم وأكرم نزلهم ودار حوار بينه وبينهم أقام فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حججا ظاهرة وأدلة دامغة تدحض مزاعمهم وتدل على فساد معتقداتهم، وأنزل الله تعالى فى هذا الشأن صدر سورة آل عمران[(٤)].

وآل عمران من الذين اصطفاهم الله، وهم من آل إبراهيم، وخصوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، تشريفًا وتكريمًا، وتمهيدا للحديث عنهم بشيء من التفصيل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٨.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٥٨.
(٣) البداية والنهاية ٢/ ٥٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٨، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٥٨.

## مواضع القصة في القرآن

وردت قصة مريم الصديقة رضي الله عنها في سور كثيرة ولمناسبات متعددة نذكر منها ما يلي:

في سورة آل عمران: ورد الحديث عنها في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنه بَشَرٌ رَسُولٌ خلقه الله -عز وجل- من غير أبٍ، كما خلق آدم من غير أب ولا أُمٍّ.

قال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعيسى عليه السلام فرعٌ طيب من شجرة طيبة مباركة، فأمه مريم رضي الله عنها خير نساء العالمين، اصطفاها الله تعالى وطهرها وآثرها وأنعم عليها بنعم كثيرة وأكرمها بكرامات ظاهرة، وأمها امرأة صالحة صادقة وفية تقية، نذرت حملها لله تعالى محررا فتقبل الله منها نذرها.

وأبوها عمران -عليه السلام- العابد والحبر الزاهد صاحب المكانة السامية في قلوب العباد المخلصين الذين تسابقوا وتنافسوا على كفالة مريم -رضي الله عنها- تقربا إلى الله تعالى، ووفاء وعرفانا وبرا وإحسانا إلى معلمهم وإمامهم عمران عليه السلام الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته مريم رضي الله عنها، التي خلدت ذكره في العالمين، وسميت هذه السورة بهذا الاسم تكريما لعمران عليه السلام ولأصله الطاهر ولذريته الصالحة الطيبة.

ويأتي ذكر جانب آخر من قصة مريم رضي الله عنها في سورة تحمل اسمها تكريما لها وهى سورة مريم التي ورد فيها الحديث عن مجيء جبريل -عليه السلام- لها في صورة بشرية وهى في خلوتها تعبد الله عز وجل، واستعاذتها بالله -تعالى- منه، وإخباره إياها بحقيقته ومهمته التي كلفه الله بها والتي جاء من أجلها، وتعجبها من تلك البشارة العجيبة وجواب جبريل -عليه السلام- على استفهامها التعجبي، ونفخه فيها وحملها بعيسى عليه السلام ومدة الحمل وساعة المخاض، تلك الساعة العصيبة العسيرة التي مرت بمريم النذيرة، والتي تمنت الموت من شدة ما مر بها، ومولد عيسى عليه السلام، وما صحبه من رحمات ونفحات وإرهاصات، وقدوم مريم إلى قومها ومعها وليدها عيسى عليه السلام وموقفهم من ذلك ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد.

وتأتي إشارة لمريم في سورة المائدة فيها منقبة عظيمة لها.

قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

فذكر الله تعالى صفة كريمة من صفات مريم وهي الصدق، والصديقية مقام من أسمى المقامات، فالنبوة أعظم درجات الكمال في الرجال، والصديقية تأتي في المرتبة الثانية بعد النبوة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وفي سورة الأنبياء يرد ذكرها رضي الله عنها وابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بأنبيائه وأصفيائه.

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال صاحب الظلال: «ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عيسى عليه السلام، وقد جاءت تبعا له في السياق، وإنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أحصنته فصانته من كل مباشرة والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية؛ لأن الزواج يُحَصِّنُ من الوقوع في الفاحشة، أما هنا فيذكر في معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود»[(١)].

كما يأتي ذكرها رضي الله عنها في سورة المؤمنون مع ابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن رحمة الله بأنبيائه وعنايته بهم وحفظه لهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

جعلهما الله آية للناس تدل على قدرته تعالى ورعايته لأنبيائه وأوليائه، وآواهما إلى ﴿رَبْوَةٍ﴾: مكان مرتفع من الأرض، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستوية وصالحة للعيش عليها وذات خصبٍ، وماء طيبٍ جارٍ تراه العيون، وهو بيت المقدس[(٢)].

ويتكرر ذكرها أيضا في سورة التحريم مع آسية بنت مزاحم كمثل طيب ونموذج رائع،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٨.



وصورة مشرقة متألقة للمرأة الصالحة الصادقة المؤمنة المحسنة التقية النقية، بعد أن ضرب الله تعالى مثلا للمرأة الكافرة فيكون ذكرها وقبلها آسية رضي الله عنهما مسك الختام لهذه السورة الكريمة التي استفتحت بالحديث عن أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

## أم مريم

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

بدأت قصة مريم رضي الله عنها في بيت صالح هو بيت أبيها عمران ذلك التقى النقي الذي أكرمه الله عز وجل بزوجة طية صالحة، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ومن ثمراته الطيبة: مريم رضي الله عنها، ربيبة بيت الطهر والعفاف وسليلة آل العلم والعبادة.

وكانت امرأة عمران رضي الله عنها تدعو المولى عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا تقر به عينها وتبتهج به نفسها وينشرح له صدرها، فلما تحرك الحمل في أحشائها نذرت ما في بطنها محررًا أي خالصا لوجه الله تعالى منقطعا لعبادته وخدمة بيت المقدس، أملا ورجاء أن توهب ذكرا يحمل اسم زوجها عمران ويخلفه في الفضل.

طلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولا حسنا.

### أولًا: حملها ونذرها

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

أجاب الله دعاء امرأة عمران، تلك المرأة الصابرة الصادقة الصالحة التي توجهت إلى المولى عز وجل بالدعاء والرجاء أن يرزقها الولد الصالح، فاستجاب الله لها، وآتاها سؤلها، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها، فأشرقت الدنيا في عينها وغمرتها وزوجها نشوة من السرور.

فالبنون قرة العيون، وثمرة الفؤاد، وبهجة النفوس وريحانة القلوب وفلذات الأكباد.

ولكن لم تطل فرحتها ولم تتم بهجتها فلقد مات زوجها عمران عليه السلام، وقد كانت تتمنى بقاء زوجها حتى ينعم برؤية فلذة كبده وتكتحل عيناه برؤية ولده، ويشاركها فرحتها، ولكن قضاء الله حل، ولقد استقبلت هذه الأمور بالصبر الجميل، والإيمان واليقين، فلما تحرك الحمل فى أحشائها نذرت ما فى بطنها محررا أى خالصا لوجه الله تعالى منقطعا لعبادته، والمحرر هو الخالص ومنه: الذهب الحر: أى الخالص من الشوائب، وطلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولا حسنا، فهو تعالى سميع لقولها مجيب لدعائها وتضرعها عالم

بحالها ونيتها[1].

## ثانيًا: وضعها ووفاؤها بنذرها

ومضت الأيام وجاءت ساعة الوضع، ووضعت امرأة عمران وليدها فإذ به أنثى، فتبادر إلى الاعتذار لربها، لأنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكرا لتهبه لخدمة بيت المقدس كما نذرت، والأنثى لا تصلح لهذه المهمة، كما جرت العادة بذلك، فتوجهت امرأة عمران إلى ربها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال ابن كثير: « وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم»[2].

أدركت امرأة عمران أن لله في ذلك حكمة يعلمها، فالله -عز وجل- يدبر أحوال الخلق وفق قدرته وإرادته وعلمه وحكمته، ولعل هذه الأنثى عند الله خير من الذكر؛ لأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه، فهو سبحانه لا يقع في سلطانه إلا ما أراده، لكن المولى جل وعلا يعلم مكانة هذه المولودة وقدرها، فهي سيدة نساء العالمين، اصطفاها الله وطهرها، واجتباها وآثرها، وجعلها وابنها آية للعالمين.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: قالت امرأة عمران معتذرةً لربها: وليس الذكر الذي طلبته ونذرته كالأنثى التي وضعتها، فالذكر يتمكن من الوفاء بالنذر بخدمته في المسجد، أما الأنثى فإنها لا تقدر على القيام بما يقوم به الذكر، كما أنه يعتريها من الأحوال ما يَحُوْلُ بينها وبين البقاء في المسجد، وذلك حين يأتيها الحيض، أو النفاس عند الولادة، فضلا عن تفاوتهما في القوة والجلد.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ انفردت امرأة عمران بتسمية مريم وما ذلك إلا لوفاة زوجها عمران عليه السلام أثناء حملها، وسمتها مريم تقربا إلى المولى عز وجل بهذه التسمية الحسنة، فمريم -رضي الله عنها- تعنى في لغتهم: العابدة والخادمة، وللاسم علاقته بالمسمى، فهي ترجو أن يكون لها حظ وافر من اسمها[3].

وفى هذه التسمية إشارة إلى عزمها على إمضاء نذرها، ورجائها أن يكون عند الله مقبولا.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: تضرعت امرأة عمران لربها أن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٤٩.

(٣) قال القاسمي في محاسن التأويل ٤/ ٩١: قال المفسرون هي في لغتهم بمعنى العابدة، سمتها بذلك رجاء وتفاؤلا أن يكون فعلها مطابقا لاسمها.
وقال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٥٤١: (مريم) بالسريانية تعني: الخادم.

يقبل وليدتها ويجعلها مباركة، ويحفظها من الشيطان الرجيم، فالمولى عز وجل خير حافظ، وهو سبحانه أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

وسر تكرار ﴿إِنِّي﴾ هنا للتأكيد، ولتغير المخبر به، ولأنه قد يشعر كلامها السابق أنها كارهة لما جاءها، فأكدت في كلامها هذا؛ إظهارا لرضاها بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدال على الرضا والمحبة [(١)] ولقد جاءت أفعال ثلاثة بصيغة الماضي ﴿نَذَرْتُ﴾ ﴿وَضَعَتْهَا﴾، ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ للدلالة على التحقق والثبوت وفي التعبير بـ ﴿نَذَرْتُ﴾ و ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ ما يفيد عزمها ومضيها على الوفاء بما نذرت به بلا تردد ولا تراجع، وفي التعبير بـ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾ ما يدل على التجدد والاستمرار المستفاد من التعبير بالفعل المضارع، لأن الاستعاذة مطلوبة في كل وقت وحين [(٢)].

## ثالثًا: تقبل الله تعالى نذرها

بعد هذه المناجاة الصادقة، والدعوات الخالصة من امرأة عمران رضي الله عنها والتي طلبت من ربها أن يتقبل منها نذيرها، وأن يبارك لها في وليدتها ويعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، أجاب الله لها الدعاء وحقق لها الرجاء، وكانت الإجابات الإلهية والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة، حيث تقبلها ربها قبولا حسنا، وأنبتها نباتا حسنا حتى نمت وترعرعت وأزهرت وأينعت، وأثمرت كلمة من الله وروحا منه هو عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام، الذي جعله الله وأمه آية للعالمين.

قال عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ والفاء هنا للتعقيب، لبيان سرعة استجابة المولى عز وجل لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها، فهو عز وجل من المؤمن قريب ولدعائه مجيب.

وقال ﴿بِقَبُولٍ﴾ ولم يقل (بتقبل)؛ «للجمع بين الأمرين: التقبل الذى هو الترقى في القبول، والقبول الذى يقتضي الرضا والإثابة» [(٣)]، هذا مع معهود القرآن الكريم في عذوبة الألفاظ وسلاستها.

﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: مع قبولها عند الله قبولا حسنا، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتا حسنا، فجمعت بين كمال الخلقة وجمال الخلق، وحسن التربية.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٤.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٣٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٢.

## كفالة زكريا عليه السلام

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

قيض الله تعالى لمريم نبيه زكريا عليه السلام ليتعهدها ويرعاها، ويعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة، وقد تمت تلك الكفالة بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافس الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم، كلٌّ يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف وأن يحظى بذاك المقام، فمريم -رضي الله عنها- بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته، وحرصًا على هذا الشرف، ووفاء للمعلم والمربي والمصلح، وكان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصام على كفالة مريم رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فلقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة، ولما لم تجتمع لهم كلمة، ولم يتفق لهم رأي، فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه المكرمة، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم، فمن فاز في القرعة فقد فاز بكفالة مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، قال ابن عباس اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية وعال قلم زكريا الجرية فكفلها زكريا [1].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ لم يحمله إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره؛ فهو القائم على كفالتها، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه، وهذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات ٢/ ٩٥٣.

الرزق الرباني يشمل غذاء الأجساد وغذاء الأرواح، فهو يشمل الطعام والشراب، وغير ذلك من ضرورات الحياة، من كل ما ينتفع به الإنسان وما يحصله، كما أنه يشمل: غذاء الأرواح من علم وغيره، فهو أعم من الفاكهة في غير حينها المعهود؛ ولذلك جاء بصيغة التنكير التي تفيد التعظيم والتعميم والتكثير، فهو رزق حسي ورزق معنوي، وهذا الرزق كرامة من سلسلة الكرامات التي أظهرها الله لمريم، وتمهيدًا للآية العجيبة التي تنتظرها، وهي خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فالكرامة تكريم لها وتشريف وتمهيد وإعداد لها، حتى تكون مهيأة لما ينتظرها من كرامةٍ.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

سأل زكريا مريم متعجبًا ومنبهرًا بما يقع لها، سألها وقال لها من أين لك هذا؟ وكيف وصل إليك ولا يدخل عليك غيري؟

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فعطاء الله ممدود، لا تحده حدود، ولا تقيده قيود، وفضل الله عظيم وخزائنه ملأى، فالله سبحانه يعطى العبد من حيث لا يحتسب العبد.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: نبي الله زكريا عليه السلام بلغ من الكبر عتيًا، وزوجه كانت لا تلد، فأسلمت أمرها لله ورضيت بقضاء الله، وعاشت مع زوجها حياة هادئة هانئة، ولقد أكرم المولى عز وجل زكريا عليه السلام بإكرامه لمريم تلك اليتيمة صاحبة المنزلة العظيمة، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سببًا مباشرًا في توجه زكريا عليه السلام إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت الذي رأى فيه الفاكهة في غير حينها، تعلق رجاؤه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه، تقر به عينه، وينشرح به صدره ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

## اصطفاء الله تعالى لمريم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

عودٌ إلى مريم رحمها الله وإلى اصطفاء الله، عز وجل لها، (وإذ) معطوف على ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ﴾ والمعنى: اذكر يا محمد إذ قالت امرأة عمران رحمها الله واذكر أيضا ما قالته الملائكة لمريم رحمها الله من بشارات، ففي هذه القصة عبر وعظات ينبغي أن يتذكرها المؤمن، ويستفيد منها، ويذكر الناس بها.

والاصطفاء: الاختيار والانتقاء والتصفية.

ومعنى اصطفاء الله تعالى مريم رضي الله عنها: جعلها من بيت صالح، وقبلها قبولا حسنًا، وأنبتها نباتًا حسنًا، وجعل زكريا عليه السلام لها كافلًا، وأجرى الكرامة على يديها إكرامًا لها وإحسانًا إليها، وطهرها من كل سوء، طهرها بالإيمان والطاعة والتقى والصلاح، والحياء والعفاف، فهي رضي الله عنها العفيفة الشريفة الحيية النقية الراضية المرضية، واصطفاها تعالى اصطفاءً خاصًا بأن أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والآية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أبٍ ليكون آيةً للعالمين[1].

وطهرك: من الأدناس والأقذار، ونزهك عن الأخلاق الذميمة والطباع الرديئة بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: اصطفاء بعد اصطفاء، والاصطفاء الثاني هو أنه عز وجل أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والآية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أبٍ ليكون آية للعالمين[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقيل: إن الاصطفاء الثاني هو عين الأول، وكرر للتأكيد وبيان من اصطفاها عليهن، ذكر ذلك الألوسي، وقال: ولعل الأول أولى؛ لما أنَّ التأسيس خير من التأكيد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٣، روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ٣٢، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٣ روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٦.

(حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)[1].

مقتضيات الاصطفاء: قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى عز وجل بها مريم: يأمرها سبحانه - عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها - بأن تجتهد في العبادة شكرًا لله عز وجل على هذه النعم والمواهب؛ ومواصلةً للسير في طريق الهدى والصلاح.

قال الرازى: «لما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب والعطايا من الله تعالى، أوجب عليها مزيدًا من الطاعات شكرًا لتلك النعم السنية»[2].

والقنوت لزوم الطاعة والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخشوع والخضوع لله رب العالمين[3].

وقال الألوسى: «والتعرض لعنوان الربوبية؛ للإشعار بعلة وجوب الامتثال لأوامره سبحانه»[4].

وتكرير النداء ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ للتنبيه، والإشارة إلى أهمية ما يرد فى ثناياه وفيه تكريم لها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: إن حملنا القنوت على مطلق الطاعة والعبادة، فالسجود والركوع من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية والاهتمام، وإن حملنا القنوت على القيام، فالركوع والسجود من تتمة الأركان؛ لأن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود، وإن حملنا القنوت على الإخلاص وعلى الخشوع والخضوع، فالركوع والسجود من الأفعال الظاهرة، والإخلاص والخشوع والخضوع من الأفعال الباطنة، ولا تستقيم العبادة إلا بصحة الظاهر وصلاح الباطن.

وفي هذا توجيه لمريم رضي الله عنها أن تجمع بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح، حتى يستوي الظاهر بالباطن، ويستقيم الاعتقاد مع القول والعمل.

والآية الكريمة أمر من المولى عز وجل لمريم رضي الله عنها أن تجتهد في العبادة وأن تداوم على الطاعة وتطيل في القنوت، وتكثر السجود وتركع مع الراكعين؛ حتى تزداد قربًا من رب العالمين.

وجاء التعبير ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل مع الراكعات «لأن هذا الجمع أعم، إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل خديجة، ٥/ ٦٦٠، رقم ٣٨٧٨. قال الترمذي: حديث صحيح.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٤.

(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٤١٣.

(٤) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي»[1].

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾: ذلك: إشارة إلى ما سبق ذكره من أخبار عن اصطفاء الله للأنبياء وخبر امرأة عمران وابنتها، وخبر زكريا ويحيى عليهما السلام، وغير ذلك من الأخبار التي جاءت بها السورة الكريمة.

إن كثيرًا من الأحداث الهامة في حياة مريم رضي الله عنها لم نعرفها إلا عن طريق القرآن الكريم، من ذلك حديث القرآن عن حمل أمها بها ونذرها للعبادة، و تنافس الأحبار على كفالتها، وكفالة زكريا لها، واصطفاء الله تعالى لها، وغير ذلك من مآثرها التي لم نعرفها إلا عن طريق القرآن، إذ لم يرد لهذه الأحداث ذكر في العهد الجديد.

ولم يرد في « العهد الجديد » أيضًا كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، مع كونه آية عظيمة وحجة ساطعة على براءة مريم رضي الله عنها مما ادعاه اليهود.

بل إن أغلب الذي في العهد الجديد عن مريم فيه تقليل من شأنها وتجاهل لكراماتها، من ذلك على سبيل المثال:

- في إنجيل مرقس إصحاح ٣: ٣١/ ٣٥ ما يفيد تجاهل المسيح لمريم وإخوته وفيه: «وجاء حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجًا، وأرسلوا إليه يدعونه، وكان الجميع جالسا حوله، فقالوا له: هوذا أمك وإخوتك خارجا يطلبونك ؟ فأجابهم قائلا من أمي وإخوتي ؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي » • وورد فى إنجيل لوقا إصحاح ٨/ ١٩، ٢٠ نفس الموقف ويلاحظ من كلمة: من أمى وإخوتى ؟ مدى تجاهله لأمه وإخوته وضيقه بهم •
- في إنجيل مرقس إصحاح ٦: ٢/ ٥: «ولما كان السبت ابتدأ يعلم فى المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين من أين لهذا هذه؟ وما هذه الحكمة التى أعطيت له؟ ... أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويهوذا وسمعان؟ فكانوا يعثرون به، فقال لهم يسوع: ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته، ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة • وفى عرس قانا الجليل كما ورد فى إنجيل يوحنا ما يدل على انفعال المسيح على أمه وفيه». وفي اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت أم يسوع

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

هناك، ودعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر؟ فقال: لها ما لي ولك يا امرأة ؟ لم تأت ساعتى بعد » يوحنا ٢: ١/ ٥ • فهل يتفق هذا مع أخلاق النبوة ؟ إن كل هذه الأخبار كاذبة خاطئة، والمسيح عليه السلام كان بارًا بأمه رفيقًا بها محسنًا إليها.

- قال تعالى مبينًا ما قاله عيسى عليه السلام عن نفسه وهو فى المهد.

إن ما ورد فى الأناجيل فى شأن عيسى عليه السلام وفى شأن مريم متضارب متناقض، بعيد عن الحقيقة، منحرف عن الصواب، حتى شراح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا فى أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضة مدسوسة ومكذوبة، وليس له أي صلة بمريم عليها السلام.

## بشارة مريم

جاءت البشارات في سورتين: سورة آل عمران وسورة مريم، جاء الحديث عن البشارة مسهبًا في سورة آل عمران، وجاءت سورة مريم مفصلة لما لابس البشارة وما أعقبها، وفيما يلي أتحدث عن البشارة في السورتين الكريمتين:

### أولًا: البشارة في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

بعد أن اصطفى الله عز وجل مريم رضي الله عنها، وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة، وأوصاها بالإخلاص والخشوع والخضوع له سبحانه، تهيأت بذلك مريم رضي الله عنها للمعجزة الكبرى والآية العجاب، وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة بدون أب.

وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة جاءتها بشارة أخرى وهي أن المولى عز وجل اصطفاها لتلك المهمة

العظيمة الشأن.

« والمراد بالملائكة هنا جبريل، والجمع لما ذكرنا قبل من التعظيم» [1].

ولا مانع من تكرار البشارة، بشرتها الملائكة أولًا وعلى رأسهم جبريل، ثم تمثل جبريل عليه السلام فى صورة بشرية فأعاد بشارتها فأعادت تعجبها؛ زيادة فى الاطمئنان واليقين واستفسارًا عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة.

سمى المسيح كلمة الله لأنه موجود بكلمة كن، وكل ما في الكون موجود بأمر الله وكلمته، وإنما خص بهذا الاسم للتنويه بهذه الآية العجيبة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ذكر ذلك الإمام الألوسى، ورجح أن المسيح سمي بكلمة الله؛ لأنه وجد من غير أبٍ بكلمة كن على خلاف أفراد بنى آدم، فكان تأثير الكلمة فى حقه أظهر وأكمل [2].

ومعنى المسيح: المبارك [3].

وقيل: سمي المسيح؛ لأنه كان يمسح على عين الأعمى فيرتد بصيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

وقيل: يعني الصديق.

وقيل: سمي بذلك؛ لأنه ممسوح بالزيت المبارك الذى كانت الأنبياء من قبله تمسح به، وهو زيت طيب الرائحة.

وقيل: المسيح يعني: من مسحه الله؛ أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، كما يقولون به مسحة جمال، والمسيخ: من مسخه الله، أي: خلقه فى صورة قبيحة وجعله ملعونًا [4].

وقيل: لكثرة سياحته، أي :سيره فى الأرض.

وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما [5].

وقيل: المسيح يعني: المبارك، أو لأنه كان يمسح بيده المباركة على المريض فيشفى بإذن الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أن عيسى عليه السلام سيولد من غير أبٍ، لأنه لو ولد من أبٍ لصرح باسمه بدلًا من التصريح باسم أمه.

والوجيه: ذو الجاه والشرف والقدر.

وقيل: الكريم على من يسأله فلا يرد لكرم وجهه عنده، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد، ووجاهته فى الدنيا بالنبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته.

وقيل: وجاهته فى الدنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٤.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٣.

وقيل: بسبب أنه كان مبرءًا من العيوب التى افتراها اليهود عليه، وفي الآخرة ما تقدم »[1].

وتعرض له اليهود بالأذى والاضطهاد لا ينقص من قدره ولا يقدح فى وجاهته ومنزلته، فالأنبياء هم أشرف خلق الله، وأكرمهم وأعزهم، وقد تعرضوا للأذى والتضييق، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة، وكرامة وإباء، وعزيمة ومضاء، وإيمانًا وتسليمًا ويقينًا وتثبيتًا ونصرًا ونجاة.

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى وعند الناس بالقبول والإجابة، ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كلامه فى المهد حين أنطقه الله عز وجل ببراءة أمه من اتهام اليهود عليهم لعنة الله.

والكهولة فى الأربعين. وقيل: ثلاث وثلاثين، والكهل ما اجتمعت قوته وكمل شبابه[2]، أما عن كلامه فى الكهولة: فقيل: ذكر هنا لتبشير أمه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، وقيل: لبيان فصاحة كلامه وبلاغته فى المهد وفى الكهولة على السواء، وقيل: إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان فيكلم الناس، وقد بلغ سن الكهولة[3].

و قيل: رد على النصارى الذين زعموا أنه إله، والإله لا يمر بهذه التقلبات، ولا ينتقل من حال إلى حال، والمسيح سينتقل من حال الطفولة إلى حال الكهولة، والمتنقل من حال إلى حال حادث ومتغير، والحدوث والتغير يتنافى مع صفة الألوهية، ومن فوائد كلامه فى المهد: إثبات براءة أمه، وبيان عبوديته لله ونبوته وبركته وبره بأمه، ونفي كونه جبارًا شقيًّا، فهو برٌّ رحيمٌ رفيقٌ حليم .

قالت مريم رحمها الله متعجبة من هذه البشارة العجيبة، ومتسائلة عن كيفية وقوعها: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وجاءها الجواب: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال صاحب الظلال: « وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة، لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان إلى نفسه يسألها فى عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطرى !!

وهكذا القرآن الكريم ينشىء التصور الإسلامى لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب، وهكذا كان يجلو الشبهات التى تعقدها الفلسفات المعقدة،

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٥١.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٣.

ويقر الأمر في القلوب وفي العقول على السواء»[1].

ثم تمضي الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتواصل الحديث عن صفات المسيح عليه السلام ونعم الله عليه وتأييده له بالمعجزات التي تدل على نبوته، كما تدل على بشريته، وعن حقيقة رسالته التي جاء بها، ويطوي السياق الحديث عن مريم رحمها الله، وينتقل للحديث عن المسيح ابن مريم وعن موقف الناس من دعوته •

## ثانيًا: البشارة في سورة مريم:

ورد الحديث عن البشارة ومقدماتها، وما تبعها في سورة مريم.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦-٢١].

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل عن خلقه عيسى بدون أب، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عجاب.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٦-١٧].

اذكر في القرآن الكريم؛ لأن القصص القرآني هو الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثم فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاقتباس من أنوار الأنبياء والصديقين، وفي ذكر مريم في هذا السجل الخالد تشريف وتكريمٌ لها.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ اتجهت إلى شرقي بيت المقدس لتعتكف وتخلو للعبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس، وسمو بالروح، وشحذ للهمة، وصفاء للقلب، وزيادة قرب من المولى عز وجل.

وإنما جاءها الملك في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لزكريا عليه السلام وهو قائم يصلى في المحراب، حيث البركات والرحمات والنفحات، ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾: أي: جعلت

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٨.

بينها وبينهم سترًا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادة، ولا تختلط بالرجال، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل عليه السلام، وسمي عليه السلام روحًا؛ لأن الدين أساسه الوحي، وهو أمينه، فبالوحي حياة الدين، كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء.

والإضافة في ﴿رُوحَنَا﴾ للتشريف والتعظيم، وبيان أن جبريل عليه السلام مرسل من قبل رب العالمين منزلٌ بأمره، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾: ظهر لها جبريل عليه السلام في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتها تقواه، وإنما تمثل لها عليه السلام بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تطيق رؤيته عليه السلام بصورته الطبيعية.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾: استعاذت رضي الله عنها بربها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفي استعاذتها بالله تعالى ما يدل على كمال إيمانها، وورعها وتمام عفافها، وشدة حيائها وحسن أدبها، ولباقتها وسرعة بديهتها، وفي استعاذتها بالرحمن توجهٌ إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء، فقد شملها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تداركها رحمة الرحمن، وفي الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك القادم، فهو إن كان رحيمًا فسوف يرحم ضعفها ووحدتها، وإن كان تقيًّا فسوف ينصرف عنها ولا يمسها بسوء.

قال أبو العالية: «قد علمت أن التقى ذو نهية[1]»[2].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالة خوفها، ووضح لها أنه ملكٌ من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيًّا، أي غلامًا طاهرًا مباركًا «وعبر باسم الرب المتقضي للإحسان لطفًا بها، ولأن هذه السورة مصدرة بالرحمة، ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده»[3].

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذي بين يديها ملكٌ مرسل من عند الله، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا

---

(١) أي: ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح.
انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٥.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٢٧.

عن حملٍ، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرٌ بزواج، وحاشاها أن تكون بغيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدها حدود ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠ ].

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسالته عليه السلام، فهو رحمة لمريم؛ لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها؛ لأنها صارت به أم نبيٍ له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن به، فالأنبياء جميعهم رحمةٌ مهداةٌ. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أمرًا مقدورًا من الله عز وجل ونافذًا فلا رجوع فيه.

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في مريم، وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذى ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة، ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم.

في سورة الأنبياء قال المولى عز وجل: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: ١٢].

والآية الأولى في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بالأنبياء وآلهم، وفيها بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة، وأن الله عز وجل قد أرسل إليها جبريل، فنفخ فيها لتحمل بولد من غير أب، لتكون وابنها آية للعالمين.

وفى سورة التحريم تلك السورة التى تعالج بعض الأمور التى حدثت فى بيت النبوة، بين أمهات المؤمنين، يوضح المولى عز وجل أن قرابة النسب لا تغنى عن قرابة الدين، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

ومريم بنت عمران نشأت فى بيت صالح، وكانت عفيفة شريفة، مؤمنة صديقة، اختارها المولى عز وجل لتكون وابنها آية للعالمين.

قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

## حمل مريم بعيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٢-٢٣].

سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، ونفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام، فاتجهت بحملها بعيدًا عن قومها، وكان حملها طبيعيًّا كما تحمل سائر النساء، حملته إلى مكان بعيد عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم، حيث ولد المسيح عليه السلام.

كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء، وفيه قال صلى الله عليه وسلم **(ثم قال: انزل فصل، فنزلت فصليت، فقال أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحمٍ؛ حيث ولد عيسى عليه السلام)** [1].

وفي صلاته صلى الله عليه وسلم في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادة نبي الله عيسى تكريمٌ لهذا النبي.

والظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة، رقم ٤٤٦.

وضعته في المكان القصي الذي انتبذت إليه أو قريبًا منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً[1].

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

ومعنى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها المخاض واضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جهد وإعياء وآلام وزفرات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذي لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أسندت ظهرها إليه.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصيب، وكانت نسيًا منسيًّا، أي: شيئا لا يعتد به ولا يؤبه له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمنت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة: فيقول ابن كثير في التفسير « فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئا، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس»[2].

وفي حاشية الجمل على الجلالين «تمنت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو استحياءً من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام، أو لعلها قالت ذلك: لئلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمنت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين»[3].

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٤-٢٦].

في غمرة الآلام التي ألمت بمريم رضي الله عنها، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض ومخاطره، والوحدة والوحشة والترقب لما

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٦.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٥٧.

ينتظرها من قومها حين يرون هذا الوليد، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تغمرها رحمة الله تعالى، فيتحول العسر إلى يسر والضيق إلى سعة، والحزن والقلق إلى فرح واستبشار وطمأنينة، ويولد عيسى عليه السلام في جوٍّ من الكرامات، وينطقه[1] المولى عز وجل.

وقال لها كما أخبر القرآن: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أنطق الله عيسى عليه السلام تسلية لأمه وتثبيتًا لقلبها، وتمهيدًا لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومها ببراءتها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٢٩-٣٠].

ولقد أجرى الله هذه المعجزة أمامها وحدها، ثم أجراها بعد ذلك أمام قومها، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده، قبل أن يجريها أمام فرعون وملئه؛ تثبيتًا لموسى عليه السلام وإعدادًا له لمواجهة هذا الموقف.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ السري: قيل: هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمى بذلك لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين[2].

ولعل إيثار تسميته هنا « سريا » لما فيه من تسرية لقلبها، وترويح عن نفسها وتسليةٍ لها وهي في هذا الكرب والمحنة.

والسياق يدل على ذلك، قال تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فدل الأكل على وجود الرطب، ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿سَرِيًّا﴾: الجدول، نهرٌ صغيرٌ بالسريانية[3].

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهر كرامةً لها، وإرهاصًا لعيسى عليه السلام، وتسليةً لقلبها.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥]. نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها، بقدرة الله عز وجل ولطفه ورحمته، وكانت تلك النخلة يابسةً فاخضرت وأثمرت في غير أوانها؛ كرامة لمريم وتسلية لقلبها وزيادةً في يقينها، وإظهارًا لقدرة الله عز وجل وعجيب صنعه[4].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٢٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧، ومفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٥.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٥.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، كلي من ذلك الرطب الجني واشربي من ذلك الماء العذب، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: وطيبي نفسًا بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهنئي بالًا بهذا المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦] أُمرت بالصوم عن الكلام لأمرين:

أحدهما: أن كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى.

والثاني: أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرض وأنسب لحيائها.

## اتهام اليهود لمريم

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم ٢٧- ٢٩].

قال القرطبي: « لما اطمأنت لما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه »[1].

والفاء هنا في (فأتت) تفيد التعقيب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وفى نهاية المطاف ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾.

ففي الموضع الأول نرى مريم البتول رضي الله عنها تسارع بحملها بعيدًا عن قومها، خوفًا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنهم السيِّئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهى حامل.

وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينها به، واطمأن قلبها إليه، وانشرح صدرها بالكرامات التي وقعت لها، وامتلأ قلبها يقينا، وتبدل خوفها أمنًا، وحزنها سرورًا وضعفها قوة وعزة وترفعًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٩٩.

وتحديًا وتعاليًا على الباطل وأهله، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان، وهي تحمل وليدها الحبيب نبي الله عيسى عليه السلام، جاءت بنفس راضية هانئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية.

لقد أصبحت مريم أمًّا لنبي، وأي شرف لأمٍّ أعظم من ذلك، وأي رجاء أعظم من نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها تعرف سلفا موقف قومها، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، والإنعامات بالحسد والحقد، وقد صدق ظنها فيهم حين رأوها فقالوا دون تفكر أو تمهل -كما أخبر القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾: أي: شيئًا فظيعًا منكرًا عجيبًا. ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾: بعد أن اتهموها، وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقولة على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك والتحريض.

قالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ تشبيهًا لها: بهارون النبي أخي موسى عليهما السلام في تقواه وصلاحه وحيائه، وكانوا يسمون وينعتون بأنبيائهم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

قال: لما قدمت نجران سألوني: فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم ٢٨]. وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)[(١)].

والظاهر أن هذه الآية العجيبة التي بهتت اليهود لم تزجر كثيرًا منهم ولم تكفهم عن التمادي في الافتراء والكذب على مريم البتول، فكان هذا من أسباب غضب الله عليهم وعقوبتهم الدنيوية مع ما ينتظرهم يوم القيامة، وأي ذنبٍ بعد الكفر بالله، والافتراء على أنبيائه الكرام الأخيار، وآلهم الطيبين الأبرار، سيما من برأها الله تعالى بآيةٍ مشاهدةٍ محسوسة، وسجَّلَ براءتها في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٦].

فتلك صفحاتٌ مطويةٌ في تاريخ اليهود وجرائم مسجلة عليهم، منها: نقض المواثيق مع جلالها، والجحد بآيات الله مع جلائها، وقتلهم الأنبياء خيرة الخلق، بدون جريرةٍ ولا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم ٢١٣٥.

حق. ومن كفرهم البواح وظلمهم العظيم افتراؤهم على خير نساء العالمين الصديقة العابدة التقية الطاهرة مريم بنت عمران التي نبتت من أرومة مجدٍ طاب غراسها، ودرجت في بيت صلاح وتقى شَعَّتْ أنواره، وتقبلها ربها بأحسن قبول ظهرت بركاته وجلت آثاره، وكان كافلها ومعلمها نبيٌّ كريمٌ مبجل، وانقطعت للعبادة والتبتل، ورغم ذلك فقد اتهمها اليهود في عرضها، وغمزوها في عفافها، وهي الصديقة التي بلغت معالي الرتب والدرجات، الطاهرة التي برأها ربها بأعظم الآيات وأبلغ البينات، فأنطق ولدها في المهد، وشهد لها بالطهر والمجد، وفند كذب اليهود وبهتانهم الذي ليس له حد.

وتكرر الكفر منهم لأنه كفرٌ بعد كفر بعد كفر حجبٌ كثيفة وغيوم قاتمة وقلوب تراكم عليها الظلام، كفروا بموسى ثم كفروا بعيسى، فقد دخلوا إلى الكفر من أبوابٍ كثيرة، فقد كفروا بالأنبياء بل وقتلوهم، وشنعوا على مريم وتآمروا على ولدها عيسى عليه السلام.

وعطف البهتان على الكفر دليلٌ على شناعته وقبحه، ووصفه بالعظيم لتهويله، إذ أي بهتان أعظم من رمي سيدة نساء العالمين الصديقة العابدة سليلة بيت الطهر والعفاف ربيبة أهل التقى والصلاح، نذيرة العبادة، وراهبة المحراب!

إنه ابتلاءٌ عظيمٌ أن يرمي الغوغاء ذات الطهر والنقاء، وهل أشد على الحرائر العفيفات، المحصنات الغافلات من الاتهام في أغلى ما يملكن.

**كلام المسيح عليه السلام في المهد تبرئة لأمه مما اتهمت به:**

قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾

نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيهٌ لله تعالى عن الصاحبة والولد، وردٌّ على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قال الرازي في هذا المقام: « إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مريم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبوديته لله كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم

بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى »[1].

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾: فنطق عليه السلام أول ما نطق بغاية وجوده وكمال إنسانيته في عبوديته لله تعالى، وأجل نعم الله عليه الكتاب والنبوة، وهي اصطفاء خاصٌ، ومنزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله، فنبوته عليه السلام دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء من أطهر الناس نسبا، والمراد بالكتاب الإنجيل الذي أنزله الله عليه، أو التوراة التي علمه الله إياه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفاعا حيث كنت، وقيل: معلما للخير، وقيل: ثابتا في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالبا موفقا إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء[2]، والمقصود من كلامه: باعتبار ما سيكون، إخبارٌ عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله[3].

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممتثل لوصية ربى، عامل عليها منفذ لها.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: جعلني المولى عز وجل بارًا بأمي، رفيقًا بها، محسنًا إليها، وفى ذلك بيان لنزاهتها وبراءتها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، وردٌ على ما جاء في الأناجيل من ادعاء جفوته وغلظته في معاملتها وتنكره لها ونفوره منها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني متجبرًا متكبرًا على الحق والخلق بل جعلني برًا رحيمًا، عطوفًا كريمًا، متواضعًا للحق، مطيعًا لأوامر الله عز وجل.

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١٦/ ٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢١٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢١.

بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحق لا يفتقر لغيره، ولا يحتاج إلى من سواه.

## نبوة مريم عليها السلام

زعم بعض أهل العلم أن مريم عليها السلام نبية من الأنبياء، لأن الله عز وجل أوحى إليها، ومن الذين قالوا بهذا: الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي، الذي عقد فصلا في كتابه الفصل بعنوان (نبوءة النساء): ادعى فيه ثبوت نبوءة النساء ومن كلامه في ذلك: « جاء في القرآن أن الله عز وجل قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، من ذلك تبشير الملائكة لأم إسحاق به.

قال عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: ٧١].

فهذا خطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم عليها السلام فخاطبها وقال لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: ١٩].

فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وهكذا أم موسى أوحى الله تعالى إليها أن تلقي موسى في اليم، وأنه سوف يعيده، ويجعل له شأنا.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

﴿الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧]»[1].

ومن القائلين بنبوة مريم أيضا الإمام القرطبي في تفسيره حيث يقول: «والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة ملك، كما أوحى إلى سائر الأنبياء»[2].

وقال القرطبي إن مريم أفضل النساء على الإطلاق؛ لأنها نبية والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقًا[3].

وقال أيضًا: ومن قال لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صورة بشرية حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء. والأول أظهر، وعليه الأكثر. والله أعلم[4].

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ «يجوز أن تكون صديقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام»[5].

والصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية وإنما هي صديقة، والدليل على ذلك ما يلي:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾، فهذا دليلٌ صريحٌ على أن النبوة في الرجال دون النساء.

٢. أن مريم وأم إسحاق وأم موسى لم يأت في القرآن تصريح بنبوتهن ضمن من صرح الله بنبوتهم.

٣. أن كلام الملائكة لمريم عليها السلام لا يعد دليلا على ثبوت نبوتها، إذ النبوة هي وحى من الله تعالى لنبي من الأنبياء بكيفية مخصوصة، وبواسطة الملك، كما أن كلام جبريل لها لم يكن برسالة أو نبوة بمفهومها الشرعي وإنما كان بأمر من الله تعالى وبشارة منه سبحانه وكلام الملائكة لأم إسحاق لم يكن إلا بشارة لها، والحكمة في الكلام المباشر أن البشارة تعظم في النفس بعظم المبشر بها.

٤. أن الإلهام كما يقع للأنبياء فقد يقع للأولياء، ويكون في حقهم كرامة وليس بمعجزة، والرؤيا الصالحة نوع من أنواع الوحي (الإلهامي) ولم يقل أحد أن كل من رأى رؤيا صالحة فهو نبي.

٥. أن الوحي بمعناه الأعم: إعلام الله تعالى، جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ولم يقل أحد أنه نبوة.

---

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٥/ ١٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ٤/ ٨٤.

(٥) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: ٦٨]. ولم يقل أحد من العقلاء بنبوة الأرض والسماء ولا بنبوة النحل، إذ أن الوحي بمفهومه اللغوي العام أوسع من معناه الشرعي المخصوص: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بواسطة أو بغير واسطة.

٦. هذا ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفها بالنبوة، وإنما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصديقيتها. قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

## ضلال بعض طوائف النصارى في مريم

بلغ غلو بعض طوائف النصارى في مريم إلى عبادتها والاستغاثة بها والتوسل بها والصلاة لها.

يقول ول ديورانت: «كانت تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتذاك»[1].

وفي موضع آخر يقول: بل إن العابد التقي في بلاد البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الإبن[2].

وفي موضع آخر يذكر «ذلك أن سيريل كبير أساقفة الإسكندرية وصف في موعظة له شهيرة ألقاها في إفسس عام ٤٣١، مريم بكثير من العبارات التي كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها «إلهتهم الكبرى» أرتميس - ديانا دلالة على حبهم إياها»[3].

وقد بين القرآن الكريم أنها عابدةٌ قانتةٌ لله تعالى، مستسلمةٌ لقضائه راضيةٌ بحكمه، وأنها بلغت منازل الصديقين، بصدقها واجتهادها في العبادة.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

(١) قصة الحضارة ١/ ٤٨٢.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٤٥٣.
(٣) المصدر السابق ١٦/ ٤٤١.

ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾.

فالمسيح عليه السلام بشرٌ رسولٌ، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولو أراد الله أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعا فلا يملك أحدٌ من الخلق أمرًا، وكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أحدٌ من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضرًا أراده الله، فضلا عن أن يدفع عن غيره ما حل به، وفي هذا ردٌ لمن زعم ألوهية مريم أو أضفى عليها شيئا من الخصائص أو الصفات الإلهية.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

فبين الله تعالى القول الحق في المسيح عليه السلام وهو أنه بشرٌ رسول، ونسبته لمريم، لأنه لا أب له، ولو كان له أبٌ لنسب إليه، وإنما خلقه الله بلا أبٍ لحكمةٍ بالغةٍ، تدل على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسى عليه السلام بشرٌ رسولٌ، شأنه شأن من سبقه من الرسل، أرسله الله على نهجهم وأقامه على سننهم، وأمه صديقةٌ عابدةٌ، كانا يأكلان الطعام، والحاجة للطعام والشراب غريزةٌ إنسانيةٌ، أما الإله فهو غنيٌ قويٌ، ليس كمثله شيء، فكيف يدعون أنه إله أو ابن إله ! فتأمل كيف يقيم الله الحجة عليهم من وجوهٍ عديدةٍ ثم هم يصرفون عن الحق، ويقلبون الحقائق ويقرون الأباطيل ! مع جلاء الآيات وتصريفها !

## الدروس المستفادة من قصة مريم

- في تخصيص آل عمران بالذكر وعطف على آل إبراهيم وهم منهم اعتناء بهم وزيادة تشريف لهم وتوطئة للحديث عن أم مريم ومريم وعيسى عليه السلام.
- ضرب القرآن الكريم أمثلةً رائعة للمرأة الصالحة، وصور بأبلغ بيان مشاهد وصورا في حياة المرأة وهي في حملها وعند مخاضها وعند رعايتها لصغيرها، وهذا يدل على احتفاء القرآن بالأم ورعاية الإسلام للأمومة.
- قال الشيخ السعدي: « ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفى بذلك فضلا.[1]
- دور الأم في تربية الأبناء وبركة الدعاة للأبناء بالصلاح.
- رعاية الولد تبدأ مبكرة منذ أن يتحرك في أحشاء أمه بل تبدأ باختيار الأم الصالحة، قال أبو الأسود الدؤلى لبنيه: لقد أحسنت إليكم صغارا، وأحسنت إليكم كبارا، وقبل أن تولدوا، قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ فقال: اخترت لكم أما صالحة[2].
- استحباب النذر ووجوب الوفاء به وبركته.
- حرص المؤمن على تقبل عمله، بتحري أسباب القبول.
- قول أم مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خالصا لوجهك، مخلصا لطاعتك وعبادتك، عن مجاهد قال: « إن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى »[3]، وفي هذا منقبةٌ لمريم حيث نذرتها أمها خالصة للعبادة، فكأنما حررت من أسر الدنيا وقيودها[4]. وفي هذا بيان للمفهوم الصحيح للتحرر أنه التجرد لله تعالى من كل الأهواء، والتحرر من كل قيدٍ يحول بين العبد وبين ربه، أما التحرر الذي يدعو إليه أعداء الإنسانية فهو دعوة مشبوهة ودعوى زائفة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٩٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٢.

وشعارات براقة خداعة، تعنى التحرر من كل فضيلة، والتمرغ في أوحال الرذيلة، وتحطيم القيم والأخلاق الكريمة والهجوم الشرس على دين الإسلام وتعاليمه القويمة.

- حسن التأدب مع الله تعالى في الدعاء والتوسل بالعمل الصالح وبأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.
- الصدق مع الله تعالى وإمضاء العزم وعلو الهمة.
- الحرص على صلاح الأولاد ونفعهم لدينهم وقومهم.
- بيان أهمية العامل الوراثي وأثره الفعال في تكوين الشخصية والطباع.
- قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ إشارةٌ لكون « الأنثى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي، ولا في تركيبها النفسي، ومن ثم فلابد أن تكون وظيفتها تختلف عن وظيفة الذكر، ولا بد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسئوليات واختلاف في الحقوق والواجبات، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء: فليسو بينهما في التركيب الجسمي والنفسي أولًا ! »[1]. وقد أثبت العلم أن هناك فروقا كثيرة عضوية ونفسية بين الرجل والمرأة، وهى فروق كثيرة ومتعددة.
- تحري الأسماء الحسنة العذبة من حق الولد على أبيه، ومن أسباب البركة والصلاح.
- في هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لـربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية ولقد استجاب الله تعالى لها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال: **ما من بني آدم مولودٌ إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها**) ثم قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ »[2].
- حرص الأبوين على تجنيب الذرية كل وساوس الشيطان ونزغاته.
- الغراس الطيب في التربة الطيبة مع تعهده بالرعاية يثمر نبتًا طيبًا مباركًا نافعًا.
- رعاية الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وذرياتهم.
- قال البقاعي: « ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ جاء بصيغة التفعل مطابقة لقولها: (فتقبل)، وفيه

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٢/ ٧٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)،٤/ ١٦٥.

إشعار بتدريج وتطور وتكثر، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه، من حيث لم يكن فاقبل مني فلم تكن إجابته: فقبلها، فيكون إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع، فلا تزال بركة تحريرها متجددًا لها في نفسها وعائدًا بركته على أمها حتى ترقى»[1].

- وفي ذكر الفعل من (أفعل) في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ والاسم من (فعل) في قوله: ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنًا. انتهى[2].
- لزوم مريم الصديقة للمحراب دليل كمالها وعلو همتها وصدقها مع الله تعالى.
- رد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وصفوة خلقه مع فساد اعتقادهم وسوء أخلاقهم وعدائهم للحق ومخالفتهم لما جاء به الأنبياء عليه السلام.
- توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والفلاح.
- حرص الأحبار من بني إسرائيل على كفالة مريم وتنافسهم على ذلك دليل حرصهم على نيل الأجر والثواب، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم، وهي طفلة يتيمة تحتاج إلى يد كريمة وإلى قلب عطوف، يقودها إلى بر الأمان، ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله، وتنميته، حتى يبلغ سن الرشد.
- قال أبو حيان: « و(كلما): تقتضي التكرار، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها»[3].
- اليتيم ليس في حاجة للطعام والشرب والملبس والمأوى فحسب بل في حاجة إلى رعاية نفسية وإلى رعاية تربوية وعلمية وقد ظهر ذلك في كفالة زكريا عليه السلام لمريم.
- قال الإمام القرطبي رحمه الله: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم

(١) نظم الدرر ٢/ ٧٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر المحيط ٢/ ٣٣٦.

ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد؛ إتباعا للكتاب والسنة »[1].

- وقوع الكرامات للأولياء؛ فهذا الرزق الذي ساقه المولى عز وجل لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها، والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة، وهى مأخوذة من الكرم والإكرام؛ لأنها كرم وجود من المولى عز وجل، وإكرام لصاحبها وتكريم له، قال الإمام الطحاوى رحمه الله: « ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات فى رواياتهم. »[2].
- إعداد الله تعالى لأنبيائه وأوليائه لما يهيئهم له من جلائل الأمور.
- يجوز تمني الموت عند وقوع الفتن واشتداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان.
- بركة رعاية الصالحين وتفقد أحوالهم.
- اصطفاء مريم على سائر نساء العالمين منقبة لها لم ترد في الأناجيل المحرفة، حيث تفرد القرآن بذكر أمور كثيرة ومناقب عديدة للصديقة مريم لم ترد في كتب النصارى.
- أمر القرآن بذكر مريم الصديقة ومدارسة قصتها العجيبة ومآثرها الماجدة، فلقد ضربت أروع الأمثلة في الطهر والعفاف والعبادة والصبر والثبات والفصاحة والحصافة والحياء والحشمة واليقين والمعرفة قال السعدي رحمه الله: « وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل »[3].
- حسن بديهة مريم وحسن تصرفها وحكمتها ورزانتها وحصانتها وثباتها وأدبها وحسن ظنها وثقتها بربها، تجلى ذلك حينما دخل عليها جبريل عليه السلام خلوتها فقالت كلماتها القيمة.
- قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها[4].
- قال أبو حيان: « ودل على عفافها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٦.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، شرح ابن أبي العز ص٤٩٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩١.
(٤) المصدر السابق.

وورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبر لعفتها[1].

- آلام المخاض وأثره البدني والنفسي على المرأة، وحاجتها إلى لطف وأنسٍ وهي في أصعب الأوقات.
- يأتي الفرج بعد اشتداد الكرب ويأتي اللطف وتهب نسائم الرحمات عند الابتلاءات.
- الإعراض عن السفهاء ومجانبتهم، وكراهة مجاراتهم.
- الابتلاء سنة الله تعالى في الأنبياء والأصفياء.
- الله تعالى يتولى الدفاع عن أنبيائه وأوليائه.
- الافتراء وسوء الظن بالأنبياء والصالحين من طباع اليهود والمنافقين.
- بلغ قوم مريم من السفاهة مبلغا عظيما حتى رموها وهى الطاهرة العفيفة بما هي بريئة منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفى ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم.
- بر عيسى عليه السلام بأمه دليل طهرها وصدقها، وردٌ على ما ورد في الأناجيل مما يدل على جفائه.
- التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، ومريم رضي الله عنها كان رزقها يأتيها من عند الله، ولما جاءت ساعة المخاض أمرها الله عز وجل أن تهز النخلة أخذا بالأسباب.
- قال ابن عطية: «وقد استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه لأنه أمرت مريم بهز الجذع لترى آية وكانت الآية تكون بأن لا تهز هي»[2].
- أكل مريم رحمها الله من الرطب إشارة إلى ما أثبته الطب من أهمية الرطب للمرأة النفساء.
- وردت قصة مريم في سورة تحمل اسمها وأخرى تحمل اسم أبيها عمران، وسورة الأنبياء، وسورة التحريم التي استفتحت بذكر أمهات المؤمنين، وختمت بذكر سيدة نساء العالمين آسية ومريم، وذكرها في سورة الأنبياء في سياق رعاية الله تعالى لأنبيائه عطفا على ولدها المسيح عليه السلام بيان لمكانة مريم في القرآن، وعظمة القرآن ورفعته وتسامح الإسلام وشموله وعالميته، وأن القرآن امتداد للكتب

(١) البحر المحيط ٦/ ١٣٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤.

السابقة المنزلة، ونبينا محمدا صلى الله عليه وسلم حلقة أخيرة في سلسلة الأنبياء عليهم السلام وامتداد لهم.

- التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلا، ومهما بلغ مقامه عند الله، وفى ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين قالوا بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة.
- عن كلام المسيح في المهد قال الألوسي: « وذكر عبوديته لله تعالى أولًا: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفى جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل: لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة »[1].

موضوعات ذات صلة

بنو إسرائيل، زكريا عليه السلام، عيسى عليه السلام، النساء

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٨٩.








عناصر الموضوع


| | |
|---|---|
| مفهوم المسؤولية | ٣٩٢ |
| الألفاظ ذات الصلة | ٣٩٤ |
| السائل | ٣٩٥ |
| المسؤول | ٤١٢ |
| المسؤول عنه | ٤٢٦ |
| غير المسؤول عنه | ٤٤٥ |
| أثر فقه المسؤولية على سلوك العبد | ٤٥١ |

## مفهوم المسؤولية

### أولًا: المعنى اللغوي:

لم يرد لفظ مسؤولية في القرآن ولا السنة، ولا معاجم اللغة القديمة، بهذه الصيغة الصرفية أعني صيغة المصدر الصناعي، والكلمات التي وجدت على هذه الصيغة فهي قليلة لا تتعدى بضع عشرات؛ منها: جاهلية، عبقرية، فروسية، عبودية، وحدانية.

كلمة مسؤولية إذًا كلمة معاصرة، مشتقة قياسًا على المصدر الصناعي من (مسؤول).

والمسؤول في الأصل: المستدعى منه معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو المستدعى منه مال أو ما يؤدي إلى المال، قال ابن فارس: السين والهمزة واللام كلمة واحدة، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألة[1].

ويدور معنى السؤال في اللغة على معنى استدعاء المعرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال، والسؤال للمعرفة قد يكون للاستعلام وقد يكون للتبكيت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨][2].

ومن المعاني التي تناولتها المعاجم وكتب التفسير للفظ (مسؤول)، الآتي:

- مطلوب[3]. ومحاسب[4]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] أي: مطلوبون للحساب[5]. قال الطاهر بن عاشور: المسؤول كناية عن المحاسب عليه[6].
- أن يكون الإنسان سببًا في شيء يستحق عليه اللوم.
- صاحب المنصب الرفيع.

فمعنى المسؤول إذًا يدور حول: المطلوب -معرفة أو مالًا-، المحاسب، الكناية عن المحاسب عليه، وصاحب المنصب الرفيع.

### ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تناول القانونيون والإداريون والسياسيون وغيرهم لفظ المسؤولية كمصطلح، ومن هذه التعريفات الاصطلاحية الآتي:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٢٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٤٣٧.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٧.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٠٢٠.
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٠٢٠.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٨٩.



- الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقًا لقانون[1].
- واجب الأداء بالطريقة المطلوبة، أو تحقيق أهداف معينة.
- واجب القيام بمهمة معينة.
- المحاسبة عن نتائج تم الالتزام بها[2].
- الالتزام بواجب يحاسب عليه الفرد، كمسؤولية الموظف عن عمله[3].

خلاصة القول في المعنى الاصطلاحي هي أن المسؤولية: حالة قائمة بالإنسان نشأت عن تكليف أو تعهد، قد يتعرض بسببها للسؤال المقصود به المحاسبة والمفضي للجزاء.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٨٥٣.
(٢) الإدارة، سيد الهواري، ص ٢١١.
(٣) معجم مصطلحات العلوم الإدارية، أحمد زكي بدوي، ص ٣٤٤.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ الأمانة:

#### الأمانة لغة:

ضد الخيانة، كما في مختار الصحاح[١]. وهي مصدر مشتق من مادة (أمن) قال في اللسان: «(أمن) الأمان والأمانة بمعنى»[٢]. يقال: أمن: أمنًا وأمانًا وأمانةً وإمنًا وأمنةً، بمعنى: اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمن وأمين[٣].

#### الأمانة اصطلاحًا:

عرفها الكفوي بقوله: «كل ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاةٍ وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار»[٤].

وقيل: صيانة الإنسان لكل ما ينبغي صيانته من حقوق، أو فروض، أو واجبات، أو حدود، أو أشياء مادية، أو معنوية، سواء كانت لله تعالى، أم لأبناء المجتمع.

#### الصلة بين الأمانة والمسؤولية:

المسؤولية ترادف الأمانة والولاية والتكليف والالتزام والتعهد، وبين المسؤولية والأمانة علاقة لزوم، فالأمانة والرعاية من أساليب أداء المسؤولية.

### ٢ الخيانة:

#### الخيانة لغةً:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة[٥].

#### الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»[٦].

#### الصلة بين الخيانة والمسؤولية:

الخيانة من المعاني المضادة للمسؤولية.

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص٢٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٢١.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٨.
(٤) الكليات، الكفوي ص ١٨٧.
(٥) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص ١٥٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٥.



## السائل

السائل: هو الذي يسأل ويحاسب؛ جاء في قاموس المعاني: سأل يسأل سؤالًا وتسآلًا فهو سائل، وسأل فلانًا: حاسبه.

والإشارة إلى الله سبحانه وتعالى بالسائل باعتبار إكمال أركان المسؤولية؛ وهي: السؤال، السائل، المسؤول، والمسؤول عنه.

ويدور هذا المبحث حول معنى السائل الذي يسأل ليحاسب لا ليستعلم، وباعتبار أن الله سبحانه وتعالى محاسب خلقه عما عهد إليهم من المسؤوليات. ويتناول موضوع السائل من النواحي التالية: إثبات القرآن سؤال الله سبحانه وتعالى للمكلفين وعمومه، الإشارات القرآنية لاستحقاق الله سبحانه أن يكون سائلًا، موضوع سؤاله سبحانه، خصائص سؤاله سبحانه، ومراتب سؤاله سبحانه.

### أولًا: سؤال الله تعالى للمكلفين:

الله سبحانه وتعالى سائل عامة المكلفين من الثقلين - الإنس والجن - عن مسؤولياتهم التي عهد بها إليهم، يشمل ذلك الرسل والمرسل إليهم؛ المؤمن والمنافق والكافر، قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب[1].

ولا تنافي بين ثبوت سؤال الكفار هنا، ونفيه في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

فنفي السؤال إنما كان عن الذنب، وذلك بعد استقرار الكفار والمجرمين في العذاب[2]. وتفصيل ذلك في مبحث (المسؤول)، مطلب (الكافرون).

ومن الآيات القرآنية الدالة كذلك على عموم سؤال الثقلين، قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

قال أبو جعفر الطبري: يقول تعالى ذكره: فلنخبرن الرسل ومن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه وما كنا غائبين عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها، فذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم عمومًا على وجه التقرير والتوبيخ[3].

فهذه الآية تدل على عموم سؤاله سبحانه وتعالى خلقه المرسلين والمرسل إليهم أجابوا أم كفروا وجحدوا. وأن السؤال عن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦٠.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٧.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

المسؤولية ليس نوعًا واحدًا، بل أنواع عدة، وأن سؤال المؤمنين تقرير، وسؤال الكفار تقريع، والجميع يقص الله عليهم بعلم، فلا استفسار ولا استفهام.

وخلاصة القول الذي دلت عليه الآيات المحكمات أن الله سبحانه وتعالى سيسأل عباده جميعًا ويحاسبهم عن مسؤولياتهم.

## ثانيًا: استحقاق الله أن يكون سائلًا:

إن مكانة السائل لا تثبت بمجرد السؤال، بل لابد من جدارة وأحقية للسائل حتى يتسنم هذه المكانة، والقرآن الكريم أشار في كثير من المواطن إلى دلالات استحقاقه سبحانه وتعالى مكانة السائل الذي يعهد بالأمانات والتكاليف ويحاسب عليها ويجازي عنها. وهذا من تمام عدله وحكمته سبحانه فهو يعلمهم بمكانته وجدارته واستحقاقه مكانة العاهد المحاسب المجازي ليهيئهم لقبول التكليف، ويمهد لهم السبيل لإتباع أمره هو لا أمر كل جبار عنيد.

ومن أبرز الدلالات القرآنية على ذلك:

١. الربوبية.

أثبت الله تعالى لنفسه الخلق والرزق والتدبير والملك، في كثير من الآيات التي أشار فيها إلى المسؤولية، مما يدل على كون الربوبية من أعظم الإشارات دلالة على كونه سبحانه وتعالى مستحقًا لهذه المكانة كونه سائلًا عاهدًا بالمسؤوليات ومحاسبًا عليها.

ونلحظ أن القرآن يقرر هذه الدلالة قبل إيجاب الأعمال والعهد بالتكاليف أحيانًا، كما قال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد: ١-٧].

فجاء الأمر بالإيمان والإنفاق بعد تقرير ربوبيته سبحانه. وأحيانًا أخرى بعدها، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ

﴿عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّرُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝﴾ [الزمر: ٢-٦].

فجاء الأمر بإخلاص العبادة والدين لله أولًا، ثم جاءت الآيات التالية تقرر صفة الربوبية لله سبحانه بعده.

إن الربوبية هي لازمة استحقاق السؤال والمحاسبة، وقبلها العهد بالمسؤوليات وإيجابها على العباد كونها صفة تدل على الفضل، فإن الذي تفضل بالخلق والرزق والتدبير جدير بأن يطاع أمره وأن يحاسب على عهده وأن ينفذ وعده.

٢. العلو.

إن مكانة السائل تستلزم العلو: علو القدر والمكانة والقهر. والربوبية نفسها لازمها العلو.

قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾ [الأعلى: ١-٥].

فالله سبحانه أمر بتنزيهه سبحانه، وذكره باسمه الأعلى، ثم ذكر دلائل لاستحقاقه هذا التنزيه، فذكر خلقه وتقديره ورزقه، وهي الدلائل على ربوبيته سبحانه.

فلا بد للسائل من العلو ليستحق إسناد المسؤوليات والمحاسبة عليها، وبدون العلو يكون السؤال سؤال طلب أو استجداء لا يلزم المسؤول جوابه، ولا يقدر السائل أن يؤاخذه به. والعلو الظاهر من الآيات السابقة من سورة الأعلى ناتج عن النعمة والفضل، وقد ضرب الله بها مثلًا: نعمة الخلق والتقدير والرزق، وهو ظاهر كذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فمن كان كذلك استحق كمال الاستسلام والطاعة؛ قال الرازي: واعلم أن المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا. واحتج عليه بأنه فاطر السماوات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليًا[1].

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا.

وليس العلو الذي يستحق به السائل مكانته ناتج من الفضل فقط بل هو كذلك ناتج من القهر، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦/ ١٤٠.

﴿٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

وقال جل من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

فالسائل إذًا لا بد له من علو القدر والفضل والقهر التي تشير إلى لزوم طاعته والاستسلام لأمره والخضوع له في أمره ونهيه عن استحقاق وجدارة.

٣. العلم.

إن السؤال والمحاسبة تحتاج إلى العلم بعمل المسؤول في مسؤوليته وأمانته، والقرآن الكريم يخبرنا عن سؤال الله سبحانه عباده عن علم كامل وحفظ تام.

قال سبحانه: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف: ٦-٧].

ودلل القرآن على كمال علمه سبحانه بأنه تعالى يعلم السر وأخفى ويعلم الغيب بل ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

ولذلك فإن حسابه لخلقه لا يقتصر على أعمالهم الظاهرة فقط بل يشمل الأعمال الباطنة، فالمنافقين ليسوا بمنجاة بإضمارهم الكفر وإظهارهم الإسلام، بل هم متوعدون بالحساب عن حقيقة إيمانهم.

قال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليها الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده[1].

فأما المؤمنون فإن الله يغفر لهم ما حدثتهم به أنفسهم من الإثم ابتداء ما لم يعملوه؛ كما جاء في الحديث الصحيح: (إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست، أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به، أو تكلم)[2].

فإن عملوه فهم تحت المشيئة، وأما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٧٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم ٦١٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر، رقم ١٨٥.

الكافرون والمنافقون فإنهم متوعدون بالعذاب به. وتمام العلم يحقق التوفية في الحساب والجزاء، وذلك غايته تمام العدل.

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١].

ورغم علمه سبحانه بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، إلا أنه سبحانه أعمل في خلقه الرقابة والرصد، وكتب لهم أعمالهم كلها، وأشهد عليهم.

قال سبحانه على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ١٦-٢١].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وأن ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده بإقدار الله لهم على ذلك، فيكتب الملكان المترصدان عن يمين الإنسان وشماله عمله لا يخرمان منه شيئًا، فما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتدًا ويكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢][1]. وعن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار، يحفظان عليه عمله، ويكتبان أثره[2].

### ٤ . القدرة.

دلت الآيات على قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة، وربطت بينها وبين المسؤولية في كثير من المواضع، حيث بينت:

- قدرته سبحانه على المراقبة والإحصاء:

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

- قدرته على جمع المسؤولين وإرجاعهم للحساب: قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال سبحانه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤ ]. وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٩٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٣٤٠-٣٤٤.

﴿خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ [الطارق: ٥-٨].

- قدرته على الإتيان بالأشهاد: قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت: ١٩-٢٢].

- قدرته على الإثابة والعقاب: قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فالله سبحانه له القدرة التامة، متصرف في الكون تصرف المالك ذي السلطان، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

وهو في إيجاب المسؤوليات على الخلق قادر على جمعهم للحساب.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [الشورى: ٢٩].

وهو سبحانه قادر على محاسبتهم جميعًا، سريع في ذلك.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

والله سبحانه قادر على إقامة الشهادة على خلقه من أنفسهم: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١].

٥. الحكم الفصل.

حكم الله سبحانه فصل غير متعقب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

قال القرطبي: أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازي كلا بما يستحق[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فمرجع الحكم كله إليه سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وقضاؤه في حكمه الحق، وهو خير الفاصلين، قال البغوي: والفصل يكون في القضاء[(٢)].

إن السائل إذا كان حكمه وحسابه متعقبًا لم يكن أصيلًا في استحقاق كونه سائلًا، بل إنه يكون فرعًا، مسندًا إليه السؤال، لكنه غير مستقل ولا بات فيه. والقرآن يخبرنا أن الله سبحانه أصيل في المحاسبة والسؤال، فلا راد لحكمة ولا معترض على قضائه.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وهو سبحانه يحكم ما يريد؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

بل ولا يشفع أحد في حكمه، ولا يجرؤ إلا بإذنه.

قال سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولا يشفع الشفعاء إلا لمن ارتضى مع كونهم مشفقون خشية منه.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٦. الوعد الحق.

فهو سبحانه الذي لا يخلف وعده، فالمكلفون لا محالة مسئولين، والله سبحانه مجازيهم عن أعمالهم كما عهد إليه ووعدهم.

وقد أقسم ربنا سبحانه بذلك فقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر: ٩٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٠٩.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٤٩.

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وفي الآية تأكيد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤].

فوعده سبحانه حق لا يخلف، فمن أحسن جوزي بالحسنى ومن أساء جوزي بعمله.

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا.

والمقصود أن المسؤول إذا لم يكن الحساب في حقه مجزومًا به فإنه قد لا يلتزم بمسؤولياته وقد يتردد. فكان الجزم بالسؤال والمحاسبة والمجازاة قاطعًا للشك في التبعة، ومفضيًا إلى التخلص من الريب والظن والشك. والسائل الذي لا يجزم بالمسؤولية يكون بذلك قد أمل المكلف في التخلص من التبعة، فإذا حاسبه وألزمه التبعة لم يكن أنصفه. والله سبحانه مع سرعة حسابه هو الحكم العدل.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٦.

### ثالثًا: موضوع سؤاله سبحانه:

يسأل الإنسان إجمالًا عن لا إله إلا الله: هل صدق بها وعمل بمقتضاها؟، ويسأل تفصيلًا عن الأعمال.

قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

قال ابن عمر: عن لا إله إلا الله[(٢)]، وكذا عن انس ابن مالك مرفوعًا وموقوفًا[(٣)].

والسؤال عن لا إله إلا الله يكون عن الوفاء بها والصدق لمقالها[(٤)].

وعن أبي العالية: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك.

وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك)**[(٥)].

وقال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٥٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٦٠.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٣.

غيره، ما منكم من أحدٍ إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين[1].

وفي الحديث عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)[2].

وهذا مصداقه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

فموضوع السؤال إذًا مجمل؛ وهو: لا إله إلا الله، هل عمل بها وصدق؟، ومفصل: ويتناول جميع العمل.

## رابعًا: خصائص سؤاله سبحانه:

قرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يسأل الرسل والمرسل إليهم عما عهد إليهم من مسؤوليات.

قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وأن هذا السؤال كائن مع علم الله سبحانه المحيط بأفعالهم وأقوالهم وإسرارهم وإعلانهم إذ يقول سبحانه بعد: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

وتفسير ذلك: أنه سبحانه وتعالى يخبر الرسل ومن أرسلهم إليهم بعلم يقين بما عملوه في الدنيا فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وأنه سبحانه ما غاب عنه شيء عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها. وقد يشكل على البعض كيف أنه سبحانه يسأل الرسل، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه؟

والجواب: أن سؤال الله لهم ليس بمسألة استرشاد أو تعرف ما هو غير عالم به، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخبر، بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتنذركم عذابي وعقابي؟

وقد أخبر جل ثناؤه أنه قائل لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهر مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعد

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في القيامة وشأن الحساب والقصاص، رقم ٢٣٥٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢١، رقم ٧٣٠٠.

توبيخ وتقرير[1].

قال ابن عباس: (لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا؟)[2].

أما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا:ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقيل للرسل: هل بلغتم ما أرسلتم به ؟ أو قيل لهم: ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به ؟

كما قال جل ثناؤه لأمة نبينامحمدصلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فكل ذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر[3].

فسؤال المجرمين تقرير وتوبيخ وإفضاح، وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح[4].

فأما الذي هو عن الله منفي من مسألته خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول، ليعلم السائل علم ذلك من قبله، فذلك غير جائز أن يوصف به الله سبحانه وتعالى، لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها جل ثناؤه عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: لا يسأل عن ذلك أحد منهم مستثبت، ليعلم علم ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره[5].

من جميع ما سبق تظهر الخصائص التالية لسؤاله سبحانه خلقه:

- أنه سؤال يعم جميع المكلفين.
- أنه سؤال بعلم، فلا يقصد به الاسترشاد أو المعرفة.
- أن غاية السؤال: التوبيخ والتبكيت، أو التقرير، أو الاستشهاد والإفصاح.
- أنه سؤال يفيد الخبر.

## خامسًا: كيف يرتب السائل المسؤولية:

إن الله سبحانه وتعالى لا يسأل الناس ويحاسبهم دون موجب، بل إنه سبحانه

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧-٣٠٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ١٦٤.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧-٣٠٩.

قدم بين يدي السؤال ما تكون به الحجة للمجيب أو عليه، فإنه سبحانه أسند وعهد إلى عباده بمسؤوليات، ثم هداهم - توجيهًا - وأرشدهم إلى كيفية أدائها وما يترتب على الأداء والإخلال، وأخذ سبحانه على نفسه إحصاء أعمالهم وكتابتها والإشهاد عليهم، ثم إنه سبحانه وتعالى يجمعهم بقدرته لا يتخلف منهم أحد، ثم إنه سبحانه بعد ذلك يسألهم محاسبًا، ويوفيهم حسابهم. ومن هذا الترتيب تظهر مراتب المسؤولية التي رتب الله سبحانه؛ وهي: العهد والإسناد، الهداية والإرشاد، الرقابة والإحصاء والإشهاد، الإرجاع والجمع، والسؤال حسابًا والجزاء.

**العهد والإيجاب والإسناد:**

العهد يطلق على الأمر والوصية؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ١٨٣].

أي: أمرنا وأوصانا[١].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

والعهد اليمين والعهد الالتزام بشيء، يقال: عهد إليه وتعهد إليه؛ لأنها أمور لا يزال صاحبها يتذكرها ويراعيها في مواقع الاحتراز عن خفرها[٢].

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٤٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٧٠.

والعهد في الآية الذي أخذه الله على بني آدم أن لا يعبدوا غيره، فنقضه يشمل الشرك وقد وصف الله المشركين بنقض العهد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وفسر بالعهد الذي أخذه الله على الأمم على ألسنة رسلهم أنهم إذا بعث بعدهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

و(عهد الله) هو ما عهد به أي: ما أوصى برعيه وحفاظه[٣].

وهذا السؤال في آية يس معناه الخبر والقصص، والمقصود به التوبيخ والتقرير[٤]، فإنه تعالى يقول للمجرمين وقد فرق بينهم وبين المؤمنين: ألم أوصكم وآمركم في الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله وأقول لكم: إن الشيطان لكم عدو مبين[٥]. وجعلت ذلك مسؤولية مسندة إليكم.

والعهد يقتضي في معناه الميثاق والاتفاق، فإن الله قد أخذ الميثاق على عباده أنه من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٦٩.
(٤) المصدر السابق ٢٠/ ٥٤٢.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧.

حاسبه بما هو أهله فإما عفا عنه وإما عذبه ثم عفا عنه، وإما خلده في العذاب، والآيات القرآنية متواترة في ذلك.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وبمعنى الأمر والإيجاب قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٨].

قال الشنقيطي: وقضى ربك معناه: أمر وألزم، وأوجب ووصى ألا تعبدوا إلا إياه(١).

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر(٢).

فالذي يسند المسؤوليات حقيق بالسؤال عنها، ولذلك أوضح الله عز وجل في السياق السابق أن المسؤوليات التي أسندها إلى عباده سيسألهم عنها، وأن السؤال لا يتعلق بعمل الجوارح فقط في أداء المسؤوليات، بل يتعلق كذلك بالتلقي والقبول.

والخلاصة أن الله كلف العباد وألزمهم وأوجب عليهم مسؤوليات على الجملة والتفصيل، وهو سائلهم عنها بموجب كونه

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢٣٧.

المسند لها والعاهد بها.

**الهداية والإرشاد:**

تبين آيات القرآن الكريم أن الله هدى عباده وأرشدهم إلى كيفية أداء هذه المسؤوليات التي عهد بها إليهم، وأنه سبحانه أعلمهم بعواقب اختيارهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٣-٥].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ إنا بينا له طريق الجنة، وعرفناه سبيله[1].

وقال ابن كثير: أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد -في المشهور عنه- والجمهور[2].

ثم إنه سبحانه وضح عواقب اختيارهم، فالسلاسل والأغلال والسعير معدة للكافرين، أما الأبرار فإن مآلهم الشراب الهنيء والفضل الكبير.

وتظهر آيات القرآن الكريم -كما في الآية الآنفة الذكر من سورة فصلت- أن الله سبحانه وتعالى أرشد كل أمة إلى سبيل الرشد والخير، وبين لهم عواقب الغي والفساد، وأنه سبحانه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، والقرآن الكريم ذاخر بقصص الرسل مع أقوامهم؛ كيف دعوهم إلى الحق وبينوا لهم سبيل الرشاد.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ٤].

وهذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم[3].

فالهداية والإرشاد تأتي في المرتبة بعد العهد والإيجاب، وهي الدلالة على السبيل المؤدي إلى أداء المسؤوليات المعهود بها على وجهها الأتم، والتعريف بالسبل التي تصد عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

**المراقبة والإحصاء والإشهاد:**

إن الله سبحانه بعد أن عهد بالمسؤوليات،

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٧٧.

وأرشد إلى سبيل أدائها، أخبر أنه سبحانه يراقب أعمال العباد ويحصيها عليهم ويشهد عليها، مع أنه سبحانه العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددا، لا يخفى عليه شيء، يعلم الغيب والسر وأخفى.

قال سبحانه في المراقبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

والمعنى: أن الله لم يزل عليكم رقيبًا، أي: حفيظًا، محصيًا عليكم أعمالكم[١].

وقال عز من قائل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أي: راقبًا أو مراقبًا بمعنى حافظًا ومطلعًا على كل شيء فاحذروا تجاوز حدوده سبحانه وتخطي حلاله إلى حرامه[٢].

وقال سبحانه في الإحصاء: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

أي: أنه سبحانه يبعث الرجال والنساء جميعًا من قبورهم في حالة واحدة فيخبرهم بما عملوا في الدنيا، وأنه سبحانه قد أحصى ذلك عليهم، أي: ضبطه وأثبته وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، ونسوه هم حتى ذكرهم به في صحائفهم، والله على كل شيء من أمر خلقه شاهد يعلمه ويحيط به، فلا يعزب عنه شيء[٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ [النبأ: ٢١-٢٩].

أي: وكل شيء أحصيناه فكتبناه كتابا، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فلا يعزب عنا علم شيء منه[٤].

وكل شيء من قليل وكثير، وخير وشر مكتوب في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أن يعذبوا بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩][٥].

وفي الإشهاد: قال ابن زيد: الأشهاد أربعة:

أولها: الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد. قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ ق: ٢١ ].

وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٥٢١.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٢/ ٦٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٢٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٤١.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ١٦٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٠٦.

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱﴾ [ق: ١٨].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وثانيها: شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ⑪﴾ [النساء: ٤١].

وثالثها: شهادة أمة محمد خاصة. قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ⑤١﴾ [غافر: ٥١].

ورابعها: شهادة الجوارح وهي بمنزلة الإقرار بل أعجب منه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑥٥﴾ [يس: ٦٥][1].

والإشهاد دلالة على تمام عدله سبحانه، حتى إنه سبحانه يفسح المجال للمجادلة وإيراد الحجج يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتستشهد، كما في آية يس السابقة: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑥٥﴾ [يس: ٦٥].

قال ابن كثير: فهذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، فإنهم إذ ينكرون ما اجترموه ويحلفون أنهم ما فعلوه، يختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم[2].

وفي الصحيح عن أنس بن مالكٍ، قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: (هل تدرون مم أضحك؟)، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب: ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٨٥-٥٨٦.

أناضل)[1].

قال صالح بن عبد القدوس -وهو أحد شعراء العصر العباسي-:

واذكر مناقشة الحساب فإنه
لا بد يحصى ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نسيته
بل أثبتاه و أنت لاه تلعب

**الجمع والسؤال والحساب:**

إن الله سبحانه بعد أن عهد إلى عباده أمره، وهداهم وأرشدهم وإلى طريق الفلاح دلهم، وأخبرهم بأنه رقيب عليهم، وأنه يحصي عليهم أعمالهم و يشهد عليهم، بعد هذا كله توعدهم بأنه سبحانه جامعهم جميعًا لا محالة، وسائلهم عما عهد إليهم، ومحاسبهم على أعمالهم.

قال سبحانه في الجمع: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

يعني: أنه يجمعكم جميعا أولكم وآخركم، وصغيركم وكبيركم أحياء ليوم القيامة فلا تشكوا في ذلك، فإن الأمر كما وصفت لكم[2].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٩].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

وقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فالقرآن الكريم أثبت الجمع، وأنه واقع لا محالة، وأنه الجميع مجموع، وذلك في آيات كثيرة.

وقال سبحانه في السؤال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فإن الله بعد أن يجمع الخلائق ليوم القيامة يسأل المرسل إليهم عما أجابوا رسله، ويسأل الرسل عن تبليغ الدعوة لأقوامهم حتى يكون أبلغ في التبكيت على من خالفهم، وقد مضى بيان ذلك. والآيات والواردة في السؤال والمحاسبة كثيرة وقد مضى ذكرها.

وقال سبحانه في المحاسبة: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:

---

(١) أخرجه مسلم ٥٢٧٥، كتاب الزهد والرقائق.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٨٠.

[٢٥-٢٦].

فالمرجع والمنقلب إلى الله سبحانه، والحساب والجزاء عليه سبحانه على وفق العمل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر[١].

وقال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال الطبري: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ يعني بذلك: يحتسب به عليكم من أعمالكم، فمجاز من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر لمن شاء منكم من المسيئين[٢].

**القضاء والجزاء:**

قال سبحانه في القضاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس: ٩٣]؛ أي: يحكم بينهم ويفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي[٣].

والحكم والفصل بالعدل بين المتنازعين والمختلفين يقتضي الحساب والسؤال والتقرير بالوقائع. وقضاء الله مبني على العدل والإحسان، فلا تظلم نفس شيئًا.

قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه في الجزاء: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهو إخبار عن قيله يوم القيامة حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب؛ يقول: اليوم يثاب كل عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه[٤].

وقال جل من قائل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢].

كما في الحديث القدسي: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[٥].

وقال سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

أي: يجزى الإنسان بسعيه الجزاء الأكمل والأتم[٦].

والآيات في ذكر الجزاء وترتيبه بعد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٨٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٠١-١٠٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٨١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٨٠.
(٦) معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٤١٧.

الابتلاء كثيرة. والله سبحانه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم إذ يعفو عن كثير، فلا يحاسب المؤمنين بحديث النفس، ويغفر الكثير من الخطأ والزلات، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وقد جمع الله سبحانه في آية الأنعام المعاني السابقة؛ فقال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فالرد كالرجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨][1]، قيل: يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق مالك الكل ومتولي الأمور، الذي له القضاء دون خلقه، وهو إذا حاسب فحسابه سريع؛ لأنه لا يحتاج إلى فكرة ورؤية وعقد يد[2]، بل إنه سبحانه أسرع من يحاسب فلا يتأخر جزاؤه[3].

(١) المفردات، الراغب الأصبهاني، ١/ ٣٩٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٥١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٨٠.

## المسؤول

### أولًا: الرسل عليهم السلام:

والرسل عليهم السلام في القرآن: هم من اختارهم الله سبحانه واصطفاهم من الملائكة والناس، وكلفهم بإنفاذ ما شاء من قدره، أو بلاغ ما شاء من رسالاته وشرعه؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

فالملائكة رسل الله فيما شاء من شرعه وقدره، ورسله من الناس لإبلاغ رسالاته، وهو سميع لأقوال عباده بصير بهم عليم بمن يستحق ذلك منهم، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤][4].

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

قال: بالرسالة والعذاب[5].

أما الملائكة فإنهم مجبولون على الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال سبحانه ردًا على من قال إن الملائكة بنات الله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٥٤.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٨.

﴿يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

فأبطل الله سبحانه دعوى القائلين بذلك، بوصفهم بأنهم عباد مكرمون بكرامته سبحانه لهم، مقربون عنده، وبأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يقولون شيئًا حتى يقوله، أو يأمرهم به، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم. ثم وصفهم بأنهم العاملون بما يأمرهم به سبحانه، التابعون المطيعون له[1]. وبمثل هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

قال السعدي: وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا، ولم يستثن منهم أحدًا، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره[2]. فلا يقع عليهم السؤال والمحاسبة إذ لا تقع عليهم المسؤولية والتبعة. وهذا هو الأصل.

وأما الرسل من البشر، فالمسؤولية في حقهم ثابتة، وسؤالهم في القرآن وارد في غير موضع؛ قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

يعني لنسألن الأمم عن إجابتهم الرسل، ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عن الإبلاغ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا[3].

مقاصد سؤال الرسل:

إن الرسل أحرى الخلق بالاستقامة على الحق، ولكن ثبت سؤالهم في القرآن الكريم في غير موضع، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

والرسل يسألون عن الإبلاغ كما تقدم، والله سبحانه غير غائب عن خبرهم بل يعلم جميع ذلك، فلم يسألهم؟ والجواب أن الله سبحانه يسأل الرسل يوم القيامة لمقاصد عظيمة؛ منها:

١. إقامة الشهادة.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٩٣٣-٩٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٠٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢١٤.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فهذه الآيات توضح أن سؤال الرسل عن البلاغ إقامة للشهادة على أقوامهم بأن أمر الله ودعوته وعهده قد وصلتهم، كما يشهد الرسل على إجابتهم ما داموا فيهم، كما جاء في التنزيل على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

٢. تبكيت وتوبيخ المكذبين وتحقيرهم.

وذلك لما يرون من تبرؤ معبوديهم من عبادتهم، وإثبات وصول دعوة الحق لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

قال القرطبي: واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين؛ أحدهما: أنه سأله عن ذلك توبيخا لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع[1].

تعريف الرسل بما غير أقوامهم من بعدهم: وهذا هو القول الثاني في الآية السابقة، فإنه سبحانه بهذا السؤال قصد تعريف عيسى عليه السلام أن قومه غيروا بعده، وادعوا عليه ما لم يقله[2].

سلوك الرسل حال السؤال:

يظهر الرسل حال سؤالهم عظيم تنزيههم لربهم وتعظيمه ومعرفة قدره سبحانه، وعظيم امتثالهم لأمره وشرعه، وعظيم تواضعهم لله وافتقارهم إليه، واستحالة ادعائهم ما ليس لهم بحق، وجواب عيسى عليه السلام عن السؤال مثال بين على ذلك.

وفي سورة المائدة يسأل الله سبحانه الرسل عما أجابتهم أممهم، وكيف ردوا عليهم حين دعوهم إلى طاعته وتوحيده، قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فردوا إليه سبحانه العلم إذ أجلوه وتأدبوا

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٢١-١٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٣٧٥.
(٢) المصادر السابقة.

معه فيما عندهم من العلم، وفزعوا من هول يوم القيامة، واعترفوا بفوات ما غاب منهم مما هو في صدور الناس، أو مما أحدثوا بعدهم، ومما كان من عاقبة أمرهم[1].

وفي سلوك الرسل حال السؤال إظهار منهجهم في أداء رسالاتهم وأنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه، كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكمال تأدبهم مع الله سبحانه، والتسليم لأمره ولحكمته.

مسؤولية الرسل:

مسؤولية الرسل في مقام الرسالة تقتصر على البلاغ المبين؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا سؤال استنكاري يفيد تقرير أن الرسل ليس عليهم إلا التبليغ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة[2].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه الآية تحتمل أن تكون من كلام إبراهيم عليه السلام تكملة لما سبق من كلامه، ويكون المعني بالرسول -بالتالي- إبراهيم، وهذا إظهار في مقام الإضمار لتقرير أن واجب الرسول - أي رسول- هو إبلاغ ما أرسل به بينًا واضحًا[3].

وقال تعالى على لسان الثلاثة الرسل في معرض ضرب المثل لمشركي قريش بأصحاب القرية: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧﴾ [يس: ١٦-١٧].

وقد جاء بيان أن مسؤولية الرسل في مقام الرسالة مقتصر على البلاغ المبين في مقام التهديد والوعيد خطابًا للمرسل إليهم، كما جاء في مقام التسلية والتعزية والتخفيف خطابًا للرسل؛ فمما جاء خطابًا للمرسل إليهم قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

قال أبو جعفر الطبري: وهذا من الله تعالى ذكره تهديد لعباده ووعيد، فمهمة الرسول أن يؤدي إليكم رسالتنا، والله المطلع على المطيع والعاصي؛ لأنه يعلم ما عمله العامل في الظاهر بجوارحه، وما أخفاه في نفسه من إيمان وكفر أو يقين وشك ونفاق[4].

ومن ذلك أيضًا قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا۟

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١١٥-١١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٢٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٠٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٤٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٧.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٩٦.

﴿اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وهذه الآية أيضًا في مقام التهديد والوعيد؛ فهو سبحانه يقول للناس: إن الرسول قد أعذر إليكم بالإبلاغ والله ولي الانتقام ممن عصاه وخالف أمره[١].

ومما جاء خطابًا للرسل قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أن يخفف عن نفسه، ولا تذهب نفسه حسرات عليهم إن قابلوه بالإعراض وعدم الاستجابة، فيخبره سبحانه أنه ليس عليه من لوم ولا عذل إذ أدى ما عليه من بلاغ ما أرسل به بينًا واضحًا[٢]، ويقول له: فلا عليك منهم[٣].

ومنه أيضًا قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وتعني: أن الله لم يرسلك رقيبًا تحفظ أعمالهم وتحصيها، فإن أعرضوا ولم يستجيبوا لك فدعهم، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم، فإذا بلغتهم فقد أديت ما عليك[٤].

فيظهر من ذلك كله أن مخاطبة المرسل إليهم عن انحصار مهمة الرسل في البلاغ المبين فحواه: التهديد والوعيد بأن خصمهم ليس هو الرسول وإنما من بعثه وهو الله سبحانه وليسوا بأهل لخصومته. ويظهر أن الغرض من مخاطبة المرسلين بذات الخطاب؛ وهو: التخفيف عنهم، وتسليتهم، وبيان لحدود واجبهم.

والرسل في مقام العبودية مخاطبون بفروع الشريعة كما هو شأن عامة المؤمنين، وبالتالي فهم مسؤولون عما أسند إلى عامة المؤمنين من مسؤوليات، فليس معنى اقتصار مسؤوليتهم على البلاغ أنهم غير مخاطبين بفروع الشريعة، بل إن الله سبحانه أمرهم بما أمر به المؤمنين، لكنها مسؤولية خاصة.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٤٢٢.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٢٧٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٩٢.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٥٦.

لذلك)[1].

ثانيًا: المؤمنون:

إن الله سبحانه كما يسأل الرسل فإنه يسأل المؤمنين، وقد ثبت في القرآن مسؤولية المؤمنين في غير ما آية.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

يأتي هذا الحديث في معرض وصايا للمؤمنين، حيث أمرهم الله سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما أمرهم بالوفاء بعهد الله ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وغيرها. وهذا السياق يدل على أن المسؤولين هم المؤمنون. فالمؤمنون مسؤولون يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

وجملة الأقوال في المقصود بالصادقين أربعة؛ منها: ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، فيشمل بذلك المؤمنين.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤ ].

رجح القرطبي أن يكون المقصود بالذكر هنا القرآن لانبناء الكلام عليه ورجوع المصير إليه.

وأشار الماوردي[2] إلى قولين في قوله تعالى ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ أحدهما: من اتبعك من أمتك، والثاني: لقومك من قريش.

والصحيح أنه شرف لمن عمل به، كان من قريش أو من غيرهم.

وقد وردت الأدلة المتكاثرة أنه لا فضل إلا بالتقوى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)[3].

فيكون المقصود بقومك المؤمنون، ويكون السؤال عن الشكر عن رفع القدر بهذا القرآن، أو تسألون على ما أوتيتم. وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفراء. وقال ابن جريج: أي: تسألون أنت ومن معك على ما أتاك. وقيل: تسألون عما عملتم فيه؛ والمعنى متقارب[4].

كذلك فقد ثبت في القرآن الكريم أن أمة الإجابة تشهد، ولا تكون الشهادة إلا إجابة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٦٩٢.

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٢٢٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ١٣٥٩. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٤.

عن سؤال.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمة الإجابة هم المؤمنون في الجملة.

## ثالثًا: الكافرون:

إن سؤال الكافرين ثابت في القرآن في آيات كثيرة جدًا، وسؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

وقد يشكل على البعض سؤال الكافر بسبب بعض الآيات التي تشير إلى حجب الكفار وعدم سؤالهم وعدم تكليمهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله عز من قائل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

والذي يظهر أنهم مسؤولون لآية الحجر السابقة، ولقوله سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٧.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦][1].

وقد جمع القرطبي توجيهات الجمع بين الآيات عند أهل العلم في وجهين؛ الوجه الأول: أن القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. وهو قول عكرمة؛ قال: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. الوجه الثاني: وهو قول ابن عباس؛ قال: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ، لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قطرب هذا القول[2]؛ فقال: السؤال ضربان، سؤال استعلام، وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ يعني: استعلاما.

وقوله سبحانه: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: توبيخا وتقريعًا[3].

وقيل: لنسألنهم أجمعين يعني المؤمنين المكلفين، بيانه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

والقول بالعموم أولى كما ذكر[4].

ويحتمل في الحديث عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم أحدٌ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمانٌ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرةٍ)[5] أن يكون المقصود المؤمنون، كما يحتمل أن يكون المقصود العموم.

## رابعًا: المنافقون:

المنافقون هم آفة هذه الأمة، والنفاق في اللغة من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان الشر، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر؛ وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهو النفاق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر؛ وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦١.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٦٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم ١٦٩٤.

صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك[1].

وأصول هذا النوع ترجع إلى خمس خصال ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: (آية المنافق ثلاثٌ، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[2].

وفي الحديث الآخر قال: (أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها إذا، اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[3].

وهي: الكذب، إخلاف الوعد، الفجور في الخصومة، الغدر بالعهد، والخيانة في الأمانة[4].

خص ربنا سبحانه وتعالى المنافقين بالذكر في سورة كاملة بين فيها سبيل النجاة من سبيلهم، وعرف بهم في آيات كثيرة من القرآن.

قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون: ١-٣].

فوصفهم سبحانه بالكذب، وبأن أيمانهم وحلفهم بأنهم منكم ادعاء يريدون به حماية أنفسهم وأموالهم وذراريهم[5]، والإعراض والصد عن سبيل الله، وإضعاف المؤمنين من خلال التغلغل في نسيجهم.

قال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة: ٤٧].

وقد دل القرآن الكريم على إمارات التعرف إليهم، والتي تظهر في أقوالهم وأفعالهم.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

فوصف من أقوالهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

قال سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٩٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٩١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٨٢-٤٨٨.

(٥) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٩٤.

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ [التوبة: ٦٧].

ووصف منها أيضًا: الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، ويروغون عن مسؤولية قولهم هذا بكونه مجرد خوض ولعب.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ووصف من أفعالهم التكاسل عن الصلاة، بل إنهم كانوا في عهد رسول الله يغيبون عن صلاتي العشاء والفجر من أجل أن العتمة تخفي الوجوه فلا يعرف الحاضر من الغائب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ووصف كذلك من أفعالهم موالاة الكفار وأعداء الأمة المسلمة.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

وبسبب سوء صنيعهم الذي يشكل معاول لهدم الصف المسلم، وهدم قيمه وثوابته، توعدهم الله سبحانه أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقد جمع القرآن بين صفاتهم وبيان أنهم سيسألون ويحاسبون، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٢-١٥].

والآيات جاءت في وصف أحداث غزوة الأحزاب حين حاصرت جموع المشركين المدينة، فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وابتلي المؤمنون أشد البلاء، وأظهرت شدة البلاء ما في قلوب المنافقين من الغيظ، هنالك ادعى المنافقون أن وعد الله ورسوله بالنصر متخلف، وسعى فريق منهم للتخذيل، وفريق سعى للفرار والنأي بنفسه بادعاءات كاذبة وحجج واهية، وأخبر

الله سبحانه أنهم لو دخلت عليهم جيوش المشركين التي يريدون قتالها من أطراف المدينة ثم سئلوا أن يكفروا لكفروا، يحملهم على ذلك: الخوف منهم، وخبث الفتنة التي هم عليها من النفاق عليه. والفتنة هي الكفر، وهي التي يقول الله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

أي: الكفر. هذا مع كونهم كانوا عاهدوا الله من قبل ذلك، ألا يولوا عدوهم الأدبار إن لقوهم في مشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، فما أوفوا بعهدهم ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: فيسأل الله ذلك من أعطاه إياه من نفسه[(١)].

ومن عجيب أمر المنافقين أنهم عند السؤال والحساب يكذبون ويحلفون على الكذب كما كانوا يفعلون في الدنيا، قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فانظر إلى أقوالهم وأفعالهم، وانظر إلى وعد الله لهم بسؤالهم عن عهدهم معه، وانظر إلى جدالهم ربهم عند الحساب، وانظر إلى عاقبة أمر المنافقين، تعرف أن المنافقين من شر العباد.

ويلاحظ أن ذكر السؤال في حق المنافقين رغم سيء أفعالهم، وخبيث خصالهم لم يرد إلا في موضع سورة الأحزاب، وأن الموضع الذي ذكر فيه هو موضع الخيانة والخذلان والتخذيل، ويشير ذلك إلى أن شر المنافقين الأساسي، وضررهم الأكبر يتمثل في هذه الأعمال التي تستهدف تماسك الأمة وروحها المعنوية.

### خامسًا: الولاة:

يخبر القرآن الكريم أن الولاية محل للسؤال، وأن الولاة مسؤولون مهما كانت درجة ولايتهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد رأى كثير من المفسرين أن هذه الآية خاصة بالأمراء، قال أبو جعفر الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في الآية التالية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٢١-٢٢٨.

بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة، وبمثل هذا القول قال زيد بن أسلم[1].

ورأت طائفة من المفسرين أن المقصود بها العموم.

قال ابن كثير: وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك. فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة[2].

ورأت طائفة ثالثة أن المقصود بها قضاء الدين، ورد حقوق الناس[3].

قال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾: (قال ابن زيد: قال أبي:هم السلاطين، بدأ الله سبحانه بهم، فأمرهم بأداء الأمانة فيما لديهم من الفيء، وكل ما يدخل إلى بيت المال حتى يوصلوه إلى أربابه، وأمرهم بالحكم بين الناس بالعدل، وأمرنا بعد ذلك بطاعتهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩])،

(١) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤٩٠-٤٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤٩٣.

وأردف: (هذه الآية في أداء الأمانة والحكم عامة في الولاية والخلق، لأن كل مسلم عالم، بل كل مسلم حاكم ووال)[4].

فالقرآن هنا إذًا يشير إلى أن الأمانة عامة في كل أمر، وخص بالذكر منها الحكم بعد العموم تنويهًا بكونه أعلى الأمانات شأنًا، وأعظم التكاليف مسؤولية، فإن الولاية العامة تدخل في باب الأمانة باعتبارها رأس الأمانات والتي عليها قوام حياة الناس ومعاشهم، وصلاح دنياهم وأخراهم؛ وفي الحديث عن أبي ذرٍ قال: (قلت يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال: (يا أبا ذرٍ إنك ضعيفٌ وإنها أمانةٌ وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)[5].

والولاة مسؤولون على مختلف مواقعهم ومراتبهم ومسؤولياتهم، من كان منهم أمير الناس، ومن كان عبدًا عاملًا في مال سيده؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته، الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته)، قال: وحسبت أن قد قال والرجل راعٍ في مال أبيه

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٥٧٢.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤١٠.

ومسئولٌ عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيته)[1].

إلا أن أشد الناس مسؤولية الذي يكون على رأس الناس، وهو أمير العامة، ويتأكد عظم هذه المسؤولية بما توعد به ربنا سبحانه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وبما حذر منه رسولنا صلى الله عليه وسلم الحاكم الظالم الجائر أو الغاش لرعيته، أو المحتجب دون خلتهم وحاجتهم؛ فقال: (ما من والٍ يلي رعيةً من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرم الله عليه الجنة)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم)، قال أبو معاوية: (ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ، شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ)[3].

والقرآن مع بيان مهام المسؤولين من الولاة، فإنه يوضح المزالق التي تسبب لهم الكبوات والنكبات لا سيما في ولاية العامة.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

قيل: هي في ولي اليتيم، يرفع المال إلى الحاكم يريد أكل شيء منه بحكمه، فهي في الولاية الخاصة، وقيل معناها: لا تحاجوا عند الحكام فترفعوا إليهم حججكم وأنتم تعلمون أن هذه الأموال التي أخذتموها من الناس إنما أكلتموها واغتصبتموها، وأنكم آثمون فيها، فإن حكم الحاكم أو القاضي لا يحل حرامًا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا بشرٌ، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار فليأخذها أو فليتركها)[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ٣٤١٤، عن عبد الله بن عمر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم ٦٦٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم ٢٠٧. عن معقل بن يسار.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم ١٥٩. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو

وقيل: إن المعنى: لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها.

قال ابن عطية: وهذا القول يترجح؛ لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل، وأيضا فإن اللفظين متناسبان: تدلوا من إرسال الدلو، والرشوة من الرشاء، كأنه يمد بها ليقضي الحاجة. ويقوي هذا عطف تدلوا على تأكلوا في موضع الجزم.

وفي مصحف أبي: (ولا تدلوا) بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم تدلوا في قراءة الجماعة.

وقيل: (تدلوا) في موضع نصب على الظرف، والذي ينصب في مثل هذا عندسيبويه (أن) مضمرة، والهاء في قوله (بها) ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأول إلى الحجة ولم يجر لها ذكر، فقوي القول الثاني لذكر الأموال، والله أعلم.

والرشوة معروفة، والرشوة بالضم مثله، والجمع رشى ورشى، وقد رشاه يرشوه، وارتشى: أخذ الرشوة، واسترشى في حكمه: طلب الرشوة عليه[(١)].

من جملة ما سبق يظهر أن الولاة المسؤولين هم: جميع من استرعي أو ائتمن على رعية أو مال قل ذلك أو كثر. وهم مع التخويف من إهمال مسؤولياتهم موعودون إن أدوها ورعوها حق رعايتها بالأجر العظيم والفضل الكبير؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن المقسطين عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمينٌ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)**[(٢)].

ويعرف أخذ الأمانة بحقها، وأداء الذي على المرء فيها بالشرع، فإن الحكم بالعدل إنما يكون على وفق ما أنزل الله، لا أهواء الخلق.

قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

---

يعلمه، رقم ٢٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم ٣٢٣٨. عن أم سلمة رضي الله عنها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ٣٤١٢. عن عبد الله بن عمرو.

## المسؤول عنه

### أولًا: الرسالة:

يسأل الله سبحانه وتعالى عن الرسالة من ناحيتين، والمقصد من سؤاله ليس الاستعلام ولكن ما يترتب عليه.

يسأل الله سبحانه وتعالى المرسلين عن الرسالة من ناحية تبليغها، وناحية الاستجابة لها.

قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فيسأل الرسل: هل بلغتم الرسالة؟، ويسأل الذين أرسل إليهم: هل بلغتكم الرسالة؟. والسؤال عن الرسالة لا يعني الاستفهام المفضي إلى العلم -كما سبق بيانه- فالله سبحانه وتعالى عالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا لمحاسبة الرسل عن تبليغهم الرسالة لعلمه أنهم صادقون، ولكن لتبكيت الكافرين[1]، ولإقامة الحجة على المكذبين، بأن الرسل بلغوا ما عليهم من الرسالة بلاغًا مبينًا، إذ أن عدم البلاغ حجة لهم على ترك العمل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].

فيتحقق على الكافرين السؤال، ويحتاروا في الإجابة.

قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: ٦٥-٦٦].

وثبت هذا أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٧-٨].

قال القرطبي: فيه أربعة أوجه:

أحدها: ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم،وفي هذا تنبيه، أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف من سواهم؟.

الثاني: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم.

الثالث: ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم.

الرابع: ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة[2].

وقال الطبري: يقول تعالى ذكره: أخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، ومافعل قومهم فيما أبلغوهم عن ربهم من

---

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٣٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٢٨.

الرسالة[1].

إن الله سبحانه يسأل الرسل عن إبلاغ الرسالة، ويسأل المرسل إليهم عن وصولها لإقامة الحجة والبينة والبرهان على وصول الرسالة وتبليغها بأحسن بيان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

فالاحتجاج بانتفاء البلاغ سائغ، فكان سؤال الرسل عن الرسالة حجة في وصولها إلى المرسل إليهم، وكان سؤال المرسل إليهم عنها للتقرير والتبكيت.

قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وقدم سبحانه سؤال المرسل إليهم، ليكون جواب الرسل عن الرسالة شهادة عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

## ثانيًا: العهد مع الله ومع الناس:

قال الزجاج: العَهْدُ كل ما عُوهِدَ اللَّهُ عَلَيْه، وكل ما بينَ العِبَادِ من المواثيق فِهيَ عُهُود[2].

وقد صرح القرآن بالسؤال عن العهد؛ فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن عاشور: أمروا بالوفاء بالعهد، والتعريف في العهد للجنس المفيد للاستغراق[3]؛ فيشمل العهد مع الله ومع الناس. فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه، وما بين العباد بعضهم البعض. وقد رتب سبحانه على الوفاء بالعهد أجزل العطاء، كما رتب على إخلافه أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وتفصيل ذلك كالتالي:

### ١. العهد مع الله.

المراد بعهد الله: كل عهد يوثقه الإنسان مع ربه[4].

وفي القرآن أتى الأمر واضحًا جليًا

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢١٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٣٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٩٧.

(٤) المصدر السابق ٢١/ ٢٨٩.

بالوفاء بعهد الله؛ قال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أي: أوفوا بوصية الله التي أوصاكم، بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم، وأن تعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فبهذا يكون الوفاء بعهد الله[١].

وأتى التحذير والوعيد والتهديد من الإخلال بالعهد بأن الله عز وجل سيسأل عن عهده سبحانه الذين عاهدوه[٢].

قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وقد تضمنت الآية مع التهديد: الوعد والتأكيد بأن الله سائل عن العهد لا محالة[٣]، وأن سؤاله سبحانه عن العهد يكون تبكيتًا لناقضه[٤].

قال الطاهر بن عاشور: وعهد الله المأمور بالإيفاء به هو كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة، إذ الإضافة هنا يصح أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: ما عهد الله به إليكم من الشرائع، ويصح أن تكون إلى مفعوله، أي: ما عاهدتم الله أن تفعلوه والتزمتموه وتقلدتموه، ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي: العهد الذي أمر الله بحفظه، وحذر من ختره، وهو العهود التي تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد.

ولأجل مراعاة هذه المعاني الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل، بأن يقال: وبما عاهدتم الله عليه، أو نحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحدًا.

وإذ كان الخطاب بقوله: (تعالوا) للمشركين تعين أن يكون العهد شيئا قد تقررت معرفته بينهم، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاةوالصلح أو نحو ذلك، فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه. وأضيف إلى الله لأنهم كانوا يتحالفون عند التعاقد ولذلك يسمون العهد حلفًا.

فالآية آمرة لهم بالوفاء، وكان العرب يتمادحون به. ومن العهود المقررة بينهم: حلف الفضول، وحلف المطيبين، وكلاهما كان في الجاهلية على نفي الظلم والجور عن القاطنين بمكة، وذلك تحقيق لعهد الله لإبراهيم عليه السلام أن يجعل مكة بلدًا آمنا ومن دخله كان آمنًا.

وقد اعتدى المشركون على ضعفاء المؤمنين وظلموهم مثل عمار،وبلال، وعامر بن فهيرة، ونحوهم، فهو يقول لهم

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٢٢٥-٢٢٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٨٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩٠.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٨٢٢.

فيما يتلو عليهم أن خفر عهد الله بأمان مكة،وخفر عهودكم بذلك أولى بأن تحرموه من مزاعمكم الكاذبة فيما حرمتم وفصلتم، فهذا هو الوجه في تفسير قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بأمر العهد وصرف ذهن السامع عنه، ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء، أي: إن كنتم ترون الوفاء بالعهد مدحة فعهد الله أولى بالوفاء وأنتم قد اخترتموه[1].

والقرآن يخبرنا عن أصناف من الناس عاهدوا الله من عند أنفسهم ابتداء، لئن آتاهم من فضله ليتصدقن، يرجون بذلك نواله وفضله.

قال سبحانه: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

لكنهم أخلفوا عهدهم فأعقبهم الله سبحانه وتعالى نفاقًا في قلوبهم جزاء وفاقًا.

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة: ٧٦-٧٧].

فدل على أن ما يلتزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد ربه عليه[2].

وبين القرآن أن من نقض العهد مع اللهإنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبين في موضع آخر: أن نقض الميثاق والعهد يستوجب اللعن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ [المائدة: ١٣][3].

وجزاءه سبحانه عن الوفاء بالعهد: توفيه الموفين بعهدهم معه سبحانه الجزاء الفاضل الذي وعدهم حال الوفاء بعهده، فجعله كالعهد منه سبحانه الذي يقابل العهد.

قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أمر وجوابه، وعهد الله المذكور هنا قيل: هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه فيدخل في ذلك ذكرمحمدصلى الله عليه وسلم الذي في التوراة وغيره، وهذا قول الجمهور من

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/ ١٧٠.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٤٣٩.

العلماء وهو الصحيح وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة. وما طلب من بني إسرائيل من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا - أمة محمد صلى الله عليه وسلم - فقال الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾[1].

ومع أن وفاءه سبحانه بعهده ووعده تفضل منه سبحانه إلا أنه أتى به في صورة جواب الشرط ويدل على اللزوم، قال الطبري: وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ من قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦]. إلى أنه معني به: وعدًا واجبًا، وذلك أن المسئول واجب، وإن لم يسأل كالدين، ويقول: ذلك نظير قول العرب، لأعطينك ألفًا وعدًا مسئولًا، بمعنى واجب لك فتسأله. وعن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ قال: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه[2].

فالوفاء بالعهد مع الله يأتي بالكرامة، ويكون عاقبة السؤال عليه خيرًا، أما الحنث والنكث فإن السؤال عن العهد به يكون تبكيتًا للمسؤول، والإخبار عن ذلك في القرآن تخويف وتحذير من النكث بالعهد مع الله سبحانه.

٢. **العهد مع الناس.**

إن القرآن كما يخبر عن السؤال عن العهد مع الله سبحانه، يشير إلى السؤال عن العهد مع الناس.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

والوفاء بالعهد مع الناس من مكارم الأخلاق ومحاسن الخلال التي لا خلاف فيها بين أهل العقول، لذلك فإن ربنا سبحانه يوصي ويوجب على أمة الإسلام الوفاء بالعهد، ويحذر سبحانه من النكوث بالعهود، وعدم الوفاء بالعقود، وأبلغ التحذير جعل العهد مسؤولًا عنه، محاسبًا عليه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: العهد شديد في عشرة مواضع من كتاب الله، وذكر: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[3].

وفي موضع آخر من القرآن قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

وهو أمر من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أن عهد الله المذكور شامل لجميع العهود فيما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٣٣٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٤٦-٢٤٧.
(٣) المغني، ابن قدامة، ٩/ ٤٠٠.

بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس[1].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان بالعدل والإحسان[2].

والقرآن ينبه إلى ضرورة الوفاء بالعهد والعقد، والذي ينشأ بموجبه حقٌّ للمعاهد، لاسيما إذا كان مؤكدًا وموثقًا بالأيمان، ويحذر من نقضه بعد توثيقه بالأيمان وتغليظه بأن جعل الله سبحانه عليه راعيًا، فأمر بعدم مخالفة الأمر الذي تم التعاقد عليه، ونهى عن الحنث في الأيمان المبرمة المؤكدة[3].

ونقض الأيمان: إبطال ما كانت لأجله، فالنقض إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجعل إبطال المحلوف عليه نقضًا لليمين في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ تهويلًا وتغليظًا للنقض؛ لأنه نقض لحرمة اليمين.

و﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ زيادة في التحذير، وليس قيدًا للنهي بالبعدية، إذ المقصود أيمان العهد والبيعة، و (بعد) هنا بمعنى (مع)، إذ أثرهما واحد هنا، وهو حصول توثيق الأيمان وتوكيدها، كقوله تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

والتوكيد: التوثيق وتكرير الفتل[4].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أشار بعض أهل التفسير إلى أن العهد هنا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده. واحتمال أن يراد به العهود بين الناس، وإضافة ذلك العهد إلى الله سبحانه هو من حيث كونه من أمر بحفظه والوفاء به[5].

والوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي، إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض[6].

والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل[7].

## ثالثًا: القرآن:

القرآن بيان للرسول وللأمة فيما بها إليه حاجة، وهو تذكرة بأمر الدين والعمل به، وهو شرف لمن عمل به، والقرآن مسؤول عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٤٣٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٦٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٨١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ٢٦١-٢٦٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ١٣٧.
(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٨٢٢.
(٧) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٤٩.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾ يعني: القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١].

فالقرآن ذكر وذو ذكر. وأرجح الأقوال في معنى كون القرآن ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ولقومه: أن القرآن شرف لك ولمن عمل به ممن اتبعك من أمتك؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فيبعد أن يكون فيه شرف لقومه صلى الله عليه وسلم الكافرين، لإخباره سبحانه أن القرآن لا يزيد الظالمين إلا خسارًا والشرف خلاف الخسران. فإن كان ثمة تنويه فالمؤمنون أحق به.

وقد جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين).

ومنها كذلك: أن القرآن بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة. وتذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به[(١)].

إن القرآن هو ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يستمسك بالذي أوحي إليه، ولا يعبأ باستجابة قومه له، مهما كان اختيارهم، وأي مصير من مصائر السابقين كان مآلهم.

وهو تذكير لقومه بمآل السابقين، وأحوال الكافرين، ومصائر المكذبين، وقضاء الله سبحانه فيهم. وسيكون السؤال للرسول عن البلاغ، وسيكون السؤال لقومه المرسل إليهم عن إجابتهم وعن وصول هذه التذكرة إليهم؛ كما قال سبحانه: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦].

فالمعنى الظاهر هو: أن القرآن تذكير لك ولقومك، ولا يعني تخصيص قومه بالذكر نفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠].

وكقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وسوف تسألون عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له[(٢)].

وقيل: سوف تسألون عن الشكر عليه

وقيل: تسألون أنت ومن معك على ما آتاك

وقيل: تسألون عما عملتم به[(٣)].

وكل هذه المعاني ترجع إلى أن القرآن مسؤول عنه، يسأل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ويسأل عنه من استجاب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٣، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٣.

له وعمل به، ومن أعرض عنه وصد كل بحسب حاله؛ فأما المستجيبون فيسألون عن مقدار استجابتهم، والإخبار عن السؤال في حقهم حض وحفز للعمل، وأما من أعرض وصد فالإخبار عن السؤال في حقه تهديد ووعيد، وسؤاله عن القرآن سؤال توبيخ وزجر وتقريع[1].

وكما قرر القرآن سؤال أمة الدعوة والإجابة عن القرآن وما فيه من الذكر والتذكرة، فإنه قرر كذلك سؤال المكذبين به الذين عابوه، وسخروا منه.

قال سبحانه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣].

قيل: إن المقتسمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمن كل منهم ببعض الكتاب الذي أنزل إليهم وكفروا ببعضه، وكفر اليهود بالإنجيل، وكفروا جميعًا بالقرآن.

وقيل: سمي أهل الكتاب بالمقتسمين، لأن بعضهم كان يقول لبعض استهزاء بالقرآن هذه السورة لي ويقول الآخر هذه السورة لي.

وقيل: إن المقتسمين قوم صالح الذين تقاسموا بالله لبيبتنه وأهله -وهو بعيد-.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٢٢٠.

وقيل: هم كفار قريش اقتسموا طرق مكة ومداخلها ليصدوا الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته بأن يقول فريق منهم للقادمين للحج والحرم: هو شاعر، وآخرون: هو ساحر، وفريق ثالث: هو كاهن.

وقيل: لأنهم -كفار قريش- اقتسموا القرآن بأن سماه بعضهم شعرًا، وبعضهم كهانة، وبعضهم أساطير الأولين[2].

وقال آخرون: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ المتحالفين[3].

و﴿عِضِينَ﴾ أي: أعضاء متفرقة، بمعنى قسموه أوزاعًا فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، فهو كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

وقيل: ﴿عِضِينَ﴾ بمعنى مقذوفًا ببهتان، وهو قول الكفار: شعر، كهانة، وسحر. وقيل معناه: السحر[4].

والظاهر أن السؤال في حق كل هؤلاء قائم، فإن معظم الكفار كانوا يقرون ببعض ما في القرآن مع كفرهم به، فهم يقرون بأن الله هو الرب الخالق الرازق المدبر؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٤٣-١٤٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٤٧.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٤٧-١٤٨.

﴿يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

بل إنهم يقرون بأن الله سبحانه خلقهم هم أنفسهم؛ قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

وأقر آخرون بأن ما في القرآن موافق لما في الكتب السماوية التي قبله لكنهم قالوا إن الذي يعلم رسول الله بشر عنده علم الكتاب؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

فرد عليهم القرآن فريتهم.

وعلى هذا فإن السؤال يمكن أن يكون شاملًا لكل من عضه القرآن، فإنهم جميعًا تحالفوا على حربه فقذفوه بالبهتان، بأن قال بعضهم: هو كلام بشر، وقال آخرون: هو شعر أو كهانة أو سحر، والله سبحانه سائلهم جميعًا عن أعمالهم تلك سؤال زجر وتبكيت وتقريع. كما قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠].

## رابعًا: الجوارح:

إن الجوارح هي نعم من نعم الله الكثيرة الجليلة على عباده، وهي أدوات العمل ووسائل إنفاذ الإرادة، والله سبحانه قرر في كتابه العزيز أنه سائل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده[1]؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والقفو في اللغة هو اتباع الأثر يقال: قفوت فلانا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره وبه سميت القافية لتتبعهم الآثار، مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور أي: يكون في أقفائها يتبعها ويتعرفها. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الإنسان هو المسئول عن السمع والبصر والفؤاد؛ لأنه يعمل بها إلى الطاعة والمعصية.

الثاني: أن السمع والبصر والفؤاد تسأل عن الإنسان؛ ليكونوا شهودًا عليه أو له بما فعل من طاعة وما ارتكب من معصية[2].

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ أي: كل هذه الجوارح والأعضاء. وعلى القول الأول يرجع (أولئك) إلى أربابها[3].

إن الجوارح رعية استرعاها الله الإنسان، وهي شاهدة عليه تنطق بما عمل بها. لذلك فإنه ينبغي للإنسان أن يحرص أشد الحرص ألا يفتري الكذب ويشهد الزور، فيقول رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٢٤٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٩٢-٩٣.

ولم يعلم، فإن الله تبارك وتعالى سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها وادعاه، من أنه سمع أو أبصر أو علم، فتشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق[(١)].

ويحتمل أن يكون المقصود النهي عن تقفي وتتبع وتعرف الأخبار وأحوال الخلق، فإن السمع والبصر أدوات تتبعها، والفؤاد أداة تعقلها وتدبرها وتخيلها، فيكون النهي عن القصد وهو تقفي الأخبار والعورات، ويكون التحذير عن إعمال أدواته وهي السمع والبصر في التتبع، والفؤاد في الإدراك، والله أعلم.

يدل السؤال عن الجوارح على النهي عن القول بلا علم، وعن سماع اللغو وعن النظر إلى الحرام، والحكم على الظن، وأنه سبحانه يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة، فيشهدن عليه[(٢)].

ونظيره قوله سبحانه في حادثة الإفك عمن تساهلوا في النقل والتحدث بما لم يتثبتوا منه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

فإن أولئك اتبع بعضهم أثر بعض، وحكى بعضهم عن بعض تقليدًا[(٣)]. كذلك نهى ربنا سبحانه عن تتبع الأخبار والعورات، وإطلاق أدواتها، ومصداقه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)[(٤)].

فالجوارح والحواس والقلب والعقل جميعًا أمانة يسأل الله سبحانه وتعالى عنها يوم القيامة[(٥)]، كما تسأل الجوارح عن عمل الإنسان وتشهد عليه، فهي رعية ضمن ما استرعاه الله سبحانه وتعالى، وحذر من هذه المسؤولية وأكد عليها بإثبات السؤال عنها يوم القيامة[(٦)].

وفي الحديث عن شكل بن حميد، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، علمني تعوذًا أتعوذ به، قال: فأخذ بكتفي، فقال: (قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي) يعني: فرجه[(٧)].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٤٦-٤٤٩.
(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٣١١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٧٥.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٢٣٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٣، رقم ٧٩٨٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٢٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٩.
(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم ١٣٣٠، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم ٣٤٣٨.

وليس في آية سورة النور السابقة دليل لمن يبطل الاجتهاد، لأن الاجتهاد يفضي إلى نوع من العلم، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فأقام سبحانه غالب الظن القائم على البحث والتحري والتثبت -أي: الاجتهاد- مقام العلم وأمر بالعمل به[(١)].

## خامسًا: الأقوال والأعمال:

يمثل الإتيان بالأقوال والأعمال والكف عنها القسم العملي من التكليف، والفعل والكف جميعه مسؤول عنه، فيؤجر الإنسان على ما وافق من ذلك الشرع، ويأثم ويعاقب على ما خالفه.

١ . المسؤولية عن الأقوال.

بين الله سبحانه أن الأقوال مسؤول عنها، وساق هذا المعنى في غير آية، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٨-٦٩].

وفي هذا الموضع من القرآن الكريم جاءت الإشارة الواضحة بأن الذين يخوضون في آيات الله استهزاء أو سبًا أو تكذيبًا أو تحريفًا أو غير ذلك من أنواع الخوض بالقول مسؤولون محاسبون، وأمر بالإعراض عنهم والصد عنهم والقيام وعدم الجلوس معهم، حال خوضهم، وأشار إلى أن الرضا بفعلهم هذا يدخل الإنسان في التبعة التي رتبها الله سبحانه على فعلهم، وأن من اتقى الله فخافه وأطاعه فيما أمره به واجتنب ما نهاه عنه، فلا تترتب عليه التبعة بعدم الإعراض فيما بينه وبين الله ما دام تركه الإعراض لم يكن عن رضًا بما هم فيه من الخوض وكان متقيًا، وأن الإعراض فائدته تذكيرهم وتنبيههم ليتقوا هذا الفعل ويتحاشوه[(٢)].

وقال البعض من أهل التفسير أن المقصود هو أنه ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. ويعضد القول الأخير آية النساء وهي لاحقة لآية الأنعام، حيث فيها إحالة إلى هذه الآية ومعناها.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى

---

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٧، رقم ١٢٩٢.

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٨٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٣٦-٤٣٩.

﴿جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال جماعة من أهل التفسير أن الأمر كان في أوله على آية الأنعام حتى جاءت آية النساء فنسختها[١].

وفي آية النساء إشارة إلى أن خطر الأقوال يتعدى قائلها إلى مستمعها ما لم ينكر بأن يكره أو يعرض. والجمع إشارة إلى المسؤولية المترتبة التي تستلزم الجمع للحساب. واستدل ابن العربي[٢] بآية الأنعام على صحة القول بوجوب الخروج من أرض البدعة مثل التي يسب فيها السلف، وهو قول مالك[٣].

إن من أعظم ما يسأل عنه الإنسان من الأقوال في القرآن الكريم الافتراء؛ وهو الكذب المختلق.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وفي الآية يخبر الله سبحانه وتعالى عن قبائح فعال المشركين وافترائهم عليه سبحانه بأن شرعوا دينًا لم يأذن به، وجعلوا له سبحانه أندادًا من الأصنام والأوثان، ثم إنهم بعد ذلك يجعلون نصيبًا مما رزقهم الله قرابين لهذه الطواغيت التي اتفكوها، بل ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٣٦﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كل ذلك من باب الافتراء والزعم والادعاء المجانب للعلم المتابع للهوى والشيطان، فأقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه واتفكوه تبكيتًا وتوبيخًا، وليقابلنهم بشر ما عملوا جزاء وفاقًا[٤].

وهذه الآية تدل على أن أشنع الأقوال ما أسس للإشراك بالله، وأن الكلام في مسائل الألوهية والربوبية والأسماء والصفات عن جهل وهوى مرداة ومهلكة. ومن هذا الباب وصف الكفار الملائكة بأنهم بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل كلامهم في هذا الباب من باب الشهادات، وتوعدهم بالسؤال والحساب عن شهادتهم التي أتوا بها عن غير وجه حق، إذ لم يشهدوا خلق الملائكة ولم يحضروا ذلك، فكيف يقررون صفتهم وهم يدفعون كلام الله ولا يقبلونه، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة؟، فذلك الذي استحقوا به سؤال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٧٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٦١١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٣٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧٧.

التبكيت والتوبيخ.

ومن الافتراء زعم الكفار أنهم يحملون أوزار من صبأ عن إيمانه، واتبع ما هم عليه من تكذيب البعث بعد الممات والكفر بالثواب والعقاب، وقرر كذبهم وافترائهم، وتوعدهم وهددهم بالسؤال عن أقوالهم التي هي محض الكذب.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وهذا السؤال عن الأقوال هو في جانب الوعد الباطل الذي لا يمكن ولا يستطاع؛ لأنه لا يملك صاحبه الحكم به.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من قول الزور أشد التحذير؛ فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ثلاثًا ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وجلس وكان متكئًا، فقال: (ألا وقول الزور)، قال -الراوي وهو أبي بكرة رضي الله عنه-: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[(١)].

فالسنة قد أيدت معنى المسؤولية عن الأقوال، بل وأكدت أن أعظم ما يدخل الناس النار هو الأقوال. فعن معاذ بن جبلٍ قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: (لقد سألتني عن عظيمٍ، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه: تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت). ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؛ الصوم جنةٌ والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل). قال ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه). قلت: بلى يا رسول الله. قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد). ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله). قلت: بلى يا نبي الله، قال: فأخذ بلسانه، قال: (كف عليك هذا؟). فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في قول الزور، رقم ٢٤٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ١٢٩. عن أبي بكرة نفيع بن الحارث.

مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم)[١].

٢. المسؤولية عن الأعمال.

صرح القرآن بالسؤال عن الأعمال في غير ما آية؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أنه لو شاء سبحانه لصير الناس كلهم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا يختلفون ولا يفترقون، ولكنه خالف بينهم بحكمته وعلمه، فجعلكم أهل ملل شتى، وَفَّق فريقًا منهم للإيمان به والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل أقوامًا فحرمهم توفيقه، فكانوا كافرين، وأنه سبحانه سيسأل الجميع يوم القيامة عما عملوا في الدنيا فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فيجازيهم بما عملوا: المطيع بطاعته، والعاصي بمعصيته[٢].

وقال سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فهو سبحانه سائل جميع من في السماوات والأرض من عباده ومحاسبهم؛ لأنه فوقهم بالملك والقدرة والقهر، ولا يسأل سبحانه عن قضائه وقدره، وجميع من في السماوات والأرض مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم وهم في سلطانه لا يخرجون عنه[٣].

ومع هذا التقرير للسؤال عن الأقوال والأعمال، فإنه لا بد من التنبيه على أن الله سبحانه لا يؤاخذ الإنسان على ما صدر منه على سبيل الخطأ أو الإكراه أو النسيان من أقوال وأفعال، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[٤].

كما استثنى اللغو في الأيمان. قال سبحانه: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وحديث النفس؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم)[٥].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٥٥٨.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩١٣، رقم ٥١٣٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٨٧.

(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٢٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم ٢٠٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩٥، رقم ٧١١٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقة إلا لوجه الله، رقم ٢٣٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر

## سادسًا: نعيم الدنيا:

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨].

أي: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به؟[(١)].

وقال: اختلف أهل التأويل في ذلك النعيم ما هو؟

فقال بعضهم: هو الأمن والصحة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم ليسألون يومئذ عما أنعم الله به عليهم مما وهب لهم من السمع والبصر وصحة البدن. وفيم استعملوها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال آخرون هو العافية، وقال آخرون: بل عنى بذلك ما يطعمه الإنسان أو يشربه[(٢)].

وقال ابن كثير: أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك[(٣)].

وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا[(٤)].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[(٥)].

ومن الغبن أن لا يقوم الإنسان بواجب هاتين النعمتين وهو الشكر، والاستفادة منهما في التزود ليوم المعاد.

والذي يظهر أن هذه الآية الواردة في السؤال عن النعيم مرتبطة بما قبلها من الآيات في السورة.

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ١-٨].

فالله سبحانه يخبر أن التكاثر والمنافسة والحرص على الاستزادة من الأموال والأولاد والنعم التي يظن الإنسان في الدنيا أنها النعيم، يلهي عن الاستعداد ليوم المعاد، حيث النعيم الحقيقي المقيم، حتى إذا جاء الموت والإنسان غير مستعد للآخرة وهو في شغل وغفلة عنها، أتاه الخبر اليقين في قبره عن مآله في الجحيم ورآه جزاء وفاقًا لسوء صنيعه، ثم يوم القيامة يَصْلَى سعيرًا، ويسأل حينئذ تبكيتًا وتوبيخًا عن النعيم الذي

---

بالقلب إذا لم تستمر، رقم ١٨٦.

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٥٨١.

(٢) المصدر السابق ٢٤/ ٥٨١-٥٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٤٧٤.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٤٧٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٥٩٦٠.

حازه: هل هو نعيم؟

فالسؤال إذًا يكون بمعنى: هل رأيت نعيمًا قط؟

أي: يكون عن ذوق النعيم نفسه، لا عن شكر النعم التي في الدنيا، وفي الحديث عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط، هل مر بك نعيمٌ قط فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط، هل مر بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدةً قط)[1].

والمعنى: إن الإنسان إذا رأى الجحيم عيانًا، وتيقن مقعده في النار لم ير ما كان فيه من نعيم الدنيا شيئًا -قليلًا كان أو كثيرًا-، ويدا له من سيئات عمله ما يتلاشى معه أي نعيم ذاقه، وأي نعم حازها في الدنيا.

## سابعًا: الولاية العامة والخاصة:

إن القرآن الكريم لم يجعل مسئوليات العباد منحصرة في ذواتهم، بل جعل بعضهم قائمًا على تولي أمور بعض، وجعل هذه الولاية مسؤوليات معهود بها يقوم بها البعض لصلاح حال آخرين. كما في الحديث: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[2].

قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته[3].

وبهذا فإنه لا يكاد يخلو إنسان مكلف من مسؤولية عن ولاية. والولاية إما أن تكون مسؤولية أمر يتعلق بالجماعة المسلمة عمومًا فهي ولاية عامة، وإما أن تكون مسؤولية عن فرد، أو مجموعة مخصوصة فهي ولاية خاصة.

أما الولاية العامة فهي التي تقوم على مصالح العامة، وهي الإمامة والإمارة، فتشمل الحكام وأولي العلم والأمراء والوزراء وغيرهم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٥٠٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٩، و مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم ٣٤١٤.

(٣) تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٩.

﴿تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء: ٥٨]: هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة، يتناول النبي صلى الله عليه وسلم وأمراءه ومن بعدهم[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال القرطبي: وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق[٢].

وتشمل المسؤولية عن الولاية العامة قسمة الأموال، ورد الظلامات، والعدل في الحكومات[٣].

وقد ذهب جمع من المفسرين على أن الآية عامة في جميع الناس، فهي كما تتناول الولاة، تتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى[٤].

ومن أهم أركان المسؤولية عن الولاية العامة: العدل والإحاطة بالنصح وعدم غش الرعية؛ قال صلى الله عليه وسلم: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز و جل -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: (ما من والٍ يلي رعيةً من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرم الله عليه الجنة)[٦].

وفي رواية مسلم: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)[٧].

في آية النساء السابقة دليل عظيم وبينة واضحة على المسؤولية عن الولاية العامة، فالأمر -كما تقرر سلفًا- هو منشأ ومبدأ المسؤولية، والله سبحانه صرح بالأمر في هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، وكما أن المسؤولية مترتبة على أهل الولايات عن رعاية مصالح الرعية، فكذلك المسؤولية مترتبة على الرعية عن طاعتهم كما في الآية الثانية.

وقد قرر سبحانه لتأكيد المسؤولية أنه سبحانه سميع بصير، لا يخفى عليه شيء من أمر ما أوجب من أداء الأمانات والحكم بالعدل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٥٥.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٥٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٥٦.
(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥-٢٥٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ٣٤١٢.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم ٦٦٤٥، عن معقل بن يسار.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم ٢٠٧.

وأما الولاية الخاصة فهي التي تتعلق بواجب رعاية مخصوصة، مثل رعاية الأولاد والأهل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وفي هذه الآية الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار، فأمر سبحانه المؤمنين وأوجب عليهم وقاية أنفسهم، وما يدخل في حكم النفس من الأولاد، ووقاية أهليهم بوصيتهم وتعليمهم الحلال والحرام وتجنيبهم المعاصي والآثام، وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب. قال مقاتل: ذلك حق عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه[(١)].

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع)[(٢)].

وقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوتر يقول: (قومي فأوتري يا عائشة)[(٣)].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)[(٤)].

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (أيقظوا صواحب الحجر)[(٥)(٦)].

ومثل الآية السابقة آية سورة طه؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

ومن الولاية الخاصة ترشيد الولي لنفقة السفيه من ماله، وقيامه على رعاية اليتيم وماله وأداؤه له عند رشده.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٩٥.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم ٤١٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٤٤، رقم ٤٠٢٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة، رقم ١٢٣٤. عن عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه أبو داود، كتاب التطوع، أبواب قيام الليل، باب قيام الليل، رقم ١١١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٥٧، رقم ٣٤٩٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم والعظة بالليل، رقم ١١٣. عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٩٥.

قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال عز من قائل: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [النساء: ٢].

والعمدة في المسؤولية عن الولايات الخاصة والعامة حديث عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته). قال: وحسبت أن قد قال: (والرجل راعٍ في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته)[1].

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع حتى يسألَ الرجل على أهل بيته)[2].

ولأن الولاية العامة والخاصة تتعلق بمصالح المجتمع والأمة المسلمة والضعفاء، فإن الله سبحانه جعل مسؤوليتها في غاية العظمة، وجعل لمن يرعاها حق رعايتها الجزاء الأوفى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)[3].

وحذر أشد التحذير من عدم رعايتها وأداء ما على الإنسان فيها.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فحذر سبحانه من سبيلين يؤديان لتضييع الأمانة ورعاية الولاية وهما: الظلم الذي

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، أبواب الملاعبة، باب مسألة كل راع عما استرعي، رقم ٨٨٣٣.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٥، رقم ١٧٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٧١٨. عن أبي هريرة.

يؤدي إليه الميل والعدوان، والجهل بما فيها وما في ضدها. ومن تحذير السنة حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ويلٌ للأمراء، وويلٌ للعرفاء، وويلٌ للأمناء، ليتمنين أقوامٌ يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقةً بالثريا، يدلدلون بين السماء والأرض، وأنهم لم يلوا عملا)[3].

وبهذا يتضح عظم شأن الولاية بوجه عام، وأنها من المسؤوليات الجسيمة العظيمة، إذ يترتب على التفريط والتعدي فيها أشد الندم وأعظم الخسران.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم، رقم ١٦٦٨. عن عبد الله بن عمرو.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٢٧٥، رقم ٨٦٢٧، والحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام، رقم ٧٠٦٦. وصححه.

## غير المسؤول عنه

### أولًا: لا يسأل الرسل عن مصير الكافرين:

أرشد القرآن إلى أن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

والتوجيه في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، فبعد أن قص الله سبحانه وتعالى عليه قصص أقوام من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتهم، وكفرهم بالله، وجراءتهم على أنبيائه، قال له: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ لمن آمن بك واتبعك ممن قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءه، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر بك وخالفك، فبلغ رسالتي، فإنما عليك البلاغ والإنذار، ولست مؤاخذًا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار، وليس عليك من أعماله - بعد إبلاغك إياه رسالتي - تبعة، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك، وكان من أهل الجحيم[4].

ومثل ذلك قوله تعالى مرشدًا نبيه محمدًا

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٥٨-٥٥٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٩٢.

صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس: ٥ - ٧].

أي: لست مسؤولًا عن هدايته ولا مآله.

وكما صرح القرآن بأن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين، فقد بين هذا المعنى من طريق اللزوم، حيث قصر مسؤولية الرسل على البلاغ المبين في آيات كثيرة، وهو التبليغ الواضح؛ منها قوله سبحانه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٩٩﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢﴾ [النحل: ٨٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وقد سبق بيان معناها.

وهذا ليس حصرًا على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، بل ذلك مطرد في جميع الرسل عليهم السلام، والقرآن ذاخر بالأدلة على ذلك؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا سؤال استنكاري يفيد تقرير أن الرسل ليس عليهم إلا التبليغ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة - كما سبق بيانه -. فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وحسابهم على الله عز وجل، وأما الهداية فهي إلى الله سبحانه وتعالى[1].

والمصير تبع للهداية، وبما أنها ليست إليهم، فيلزم أنهم لا يسألون عنها، كما وضحت الآية التالية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومنه قوله عز من قائل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه الآية كما تحتمل أن تكون من كلام إبراهيم عليه السلام لتقرير أن واجب الرسول - أي رسول - هو إبلاغ ما أرسل به بينًا واضحًا. كذلك فإنها تحتمل أن يكون

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٠٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

الكلام متوجهًا إلى كفار قريش على سبيل الالتفات فيكون المقصود بالرسول: محمد صلى الله عليه وسلم، ويكون المقصود: أن مقام الرسالة لا يقتضي إلا التبليغ الواضح[1].

ومنه قوله تعالى على لسان الثلاثة المرسلون في معرض ضرب المثل لمشركي قريش بأصحاب القرية: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧﴾ [يس: ١٦-١٧].

فهذا بيان واضح بأن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين، إذ أن مهمتهم تقتصر على البلاغ المبين، وأن الهداية من الله سبحانه، وأن حساب الأمم عليه سبحانه. وهو إرشاد عظيم للداعية إلى الله أن لا ينشغل بالنتائج، بل يبذل وسعه في التبليغ الواضح، وتوجيه له بألا يتأثر بباطل أهل الزيغ والضلال من الكفار والفسقة والطغاة، ولا يلين لأهوائهم طمعًا في استدراجهم إلى الحق، بل يصدع بما يؤمر ويعرض عن المشركين.

## ثانيًا: لا يسأل الإنسان عن عمل غيره:

رسَّخَ القرآن الكريم في آيات عديدة قاعدة هامة؛ وهي: أن الإنسان غير مسؤول عن عمل غيره، ولا هو مؤاخذ به، ما لم يكن من نتاج عمله هو. وقد دلل على هذا المعنى صراحة ولزومًا.

ومن ذلك: التصريح بعدم سؤال الفرق بعضها عن أعمال بعض.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

وفي سياق هذه الآية يرشد ربنا سبحانه نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين الذين يخاطبهم: أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال، فلسنا مهتدين جميعًا ولسنا على ضلال كلنا، وأنتم غير مؤاخذين بما نعمل، ولا تسألون عما أجرمنا نحن من جرم إن كان عملنا جرمًا، ولا نسأل نحن عما تعملون أنتم من عمل[2].

وفي الآية إرشاد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لأحكم أساليب الدعوة، بأن يتجنب الكلام الذي يمكن أن يصد ويحجز عن الهدى بما يورث من المعاندة والاستكبار، وأن يعمل في دعوته بما يفتح المجال للتفكر لا ردود الأفعال.

وفيه معنى التبرؤ منهم ومن عملهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بريئون منكم وأنتم بريئون منا، وإرشاده سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى هذا القول دليل على تقريره.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٧.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٠٥.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١][١].

ومما يدل على بعد نسخ آية سبأ المذكورة بآية السيف كما زعم بعض المفسرين[٢] أن البناء للمجهول في الفعل المضارع يدل على أن السائل طرف خارج الفريقين، ودلالة المضارعة في السياق على الحال والاستقبال، كما أن الآية التالية لها تتحدث عن الجمع والحكم؛ حيث يتبين المهتدي من الضال وهو فيما يستقبل من أمر الآخرة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

ومن الآيات التي في التصريح بعدم سؤال الإنسان عن عمل غيره قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وفيها تصريح بأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة، فإنما تسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلف غيرها[٣].

التصريح بأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره:

وهذا في القرآن كثير.

قال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال عز من قائل: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٦-٣٨].

ومعنى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره[٤].

فكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥١٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٢٩٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٢٩.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٥٤٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦٥.

كما هو ظاهر في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

وعدم تحمل أحد ذنب غيره يدل على عدم مسؤوليته عن عمله.

الإشارة إلى أن كسب الإنسان متعلق بعمله هو:

أنَّ آيات عديدة من القرآن الكريم تشير إلى أن عمل الإنسان حسنه وسيئه مقصور عليه هو لا يتعدى لغيره إلا ما كان فضلًا من الله سبحانه.

منها قوله سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومعناها: أن من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فأتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل الذي مآله الجنة، ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جنى، لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم. وما الله سبحانه بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه، بل لا يعاقب أحدًا إلا على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سبب استحقه به منه(١).

ونظيره قوله سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه(٢).

قال الحسين بن الفضل بأن هذا من طريق العدل، أما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما شاء(٣).

وقد دل على هذا المعنى القرآن والسنة.

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جواز الحج عن الغير، وأفادت النصوص والإجماع وصول الدعاء والصدقة للغير. على أنه ينبغي التنبيه إلى أن باب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء(٤).

ومن عمل الغير ما يلحق بالإنسان إن كان سببًا فيه، أو داعيًا إليه، أو راضيًا وراغبًا فيه، فيلحق به أجره إن كان صالحًا، ووزره إن كان سيئًا، لأنه في حكم عمله هو. والأدلة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦٥.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٤٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦٥.
(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، ٣/ ١٢٢٨.

على ذلك كثيرة؛ منها: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له)[1].

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه)[2].

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله.

ومنها ما ثبت في الصحيح: (من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[3].

ومثله قوله سبحانه: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومنها الحديث: قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل)[4].

ومنها قوله صلوات ربي وسلامه عليه: (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد موته، رقم، ٣٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب الرجل يأكل من مال ولده، رقم ٣٠٦٤، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، رقم ٢١٢٨، عن عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٠، رقم ٢٢٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم ٤٨٣٧. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم ٣١٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان أثم من سن القتل، رقم ٣١٨٤.

**سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم، قال: لا ما صلوا)**[1].

خلاصة القول: إن الإنسان لا يسأل عن عمل غيره ولا يؤاخذ بسيئه، إلا ما كان هو السبب فيه، أو الداعي إليه، أو كان راضيًا عنه راغبًا فيه بأن يعمل مثله؛ وذلك في الحقيقة من جملة عمله هو؛ لأنها إما آثار عمل جوارحه، أو هي أعمال قلبه. فلا يكتب عليه إلا ما سعى عدلًا. ومن فضل الله على عبده المؤمن أنه تنفعه بعض أعمال غيره من المؤمنين كالدعاء - وهو شفاعة -، والصدقة والحج عنه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، رقم ٣٤٥٢.

## أثر فقه المسؤولية على سلوك العبد

الفقه هو الفهم الدقيق، والعبد الذي يفقه المسؤولية على وجهها الصحيح يتأثر بذلك في سلوكه تأثرًا بليغًا، حيث يعرف السائل والمسؤول عنه، ويعرف مبدأ المسؤولية ومآلها، ويعرف كيفية التتبع والمحاسبة، ويعرف فحوى السؤال ووقته. فمن عرف ذلك كله أيس من النجاة إلا بسلوك سبيل الحق، وتخلق بالتقوى والصدق، واستعد ليوم الحساب، وعمل ليوم المآب، فجاء سلوكه مستقيمًا متوافقًا مع الشريعة ظاهرًا وباطنًا، وأناب واستجاب وأسلم لله.

إن معرفة السائل، وهو الله سبحانه، تورث الإيمان به ربًا، كما تورث محبته، ورجاءه، والخوف منه سبحانه؛ محبته سبحانه لجليل صفاته، وعظيم إنعامه وفضله، ورجاءه لعظيم رحمته ومنته وآلائه، وقبوله التوبة والشفاعة، وعفوه عن السيئات، ومضاعفته للحسنات، والخوف منه سبحانه لعظيم عقابه وشديد غضبه، وأليم عذابه وبليغ انتقامه. وهذا يجعل طاعة أوامره والانتهاء عن نواهيه امتثالًا أولى ما يتقرب به العبد إليه من القربات، وتلك هي التقوى، فيأتي سلوك العبد مستقيمًا متسقًا مع منظومة السلوك الإسلامي المستفادة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه

وسلم، والله سبحانه يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة: ١-٧].

فأعظم ثمرات فقه المسؤولية إذًا: توحيد الله سبحانه توحيدًا خالصًا، والإذعان لأمره، والافتقار إليه، والاستقامة على طاعته، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ومعرفة المسؤول عنه تفضي إلى الاهتمام والعناية به، وتوجه سلوك المسلم نحوه، فلا يتشتت جهد الإنسان في مذاهب شتى، ويضطرب في تحديد الأولويات، ولا يحجم عن العمل بالكلية، بل يتوجه نحو المسؤول عنه بالرعاية التي يستحقها ليأتي شرط السائل على الوجه المراد، ويتحرى فيه الإتقان والإحسان، فتترتب الأولويات، ويكون التركيز على المهمات، ويكون الانشغال بالغايات.

أما معرفة مبدأ المسؤولية ومآلها: التكليف الرباني، والحساب الأخروي؛ فتورث تعظيم المسؤولية في النفوس، وتجذيرها في الهموم، فتجد من الرعاية ما تستحق، ومن العمل ما تحتاج، ومن السعي ما يقوم بها على وجهها.

وأما معرفة كيفية التتبع والمحاسبة، فتفضي بالإنسان إلى المراقبة، إذ أن كل شيء محصى، وكل عمل مكتوب، والله تعالى منه قريب؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ⑯﴾ [ق: ١٦].

فيحصل من ذلك الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وأما المحاسبة فإن معرفتها تؤدي إلى الاستعداد، والتوبة من الزلات، والندم على التفريط وعلى ما فات، والعزم على الرشد، والعمل في جد واجتهاد. فمن أدرك المحاسبة وعرف مآلاتها رجا النجاة مقتصدًا أو سابقًا بالخيرات، والنجاة يوم القيامة فوز.

قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ⑱⑤﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومن عرف أن السؤال يكون بعد العمل، وأن فحواه الطاعة والعصيان، عمل بطاعة الله، وخاف من عصيانه وتاب وأناب إذا عصاه، واجتهد في وقت العمل للفوز يوم الحساب، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ

﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ومن فقه أنه مسؤول يقينًا غلب عليه الإشفاق، ومن غلب عليه الإشفاق في الدنيا فهو خائف من عذاب الله راجٍ رحمة الله محبٌّ لله فإنه يعمل بطاعة الله، ويمتثل أمره، ويؤدي ما عليه من المسؤولية، وعن أمثال هؤلاء.

قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

ومن أيقن بالسؤال وغلب عليه الإشفاق في الآخرة حين يرى كتابه وكسبه هلك.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: ٢٢].

ففقه المسؤولية يورث الإشفاق في وقت العمل والإنابة، والإشفاق يدفع لامتثال أوامر الله سبحانه، والاستقامة على الشرعة، وأداء المسؤوليات على أفضل الوجوه.

إن فقه المسؤولية إذًا يؤثر إيجابًا على سلوك العبد تأثيرًا بليغًا، إذ يؤثر على التصورات، والدوافع، وطريقة التفكير، والأخلاق والصفات والعادات، ومنهج تقييم التصرفات؛ فيهديه للإيمان، ويوقظ في نفسه الإحسان، ويدفعه للعمل، ويحمله على الإتقان، ويدعوه للصدق والأمانة ومكارم الأخلاق، وطيب الخلال، ويلزمه الاستقامة على الشرعة والاستجابة لله ولرسوله، وأداء الحقوق والواجبات على وجهها، إيمانًا واحتسابًا.

موضوعات ذات صلة.

الأمانة، الجزاء، الحساب، العقاب







## عناصر الموضوع

| | |
|---|---|
| مفهوم المسابقة | ٤٥٦ |
| المسابقة في الاستعمال القرآني | ٤٥٧ |
| الألفاظ ذات الصلة | ٤٥٨ |
| أنواع المسابقة في القرآن الكريم | ٤٦٣ |
| صفات السابقين إلى الخيرات | ٤٨٣ |
| ثواب السابقين في الخيرات | ٤٨٨ |

## مفهوم المسابقة

### أولًا: المعنى اللغوي:

من خلال البحث في معاجم العربية وجدت أن مادة «سبق» تطلق في اللغة على عدة معان:

منها: التقدم والتبكير والمبادرة، وما يوضع بين أهل السباق ليناله السابق منهم.

فمن التقدم قولهم: (سابَقَهُ مُسَابَقَةً وسِباقًا فَسَبَقَهُ، إذا تقدم عليه، والسَّبْقُ: القدمة في الجري وفي كل أمر)[(١)].

ومن التبكير قول صاحب اللسان:(والسَّبَقُ من النخل: المبكرة بالحمل)[(٢)].

ومن المبادرة قولهم: (وأسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا: بادروا ومنه قوله عز وجل ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف:٢٥] ومعناه: ابتدرا الباب، يجتهد كل واحدٍ منهما أن يسبق صاحبه)[(٣)].

وقال ابن منظور: (والسبق بفتح الباء: ما يجعل من المال رهنًا على المسابقة)[(٤)].

وأرى: أن المعنى الأول هو المراد هنا، وهو الأقرب إلى مقصود البحث، وبقية المعاني تؤول إليه، وفي ذلك يقول ابن فارس:(السين والباء والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدل على التقديم. يقال سَبَقَ يَسْبِقُ سَبقًا)[(٥)].

ويؤكد ذلك أيضًا صاحب «المعجم الاشتقاقي» فيبين المعنى المحوري لهذا الفعل، وأنه: تقدم الشيء من بين ما حوله في قوة وجدٍّ[(٦)].

### ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المسابقة في الاصطلاح: «التقدم والمبادرة وبذل غاية الجهد والطاقة بين متسابقين أو أكثر في أمر من الأمور الدنيوية أو الأخروية؛ لتحصيل السبق والفوز على الآخر»[(٧)].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٣١٧، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٥١.
(٢) لسان العرب ١٠/ ١٥١.
(٣) انظر: لسان العرب ١٠/ ١٥١، تاج العروس، الزبيدي ٢٥/ ٤٣٢.
(٤) لسان العرب ١٠/ ١٥١.
(٥) مقاييس ابن فارس٣/ ١٢٩.
(٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل ٢/ ٩٥١.
(٧) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، محمد الزغول ومحمد حوى ص٦.



## المسابقة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سبق) في القرآن الكريم (٣٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

| الصيغة | عدد المرات | المثال |
|---|---|---|
| الفعل الماضي | ١٨ | ﴿لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال:٦٨] |
| الفعل المضارع | ٥ | ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ [الحجر:٥] |
| فعل الأمر | ٣ | ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] |
| المصدر | ١ | ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ [النازعات:٤] |
| اسم فاعل | ٨ | ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢] |
| اسم مفعول | ٢ | ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ [الواقعة:٦٠] |

وجاءت المسابقة في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

**أحدها: الوجوب:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ [الصافات:١٧١]. يعني: وجبت.

**الثاني: الاصطياد:** ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] يعني: نصطاد.

**الثالث: التقدم للهروب:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] يعني: تبادرا.

**الرابع: الفوت:** ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] يعني: يفوتونا.

**الخامس: الفوز بالجنة:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]. يعني: السابقون إلى الجنة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ٦١٣.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٨٣.

## الألفاظ ذات الصلة

### ١ المسارعة:

**المسارعة لغة:**

المسارعة في الأصل تعني التقدم فيما ينبغي أن يتقدم فيه، وهي محمودة[١]، وتعني أيضًا المبادرة والمباشرة للشيء بسرعة[٢]، وتقتضي الجد والاجتهاد في أمر من الأمور، يقال: أسرع فلان المشي، وأسرع إلى كذا وكذا، يريدون: أسرع المضي إليه، وسارع بمعنى أسرع[٣]، أي: تقدم وسبق غيره.

**المسارعة اصطلاحًا:**

«هي المبادرة إلى الطاعات والسبق إليها والاستعجال في أدائها وعدم الإبطاء فيها أو تأخيرها»[٤].

**الصلة بين المسارعة والمسابقة:**

أن المسابقة متقدمة على المسارعة، وسابقة عليها؛ حيث إن (أي سباق مهما كان نوعه ومسافته لا بد له من مرحلتين:الأولى: مرحلة السباق والانطلاق، والثانية: مرحلة الإسراع في السباق، فمثلًا السباق في الجري، عندما يبدأ الشوط الأول يتسابقون، وبعد فترة يسارعون في السباق، بأن يضاعف المتسابقون سرعتهم، ويتحولوا من مجرد مسابقة إلى المسارعة في المسابقة، وسنجد أن بعض المتسابقين قد يسقط في الطريق، ويخرج من السباق، ولا يصل إلى مرحلة المسارعة إلا أصحاب الطاقات والهمم والسرعات والعزائم، أولئك الذين لديهم زاد قوي يعينهم على إكمال أشواط المسارعة)[٥].

المسارعة أسمى درجة من المسابقة؛ حيث إن المسابقة تقتضي وجود قرين يسابق، فيجتهد المتسابق لتحصيل السبق، فيكون وجود القرين المسابق المخالف دافعًا لمزيد من بذل الجهد والسبق، أما المسارعة فتتعلق بذات العامل نفسه بقطع النظر عمن ينافسه في ذلك، فهو يجد ويجتهد أبلغ الاجتهاد لذاته،يحركه ما يراه من واجب عليه في ذات الأمر

---

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٧٦.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٥٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٣٨٧.
(٥) السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، صلاح الخالدي.

وهذا لا يكون إلا لمن علت همته وسمت اهتماماته[١].

كما يلحظ في المسارعة خشية فوات الفرصة، كما يظهر فيها جانب ضيق الوقت خشية عدم إدراكه، فهو يسارع لذلك، وفي المقابل يلحظ في المسابقة ظهور النتيجة، وهي مادية واضحة[٢].

يقول البقاعي مفرقًا بين فعلى«سابقوا» و«سارعوا»: (سابقوا: فعل من يسابق شخصًا فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينًا بطيئًا فسار هوينًا، أما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في العرف)[٣].

وبهذا تتضح الصلة بين المصطلحين، وإن كان كل منهما يفيد في مجمله المبادرة، وبذل قصارى الجد والاجتهاد في تحصيل أمر من الأمور، والله أعلم.

## ٢ المنافسة:

### المنافسة لغة:

المنافسة: مأخوذة من الفعل «نافس» يقال: نافَسَ في الشيء مُنافَسَةً إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي: رغبوا[٤] أو مشتقة من النفاسة، يقال: شيءٌ نفيسٌ، أي ذو نفاسةٍ وخطر يتنافس به، والتنافس: أن يبرز كل واحدٍ من المتبارزين قوة نفسه[٥].

### المنافسة اصطلاحًا:

يطلق على المنافسة في اصطلاح بعضهم: أنها مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على أحد من الناس، وفيها قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦][٦].

### الصلة بين المنافسة والمسابقة:

والمتأمل يجد أن بين المسابقة والمنافسة تشابهًا من وجه، وفرقًا من وجه آخر، حيث يشتبهان في أنَّ كلًّا منهما يتطلب بذل جهد ومشقة لتحصيل شيء ما، وفي كل منهما متسابقون أو متنافسون.

---

(١) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، محمد الزغول ومحمد حوى ص٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٧.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩٢.
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص٣١٦.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٨.

ويفترقان في أن المسابقة عامة تعم كل لون من ألوان التسابق، نافعًا كان أو غير ذلك، أما المنافسة فينبغي أن تكون في المعالي، واكتساب المحاسن، والبعد عن المعايب والمساخط، والله أعلم.

## ٣ المبادرة:

### المبادرة لغةً:

الباء والدال والراء، أصلان: أحدهما كمال الشيء وامتلاؤه، والآخر الإسراع إلى الشيء، أما الأول فهو قولهم لكل شيء تم: بدر، وبدر موضع يذكر ويؤنث، والأصل الآخر: قولهم بدرت إلى الشيء وبادرت، وإنما سمي الخطاء بادرة؛ لأنها تبدر من الإنسان عند حدة وغضب[(١)].

وهذان المعنيان متقاربان؛ حيث إن المبادر إلى شيء ما يسرع إليه، ويسابق فيه حتى يصل إلى درجة الكمال أو يقترب منها، ومن ثم فالمعنى الأول بداية المبادرة والثاني نهايتها.

### المبادرة اصطلاحًا:

هي (انطلاقة المؤمن ومسارعته إلى عمل صالح بحافز ذاتي من نفسه، بعد أن يتوافر في نفسه الميزان الأمين ليحدد العمل الصالح من سواه، وليطمئن إلى أنه لا يتجاوز حدوده، ولا يعتدي على غيره، ولا يدخل في فتنة تغضب الله تعالى)[(٢)].

### الصلة بين المبادرة والمسابقة:

المسابقة: اندفاع من الشخص اتجاه الشيء ويكون ذلك بدافع المنافسة، أما المبادرة: فقيام الشخص بفعل الشيء ولا يكون إلا بدافع ذاتي.

## ٤ العجلة:

### العجلة لغةً:

العين والجيم واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان، والجمع عجل وعجلات، والعجل والعجلة: خلاف البطء[(٣)].

### العجلة اصطلاحًا:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٨، شمس العلوم، نشوان الحميرى، ١/ ٤٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٣٧.
(٢) انظر: الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام، عدنان علي النحوي، ص١٥.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٤٩.



«هي طلب الشيء وتحريه قبل أوانه»[1].

وقال المناوي: «العجلة:فعل الشيء قبل وقته اللائق به»[2].

قال الراغب: العجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه، وهي من مقتضى الشهوة، فلذلك كانت مذمومة في عامة القرآن[3].

## الصلة بين العجلة والمسابقة:

الفرق بين العجلة والمسابقة يتضح من خلال النقاط التالية:

أن المسابقة تقتضي مفاعلة بين متفاعلين أو أكثر، والعجلة لا تقتضي ذلك؛ حيث إنها ذاتية نابعة من ذات الشخص.

أن العجلة مذمومة في أغلب أحوالها لكونها من مقتضيات الشهوة، ويتحرى فيها الشيء قبل أوانه،

أما المسابقة فليست كذلك، بل هي محمودة ممدوحة غالبًا، وبخاصة إذا كانت في أمور الآخرة.

حديث القرآن عن «العجلة» حديث عن ذمها غالبًا، ومدح القرآن للعجلة إنما ورد في موضعين اثنين، أحدهما قوله تعالى ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤].

وثانيهما قوله تعالى ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠].

وأرجى الأقوال بالقبول في مرجع الإشارة «هذه» في الآية إلى فتح خيبر[4]،وإنما جعلت غنائم خيبر تعجيلًا لقرب حصوله من وقت الوعد به[5]، ويلحظ هنا أنه عبر عما قدم للمؤمنين من غنائم، وفتح سريع بلفظ «التعجيل» لتنبيه المؤمنين أن لا يلتفتوا إلى هذه الأمور الدنيوية لذاتها، فإنها من العاجلة التي لا يحسن بالمؤمنين التطلع إليها لذاتها، إلا أن تكون في ظل الإيمان والطاعة وقصد وجه الله سبحانه، كما ورد أن «التعجل» في المبيت بمنى جاء على وجه الإباحة، والتأخر والإتمام وصف فاعلوه بالتقوى، مما يفيد أن العجلة تصرف ليس

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٧.
(٣) المفردات، الراغب ص٥٤٨.
وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٣٧، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ٤٣١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٣٠.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٦/ ١٧٧.

بمحمود ابتداءً[1]، والله أعلم.

## ٥ التقدم:

### التقدم لغة:

مشتق من الثلاثي «قدم»، وتحت هذه المادة يقول ابن فارس: (القاف والدال والميم أصلٌ صحيحٌ يدل على سبقٍ ثم يفرع منه ما يقاربه، يقولون: القدم: خلاف الحدوث، ويقال: شيءٌ قديمٌ، إذا كان زمانه سالفًا،وقدم الإنسان معروفةٌ، ولعلها سميت بذلك لأنها آلةٌ للتقدم والسبق)[2]، أي: هي التي تتقدم وتسبق عند السير، فيرتكز عليها السائر في تحركه إلى الأمام مع هيئته التي تساعد على ذلك.

### التقدم اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو يدل على سبق الشيء نافذًا إلى الأمام بقوة[3].

### الصلة بين التقدم والمسابقة:

المسابقة تجتمع مع التقدم في أن كلًّا منهما فيه سبق.

وتفترق المسابقة عن التقدم بعدة أمور:

أولها: أن المسابقة تقتضي مفاعلة، ووجود متسابقين يشتركون في سباق ما، أو يتنافسون فيه يدفعون الشخص إلى مزيد من بذل الجهد والمشقة للفوز بالسباق، أما التقدم فلا شيء فيه من ذلك.

ثانيها: أن التقدم قد يكون في الزمان، مثل أن تقول: رمضان قدام شوال، أو في المكان، كأن يقول الخارج من مكة: جدة قبل أو قدام مصر، أو في المنزلة، كما تقول: محمد قدام علي، أي: مكانة ومنزلة، أو في الترتيب الصناعي، نحو: تعلم الهجاء قبل أو قدام تعلم الخط[4].

ثالثها: أن التقدم قد يكون في الخير والشر، فأما الخير مثل قولهم: فلان يتقدم رفاقه، أي: في الشرف والمنزلة والمكانة، والشر مثل: فرعون اللعين حين قال الله تعالى فيه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

وهذا بخلاف المسابقة، والله أعلم.

(١) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، الزغول ص ١٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٥.
(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل ٤/ ١٧٤٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ٦٥٣.



## أنواع المسابقة في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن التسابق بنوعيه إجمالًا، ومدح منه نوعًا، وبَيَّنَ صفات أهله وأعمالهم، وما ينبغي أن يكون عليه من إرادة اللحوق بركبهم، وذم آخر، وبين ما لأهله من خصال، حتى تجتنب وتحذر، وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

### أولًا: المسابقة الممدوحة:

المقصود بالمسابقة الممدوحة: الأمور التي أمر الله تعالى بالسبق فيها، وحض القرآن عليها، ورغب فيها، ووعد الممتثلين لذلك خيرًا كثيرًا.

ومن خلال التأمل في كتاب الله تعالى نجد أن ميادين هذا التسابق الممدوح متعددة، وأنواعه القرآنية كثيرة كما يلي:

#### ١. السبق إلى الخيرات.

المراد بالخيرات: كلمة جامعة لكل ما يرغب فيه من الأمور والأشياء النافعة، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع عمومًا، وقد يكون الخير مطلقًا، حينما يكون مرغوبًا فيه بكل حال، عند كل أحد[(١)].

والأمر باستباق الخيرات ورد في القرآن الكريم في أربعة مواطن من كتاب الله تعالى، أذكرها مرتبة ترتيبًا مصحفيًا، ثم أقفيها بالتعليق والتحليل على هذا الترتيب؛ حيث إن موضوع البحث لا يتعلق بالأحكام، ومن ثم فليس من المهم أن ترتب الآيات نزوليًا حسبما يقتضيه البحث في التفسير الموضوعي.

وأول المواطن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

والمفسرون حيال هذه الآية فريقان:

**الأول**: يرون أن الآية عامة في كل خير ينبغي أن يستبق إليه، ومن ثم فليس الاستباق قاصرًا على التوجه إلى القبلة في الصلاة، وفي ذلك يقول الطبري: (﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أي: بادروا وسارعوا من «الاستباق»، وهو المبادرة والإسراع والمراد: بادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لربكم، وتزودوا في دنياكم لأخراكم)[(٢)].

**الثاني**: يرون أن الآية خاصة بحادثة تحويل القبلة، وذلك لكون الأمر باستباق الخيرات واردًا في سياقها، وعليه فيكون الأمر باستباق الخيرات خاصًّا بالاتجاه نحو الكعبة في الصلاة، أو الأمر بالاستباق إلى الصلاة في أول وقتها.

وفي ذلك يقول القرطبي: (أي: بادروا ما أمركم الله عز وجل من استقبال البيت الحرام، وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق

(١) المصدر السابق ص ٤٣.

(٢) جامع البيان، الطبري٣/ ١٩٦ بتصرف.

الآي، والمعنى المراد المبادرة بالصلاة أول وقتها، والله تعالى أعلم)[1].

ويقول الزجاج عند تفسير الآية: (أي: فبادروا إلى القبول من الله عز وجل، وولوا وجوهكم حيث أمركم الله أن تولوا)[2].

ويعلق الواحدي على قول الزجاج فيقول:(وعلى هذا فـ «الخيرات» على صيغتها من العموم، وهي مخصوصة هنا؛ لأنه أراد الابتدار إلى استقبال الكعبة)[3].

وأُرَجِّحُ من هذين القولين أولهما؛ إذ أنه رأي الأكثرية من المفسرين[4].

فضلًا عن كونه يتناغم مع القاعدة التفسيرية الشهيرة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فالآيات وإن كانت نازلة في شأن تحويل القبلة إلا أن لفظها عام، لا ينبغي قصره على هذه الحادثة بعينها، وعليه فالأولى حملها على العموم، والله أعلم.

ثم يأتينا بعد ثاني المواضع، وهو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٤٨].

ويدور فيه ما دار في آية البقرة من العموم والخصوص، والعموم أولى، ولا ثمة داع للتكرار.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

وهذا الموضع وإن كان ورد التعبير فيه بالمسارعة والمسابقة معًا، إلا اعتددت به في باب المسابقة لكونه ذكر «الخيرات» أولًا، ثُمَّ أعاد الضمير عليها في قوله: ﴿لَهَا﴾ مع التعبير بالسبق في قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ومن ثَمَّ اعتبرته من آيات المسابقة إلى الخيرات لهذين الأمرين.

ويعلق القرطبي على الآية فيقول:(قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في الطاعات، كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات، و﴿يُسَارِعُونَ﴾ على معنى يسابقون مَنْ سابقهم إليها، فالمفعول محذوف، وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أحسن ما قيل فيه:أنهم يسبقون إلى أوقاتها، ودل بهذا أن الصلاة في أول الوقت أفضل)[5].

فالخيرات هنا اسم عام لكل الطاعات والقربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ولا تتخصص بشيء معين، والمؤمنون الصادقون يستبقون إليها، ويبادرون غيرهم إلى صنيعها، وحالهم دومًا أنهم سابقون.

وآخر المواطن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦٥.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٢٦ بتصرف.
(٣) التفسير البسيط ٣/ ٤٠٤.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٣٣.

﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢].

أقول:اختلف المفسرون حول المراد بهذه الآية اختلافًا كثيرًا إلى أقوال عديدة، أَقْتَصِر هنا على ما رَجُحَ لديَّ منها، وهو أن المَعْنِيِّينَ بهذه الآية هم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم[1]، وأن المراد بالميراث:الانتهاء.

قال مقاتل: «ثم أورثنا الكتاب»:يعني القرآن، والمعنى:ثم جعلنا الكتاب ينتهي إليهم؛ لأن من ورث شيئًا كان ذلك الشيء منتهيًا إليه، والوارثون هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قسمهم ورتبهم فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ قال ابن عباس:بدأ بأشرهم فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ وهو الذي مات على كبيرة ولم يتب منها، ثم قال: ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو والذي لم يصب كبيرة، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهم:المقربون الذين سبقوا إلى الأعمال الصالحة.

وقال الحسن:الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته[2]، والله أعلم.

هذا وإني ألحظ على الآيات هنا عدة أمور:

أولها: أن الله تعالى عبر عن فعل الطاعات وأدائها بصيغة «الاستباق»، وهذا يشير إلى أنه ينبغي أن يسارع المؤمنون إلى مرضاة ربهم، وأن يستبقوا إليها، فيأتوا الصلاة أول وقتها، ويبادروا بالصوم والزكاة والحج وسائر الطاعات متى حان وقتها، من غير تسويف أو تأخير، وإن استطاعوا أن لا يسبقهم إلى الله تعالى أحد فليفعلوا، فكثيرًا ما تعرض الحاجة، وتضل الراحلة، ويمرض الصحيح، ويهرم الشاب وهكذا.

ثانيها: أن الفعل «فاستبقوا» في آيتي البقرة والمائدة تعدى إلى المفعول بنفسه من دون حرف، وهذا فيه دلالات:

- الدلالة على قوة التباري بين المؤمنين والخيرات، وشدة المسابقة والمسارعة، وحدة السباق، فكأن الخيرات صارت شخصًا أُمِرَ المؤمنون أن يسابقوه ويسارعوه حتى لا يسبقهم إلى الله تعالى أحد.
- الإشارة إلى سرعة المبادرة إلى هذه المسابقة، كأن الخيرات صارت مسابقة سابقة، ولكن مع سبقها فإنهم استبقوها وأدركوها وتحققوا منها[3]، ولذا قال الألوسي: «والمراد بسبقهم إلى

(١) انظر: التسهيل لعلوم التأويل، ابن جري ٢/ ١٧٥.

(٢) انظر: التفسير البسيط الواحدي ١٨/ ٤٢٣.

(٣) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، الزغول وحوى ص٢٦.

الخيرات ظفرهم بها ونيلهم إياها»[1].

❁ الدلالة على أن قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ بدون حرف الجر يشمل الاستباق إليها، والاستباق فيها، فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف، بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقًا، وهذا يشبهه قوله تعالى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط، ويستمر فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾[2].

ثالثها: التعبير بحرف الجر «اللام» في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ للدلالة على التعليل، فكأنه قال: هم لأجلها، (والمعنى يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبق، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب أو إلى الجنة)[3].

رابعها: التعبير بالاسم في قوله تعالى ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ دون الفعل، فلم يقل مثلًا: ومنهم من يسبق بالخيرات» ونحوه، وذلك لأن التعبير بالاسم يدل على الدوام والثبوت والاستمرار، دون الفعل، فهو يدل على التجدد والحدوث، فالله سبحانه يريد من عباده أن يكونوا دومًا سباقين إلى الخيرات في جميع الأوقات والأحوال، لا أن يكونوا سباقين في وقت، ثم بعد ذلك يعتريهم الفتور أو الغفلة، فإنَّ أحبَّ العمل إليه تعالى أدومُهُ وإن قلَّ، والله أعلم.

خامسها: يشير قوله تعالى ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إلى أن طاعة العبد لربه تعالى، وأي سبق له في الخيرات إنما هو محض فضل من الله تعالى، وأن لا طاقة للعبد على مثل ذلك إلا بعد توفيق الله له، مع صعوبة هذه المنزلة.

وفي ذلك يقول الألوسي (قوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره تعالى وتوفيقه عز وجل، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها)[4].

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السباقين إلى الخيرات، الوارثين أعلى الجنات.

سادسها: ورد الترتيب في الآية على خلاف المعتاد؛ حيث قدم الظالم ثم المقتصد، وأخر السابق مع أن حقه التقديم، والسر في ذلك -كما يقول الزمخشري-: «الإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل القليل»[5].

فاللهم اجعلنا من عبادك الأقلين، اللهم آمين.

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٤٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ١٤٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٤٠، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٤٥.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٦٨.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦١٣.

٢. السبق إلى مغفرة الله تعالى وجنته.

مغفرة الله منزلة عظيمة لا ينالها إلا من كان أهلًا لها، وسعى في نيلها وطلبها بتعاطي أسبابها، وسلوك سبيلها، ويمنحها الله تعالى لعباده المؤمنين الذين سابقوا إليها، وامتثلوا قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد:٢١].

ومن المعلوم أن الخير والشر قريبان من الإنسان، فلذا حث الله تعالى الإنسان على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، ولذلك قدمت المغفرة على الجنة هنا في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ أي: ما يؤدي إليهما من أداء جميع الواجبات، وترك جميع المنهيات.

وقوله: ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المراد به: جنس السماء والأرض، أو أنه تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم، وأكبر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض.

﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وفيها أعظم رجاء وأقوى أمل؛ إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن، ولم يذكر مع الإيمان شيئًا آخر[1]، وذلك الذي أهلهم الله له هو من فضله ومَنِّهِ عليهم، وإحسانه إليهم.

ويجدر بالبحث في هذا المقام أن يذكر أن آية أخرى وردت في كتاب الله تعالى في هذا الصدد لكن بلفظ المسارعة لا المسابقة، وهي قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

والناظر في الآيتين الكريمتين يجد بينهما تباينًا وافتراقًا في التعبير والأسلوب لأسرار وحكم بلاغية عظيمة يقف البحث على بعضها فيما يلي:

- مجيء حرف العطف «الواو» في سورة «آل عمران» ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، بينما حذف من «الحديد» ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.

والسر في ذلك يتضح من خلال النظر في سياق كل منهما، فآية «آل عمران» سبقت بعدة أوامر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ واتقوا الله واتقوا النار وأطيعوا الله والرسول ثم جاء بعدها معطوفًا عليها قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، فنظم هذا الأمر هو الآخر في سلك المأمورات السابقة، فكان من المناسب أن يعطف عليها بالواو، بينما قطعت سورة «الحديد» عن الإضافة لاختلاف موضوع الآية عن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥، التفسير البسيط، الواحدي ٢١/ ٣٠٣.

سابقتها؛ فإن الآية السابقة تحذر من الاغترار بالدنيا وزخرفها، وهذه تأمر بالمسابقة في أمور الآخرة، فافترقا في الموضوع فحذف العاطف لذلك[1]، والله أعلم.

❁ التعبير في آية «آل عمران» بالمسارعة و«الحديد» بالمسابقة.

وذكر الفرق بين مدلول كل من الفعلين فيما سبق، لكن لماذا خصت سورة «آل عمران» بالمسارعة، وسورة «الحديد» بالمسابقة؟

والجواب: يتضح لنا أيضًا من خلال النظر في سياق الآيتين الكريمتين من وجهين:

الأول: نجد أن آية سورة «آل عمران» تتحدث عن المتقين المسارعين، بينما تتحدث آية سورة «الحديد» عن المؤمنين المسابقين، ومعلوم أن الصنفين ليسا على درجة واحدة، فالمتقون أعلى وأسمى درجة من المؤمنين؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان والتقوى، فكان المناسب أن يأتي التعبير بالمسارعة في «آل عمران» لمكانة المتقين، وبالمسابقة في «الحديد» لمكانة المؤمنين[2].

الثاني: خصت سورة «آل عمران» بالمسارعة لكونها تحدثت عن بدر كنموذج عملي للمسارعة إلى المغفرة والجنة من خلال طلب الجهاد والشهادة، كما حذرت من تضييع حق الله وعدم الاستعداد لليوم الآخر، فجاء النهي عن أكل الربا، بينما خصت «الحديد» بالمسابقة لكونها تحدثت عن صفة الصديقين والشهداء، وبينت لنا حقيقة الدنيا وحذرت منها.

وبعدها جاء قوله ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ حتى لا يركن الإنسان إلى الدنيا مهما كان أمرها، صغر أو كبر، ليصرف الكَمَلَةُ من العباد هَمَّهُم عنها لسفولها وحقارتها بالنسبة إلى الآخرة، حيث الكمال والبقاء، ليرغبوا غاية الرغبة فيها، ويشتاقوا كلَّ الاشتياق إليها[3]، والله أعلم.

❁ التعبير بحذف حرف التشبيه في «آل عمران» ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، ويذكره في «الحديد» ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ﴾.

والسر في ذلك: أنه لما تضمنت آية «آل عمران» ما يدل على المبالغة والتعظيم من وصف من أعدت له الجنة، ووسمهم بالمتقين، وهم الذين وفوا بالإيمان وتوابعه وغير ذلك مما لم تتضمنه آية الحديد ناسب ذلك كله جعل العرض نفس السماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدر الذى لا بد منه عند بيان المعنى على ما تقدم، ولما لم يقصد في آية «الحديد» ذلك أفصح

(١) انظر: السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، صلاح الخالدي، ص٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩١، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص٢٩.

فيها بما يعطي معنى «مثل»، وهي كاف التشبيه، وإنما خصت آية «آل عمران» بما يدل على المبالغة والتعظيم دون آية الحديد لاشتمالها على الحض على الجهاد، وعظيم فضله، وذكر قصة بدر وأحد، ولما لم يكن في آية الحديد شيء من ذلك ناسب ذكر الكاف فيها[1]، والله أعلم.

❁ جمع السماوات في آل عمران وإفرادها في الحديد.

والسر في ذلك:موافقة كل آية للمقام الذي جاءت بالحديث عنه، فالمقام في «آل عمران» مقام تفصيل أمر الجهاد والشهادة، وحديثٌ عن أعلى مقامات المتقين وصفاتهم، وفيها حثٌّ على التجرد عن النفس والمال، وجميع الحظوظ الدنيوية أصلًا ورأسًا، بينما في سورة الحديد كان الحديث عن هذه المعاني مجملًا، وكان الحث على التجرد عن الدنيا فحسب، فجاء لفظ (السماء) مفردًا بما يناسب كلًّا من التفصيل والإجمال والموضوع[2]، والله أعلم.

❁ اختلاف من أعدت لهم الجنات، ففي آل عمران ذكرت الآية أنهم المتقون، وفي الحديد ذكرت آياتها أنهم الذين آمنوا بالله ورسله، فما السر البياني في ذلك؟

أرى أن السر في ذلك أنه لما خصت سورة «آل عمران» بالوصف البليغ للجنات، ودل ذلك الوصف على عظمها، وعلو مكانتها، وعظم شأن المسارعين إليها، وأن مسارعتهم إليها مسارعة ذاتية نابعة من بين جوانحهم رغبة منهم فيما عند ربهم سبحانه ناسب ذلك كله أن يبين سبحانه أن هذه الجنات إنما أعدت وخصت بقوم مخصوصين، علت مكانتهم لـمَّا سمت نفوسهم، وهم المتقون الجامعون بين الإيمان والتقوى، ولما خلت سورة «الحديد» من ذلك ختمت بهذا الختام العام ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، والله أعلم.

❁ تذييل آية الحديد بأن المذكور فيها من فضل الله، يمنحه من شاء من خلقه، فقال ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بينما لم نجد ذلك في تذييل آية آل عمران فما السر وراء ذلك؟

لعل حكمة ذلك أن موضوع آية الحديد استدعى ذلك التعقيب، فالمسابقون فيها هم مؤمنون آمنوا بالله ورسله، وسباقهم ما زال في بداياته، وهم بحاجة إلى مزيد من الترغيب والحث والتشجيع، حتى يستمروا في السباق، ويزيدوا من سرعتهم فيه،

(١) انظر: ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي ١/ ٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩٣، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص٢٤.

فأخبرتهم الآية أن هذا السباق فضل من الله، تفضل به عليهم، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم، يتفضل به على من يشاء من عباده.

ولم تذكر آية آل عمران هذا التعقيب؛ لأن المسارعين فيها إلى الجنة هم المتقون، وهم ليسوا بحاجة إلى حضٍّ وتشجيع؛ لأنهم ارتقوا إلى درجة أعلى، استشرفوا فيها الجنة التي يسارعون إليها، فقصدوها بالسير إليها، وضاعفوا سرعتهم نحوها[1].

وأخيرًا ألحظ على الآيتين معًا أمورًا:

أولها: أن كلتيهما عدي فعلها بحرف الجر «إلى»، ففي «آل عمران» ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ﴾ وفي «الحديد» ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ﴾ والسر البلاغي في ذلك يرجع إلى أن: حرف «إلى» يفيد انتهاء الغاية الزمانية وتارة المكانية[2]، وورد التعبير به هنا؛ لأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة والمسابقة وغايتهما، وهما غاية ما يتطلع إليه كل مؤمن، من الفوز بمغفرة الله ورضوانه وجنته، ففيه الإشارة إلى انتهاء الغاية معنى ورتبة ومكانًا[3].

ثانيها: أن المغفرة فيهما جاءت منكرة، ومضافة إلى الرب، فقال تعالى ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك للدلالة على التعظيم؛ حيث (عظم سبحانه بذلك شأن هذه المغفرة التي ينبغي طلبها بإسراع ومبادرة، بأن جاء بها منكرة، ووصفها بأنها كائنة منه سبحانه، فهو الذي خلق الخلق بقدرته، ورباهم برعايته)[4].

ثالثها: اختصاص العرض بالذكر في الآيتين دون الطول مع أنه أدل على الاتساع، وذلك ليكون أبلغ في الدلالة على عظم الجنة واتساع طولها؛ لأنه إذا كان عرضها كهذا، فإن العقل يذهب كل مذهب في تصور طولها؛ لأن العرض في العادة أقل من الطول، وذلك كقوله تعالى في صفة فرش الجنة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

فإذا كانت بطانة الفرش من الحرير، فكيف يكون ظاهر البطانة مما تراه الأعين؟[5].

رابعها: تقديم المغفرة على الجنة في الآيتين في قوله: ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ وسرُّ هذا التقديم: وجوب المسارعة والمسابقة إلى ما به مغفرة الذنوب والتطهر من أدرانها قبل طلب الجنة أو دخولها، من باب قولهم: «التخلية مقدمة على التحلية»،

(١) انظر السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، صلاح الخالدي ص٥.
(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام النحوي ص ١٠٤.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٥، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص٢٧.
(٤) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٩، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٤٦، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٣٧.

وفي ذلك يقول أبو السعود:

(وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار مزيد اللطف بهم)[(1)].

٣. السبق بالإيمان.

من أنواع السبق الممدوحة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: السبق بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والدخول معه في الدين الجديد، مع نصرته والدفاع عنه، والذب عن حياض شريعته وسنته، ونحو ذلك مما يقتضيه الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما تكفل ببيانه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

المتأمل في سياق الآية الكريمة يجد أنها سيقت بعد آيتين، تحدثت أولاهما عن المهاجرين، ومدحت صنيعهم وهجرتهم إلى الله تعالى في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [الحشر: ٨].

وأخراهما تحدثت عن الأنصار وحسن استقبالهم للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، وكريم ضيافتهم لإخوانهم المهاجرين مع ما بهم من حاجة وفاقة، ثم جاءت هذه الآية الكريمة، وفيها يخبر تعالى أن الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار، وهم: التابعون إلى يوم القيامة (يدعون لأنفسهم، ولمن سبقهم بالإيمان بالمغفرة، بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: غشًّا وحسدًا وبغضًا، فكل من لم يترحم على جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في قلبه غلٌّ على أحد منهم. فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية؛ لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل: المهاجرين، والأنصار، والتابعين الموصوفين بما ذكر.

ولنعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم، وبين الله فيها أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين، وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية)[(2)].

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٨٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٢٨١، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٩.

ودلت الآية الكريمة على أن من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضًا.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغلِّ وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

كما دلت الآية الكريمة على أن الدعاء يعد من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض[1].

ودلت أيضًا على أنَّ حقًّا على المسلمين أن يذكروا سلفهم بخير، وأن حقًّا عليهم محبة المهاجرين والأنصار وتعظيمهم[2]، والله أعلم.

**٤. سبق الملائكة الكرام.**

ذكر الله تعالى هذا النوع من التسابق، وهو «سبق الملائكة الكرام» في آية واحدة من كتابه، هي قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النازعات:٤].

والمفسرون اختلفوا في بيان المراد بالسابقات هنا اختلافًا كثيرًا، والبحث بدوره يكتفي فقط بما عليه أكثر المفسرين- رحمهم الله تعالى رحمة واسعة-فجلهم على أن المعنيين بهذه الآية هم:الملائكة الكرام، لكنهم اختلفوا أيضًا فيما بينهم على بيان معنى السبق الملائكي على هذا الوجه:

فمن قائل: إنها سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق.

ومن قائل: إنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء؛ إذ كانت الشياطين تسترق السمع.

ومن قائل: إن الملائكة تقبض الأرواح فتسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وبأرواح الكفار إلى النار[3].

وأرى: ترجيح القول بأن المراد بالسابقات الملائكة الكرام؛ لأن السياق في السابق واللاحق يرجح ذلك، كما أرى أنه لا مانع من الجمع بين آراء المفسرين في بيان سبق الملائكة الكرام؛ لأن الله تعالى حينما يأمرهم بأمر من الأمور يبادرون ويسابقون إلى تطبيقه وتنفيذه، فهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فسواء أمرهم بطاعة من الطاعات، أو بالوحي إلى أحد أنبيائه، أو قبض أرواح أحد من البشر فإنهم لا يتوانون في ذلك أبدًا، ولا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٨/ ٩٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٨٩، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٢٤، التفسير البسيط، الواحدي ٢٣/ ١٦٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٣٢٥.

شك أن مثل هذا السبق ممدوح دومًا غير مذموم، ومطلوب ومرغوب.

وهم مع ذلك لا يبادرونه بالقول ولا يسبقونه تعالى به، مهابة منه وإجلالًا له، فهم كما وصفهم تعالى في قوله﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء:٢٧].

يعلق الإمام الرازي على ذلك ويقول: (ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء:٢٧].

يعني: قبل الإذن لا يتحركون ولا ينطقون تعظيمًا لجلال الله تعالى وخوفًا من هيبته، وهاهنا وصفهم بالسبق، يعني: إذا جاءهم الأمر، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا المراد من قوله﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤﴾[النازعات:٤])[1]، والله أعلم.

**٥. السبق المطلق.**

ذكر القرآن الكريم نوعًا خامسًا من أنواع السبق ومدحه، ورغب فيه، وأطلقه عن التقييد، فلم يقيده بنوع ما من أنواع الخير، وساقه في معرض المدح والثناء على قوم اتصفوا به من بين المؤمنين، وهذا النوع وإن كان من الممكن أن يندرج تحت النوع الأول(السبق إلى الخيرات) إلا أن القرآن أطلقه عن التقييد، وأفرده بآيات مستقلة؛ فأحببت أن أستن بهذه السنة القرآنية فأفردته في نوع مستقل، وورد الحديث عن هذا النوع في موضعين من كتاب الله تعالى:

**الأول:** قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعالى هنا عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم، وأشادت الآية بهؤلاء السابقين ،الذين سبقوا أقوامهم إلى الإيمان بالله تعالى)[2].

وقسمتهم الآية إلى ثلاث طوائف:

**الطائفة الأولى:** المهاجرون، واختلف في بيان المراد بهم اختلافًا كثيرًا، ولعل من أرجحها:أنهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية؛ لأن المشركين كانوا إلى ذلك الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم، ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين السابقين الصادقين، ليس فيهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي٣١/ ٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير١١/ ١٧.

منافق[1].

ويؤكد هذا القول رجحانًا أن الله تعالى منع التسوية بين الفريقين في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

**الطائفة الثانية:** الأنصار، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفي العقبة الثانية، وكانوا سبعين رجلًا وامرأتين[2].

**والطائفة الثالثة:** الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة اتباعًا بإحسان، أو محسنين في الأفعال والأقوال، وخرج به من اتبعوهم في ظاهر الإسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون، ومن اتبعوهم محسنين في بعض الأعمال ومسيئين في بعض، وهم المذنبون.

وهؤلاء الطبقات الثلاث رضي الله عنهم في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم وهجرتهم وجهادهم، ونصرتهم للدين والشريعة، فقبل منهم طاعاتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، إذ بهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب[3].

ولقد أعجبني قول بعض العلماء حين جعل حكم الآية عامًّا يشمل كل سبق لأي أحد في أي عصر أو مصر، حيث يقول: (وهذه الآية الكريمة تضمنت تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، من العطاء في المال والرتبة في الإكرام)[4].

هذا وإن المتأمل للآية الكريمة يلحظ أمورًا منها:

- التقييد للتبعية بإحسان في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ يفيد الشهادة للسابقين بكمال الإحسان؛ لأنهم صاروا فيه أئمة متبوعين[5].
- التصريح برضى الله تعالى عن هؤلاء السابقين، ورضاهم عنه سبحانه، وذلك دال على تمام توفيق الله لهم وجزيل ما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة[6].
- التعبير بالإعداد في قوله ﴿وَأَعَدَّ﴾، وإفادة الاختصاص بتقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، وتنكير جنات..

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٣.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٣٣.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ١٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٨ بتصرف.

(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ١٣.

(٦) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص١٧.

كل ذلك يفيد تفخيم وتعظيم شأن أولئك السابقين، وعظم مكانتهم عند ربهم سبحانه وتعالى.

- حذف حرف الجر «من» في قوله تعالى ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وسر هذا الحذف يظهر من عدة أوجه من أهمها:

أ. كونه أبلغ في بيان هذا النعيم الموعود به هؤلاء السابقون، ففي سائر القرآن ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إلا هذا الموضع، قال البقاعي: «ونبه على عموم ريها وكثرة مائها بنزع الجار على قراءة الجماعة، ولعل تخصيص هذا الموضع بالخلاف؛ لأنه يخص هذه الطائفة، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان رِيًّا وحُسْنًا[1]».

ب. يذكر ابن عاشور أن «من» حذفت لوجود ما يغني مما يفيد التوكيد، فيقول:(وقد خالفت هذه الآية عند معظم القراء أخواتها فلم تذكر فيها «من» مع «تحتها» في غالب المصاحف، وفي رواية جمهور القراء، فتكون خالية من التأكيد؛ إذ ليس لحرف «من» معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد، ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ومن فعل «أعد» المؤذن بكمال العناية فلا يكون المعد إلا أكمل نوعه)[2]. والذي يفهم من كلامه أن «من» حذفت لوجود ما يغني عنها من تقديم المسند إليه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على الخبر الفعلي ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ ومعلوم أن تقديم ما حقه التأخير لون بلاغي مشهور، فضلًا عما يفيده الفعل «أعد» من كمال العناية بهؤلاء السابقين، وعظم شأن المعد لهم، والله أعلم.

- يلحظ من الآية أيضًا عظم مكانة هذه الأمة-وبخاصة أوائلها-عند الله تعالى لكونها سابقة لغيرها من الأمم إلى رضوان الله تعالى، فمن المعلوم أن (السبق يكون بالصفات والزمان والمكان، وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد)[3]، فأخبر النبي

(١) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٨ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٩ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم ٨٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة،

صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم بالزمان جئنا بعدهم فسبقناهم بالإيمان، والامتثال لأمر الله، والانقياد إليه، والاستسلام لأمره، والرضا بتكليفه، والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه، ولا نختار معه، ولا نبدل بالرأي شريعته، كما فعل أهل الكتاب، وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)[1].

والموطن الثاني: قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

والآيات في هذا الموضع تتحدث عن صنف من الأصناف الثلاثة التي ذكرتهم السورة الكريمة، وهم السابقون الذين سبقوا إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله، وهم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، وقيل:هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوانٍ، وقيل:هم الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات، وأيما كان فهولاء حازوا قصب السبق من الطاعات والقربات من رب الأرض والسماوات، فمن سابق إلى هذه الدنيا، وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾[2].

هذا وإنه لَيُلْحَظُ على هذه الآيات الكريمة أمورٌ:

**أولها:** تأخر ذكر هذا القسم الثالث من الأزواج الثلاثة في سورة «الواقعة»، ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأقسام وأقدمهم في الفضل؛ ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم وما أعده الله تعالى لهم في الآخرة، على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقًا معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه[3]، أو أخرهم لتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم[4].

**ثانيها:** تكرار لفظ «السابقون» في قوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وهذا التكرار للدلالة على أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة، بحيث لا يجد المتكلم خبرًا يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم «السابقون» فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار بما سواه، مع ما في اشتقاق لقبهم من «السبق» من الدلالة على بلوغهم أقصى

---

باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم ٨٥٥.

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٥٧٣ بتصرف.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود٨/ ١٨٩.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٨٩.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨٨.

ما يطلبه الطالبون[1].

ثالثها: التعبير باسم الإشارة للبعيد «أولئك» إيذانًا ببعد مكانتهم، وعلو منزلتهم عند ربهم سبحانه، ولا أدل على ذلك من مرتبة القرب منه تعالى التي منحهم إياها، نسأله تعالى أن نكون منهم أجمعين، فضلًا عما يفيده هذا التعبير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ من الحصر والقصر، والذي (يقتضي أن لا يكون غيرهم مقربًا)[2].

رابعها: وصف السابقين هنا بأنهم المقربون من ربهم، حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، وهذه أعظم نعمة يسعى إليها العاملون المؤمنون، الذين يقول في حقهم سبحانه في آخر هذه السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩][3].

خامسها: الإفادة بأن لهم جنات النعيم: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، والملاحظ أنه كلما ذكر أجر السابقين، وذكر أن ثوابهم الجنة يأتي ذكر الجنة بصيغة الجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾ أو ببيان ما يدل على عظمها.

ولعل في ذكر الجنات بصيغة الجمع لفت نظر إلى أن الجنة منازل ومراتب، وفي كل منزلة من النعيم العظيم ما فيها، وهؤلاء السابقون قد فازوا بما اختصت به كل منزلة من نعيم وعطاء، فجمعوا كل خير وثواب وعطاء، أو (لكون الجنان سبعًا: جنة الفردوس، وعدن، والنعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليين، أو الجمع إشارة إلى سعتها، وكثرة أشجارها وتنوعها)[4]، والله أعلم.

سادسها: وصف الجنات بأنها ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وهذا يفيد كثرة النعيم وتنوعه؛ لأن النعيم -كما يقول الراغب-: هو النعمة الكثيرة، وتنعم: تناول ما فيه النعمة وطيب العيش[5].

أو للإشارة إلى أن الجنة في الدنيا قد تكون للنعيم، وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها، بخلاف الجنة في الآخرة فإنها للنعيم لا غير، وفي هذا مزيد عناية بما أعد الله للمؤمنين السابقين[6].

وهذا وإن دل فإنما يدل على مدى عظيم فضل الله تعالى وإكرامه لأهل السبق في طاعته، وأنواع القربات والزلفى إليه سبحانه، نسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا منهم، ويلحقنا بركبهم، اللهم آمين.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩٠.

(٣) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في ضوء القرآن الكريم ص٥٥.

(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في ضوء القرآن الكريم ص٥٦.

(٥) المفردات، الراغب ص٨١٤» بتصرف.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١.

٦. سبق القضاء والقدر.

من المعلوم بداهة أن كل الأمور والمقادير قدرها الله تعالى على خلقه في الأزل، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤٩].

وجعل ذلك في اللوح المحفوظ، ثم يبديه لخلقه في حينه، في أمور يبديها ولا يبتديها، ولولا سبق القضاء بالمقادير كلها لأنزل الله تعالى بعباده ما يستأهلونه في حينه.

وورد الحديث عن هذا النوع الخامس في عشرة مواطن من كتاب الله تعالى، وجميعها تفيد هذا المعنى «سبق القضاء والقدر له سبحانه وتعالى»، وعبارات المفسرين وإن اختلفت في التعبير عن ذلك إلا أنها تؤول إليه، وسبق للبحث أن تعرض للإشارة إلى هذا النوع في مبحث «الدلالات القرآنية» لمادة «سبق»، ومَثَّل له هناك بآيتين، وسيعرض للبقية هنا.

فمن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠].

وهذا أمر من الله تعالى لسيدنا نوح السلام أن يحمل في سفينته من كل شيء زوجين، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: (من قضي عليه بالعذاب فهو مستثنى من أهله، والمراد بذلك ابنه الكافر وامرأته، وأمثالهما)[١]، ومثل هذا يقال في موضع سورة «المؤمنون»، ومن المواضع أيضًا قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:١١٠].

فـ(الكلمة) هاهنا عبارة عن الحكم والقضاء[٢]، والمعنى: ولولا قضاء الله وحكمه بتأخير العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لفصل بين المؤمن والكافر في الدنيا.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١٢٩﴾ [طه:١٢٩].

والكلمة هنا تعني: القضاء السابق، والمعنى: لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم لكان العذاب لزامًا: أي واقعًا بهم[٣].

وكذلك المعنى في بقية المواطن المشابهة.

أما السبق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء:١٠١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾

[الصافات:١٧١].

فيحتمل معنى التقدم[٤]، ومعنى القضاء والحكم، وأرجح الأخير؛ لكونه قول عامة

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٧٠.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٣/ ٢١٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٩٩، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٠.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي٣/ ٥٣٥، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٠.

المفسرين[1]، ومعنى الآية الأولى عليه: إن الذين قضيت لهم السعادة في الأزل من خلقه تعالى فهو عن النار مبعد، فإن السعادة سبقت لأهلها من الله، وسبق الشقاء لأهله من الله[2]، ولا شك أن هذا السبق سبق قضاء وقدر ليس إلا، والله أعلم.

ومعنى الآية الثانية عليه:أنه تعالى قد حكم في كتابه بنصر أنبيائه، فليس ينقضه أحد[3].

هذا وإني ألحظ على الآيات في هذا الصدد أمورًا:

**أولها**: الدلالة على عظم مكانة السابقين الذين سبقت لهم من الله الحسنى والسعادة، حيث عبر عنهم بالاشتهاء لعظم ما هم فيه في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٢].

وفي ذلك يقول البقاعي:(لما كانت الشهوة-وهي طلب اللذة-لا تكون إلا بليغة، عبر بالافتعال دلالة على عظيم ما هم فيه من اللذة فقال: ﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾في الجنة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمًا أبدًا)[4].

**ثانيها**: ورد التعبير في أكثر من آية بقوله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ وهي ليست كلمة واحدة بل كلمات، (إنما سماها كلمة وهي كلمات عدة؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة)[5].

**ثالثها**: ورد في بعض الآيات تعدية الفعل «سبق» بحرف الجر «على» مثل قوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠].

وفي بعضها تعدى باللام، مثل قوله ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١].

وقوله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ [الصافات:١٧١].

وبعضها بـ(من) مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه:١٢٩].

وما شاكلها، وأرى أن السِّرَّ في ذلك:أن مضمون الآية إذا كان يتعلق بالمخلوقين، وكان شيئًا نافعًا جاءت التعدية باللام، وإذا كان شيئًا ضارًّا جيء بعلى[6]، وإذا كان الأمر يتعلق بالخالق سبحانه، مع الدلالة على الابتداء جاء التعبير بـ«من» الابتدائية المفيدة لذلك، والله أعلم.

## ثانيًا: السبق المذموم:

إذا كان القرآن قد رصد أنواعًا عديدة من أنواع السبق الممدوح، وقفنا عليها فيما سبق، فإنه قد رصد أيضًا بعضًا من أنواع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٥٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٨٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣٨، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٠.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٨/ ١٠٥.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٨٦.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٧.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٦.

السبق المذموم، سيجليها البحث فيما يلي:

**١ . سبق قوم لوط عليه السلام إلى الفاحشة.**

ابتلي قوم لوط عليه السلام بإتيان الذكران بعضهم بعضًا، وترك ما أحل الله لهم من أزواجهم، فضلًا عن مجاهرتهم بفعلهم هذا وعدم استحيائهم من الله تعالى، أو من بعضهم البعض، مما يجرئ غيرهم على المعصية، سابقين في ذلك العالمين أجمعين، فقام سيدنا لوط عليه السلام بواجب الدعوة نحوهم، ناعيًا عليهم هذا السبق المذموم، وجاء الحديث عن ذلك في موضعين من كتابه تعالى.

**أولهما:** قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الآيات[الأعراف: ٨٠].

**وثانيهما:** قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

وهناك مواضع أخرى تحدث فيها القرآن عن فعل قوم لوط عليه السلام، إلا أنها لم يرد فيها التعبير بالسبق، لذا لا يتعرض لها البحث هنا.

وحقيقة السبق: وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره، ويستعمل مجازًا في التقدم في الزمان، أي: الأولية والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنهم سبقوا الناس بهذه الفاحشة[(١)].

والفاحشة في الأصل: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

وفحش فلان: صار فاحشًا، والمتفحش: الذي يأتي بالفحش[(٢)].

والمراد بالفاحشة هنا: إتيان الذكران بعضهم بعضًا في الأدبار، في قول جميع المفسرين[(٣)].

وفي هذا السبق لقوم لوط يقول الزجاج معلقًا على آية الأعراف:(هذا دليل على أن فاحشة اللواط لم يفعلها أحد قبل قوم لوط)[(٤)].

وقال المفسرون:(ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط)[(٥)].

والحظ على الآيات الكريمة أمورًا:

**أولها:** تعظيم جرم فعل قوم لوط، حيث إنه تعالى (خص بالذِّكْرِ من مرتكباتهم أقبحها مما استوجبوا به العذاب، وخاطبهم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٠.
(٢) المفردات، الراغب ص٦٢٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٤٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٥٨، التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ٢١٨.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٣٥٢.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ٢١٨.

لوط عليه السلام:إن هؤلاء المكذبين من قبلكم على سوء مرتكباتهم لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه وقد سمعتم بهم وخلت من قبلكم المثلات)[1].

ثانيها: وصفهم الله بالمفسدين كما ورد في دعاء نبيهم عليهم ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت:٣٠].

لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتعويدهم عليها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر عليهم؛ لأن الله لا يحب المفسدين[2].

ثالثها: التعبير بالشهوة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف:٨١].

للمبالغة عليهم في الإنكار والتوبيخ، ووصفهم بالبهيمية الصرفة، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع، لا قضاء الوطر[3].

رابعها: التعبير بـ(من) في قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك لتأكيد العموم المستفاد من وقوع النكرة ﴿أَحَدٍ﴾ في سياق النفي ﴿مَا سَبَقَكُم﴾، وفائدتها:تأكيد أنه لم يسبقهم إلى هذه الجريمة النكراء أحد من العالمين على الإطلاق.

هذا وإن الآيات الكريمة تشتمل على معانٍ وأسرار عظيمة لكل متأمل، ولعل ما ذكر فيه الغنية ليجول البحث بنا الآن في نوع آخر من أنواع السبق المذموم فيما يلي:

٢. السبق إلى الكفر.

سبق الكافرين إلى الكفر وسائر المعاصي إنما أوقعهم فيه الشيطان، ونفوسهم العصية، والقرآن الكريم أشار إلى هذا السبق إشارة سريعة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال:٥٩].

والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا سبقونا ففاتونا بأنفسهم، فهم لا يعجزون ربهم، إذا طلبهم وأراد تعذيبهم وإهلاكهم[4].

أو المراد:بيان أن أولئك الذين انهزموا يوم بدر، أشفقوا من هلكة تنزل بهم، فلما لم تنزل طغوا وبغوا.

فقال الله: لا تحسبن أنهم سبقوا بسلامتهم الآن، فإنهم لا يعجزوننا فيما يستقبل من الأوقات[5].

وأيما كان المراد، كفار بدر أو غيرهم فإن

(١) ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي ١/ ٢٠٧ بتصرف.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤١.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٢ .
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٨.
(٥) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٨.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ حيث إن لفظ الآية عام يتناول كفار كل عصر ومصر، وإن كانت كلمة المفسرين تكاد تجتمع على معنى السبق هاهنا، وأنه «الفوت وعدم الإفلات» -كما مر- فإن الآية تشير من طرف خفي إلى سبق الكافرين إلى الكفر، وهو يشمل كل ما دونه من المعاصي والذنوب.

هذا وإن القرآن قد صرح بمسارعة الكفار في الكفر، ولكن بلفظ المسارعة دون المسابقة.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

وكلتا الآيتين ورد التعبير فيهما بلفظ المسارعة في الكفر، وفي الأولى يطلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن لا يحزنه الذين يسارعون في الكفر، وذلك من شدة حرصه على الناس، وكان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فطلب منه تعالى أن لا يحزنه ذلك، فإنهم لن يضروا الله شيئًا، ومن حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة، ولهم عذاب عظيم[1].

وفي الثانية أيضًا يطلب تعالى منه صلى الله عليه وسلم أن لا يحزنه مسارعة المنافقين وغيرهم في الكفر، وتعاونهم ضد الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمراد بالذين يسارعون في الكفر: المنافقين، وقريظة والنضير -في قول ابن عباس- ومعنى مسارعتهم في الكفر: مظاهرتهم الكفار على محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان يفرط ويسرف في الحزن على كفر قومه، حتى كان يؤدي ذلك إلى أن يضر به، فنهي عن الإسراف فيه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨][2].

ومن خلال التأمل في الآيات هنا يتبين لنا أن الحق سبحانه عبر عن مسابقة الكفار في الكفر بفعل المسارعة؛ للدلالة على أنهم يتوغلون فيه، ويعجلون إلى إظهاره وتأييده، والعمل به عند سنوح الفرص، ويحرصون على إلقائه في نفوس الناس.

ومعنى المسارعة في الكفر إظهار آثاره عند أدنى مناسبة، وفي كل فرصة[3]، وإيثار حرف الظرفية «في» بدلًا من «إلى» يدل على أمرين:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٦/ ١٩٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٧٢.

- الإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، والدلالة على شدة مسارعة الكفار إلى الكفر، وتمكنهم منه، وتغلغله في أعماقهم[1].
- إفادتها معنى التوكيد[2].

[انظر: المسارعة: المسارعة إلى الكفر]

(١) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي ص٢٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٥.
(٢) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات ص٤١.

## صفات السابقين إلى الخيرات

من الأهمية بمكان أن يقف البحث بالقارئ الكريم على أهم الصفات التي يتحلى بها السابقون إلى الخيرات، لعل في ذلك الهدى والرشاد لمن أراد أن يترسم خطاهم، ويقتفي آثارهم.

### أولًا: الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله تعالى أصل العقيدة الصحيحة، ومهوى الفطر المستقيمة، وأول ما ينبغي أن يتصف به السابقون إلى الخيرات خصوصًا والمؤمنون عمومًا، وهذه الصفة أصل لما سواها؛ إذ بدونها لا يعتد بغيرها.

واتصاف السابقين بهذه الصفة ورد في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

وهنا يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمسابقة إلى المغفرة والجنة التي هي عظيمة الاتساع، والتي أعدت لمن اتصف بهذه الصفة العظيمة، رأس وأول صفات الخير كلها، ألا وهي «الإيمان بالله تعالى ورسله».

والإيمان في أبسط تعاريفه يعني: نطق واعتراف باللسان، وإقرار وتصديق بالقلب

والجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

وغيره الكثير والكثير.

وقوله صلى الله عليه وسلم في تعريف الإيمان: (الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١].

إذن فمسمى الإيمان يشمل العقيدة الحقة في الإقرار بواحدانية الله تعالى وألوهيته، وإخلاص العبادة له، مع الإقرار بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وإذعان القلب بذلك، والتصديق العملي لهذا الإقرار من فعل الواجبات وترك المحرمات[٢].

ولا شك أن السابقين إلى الخيرات حازوا أعلى الدرجات في ذلك، وإلا ما امتدحهم القرآن الكريم.

## ثانيًا: الخشية من الله تعالى:

وصف الله تعالى عباده السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧].

والخشية: خوف يشوبه تعظيم وتوقير، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨][٣].

وهي أيضًا صفة المبلغين عن الله تعالى رسالاته ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب:٣٩].

والخشية أعلى درجة، وأسمى مقامًا وأخص من الخوف؛ إذ (الخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات، والتقصير في الطاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتة جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل.

والخشية: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطلع على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم ٨.

(٢) انظر: الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته، القاسم بن سلام ص ٢٥، الإيمان، ابن تيمية ص١٥.

(٣) المفردات، الراغب ص٢٨٣.

حال الكبرياء، وذاق لذة القرب، ولذا قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨])[1].

ويفرق الألوسي بين الخشية والخوف فيقول: (الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا)[2].

إذن فالخشية مهابة وتعظيم المخشي مصحوبة بعلم ومعرفة، وهذا مقامٌ سامٍ لا يتحصل عليه إلا من أهله من العلماء، والسابقين ونحوهم ممن خصهم الله تعالى بذلك.

وبناءً على ذلك فمعنى الآية: إن الذين هم من خشية ربهم وتعظيمه مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته جادون في طلب مرضاته[3].

## ثالثًا: الإشفاق:

الشفقة: ضرب من الرقة، وضعف القلب، ينال الإنسان، ومن ثم يقال للأم: إنها تشفق على ولدها، أي: ترق له، ومن هذا الأصل قولهم: ثوب شفقٌ، إذا كان رقيقًا، وقولك: أشفقت من كذا، معناه: ضعف قلبي عن احتماله[4].

أو هي: عناية مختلطة بخوف، لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عدي بـ «من» فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ «في» فمعنى العناية فيه أظهر[5].

وليست هي من الخشية والخوف في شيء، والشاهد آيتنا قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧].

ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول ذلك، كما لا يحسن أن يقول: يخشون من خشية ربهم.

والمراد هنا وصف السابقين بهذه الصفة المباركة، والتي تقتضي الخوف من الله تعالى، مع العلم به سبحانه، وشدة الرقة في القلب وكثرة الخوف من عقابه.

فالمؤمنون مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، خائفون منه، وجلون من مكره بهم.

كما قال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمنًا»[6].

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٢١٨.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٤.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٠٠.
(٥) المفردات، الراغب ص٢٨٣.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٨٠، التفسير الوسيط طنطاوي ١٠/ ٤٣.

## رابعًا: الإيمان بآيات الله تعالى:

ورد مدح المؤمنين السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾ [المؤمنون:٥٨].

وآيات الله: تعم القرآن، وتعم العبر والمصنوعات التي لله وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الخالق، فالمخلوقات دالة على وجوده تعالى، والإيمان بها هو التصديق بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع، وذلك مما لا يتوصل إليه إلا بالنظر والفكر، وصاحبه لا بد وأن يصير عارفًا بوجود الصانع وصفاته، وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الإقرار باللسان ظاهرًا، وذلك هو الإيمان[(١)].

ومن هنا كانت جهة مدحهم، وزيد في مدحهم بالتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للدلالة على أنه (لا يزال إيمانهم بها يتجدد شكرًا له تعالى لإحسانه إليهم)[(٢)].

## خامسًا: عدم الإشراك بالله تعالى:

وردت الإشارة إلى وصف المؤمنين السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [المؤمنون:٥٩].

والمؤمن قد يعرض له في إيمانه شرك جَليٌّ أو خَفيٌّ، فأثبت لهم هنا الإيمان الخالص، فقال: والذين هم بربهم الذي لا محسن إليهم غيره وحده، لا يشركون شيئًا من أي أنواع الشرك في وقت من الأوقات، كما لم يشركه في إحسانه إليهم أحد على الإطلاق[(٣)].

وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالى؛ لأن ذلك داخل في قوله فيما سبق ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفي، وهو أن يكون مخلصًا في العبادة، لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى، وطلب رضوانه، والله أعلم[(٤)].

## سادسًا: القيام بالعمل الصالح:

وردت الإشارة إلى اتصاف القوم بهذه الصفة في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ [المؤمنون:٦٠].

فالآية تدل على قيامهم بالعمل على وفق مراد الله تعالى؛ فقد ظهر أثر الإيمان فيهم جليًّا، وأفادت قيامهم بالعمل الصالح مطلقًا، ومنها الصدقات والزكوات، وفي قوله ﴿مَا آتَوا﴾ لفت نظر إلى أنهم لم يجعلوا لأعمالهم الصالحة أو لصدقاتهم حدًّا تنتهي إليه، وهذا مستفاد من التعبير بـ«ما» في قوله ﴿مَا آتَوا﴾ الدالة على العموم، والتعبير بالمضارع في ﴿يُؤْتُونَ﴾ للدلالة على

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤٧.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٣/ ١٥٩.
(٣) المصدر السابق بتصرف.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٨٣.

الاستمرار في العطاء، وبالماضي في: ﴿مَآ ءَاتَوا﴾ للدلالة على تحققه[1].

سابعًا: الوجل:

الوجل: استشعار الخوف، يقال: وجل يُوجَلُ وَجَلًا، فهو وَجِلٌ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢].

ولقد وصف الله تعالى المؤمنين السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

وفيها يصف الله تعالى السابقين إلى الخيرات بأنهم يؤدون الواجبات، ويعملون صالح الأعمال، باذلين قصارى جهدهم في ذلك، ولكن مع الخوف من الله تعالى، فهم يفعلون ما فعلوا، مع وجود الخوف ألا يتقبل الله منهم أعمالهم، إنهم يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ولكنهم من الله عز وجل يخافون، خائفون ألا يقبل منهم، أو لا يقع العمل على غير الوجه اللائق، لتقصير في الوفاء بحق الإعطاء أو غير ذلك.

وقوله: ﴿مَآ ءَاتَوا﴾ لا يقتصر على العطاء المادي من زكاة أو صدقة، وإنما يشمل كل حق يلزم إيتاؤه، سواء أكان من حقوق الله تعالى كالعبادات، أم من حقوق بني آدم كالودائع والعدل بين الناس وغيرها[2].

ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم)[3].

وأختم هذه الصفات المباركة لأهل الإيمان والسبق - أسأل الله تعالى أن نكون جميعًا منهم- بهذا التذييل الرائع للإمام الرازي حيث يقول[4] معلقًا على ترتيب الصفات الأربع حسبما وردت في الآيات:

«اعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن.

فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

(١) انظر: روح المعاني الألوسي ٩/ ٢٤٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب ص٨٥٥، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥، ٥/ ٣٢٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، رقم ٤١٩٨، ٢/ ١٤٠٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٨٣.

والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين»، اللهم اجعلنا منهم أجمعين، بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين، يارب العالمين.

## ثواب السابقين في الخيرات

جبل بنو البشر وغيرهم على كثير من الأمور النفسية كالدوافع والانفعالات، وما تتحرك الخلائق لفعل شيء ما إلا إذا كانت هناك دوافع تدفعهم نحوه، وترغبهم فيه، وتيسر عليهم بعض ما يجدونه في طريقهم نحو أهدافهم على اختلافها وتنوعها، ومما لا شك فيه أن السابقين بالخيرات وقفوا على الجوائز والمنح التي رصدها الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة، فدفعهم ذلك إلى السبق والتنافس.

وسيتم الحديث عن بعض ما أكرم الله تعالى به السابقين إلى مغفرته ورضوانه من جزاء وثواب في الدنيا ثم الآخرة، في النقاط الآتية:

### أولًا: ثواب السابقين في الخيرات في الدنيا:

عدد الله تعالى الجوائز والمنح لأوليائه من المؤمنين السباقين إلى الخيرات في الدنيا، وذكر ذلك في كتابه، إما تصريحًا أو تلميحًا، والمتأمل يجد الشيء الكثير من ذلك، وسيعدد البحث هذه المنح الدنيوية فيما يلي:

١. الفوز برضوان الله تعالى.

قد يظن الظان لأول وهلة أن هذا الثواب يكون للسابقين في الآخرة لا الدنيا،

لكن ما الدليل على هذا التخصيص، وقد جاءت الآيات مطلقة؟ مثل قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

بل أرى أن الآية قد تفيد أن هذا الرضى إنما هو دنيوي في المقام الأول، وذلك لقوله تعالى ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ثم مجيء قوله تعالى بعده:﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ مما يقتضي سبق الرضا على الإعداد، لكن لا مانع أن يكون هذا الرضا لهم من الله تعالى منحة دنيوية وأخروية كذلك، ولا حرج على فضل الله تعالى وكرمه.

٢. مدح الله لهم، وتعظيمه لشأنهم.

حيث إنه سبحانه وصفهم بما يدل على ذلك في قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٤].

فعبر بما يشير إلى تميزهم بأمرين:

أولهما: التعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿أُولَٰئِكَ﴾، وذلك لبعد مكانتهم، وعلو منزلتهم، وعظم شأنهم عند ربهم جل وعز.

ثانيهما: التعبير بالقلة في جانبهم حيث قال:﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وهذا يدل على تميزهم، وفضلهم على من سواهم، وفي ذلك يقول السعدي: (وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق)[1].

٣. الهداية لعمل الصالحات.

فالسابقون طائفة خاصة من أهل الإيمان، وأهل الإيمان وعدهم الله تعالى بعدة أمور، منها: هدايته تعالى إياهم لعمل الصالحات، ودليله قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩].

والمراد: (يهديهم ربهم في الدنيا، حتى يثبتهم على الإيمان ويدخلهم في الآخرة الجنة بإيمانهم)[2]، ولو لم تكن لهم منحة من الله تعالى إلا هذه لكفتهم، اللهم اجعلنا منهم أجمعين.

٤. إلقاء المحبة والمودة لهم في القلوب.

يكفي السابقين أنهم مشمولون بكل وعد حسن وعد الله تعالى إياه عباده المؤمنين، ومن أعظم هذه الوعود قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

ومقصود الآية الكريمة: أن الذين آمنوا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٣.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١٠٥.

بالله ورسله، وصدقوا بما جاءهم من عند ربهم، وعملوا به، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، سيجعل لهم الرحمن محبة ومودة في صدور عباده المؤمنين، لإيمانهم وعملهم الصالح، يقال: وَدَّ فلانٌ فلانًا، إذا أحبه وأخلص له المودة[1].

ويسبق ذلك محبة الله تعالى لهم، ثم ملائكته الكرام، ثم توضع لهم المحبة في السماء والأرض، يؤكد لنا هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إن الله قد أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض)[2].

فاللهم اجعلنا جميعًا من أهل وُدِّكَ ومحبتك يارب العالمين.

٥. التطهر والتزكية.

وهذا أيضًا من عطاء الله تعالى لأهل الإيمان المنفقين، ولا شك أن السابقين حازوا قصب السبق في ذلك مع وجل قلوبهم وخوفهم أن لا تقبل منهم صدقاتهم وغيرها، تصديقًا لقوله تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

والتطهرُ والتزكيةُ وَعْدٌ مِنَ الله للمنفقين كما ورد في قوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

ومن حسن المناسبة أن ترد هذه الآية في سورة «التوبة» بعد آية ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ بآيتين اثنتين ليدل ذلك على أن للسابقين النصيب الأوفى في هذه التزكية والتطهر، والله أعلم.

٦. الحياة الطيبة السعيدة في الدنيا.

من موعود الله تعالى لأهل الإيمان أنه يحييهم حياة طيبة في الدنيا جزاء لأعمالهم الطيبة، ولا شك أن السابقين ما نالوا السبق إلا بتوفيق الله تعالى لهم في عمل هذه الأعمال الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وفيها يخبر الله تعالى أن (من عمل بطاعته، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن ومصدق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية فسيحييهم الله في الدنيا ما عاشوا فيها بالرزق

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٦١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، رقم ٤٧٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا الله أحبَّ عبدًا حببه لعباده، رقم ٢٦٣٧.

الحلال أو القناعة أو السعادة ونحوها)[1].

٧. سعة الرزق وبركته.

وعد الله عز وجل فريقًا من الناس أنهم إن آمنوا به واتقوه لأغدق عليهم بركاته السماوية والأرضية في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

والمعنى: ولو أن أهل القرى وحدوا الله، واتقوا الشرك، وما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح، ليسرنا لهم خيرات السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها، والمطر، والنبات، وكثرة المواشي والأنعام ونحوها[2].

ولعل القارئ الكريم يتساءل: وما علاقة الآية بالسابقين وجزائهم الدنيوي؟

والجواب: إذا كان الله جل وعز قد وعد هؤلاء بالإغداق عليهم من بركات السماء والأرض عند توحيدهم وتقاهم، فإنه سبحانه وتعالى يحقق هذه الموعود لمن يحقق شرطه من الخلق، ولا شك أن السابقين حازوا قصب السبق في ذلك، ولا أحد أوفى بعهده من الله تعالى.

٨. الإمامة في الدين وهداية الخلق.

وهذه منحة عظمى من الله تعالى طلبها

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٩.

عباد الرحمن من ربهم سبحانه في دعائهم إياه ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان:٧٤].

أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين، بإفاضة العلم والتوفيق للعمل الصالح[3].

ولعل هذا هو لسان حال السابقين؛ لأن علو الهمة دأبهم، وطلب معالي الأمور شيمتهم، والسبق في الدين والطاعة سمتهم، ومن ثم فليس غريبًا عنهم هذا الطلب والرجاء، ولا نبعد كثيرًا حين نقول: إن السابقين من عباد الرحمن، والله أعلم.

٩. دعاء واستغفار الملائكة لهم.

من غاية عطاء الله تعالى وكرمه لعباده المؤمنين أن ألهم ملائكته الدعاء والاستغفار لهم، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر:٧].

وفيه: يخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين، ويعظم الرجاء لهم، وهو أن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش - وهؤلاء أفضل الملائكة-

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٣١.

يستغفرون للمؤمنين، ويسألون الله لهم الرحمة والجنة، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

أي: سألته الملائكة[١].

وأهل السبق لهم النصيب الأوفى من هذه الدعوات؛ حيث إنهم لم يكونوا من المؤمنين وفقط، بل سبقوا غيرهم طاعة وعبادة وفضلًا.

١٠. التمكين والنصر.

وعد الله عباده المؤمنين بالتمكين بمثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وبالنصر على الأعداء في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

فإذا لم يكن السابقون إلى الخيرات مشمولين بهذين الوعدين الكريمين فَمَنْ؟ وإذا لم يُمكَّنْ أمثالهم في الأرض لإعمارها، وإصلاح شؤونها وشؤون أهلها فَمَنْ؟ فهم أهل لكل تمكين ونصر وخير وبر وبركة.

والناظر في كتاب الله يجد من هذا الصدد الكثير والكثير، لست مبالغًا حين أقول: إن جميع موعود الله تعالى لعباده المؤمنين، وكذلك المتقين أيضًا يشمل السابقين؛ لأنهم بلا شك آمنوا واتقوا، بل وسبقوا غيرهم في الطاعات وسائر القربات، ولو استرسل البحث في ذلك لطال به المقام، وما وفَّى السابقين حقهم، وهم قد بلغوا ما بلغوه بالصبر والمثابرة، والصابرون يُوَفَّوْنَ أجورهم بغير حساب، ولا شك أن واجبنا نحوهم يتلخص في اقتفاء أثرهم، والسير على منهجهم، وتقديرهم وإجلالهم، والذب عنهم، ودعوة الناس إلى سلوك طريقهم، والسير في ركابهم، ومحبتهم، والإقبال عليهم، ومن أحب قومًا حشر معهم..

والآن إلى جولة للبحث أخيرة مع بيان جزاء السابقين في الآخرة، وذلك فيما يلي:

## ثانيًا: ثواب السابقين إلى الخيرات في الآخرة:

قد وقف البحث بنا فيما مضى على بعض منح الله تعالى وعطاياه للسابقين إلى الخيرات في الدنيا، والآن يجول بنا جولة أخيرة للوقوف على بعض عطاياه سبحانه لهم في الآخرة، ولا شك أنها خير وأعظم أجرًا، وأبقى أثرًا، وأعظم نفعًا ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وسيقف البحث عليها من خلال التأمل

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٥٧.

في المواطن الثلاثة الواردة في سور (التوبة وفاطر والواقعة)، وسيذكرها البحث -كما هو منهجه- مرتبة مصحفيًا حسب سورها فيما يلي:

١١. فوزهم برضوان الله تعالى.

أشار القرآن الكريم إلى هذه النعمة الكبرى في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والمعنى: ومعنى الكلام- كما يقول الطبري[١]-: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام.

وأكرم وأنعم بهذه النعمة من منزلة ومكانة لا تدانيها منزلة مثلها، وأعجبني في هذا الصدد قول أحد العلماء: لا تعبدوا الله تعالى ليعطي، بل اعبدوه ليرضى؛ فإنه إن رضي أدهشكم بعطائه، فاللهم اجعلنا جميعًا ممن تغدق عليهم بعظيم عطائك.

١٢. فوزهم بالروح والريحان عند قبض أرواحهم.

ذكر الله تعالى في نهاية سورة «الواقعة» أحوال عباده عند الموت، وصنفهم ثلاثة أقسام، وجعل أول هذه الثلاثة:المقربين، وكما مر بنا أن المقربين هم السابقون، وهؤلاء السابقون لهم مكانة عظيمة وكرامة عند ربهم حتى عند قبض أرواحهم، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

وفي هاتين الآيتين يوضح الله ما يلاقيه السابقون المقربون عند موتهم، فعن أبي العالية قال:لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا-والمقربون السابقون-حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه، ثم يقبض.

والمعنى: فأما إن كان الميت من المقربين الذين قربهم الله من جواره في جنانه ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي:فله الرحمة والراحة والمغفرة، والرزق الطيب الهنيء، أو المراد:أن أرواح المقربين تخرج من أبدانهم عند الموت بريحان تشمه[٢].

وأيما كان تفسير الروح والريحان فإن المراد بيان كرامة المقربين أهل السبق عند ربهم سبحانه، وأنهم يبشرون بالراحة والرحمة والمغفرة، والروائح الطيبة عند خروج أرواحهم؛ وذلك لطيب أقوالهم وأعمالهم ومعيشتهم كلها، فاللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

(١) جامع البيان ١٤/ ٤٣٩.

(٢) المصدر السابق ٢٣/ ١٦٠.

١٣. **الفوز بدخول الجنة.**

الحديث عن هذه النعمة في آيات القرآن كثير، لكن أكتفي بما وردت الإشارة به إلى جزاء السابقين من قوله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والآية أوضح من أن يعلق عليها، حيث إنها تبين عظيم امتنان الله على هؤلاء السابقين بسبق إعداد الجنات لهم، جزاء وفاقًا لأعمالهم، وهذا فيه مزيد تشريف وتكريم لهم، فاللهم اجعلنا منهم أجمعين.

١٤. **تنوع صنوف النعيم لهم في الجنة.**

نَوَّعَ الله تعالى لأهل الجنة عمومًا ولأهل السبق خصوصًا صنوفًا شتى من النعيم في الجنات، حتى تسعد نفوسهم، وتهنأ قلوبهم، ولا تمل أجسادهم، تقديرًا لسبقهم، ومكافأة على أعمالهم - وإن كان مبدأ دخولهم الجنة محض فضل من ربهم الكريم سبحانه- وسنرى الآن كيف نوع الله هذا النعيم من خلال المواطن الثلاثة - كما سبق- فيما يلي:

- **تعدد الجنات.**

أشار الله تعالى إلى أنها جنات وليست جنة واحدة، في قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والجمع فيه إشارة إلى تنوعها وتعددها، باعتبار أن لكل واحد منهم جنات جنة الفردوس، وعدن، والنعيم، ودار الخلد، أو الجمع باعتبار أنهم جمع، وفيه لفت نظر إلى أن الجنة منازل ومراتب، وفي كل منزلة من النعيم العظيم ما فيها، أو الجمع إشارة إلى سعتها، وكثرة أشجارها وتنوعها[١]، والله أعلم.

- **تجري تحتها الأنهار.**

ورد هذا الوصف في الموطن الوحيد في القرآن، وهو قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وسبقت الإشارة إلى سر حذف «من» وهو التنبيه على عموم ريها وكثرة مائها، ولعل تخصيص هذا الموضع بالخلاف؛ لأنه يخص هذه الطائفة، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان رِيًّا وحُسنًا[٢].

- **الخلود الأبدي فيها.**

إن مما ينغص على أهل النعيم نعيمهم معرفتهم بأنهم سيفارقون هذا النعيم، أو النعيم قد يفارقهم، كحال أهل الدنيا، ومن ثم امتن الله تعالى على أهل السبق إلى الخير بطمأنتهم من هذه الناحية، وإخبارهم أنهم مخلدون في الجنات، لا يفارقهم النعيم ولا هم يفارقونه بقوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

مع الإشارة إلى أن ذلك فوز عظيم لا فوز

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١.

(٢)

بعده.

❁ وصفها بجنات عدن.

ورد هذا الوصف في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٢-٣٣].

وعدن أي: استقرار وثبات، وعدن بمكان كذا: استقر، ومنه المعدن: لمستقر الجواهر[١]، والمراد:وصف هذه الجنان بأنها مكان استقرار وإقامة وثبات، لا هم يتحولون عنها، ولا هي تتحول عنهم، بهدم أو انتقال لغيرهم ونحو ذلك ممايعرض لمنازل الدنيا.

❁ تنوع الحلية واللباس فيها.

وهذه المنحة منحهم إياها الجليل أيضًا في الجنات، ودليلها قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر:٣٣].

والأساور جمع أسورة، والأسورة زينة تلبس في اليد، وهي من زينة الملوك تسور في اليد، وتتوج على الرأس، ويكون السوار من الذهب والفضة، وكلاهما من لباس أهل الجنة، أحلنا الله فيها برحمته[٢]، وهم يحلون فيها بالأساور الذهبية المرصعة باللؤلؤ زيادة في تقديرهم وإكرامهم.

ويلحظ هنا أمرين:

أولهما: أن الله تعالى عبر في جانب الحلية بالفعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ للدلالة على تجدد تزينهم بها، وأنها تتغير من حين إلى حين، بينما عبر في جانب اللباس بالاسم ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ للدلالة على الدوام والثبوت، وأن أحوالهم لا تنفك عن شيء من اللباس أبدًا، فهم مستورون في الدنيا والآخرة.

ثانيهما: الاقتصار هنا وفي أغلب آي القرآن على التحلي بالأساور فقط دون غيرها للإشارة إلى إظهار كون المتحلي غير مبتذل أو مهان في الأشغال؛ فالتحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل، وفيه إشارة أيضًا إلى إظهار استغنائهم عن الأشياء، لأن التحلي بالذهب والفضة يدل على أن صاحبهما غير محتاج، وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع حاجته[٣]، وكيف يحتاجون وهم في ضيافة أكرم الأكرمين، رب العالمين سبحانه؟!

إلهامهم الحمد والشكر فيها.

وهذه نعمة عظيمة، ومنحة جليلة أيضًا، بها يحمدون ربهم، وتلهج ألسنتهم بتسبيحه وشكره على جليل نعمائه التي أفاء عليهم بها، ولا أدل على ذلك من قول السابقين في الجنة يقرون بحمد ربهم، والثناء عليه بما هو أهله ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

(١) المفردات، الراغب ص٥٥٣.
(٢) انظر: التفسير البسيط الواحدي١٣/ ٦١٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٤١.

وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم تحدث عن أهل الجنة فقال: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون) قالوا: فما بال الطعام؟ قال: (جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس)[١]، فاللهم لا تحرمنا فضل ما عندك بسوء ما عندنا يا أكرم الأكرمين.

* ذهاب الحزن.

تعددت أقوال المفسرين في بيان الحزن الذي حمد أهل الجنة ربهم على إذهابه عنهم لما أدخلهم الجنة بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

وخلاصة أقوالهم تفيد أن المراد بالحزن هنا: حزن الخبز، أو حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، أو حزن الموت.

وقيل: حزن الجنة والنار لا يدري إلى أيهما يصير.

وقيل: حزن إبليس ووسوسته، أو حزن القطيعة، وقيل: حزن أهوال الدنيا وأوجاعها، وقيل: حزن زوال النعم، وتقليب القلب، وخوف العاقبة.

وقيل: ما كان حزنهم إلا تدبير أحوالهم وسياسة أنفسهم، فلما نجوا منها حمدوا ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾[٢].

وأرى أنه لا مانع من الجمع بين هذه الأقوال كلها، وبخاصة أنهم عاشوا في الدنيا، وقاسوا آلامها، وعانوا كثيرًا من عيشها وكدرها، ثم قاسوا الآم الموت وسكراته، وعاينوا النار وعذاب أهلها فيها، وهذه كلها أحزان تستأهل حمد الله تعالى وشكره على النجاة منها، نسأل الله تعالى أن نكون منهم أجمعين.

* إحلالهم دار المقامة.

يعد من أجل النعم التي تستأهل الحمد على الدوام إحلال السابقين دار المقامة، التي وردت الإشارة إليها على لسانهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥].

ودار المقامة هي دار الإقامة، أي: الجنة، والتعبير بقوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ دون غيره من أسماء الجنة فيه إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور، ومنها إلى منزلة العرصات التي فيها الجمع، ومنها التفريق إلى الجنة أو النار، كما أن قولهم: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يشير إلى أن دخولهم الجنة بحكم وعده لا بإيجاب من عنده[٣]، وإنما هو محض فضل منه تعالى، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل فضله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات أهل الجنة وتسبيحهم، رقم ٢٨٣٥.

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١١٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٤٠.

وكرمه، اللهم آمين.

❁ نفي النصب واللغوب عنها.

من تمام التمتع بنعيم دار المقامة أن لا يجد أهلها شيئًا من النصب أو غيره، وهذا ما صرح به أهل المقامة في قولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: ٣٥].

والمس: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو عمل أو شدة حر أو شدة برد، واللغوب: الإعياء والأثر الناتج عن التعب، والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب ما يحدث منه من الكلال والفتور، والتصريح بنفي اللغوب مع استلزام نفي النصب له، وتكرار الفعل المنفي «لا يمسنا» للمبالغة والتأكيد في بيان انتفاء كل منهما[1].

❁ فوزهم بالقرب من ربهم سبحانه.

منزلة القرب من العلي العظيم سبحانه منزلة علية، ومقام سام لا يناله إلا أهل القرب من السابقين ونحوهم، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

والمقربون هم: أولئك الذين يقربهم الله منه يوم القيامة إذا أدخلهم الجنة[2].

ويلحظ علو منزلة المقربين، وعظم منزلتهم عند ربهم سبحانه من التعبير عنهم باسم الإشارة للبعيد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مع تعريفهم ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وهذا الأسلوب عند البيانيين يسمى بـ«أسلوب القصر» وطريقه تعريف الطرفين.

وفائدته: بيان أنهم وحدهم المقربون دون أحد سواهم، فأعظم بهذا المقام من منزلة كريمة!

❁ وصف الجنات بالنعيم.

لا ينعم السابقون المقربون بالجنات التي منحهم الكريم إياها إلا إذا كانت ذات نعمة لا شقاء فيها ولا بؤس، وهي بالفعل كذلك على حد وصف الله تعالى لها بقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقعة: ١١-١٢].

وفائدة هذا الوصف: بيان تنعيم جسمهم، وكرامة نفسهم فهم مقربون عند الله، فهم في غاية اللذة وفي جنات، فجسمهم في غاية النعيم، بخلاف المقربين عند الملوك، فإنهم يلتذون بالقرب، لكن لا يكون لجسمهم راحة، بل يكونون في تعب من الوقوف وقضاء الأشغال[3]، والله أعلم.

---

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٨٠٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٤١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٦٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١.

❁ كونهم على سرر موضونة.

سواء أكان المراد بالموضونة المشار إليها بقوله تعالى ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥﴾ [الواقعة: ١٥].

المصفوفة، أم الموصول بعضها ببعض، أم المنسوجة بالذهب، أم المشبكة بالدر والياقوت، أم محكمة النسج، ونحو ذلك مما ذكره المفسرون[1].

فإن المراد بيان تمتع أهل السبق بهذا اللون من النعيم العظيم الذي ادخره الله لهم، وأنه زيادة في تنعمهم وإكرام وفادتهم على الله تعالى.

❁ متكئين عليها متقابلين.

لم تكتف الآيات المباركات بإفادة أن أهل السبق على سرر موضونة وفقط، بل أفادت أنهم عليها متكئون ومتقابلون، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة:١٦].

وفائدة الوصف الأول ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: التأكيد على أن لا يظن أنهم كائنون على سرر متكئون على غيرها، كما يكون حال من يكون على كرسي صغير لا يسعه للاتكاء، فيوضع تحته شيء آخر للاتكاء عليه، فلما قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ دل هذا على أن استقرارهم واتكاءهم جميعًا بتمكن واقتدار على سرر، وفائدة الوصف الثاني ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾: بيان أن الواحد منهم لا ينظر إلى قفا صاحبه، وأن وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم[2]، والله أعلم.

❁ يطوف عليهم ولدان مخلدون.

من صنوف النعيم أيضًا: أنه يدور حولهم للخدمة وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، بل شكلهم شكل الولدان دائمًا، ولا يموتون، ولا يسقمون[3].

وهذا ما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة:١٧].

❁ بأكواب وأباريق وكأس من معين.

يدور الغلمان على أهل السبق بأكواب، وهي الأقداح المستديرة الأفواه التي لا آذان لها ولا عرى، والأباريق: هي الآنية ذات العرا والخراطيم التي تحمل فيها الخمر ليصب منها في الأكواب، واحدها إبريق، وسمي بذلك لأنه يبرق لونه من شدة صفائه[4]، وهذا ما وردت الإشارة إليه في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٧٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٣.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٧٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٤.

قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾ [الواقعة:١٨].

أما ﴿مَّعِينٍ﴾ فقد اختلف العلماء في بيان المراد بها، وسبب التسمية إلى أقوال أهمها ما يلي:

- أنه الشراب الظاهر للعيون، وصف بما يوصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء[1].
- أنه الجاري شديد الجري، ومنه قولهم: أمعن في السير إذا اشتد فيه[2].
- أنه ما مدته العيون فاتصل ولم ينقطع؛ لأنه ليس من عمل البشر[3].
- أنه الكثير، مأخوذ من «المعين»، وهو الشيء الكثير[4].
- أنه المتنفع به، مأخوذ من الماعون[5].

وأرجح من هاتيك الآراء أولها وثانيها لأمرين:

الأول: أن جمهور المفسرين عليهما، حتى استنبط أحدهم قاعدة كلية في ذلك فقال: كل ﴿مَّعِينٍ﴾ في القرآن فهو جارٍ، غير الذي في ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١] يعني به: ما كان ظاهرًا تناله الدلاء[6]، مع إمكان اجتماع الصفات المذكورة بعد لهذا الماء.

الثاني: أن المتفضل بهذا الشراب هو الله تعالى، ولا حرج علي فضل الله الكريم في أن يجمع هذين الوصفين وأكثر في شراب واحد، والله أعلم.

ويلحظ هنا: أن وصف ﴿مَّعِينٍ﴾ ورد وصفًا للكأس المملوءة بخمر الجنة، ووصف الخمر بذلك إما لظهوره للعين أو لشدة جريه[7]، فسبحان من أجرى لأهل الجنة أنهارًا متنوعة من لبن وخمر وعسل، ظاهرة للعيون غير خافية، فاللهم اجعلنا منهم أجمعين.

- لا يصدعون عنها ولا ينزفون.

ورد هذا الوصف للخمر في قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ [الواقعة:١٩].

فمن صفة هذه الخمر أنها لذة كلها، لا ألم معها ولا خمار، فهم لا يصدعون عنها، أي: لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار، كخمور الدنيا.

والصداع: وجع الرأس، وهم لا ينزفون بكسر الزاي وفتحها، أي: لا تذهب عقولهم

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٣٢.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٣٢، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦.
(٥) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٣٢.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٢١٧.
(٧) إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم النيسابوري ص٦٩٨.

بسكرها أبدًا[1].

❁ وفاكهة مما يتخيرون.

من صور نعيمهم أيضًا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾ [الواقعة: ٢٠].

والفاكهة: الثمار والبقول كاللوز والفستق، والمراد: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة، وذلك أدخل في الدعة، وألذ من التناول بأيديهم، على أنهم إن اشتهوا اقتطافها بالأيدي دنت لهم الأغصان؛ فإن المرء قد يشتهي تناول الثمرة من أغصانها.

وقوله: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ الجنس الذي يختارونه ويشتهونه، وأصله أخذ الخيار والخير، أي: يطوفون عليهم بفاكهة من الأنواع التي يختارونها، ففعل ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يفيد قوة الاختيار[2].

قال ابن كثير[3]: وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، ثم استشهد له.

❁ ولحم طير مما يشتهون.

مما لا شك فيه أن اللحم من أطيب ألوان الطعام، ومن متع الله تعالى به أهل السبق في قوله تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة: ٢١].

وليس هذا اللحم لحمًا عاديًّا، بل هو أرفع اللحوم وأشهاها وأعزها.

والاشتهاء: افتعال من الشهوة التي هي محبة نيل شيء مرغوب فيه من محسوسات ومعنويات، والافتعال فيه للمبالغة[4].

وتقديم ذكر الفاكهة على ذكر اللحم لوجوه:

**أولها**: العادة في الدنيا غالبًا تقديم الفواكه في الأكل، والجنة وضعت بما علم في الدنيا من الأوصاف والأحوال.

**ثانيها**: الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولًا؛ لأنها ألطف، وأسرع انحدارًا، وأقل حاجة إلى المكث الطويل في المعدة للهضم، ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها.

**ثالثها**: لما بين تعالى أن الفاكهة دائمة الحضور والوجود، واللحم يشتهى ويحضر عند الاشتهاء دلَّ هذا على عدم الجوع؛ لأن الجائع حاجته إلى اللحم أكثر من اختياره اللحم فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ لأن الحال في الجنة يشبه حال الشبعان في الدنيا، فيميل إلى الفاكهة أكثر فقدمها[5]، والله أعلم، وأعز وأكرم.

❁ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون.

مما متع الله تعالى به أهل السبق أيضًا:

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢١.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٥٢٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٥.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩٦.

إكرامهم بالحور العين المشار إليهن بقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة:٢٢- ٢٣].

أي: ويطوف عليهم أيضًا نساء عيونهن شديدة البياض والسواد في سعة وجمال، وفي عيونهن كحل وملاحة، وحسن وبهاء، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي:وهؤلاء الحور العين كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت، فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر، ويروق الناظر(١).

❁ لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا.

مع كل هذه المتع السابقة من المناسب أن يمتعوا كذلك بطهارة الجنة من التلوث السمعي، وعدم سماع ما يكره سماعه، وهذا من تأكد خلو الجنة وتنزهها عنه بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦].

والمراد: لا يسمعون في جنات النعيم كلام لغو لا فائدة فيه، ولا كلامًا يؤثم صاحبه، وهذه نعمة روحية؛ فإن سلامة النفس من سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمة عظيمة.

واللغو: الكلام الذي لا يعتد به كالهذيان، والكلام الذي لا محصل له، ولا فائدة فيه.

والتأثيم: اللوم والإنكار، وهو مصدر أثّمَ، إذا نسب غيره إلى الإثم.

وأتبع ذكر هذه النعمة بذكر نعمة أخرى من الإنعام بالمسموع الذي يفيد الكرامة؛ لأن الإكرام لذة روحية يكسب النفس عزة وإكرامًا بقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: إلا كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس وأسلمه من كل لغو وإثم، والتكرار لإفادة التعاقب، أي سلامًا إثر سلام، كقولهم:قرأت النحو بابًا بابًا، أو أشير به إلى كثرة الـمسلمين، فهو مؤذن مع الكرامة بأنهم معظمون مبجلون(٢).

إلى غير ذلك من صور النعيم والتكريم التي جعلها الله لعباده السابقين، نسأل الله تعالى من فضله وكرمه.

موضوعات ذات صلة.

الجزاء، الجنة، المسارعة، النار

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٦٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٧٩.